ثلاثية

بكاء العزيزة

علي عودة

الكتاب : بكاء العزيزة (ثلاثية)

المؤلف : د. علي عودة

الطبعة الثانية : القاهرة ٢٠٠٩

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/٢١٠٠٠

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 009 - 6

الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٠٢)- ٦٤/٦٥ ٠١٨٨٨٩٠٠(٠٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف: محمود ناجيه

ثلاثية

بكاء العزيزة

علي عودة



إهداء

إلى..

التي بَعُدَتْ وبَعُدَت

وما زالت عزيزة

علي

§ الجـزء الأول



(١)

إبراهيم الشّاهد

زخّات خفيفة من المطر بللت الإسفلت، وآثار جنازير الدبابات تبـــدو واضحة كأنّها عربون وداع.. مجموعة من الصـــبية ينســـلون مـــن أكواخ الصفيح التي جُهِزَتْ من غنائم المعسكرات البريطانية، يتّجهون نحو الإسفلت متدثرين من لسعات البرد بملابس متنافرة مضـــحكة.. ملابس قذفتها وكالة الغوث إلى الأيدي المتعاركة المتدافعـــة، تلـــتقط الأيدي صررًا متنوعة الحظوظ، معاطف بأكمـــام طويلـــة وســـترات بقلنسوات غريبة وسراويل وجاكيتات مبرقعـــة فضفاضـــة.. وقلـــة محظوظة من الصبية تنتعل أحذية كبيرة، تضرب بها على الإســـفلت! أحذية برقاب طويلة وأخرى بسيور جلدية! والرؤوس الصغيرة تتدثر بمناديل كالحة وملوّنة، تهلل وتملأ الكون نشاطًا وصخبًا!

شتاء كانون لا يرحم لكن الأجسام الصغيرة المشاكسة لا تعبأ بوصايا الأمهات وتحذيراتها، وتنطلق إلى الإسفلت المختوم بآثار الدبابات..

في الليلة الماضية هطل المطر غزيرًا مدرارًا، وأنَّت الأكواخ الصغيرة وبكت من ثقوبها بما فيه الكفاية.. تجمعت المياه في أرضية الكوخ، فنهضت أمي مذعورة، تحاول إنقاذ الأغطية القديمة، وما تيسّر من الملابس، خاصة ملابس أبي النظيفة! كانت تصرخ وتطلب العون، لكن أحدًا لم يسمعها.. كلّهم غارقون يصرخون ويستغيثون ويحاولون إنقاذ حاجياتهم البسيطة..

خطفتنا أنا وأختي الصغيرة وقذفتنا فوق الأغطية التي حملتها على صندوق خشبي، أظنه صندوق عرسها.. ارتفعت المياه وتحولت إلى بركة صغيرة، أخذت تفتش عن حفنات الدقيق وعلبة السكر وقنينة السيرج، تشبثتُ بشقيقتي، صرَخَتْ وبكتْ، حاولتُ التماسك وتشبثتُ بها أكثر، لكنني هويت معها إلى بركة الماء..

وهذا الصباح، تحولت زخات المطر إلى زذاذ جميل حنون، هذا صباح للأطفال، وها هي الشمس تستجيب لصخبهم وضجيجهم وتشاكس السحب الخفيفة الخجولة، تطل برأسها وتبتسم لهؤلاء العفاريت الذين يملأون الدنيا جلبة وضجيجًا..

طريق غزة، أربعة كيلومترات شمال المدينة (عزبة أبو الخير) ثمانية أكواخ من الصفيح، ثمانية فقط قذفت هذا الحشد من الشياطين وأخرجته من جوفها البارد، وها هم يشاكسون مع الشمس هذا السكون الشتوي الصارم..

رذاذ خفيف، رذاذ الذاكرة، أول الصحو وأول الأسئلة.. مطر وإسفلت وأكواخ صفيحية، وسياج من السنط العربي، الخيوط الأولى التي نسجت ثوب الحياة.. وثوب الاكتشاف.

- الهجّانة الهجّانة هييه.. هييه عبده عبيده أسنانه بيضة يحب طبيخ البيصارة هييه.

- امشي! عفريتة.. همارة.. امشي شيطانة.

ويزمجر السوط مصدرًا فحيحًا مخيفًا، فيفر الصبية هلعين متعثرين في سراويلهم ومعاطفهم، وأحذيتهم الكبيرة تنزُّ الدماء من الأقدام الحافية الراكضة على تضاريس الإسفلت القاسية، لكن العفاريت يعاودون الكرّة، يتجمعون ويلحقون بأصحاب الوجوه السمراء المشققة، تغريهم العمامات الطويلة العجيبة، والأسنان البيضاء اللامعة.. يهرولون خلف الهجّانة وهم يتمايلون على تلك الجمال البيضاء الضخمة.

- هييه.. هييه.. عبده عبيده أسنانه بيضة يحب طبيخ البيصارة.. هييه.. هييه..

- امشي يا كلبة يا عفريتة امشي يا بنت الهرام.. يا هرامية..

يضرب أحد الهجّانة بسوطه الطويل في الهواء فيصدر نفس الفحيح المخيف، ثم يلوى الهجان الثاني عنق هجينه فجأة ويستدير إلى الوراء فيصدر الجمل الأبيض الضخم رغاء هادرًا، يزلزل كيان الصبية الصغار! يندفعون تجاه البيّارة، يحشرون أجسامهم في سياجها.. يعلقون في أشواك السنط العربي التي تدمي أطرافهم

ووجوههم، يتلهون بجروحهم عن متابعة المشاكسة ويجلسون لإحصاء الخسائر في الأجسام المجرحة والملابس الممزقة.

تساءل أحد الصبية، ونحن نجلس بجوار السياج متعبين:

- الهجّانة، مصريين ولا سودانيين؟

رد عليه صبي آخر:

- أبي بيقول إنهم مصريين.

استنكر صبي ثالث:

- المصريين وجوهم مش مشرّحة يا شاطر!

عندها لكزني الصبي الجالس على يميني:

- أمك بتنادي عليك..

وعندما نهضت مغادرًا سمعته يقول:

- المدرس بيقول أن ثورة قامت في مصر.. ثورة ضد الملك.

مطر خفيف، وإسفلت وآثار الدبابات، وصوت أمي ينادي وعندما أصلها تُحضر السلّتين، كعادتها في كل يوم جمعة، سلة مخروطية كبيرة وسلة صغيرة، تحمل السلة المخروطية على رأسها وقد ملأتها بحاجيات عديدة، طحين.. ملابس أبي النظيفة، ثم تغطيها بمنديل أبيض كبير، وأحمل أنا السلّة الصغيرة وقد وضعت أمّي فيها الأرز والسكر والشاي وبقية ملابس أبي:

- أيش هذا اللّي في وجهك؟ رحت على البيّارة والسياج مرة ثانية!

- لا يمّه.. كنا بنلعب بس!

- أخ.. أخ.. منّك.. تعال أربط لك المنديل على رأسك، أيْوه هيك.. يا الله احمل السلّة والحقني.. يا الله يمّه تركت أختك عند الجيران يا الله علشان نلحق نرْجع.

نظرت إلى السلّة المخروطية، ثم نظرت إلى أمي فوجدتها قد حملت سلّتها وتقافزت على الإسفلت، متجهة إلى الشمال مثل الهجين، تنهدت وحملت السلة الصغيرة، ثم هرولت في إثرها..

كانت أمّي تغرز طرف ثوبها في حزامها العريض وقد لفّت منديلها حول رأسها ورقبتها ولاحظت أنها ارتدت تحت الثوب المطرّز تنورة ملونة، يظهر طرفها بين الثوب والسروال الغامق الذي تحمى به ساقيها، وكان حذاؤها يخفي جزءًا هامًا من سروالها.

قال أبي وهو يخرج حذاءًا غريبًا من كيس الخيش:

- أحضرت لك كندرة يا هنيّة، كندرة محترمة انظري، أحضرها أحد الذين يشتغلون في وكالة الغوث، كندرة مثل كنادر فرسان الخيل! مثل كنادر يهوديّات المستعمرة انظري!

- الله يلعن المستعمرة واليهوديات وسيرتهن، لا تذكرني يا عوض.. بدّيش الكندرة إذا بدها تخلّيني يهودية.

- هه.. هذه المرأة مجنونة ألبسيها يا شيخة جرّبيها يا بنت جاد الله.. وهل أرضى أن تصبحي يهودية؟ أنا بمزح يا أم إبراهيم..

أنقل السلّة من يدي اليسرى إلى يدي اليمنى، ثم أرفعها وأضعها على كتفي ويبدأ الطريق في الاتجاه نحو الشرق، ثم في الصعود لكن أمّي لا تهدأ ولا تخفض من قفزها بذلك الحذاء العجيب.

سألتها وأنا أصعد الطريق لاهثًا:

- لماذا لا يأتي أبي إلينا؟

- زرع أبوك شوية قصب وخايف عليها من البدو والنواطير وأولاد الحرام.. زرع نصف الكرم قصب، والنصف الثاني مزروع خوخ وتين وعنب.. هانت الأمور؛ بعد جمعتين أو ثلاث نبيع القصب، الحمد لله، القصب مليان، وإن شاء الله يجيب سعر..هه يا لله يا سبع مد شوية هه..

- يمّة متى اقرأ في مدرسة البلد؟

- إن شاء الله تقرأ الصف الثاني فيها، بيقول أبوك إن الوكالة خلّصت المدرسة في البلد.

- ومتى سنرجع إلى البلد؟

- عندما يروق الحال، تقول القبرصية إنها سترجع على الصيف، إنها جارتنا في الدار والكرم، إذا عاد الناس نعود معهم، الناس يستأنسون ببعضهم، لكن الدار تحتاج إلى ترميم! الحيطان والسطح والشبابيك والأبواب! مسكينة هذه البلد، الناس هاجرت مرّة وسكتت، وأهل بلدنا مشتتين حتى اليوم، مش عارفين حالهم مهاجرين ولا مواطنين؟!

وصلنا إلى الظهرة، أعلى الطريق، وعندما نظرت إلى الغرب بدت خيام الهجّانة بيضاء، تفترش الكثبان الرملية القريبة من البحر، وثمّة قوس من الأشجار الحرجية يحميها من الشمال، حيث الحدود، وإلى

شرق الطريق ظهرت شجيرات التين الشوكي طاغية علــى النباتـــات البرية الأخرى، وثمة زوايا حديدية مغروسة في الأرض وقد ظهــرت أجزاء كبيرة منها، ولاحظت أن حجرًا قد وضع مقابل كــل زاويـــة، وفصلت بين الحجر والزاوية كومة مستطيلة من التــراب! أحصــيت الزوايا فإذا هي ثمانية مثل عدد أكواخ العزبة تمامًا..

- أيش هذه الزوايا الحديدية؟

سألتها وأنا التفت تجاه الشرق

- هذه قبور الشهداء المصريين، اقرأ الفاتحـــة علـــى أرواحهـــم.. استشهدوا في الحرب.

قرأت الفاتحة، ولحقت بأمي المتقافزة على الإسفلت وسمعتها تضيف:

- استشهدوا قرب المستعمرة "مستعمرة الغصين"، واستشهد معهم جماعة من بلدنا ومن البلدان المجاورة كان أبوك معهم، وكانت معه بارودة إنجليزية، أصيب في فخذه، ربنا نجاه من المـــوت.. إيـــه الله يرحم الشهداء..

رذاذ وإسفلت وخيام وزوايا حديدية.. وكنت أريـــد أن أســـألها عـــن أشياء كثيرة: لماذا أقاموا المستوطنة؟ ومن هـــؤلاء الـــذين حـــاربوا وماتوا؟ ومن أين جاءوا؟ لكن الطريق كان قد أعيـــاني والســـلة قـــد أوجعت يدي..

وضعت السلة وجلست على يمين الطريق متعللاً بربط الحذاء الثقيـــل الذي أصرت أمي على أن أرتديه، تحسست وجهي وتفحصـــت آثـــار السياج الدامي، لكن المرأة التي تسابق الإسفلت صاحت هادرة:

-   ليش قعدت؟ تعبت؟ يا خسارة على الرجال!!

أخبرتها أنها تطير ولا تمشى، وتوسلت إليها أن نستريح قليلاً لكنها هدرت مرة أخرى:

-   انهض يا ولد انهض بلاش دلع، أبوك ينتظرنا وإذا تأخرنا يفضحنا، أعرف أنك جعان وتعبان، انهض يا سبع، اقتربنا هناك تأكل وتستريح، عمتك القبرصية تجدها حضّرت لك الطبيخ اللذيذ الذي تحبه هيا يا بطل.

في الخريف، قالت القبرصية لأبي:

-   أبو إبراهيم آن أوان الطابون.

أحضر أبي قوالب طينية جافة، وبعض ألواح الزينكو وساريتين من الخشب، شمّرت القبرصية وأمي، ثم خلطتا الطين ببعض القصل وشيدتا فرنًا محدبًا يشبه السلحفاة الكبيرة! بُني الفرن على مرحلتين: في المرحلة الأولى بُنيت القاعدة، وضمت الفتحة اليمنى، ثم بُني الجزء المحدب مع العرصة، وبعد أسبوع جف ورُكِبَّ على القاعدة ليكتمل الفرن المحدب.. طابون بثلاث فتحات واحدة كبيرة في واجهته، وأخرى متوسطة في خاصرته اليمنى، والثالثة صغيرة في أعلاه.. ثم غطاه أبي بألواح الزينكو والخشب ليصبح آمنًا من المطر! رذاذ وإسفلت ودخان كثيف، وأجلس بالقرب من الطابون أراقب "القبرصية" وهي تحشو أعواد الحطب والأغصان الجافة في فتحة الطابون اليمنى.. يتصاعد الدخان كثيفًا لاهبًا من فتحته العلوية، تدمع

عيناي لكني لا ابتعد رغم توسلات أمي، وأُصِرُ على البقـــاء بجـــوار الطابون الدافئ اللذيذ.

تهمد النار وتتحول إلى جمر، فتسرع أمي وتقذف أقراص العجين في الفتحة الكبيرة وترصها على عرصـــة الطـــابون الملتهبـــة، تـــنهض "القبرصية" وتحضر البوشة "قدرة صغيرة من الفخـــار"، تكـــون قـــد جهزتها بالفول والعدس والبصال وقليل مـــن الأرز، وتضـــعها علـــى فتحة الطابون العلوية.. أتدفأ وأنعس، ثم أصحو وقد غمرتني نكهـــة الطبيخ الشهية! استنشق الرائحة الفائحة وانشرها في بـــدني كلـــه، يحضر أبي حبات البطاطا وبعض العصـــافير التـــي اصـــطادها فـــي الصباح، يشويها في فتحة الطابون اليمنى، استنشق روائح الطبـــيخ والبطاطا والعصافير المشوية، وأستغرب كيف تخرج هـــذه الأشـــياء الشهية من هذا الطابون العجيب!!

دخلنا في طريق يحفه سياجان طويلان من السنط، (الغيلان) بيّارتان كبيرتان من اليمين ومن الشمال، داخل السياجين أشجار كبيرة لمعت عليها ثمار البرتقال، ثمار صفراء لامعة بعد مطـــر ليلـــة البارحـــة، احتفظت الأوراق بقطرات من المطر وتقافزت العصافير داخل البيّـــارة إلى اليمين وأخرى داخل البيارة إلى الشمال، تقافزت وداعبت أوراق الشجر وقطرات المطر العالقة، ثم هبطت أمامنا في الطريق ودخلـــت راكضة إلى السياج!

كان أبي يعرف ألوان العصافير وأسماءها:

-   هذه حمْرية، تعرفها من رقبتها الصفراء، وهذا "اللامي"، تعرفه من رقبته السوداء، وذلك الدحَّل تعرفه من عينيه المكحولتين، وهذا الصرَّج، تعرفه من صوته الصاخب ومنقاره المعقوف الحاد ورقبته المكحولة، أما ذلك الصغير بذيله الطويل الهزّاز، والذي يملأ الدنيا قفزًا وحركة، فهو الفسفس، عصفور صغير لا يستحق الصيد..

رذاذ وسياجان طويلان وبرتقال أصفر جميل وعصافير ملوّنة، تزقزق وتنط داخل البيّارات، وتتقافز على أغصان الأشجار.

قالت أمي وهي تنتظرني لألحق بها:

-   بيّارات كبيرة واسعة وبرتقال مثل الذهب خسارة في أصحابها! انظر.. هذه بيّارة الأفندي، وتلك بيّارة شقيق الأفندي، وتلك بيّارة أخت الأفندي وهناك بيّارة بنت الأفندي.. بيّارات قاطعة أرض البلد من النصف، أحسن أرض في البلد إلهم..

-   همّه مش من البلد؟

-   فشروا!

كان النواطير يروحون ويجيئون داخل البيّارات، بمحاذاة السياج، يسعلون، وينادون على بعضهم وكانت أمي تعرفهم فردًا فردًا، وسمعتها تردد أسماءهم، هذا صوت "الدّاشر" سلمان، وهذا صوت "القمّرجي" عدنان، وذلك صوت "السكّرجي" مهران وهذا صوت.. البرتقال الأصفر يلمع فوق الأشجار التي انحنت أغصانها وناءت بثمارها.. ثمار قد تغري الصبية أو حتى الكبار الذين لا يدركون سوء

العاقبة، الأمر لا يخلو من طامع أو مجازف متهور، لكن النـــواطير لا يرحمون ولا يفرطون حتى فيما تساقط من هذه الثمار الصفراء.

- نواطير على الفرّازة أصحاب البيّارات يختارونهم من نوع معـــين، السكّرجي والقمّرجي والشمحطي يضربون عصفورين بحجر واحـــد، يسكتون هؤلاء المشبوهين وأصحاب السوابق من أهل البلد، يلقمون أفواههم ويملأون كروشـــهم ويكســـرون عيـــونهم، يغـــدقون علـــيهم بالرواتب الكبيرة، التي لا يحلم بها الموظفون والمدرســـون! وهكـــذا يضمنون ولاءهم ومحافظتهم على أموالهم وأرزاقهم! وأهل البلـــد لا يقدمون على تخريب هذه البيّارات أو الاقتراب منها، مهما بلغ ســـوء الحال بهم! ليس خوفًا من الأفندية لكن النواطير من أبناء البلد، وهذا عيب في عرف القرية وتقاليدها، وإذا أقدم أحد على مثل هذا التجاوز قد يتحول الأمر إلى خلاف عائلي لا تحمد عقباه.

وسألت والدي:

- ليش اشتغلت ناطور في بيّارة الأفندي؟

- أنا مش ناطور أنا بيّرجي وأنا مكنتش مثلهم في يوم من الأيـــام ولمّا تكبر بقول لك السبب! كل ما أقوله لك اليوم هذه كانت أرضنا.

خرجنا من الطريق المحفوف بسياجي الســـنط، وغادرنـــا العصـــافير المتقافزة وأشجار البرتقال المثقلة بالثمار الصفراء الذهبية، ووصلنا إلى طريق بدت في نهايته أشجار التين والخوخ.. عندها قالت أمـــي فيما يشبه الصياح:

-   سامع صوت "وادي العزيزة"؟ سامع بيهدر مثل الرعـد..انظـر القصب اللّي زرعه أبوك ما شاء الله! وهذا أبـوك بقامتـه الطويلـة ينتظرنا.. انظر تلك هي "القبرصية" بجواره.. هه المجنونة أحضـرت العزيزة معها في هذا الطقس البارد، هل تراهم؟ ها هي عزيزة تشير بيدها نحونا انظر.

أنزل أبي السلّة من يدي، قبلني وأخذني في حضنه، ثم مسح قطرات الماء عن رأسي ووجهي! اقتربـت العزيـزة وقبلتنـي فضـحكتُ، وضحكتْ "القبرصية" وأنزلتْ السلّة المخروطية من على رأس أمـي، حملني والدي بين يديه واتجه نحو الوادي الهادر، أنزلني عند حافته ثم قال:

-   انظر الخير.. هذا وادي الخير، السنة سنة خير.. فـي الصـيف سنرجع إلى البلدة نعمّر الدار وتدخل المدرسة في البلد.

كان وادي العزيزة طافحًا حتى ضفتيه غمرت مياهه الأشجار المتناثرة في جانبيه وطفت على سطحه أغصـان وأعـواد كثيـرة.. اختفـت القنطرة القديمة ولم يظهر إلا نتوء صغير من ذلك البرج المهدم الذي يعلوها اختفت عين العزيزة التي تنزّ في الصيف وتغدق على النـاس ماءًا عذبًا رقراقًا، هذا هو الفيضان إذن..

-   هذه المياه من شرق الوطن، من جبال الخليل.

قال أبي عندما دخل في الغرفة التي جُهزت لتناول طعام الغذاء.
تمتمت من جبال الخليل، ثم تأملت المياه المتدفقة فجـاءني صـوت القبرصية مناديًا:

- تعال يا برهوم.. تعال لتأكل..

ووجدت العزيزة تجذبني من يدي وتسحبني، مشيرة إلـــى العصـــافير والبطاطا المشوية والقدرة الفخارية العجيبة.. وعندما تنشقت رائحة الطبيخ الفائحة أطلق والدي قهقهة مدوية ثم قال:

- اسحبيه يا عزيزة.. يا الله اسحبيه إلى البر، واحذري أن تسحبيه إلى الماء..

(٢)

عزيزة الخيَّال

الآن يتراءى لي كل شيء، وتستقر في رأسي أدق التفاصيل، أتذكر.. أتذكر الأشياء البعيدة المتناثرة.. الصور والأصوات حتى الزغاريد ها هي تصل إلى أذني كأنها تنطلق الآن.. كان الوقت صيفًا، وكانت الرمال البيضاء الناعمة تغطي قاع الوادي، وفوق، عند ضفة الوادي كانت ثلاث شجرات من التوت.. تحتها مباشرة، تلك البقعة الصخرية، وفي وسطها العزيزة.. العزيزة وحولها جدار صخري مقوس.. جدار بناه أهل القرية بعد أن قطعوا حجارته من نفس المكان، حجارة كانت بيضاء وغيرت لونها السنون! هذه الكتلة الصخرية لا مثيل لها في الوادي بل لا مثيل لها في القرية كلها، مقطع صخري كبير يبدأ من ضفة الوادي وينتهي عند قاعه، عرضه يزيد على عشرة أمتار، وفي منتصفه تمامًا تكمن "العزيزة".. والراغب في الوصول إلى هذه العين عليه أن يسلك أحد السبيلين: في الصيف حيث يتحول الوادي إلى طريق، عليه أن يصعد خمس درجات صخرية كبيرة، أما إذا أراد "العزيزة" في الشتاء ولم تكن المياه قد غمرتها، فعليه أن يهبط خمس

درجات صخرية كبيرة أيضًا.. يصل العين فيزيح ذلك القرص الصخري المدوّر، ثم يجلب المياه ويسقى إبله وماشيته أو مزروعاته.. قرص كبير محفوف ليصبح غطاءًا محكمًا، ثقيلاً لا يقدر على إزاحته إلا الأقوياء وأمي "القبرصية".. أما الماء العذب الذي يطفئ الظمأ ويرطب القلوب، فله صخرته.. صخرة يرشح منها ماء زلال، ينزّ من تحت الصخرة ثم يتجمع في حفرة صخرية صغيرة تشبه الحوض، تبدو فيها المياه رائقة صافية مثل الزجاج، مياه يصلها الكبار والصغار وفي الليل تشرب منها الزواحف والوحوش والظباء..

وفي هذا القيظ، ها هو الوادي يتحول إلى طريق للنواطير والحصّادين والرعاة، والصبية يحملون مخالي من الخيش يلتقطون سنابل القمح من الأرض ويتبعون الجمال، وها هي أشجار الكازورينا تنتشر على جانبي الوادي، كأنها مظلات للراحة يستظل الكادحون والمتعبون تحتها لفترة، ثم يواصلون سيرهم ذهابًا أو إيابًا، وعندما يصلون "العزيزة" منتصف الطريق بين "أم الغزلان" التي أصبحت وراء الحدود والقرية يستريحون.

يطيلون قليلاً يسقون إبلهم ودوابهم وأغنامهم ثم يطلقونها لترعى في الوادي، تلتهم الجمال نباتات العاقول والحرفيش الشوكية، أما الدواب والأغنام فترعى في الأعشاب الطرية التي تنتشر في بطن الوادي.. يشربون من الماء العذب الذي تجود به الصخرة، يفتشون في شجرات التوت عن الثمار البيضاء، يعلق بعضهم بالأشجار، يهزها

لتتساقط ثمارها.. ثمار لذيذة تبل ريق الناس وتحلي حلوقهم الجافة، حلوقهم الملتهبة بالقيظ وشقاء السنين..

قيظ ورمال بيضاء وثمار حلوة وأنا أضع السلة الصغيرة فـــي يــدي وأصعد إلى شجرة التوت الوسطى، التقط الثمار البيضاء ألقم بعضها وأضع بعضها الآخر في السلّة ثم أنزل.. أهبط الــدرجات الصــخرية الخمس، أنظر إلى الماء الرقراق، أزيحه أولاً- كما علمتنـــي أمـــي- أتركه حتى يصفو، ثم أغرف.. أغرف بيدي من الماء العذب.. أغرف وأشرب.. أشرب ماءًا حلوًا مثل العسل، أشرب حتى أرتــوي وأبلــل صدري وثيابي.. أحمل السلّة وأعود أدراجي لأجــد أمـــي مازالـــت منهمكة في سقاية شتلات الخيار والبندورة والفلفــل.. انظــر إليهــا فأجدها امرأة ممشوقة القوام، تنتصب مثل الــرمح، امــرأة تحــتفظ بقسمات جميلة مريحة، رغم قسوة الســنين.. تلــبس ثوبًــا كالحًــا وسروالاً غامقًا، وتلفُ على وسطها حزامًا جلديًا رجاليًا، وتغرز فـــي وسطها "شبرية" خنجر مدبب يضمه جراب فضي منقــوش.. خنجــر يشبه السيف الصغير، وتلف على رأسها "حطّــة" مرقطــة، كوفيــة يلبسها الرجال فقط، وقد دفنت تحتها ما تبقي من شــعرها.. كانـــت "القبرصية" تفرغ الماء من صفيحة كبيرة في إبريق من الصـــاج ثــم تسكبه تحت الشتلات الخضراء، لتبدو يانعة مشرقة بثمارها الخضراء والصفراء..

لأمي "القبرصية" طريقة معروفة فـــي جلــب الميـــاه! تجلبهـــا فـــي صفيحتين.. دقت خشبة وسط كل فوهة صفيحة، ثم ربطتها في حبل،

تُعَلِق الصفيحتين في عصا قوية، ثم تثبتُ العصا على كتفها وتقــبض عليها وتنزل إلى "العزيزة" تزيح القرص الصــخري المــدوّر، تمــلأ الصفيحتين ثم تحملهما وتصعد الدرجات الصــخرية الخمــس قويــة خفيفة.. تعود إلى الكرم، تفرغهما ثم تعاود العمل حتى يَمــلُ منهــا النواطير والرعاة ويتخلّون عن مراقبتها.. امرأة قلبهــا مــن حديــد وجسمها من فولاذ تخشاها الذئاب والوحوش، تعمل بلا كلل أو تعــب مثل عوض الشَّاهد الذي علمها كل شئ.. الاعتمــاد علــى الــنفس والشجاعة وعلمها صيد الثعابين! بالأمس وقفت متسمرة وأنا أراقبها من بعيد! كانت تصطاد ذلك الثعبان الطويل، كانت لها عصا خاصــة بهذه المهمة الغريبة، عصا معقوفة ذات شعبتين صــغيرتين تلاحــق الثعبان ثم تغزز العصا على رقبته، بعد الرأس مباشــرة، لا تقتلــه، لكنها تشل حركته فيتلوى مستسلمًا، تمسك به من نفس المكان الذي وضعت فيه الشعبتين وتضغط عليه ليفتح فمه، فتدس فيــه العصــا وتتركه يغرز أنيابه، تسحبها بقوة فتخرج أنيابــه الســامة، تفعلهــا مرتين أو ثلاث، تتأكد من خلو فم الثعبان من الأنياب والسم، تطمئن ثم تضعه في صدرها، وتنتظر زبائنها من الرعاة والنــواطير وبنــات البدو، أولئك الطامعين في ثمارها وفي أرصفة التين الشــوكي التــي تتغذي بها الجمال الكثيرة المنتشرة في الجوار.. تداعبهم وتخــيفهم فيهربون مذعورين، ومبتعدين عن أحوازها وحماها!

سألتها وأنا أناولها سلة التوت الصغيرة عن هذه الأشياء الغريبة التي تلبسها..

- مات أبوكِ فجأة وتركني لأواجه الدنيا والذئاب بمفردي كنتِ بين يدي قطعة لحم صغيرة.. قطعة عمرها خمسة أشهر، بعد موته جاءت الذئاب تعوي.. أقاربه وأقاربي، والأنذال من أهــل البلــدة.. أنهيــت حدادي عليه وخرجت لهم وقلت: عابد لم يمت، وأنا "قبرصية" العابد، ولن أكون فرسًا لغيره! ثم جززت ضفائري ولبست حطّته ولففت بها رأسي، ثم تمنطقت بحزامه وغرزت شبريته في وسطي!

- كيف مات أبي؟

- قتله اليهود، بعد الهجرة بسنة.. كان الناس يعودون إلى الــبلاد يجلبون بقية أمتعتهم أو أموالهم وأبقارهم وأشــياء يجــدونها فــي طريقهم.. وكان "وادي العزيزة" طريقهم المفضل عند العودة خاصــة في الصيف.. وفي إحدى الليالي الصيفية، كان أبوك في الكــرم ولــم أكن معه، كان عمك عوض في كرمه، واتفق مع والدك في تلك الليلة على أخذ الحيطة والاختباء.. في منتصف الليل سمع أبــوك صــوت إطلاق نار داخل الحدود.. توقف إطلاق النار بعد قليل ثم ساد الهدوء، فاطمأن العابد! بعد ساعة سمع صوت استغاثة وأنينًا قرب "العزيــزة" اتجه إليها فوجد اثنين من الجرحى يطلبان المساعدة هرع إلى عمــك عوض يبحث عنه، كان يعرف أنه يختبئ هناك، عند السياج في بيارة الأفندي، هناك عند الحوض الكبير، مكان آمن لا يشك فيه اليهــود.. ذهب إليه، وقبل أن يصله فاجأه اليهود! كانوا قد تعقّبــوا الجماعــة الذين نهبوا المستعمرة وخطفوا أبقارها! أطلقوا النار فأردوه قتــيلاً، ثم واصلوا سيرهم حتى وجدوا الجريحين عنــد "العزيــزة" قتلوهمــا

وعادوا بعد أن يئسوا من اللحاق باثنين آخرين فرّا بالمتاع والأبقار.. مات أبوك مظلومًا وقد أوجعني موته المفاجئ.. بعد أن طردت الذئاب ولبست هذه الملابس، جاءني عوض الشّاهد وقال: أنا أخوك يا قبرصية وأنت وابنتك في عيني وزادك من هذا الكتف وهذا الكتف، كرمك مثل كرمي، أيدي على أيدك، على الزمن والذئاب.. ومن يومها لم يقصّر الرجل..

- يا أم العزيزة

صاحت البدوية من خلف السياج.. عرفتها أمي وأذنت لها أن تدخل الحمى، وتوجهت سالمة إلى الجنوب، حيث الفتحة القريبة من القنطرة القديمة ثم دخلت من السياج، حاملة ربطة من خبز الصاج وآنية فخارية مخروطية صغيرة (محْلبة) مملوءة باللّبن.. جلست تحت شجرة الخوخ الكبيرة، وقالت:

- اليوم هديّة بهديّة يا أم العزيزة
- بسيطة يا سالمة الخضرة موجودة

وناولتها حفنة من التوت الأبيض، أخذتها ولقمت حباتها:

- لا! لا توت ولا خيار اليوم..
- أيش بدّك يعني؟
- تنفذين وعدك؟
- وعدي! أي وعد؟
- تحكي لي حكاية العزيزة.. العاشقة!
- إيه القلب مهموم يا سالمة وهذا مش وقته.

- كل مرّة بتقولي نفس الكلام.. وحياة رحمة عمّي العابد ما أروّح اليوم إلا وتحكي الحكاية.

- إيه يا سالمة حلفتي بالغالي! فتحتي عليّ المواجع.. طيّب نبـدأ من وين من وين؟ الحكاية قديمة.. قديمة أيام كانت الأرض كلها لأهل البلد، قبل الأفندية، قبل ظلمهم ونهبهم لأرض الفلاحـين وعبـاد الله المساكين.. قبل، قبل بكثير.. كانت عزيزة أحلى بنت في البلد، جدايل طويلة، وعيون كحيلة، ورموش مثل السيوف ذبّاحة.. خصر ميّـاس مثل عود الرمّان، وجسم ناعم رقيق تجرحه النملة إذا مشت عليـه، يعني حلوة، زينة مثل الحوريات.. خطبها الخطّاب وطلبها الشـباب، لكنها تدللت وتمنعت!! وفي يوم وصل القرية شاب مزيـون طويـل راكب على فرس شهباء قوية، مطرود من الأتـراك، مطـرود مـن عسكر التركية، كانوا بيسموهم "الفراري".. قالوا بلاده جهة الخليـل، ولحظ "العزيزة" على العين، عشقها، وعشقته شرب من أيديها ميّـه وأعطته محرمة معطّرة.. طلبها من مختار البلـد، وعـرّف بأصـله وفصله.. أبوها رفض وأولاد عمها رفضوا ما بنعطي الغريب!! حاول معهم.. طلبوا منه الرحيل وترك القرية! وفي الليلة الثانيـة خطـف "العزيزة" وهرب على حصانه.. خطفها وطار ولكنهم لحقوه تكـاثروا عليه وأمسكوه ربطوه وعلقوه فـي شـجرة الجميـز، وشـنقوه.. "العزيزة" هربت منهم اختفت ليلتين، وفي الليلة الثالثة وجدوها عنـد العين وذبحوها.. ذبحها أخوها وهي تشرب من العين، واختلط دمهـا بماء العين! ومن يومها تطلع وتشرب من العين في موعدها منتصف

الليل في منتصف شهر آب، والقمر طالع مضيء تبكي وتصرخ على حبيبها، تناديه ليأتي إليها ويطفئ شوقها.. ومن يومها كل بنت من البلد تولد في مثل تلك الليلة تصاب بالجنون، ومن يومها صار اسم العين "العزيزة" واسم الوادي "العزيزة" وبعض الناس يسمي العين "المجنونة".. وهذه هي الحكاية يا سالمة، وطار الطير الله يمسينا ويمسيكوا بالخير..

نهضت أمي وذهبت إلى الغرفة الطينية، أحضرت بعض الأشياء في منديلها ومدّت يدها للبدوية.. قفزت البدوية فجأة، ثم قالت مرتعشة:

- خضرة ولا حنش يا أم العزيزة؟

- لا.. لا يا سالمة.. شوفي.. شوية خضرة وأربعة أرغفة من خبز الطابون.. هه.. بعدين أنت بدوية والبدو لا يخافون الثعابين!

اطمأنت البدوية، تقدّمت وتناولت الخضروات والخبز، ثم التفتت إليّ فجأة:

- الليلة سامر يا "عزيزة" تعالي اتفرّجي..

- مرة ثانية يا سالمة اليوم بدها تتفرج على الزفة في البلد..

ثم أضافت بعد أن وصلت البدوية إلى السياج.

- قومي.. روحي نادي برهوم، بيحب فتة اللّبن بخبز الصاج.. قومي وأنا أحضر الفتة على رجعتكم.

نهضت وتساءلت في نفسي (طول النهار تعارك البدو تسبّهم وتلعن جدودهم، لكنها تصادقهم، تهديهم الخضار والفاكهة وخبز الطابون، ويهدونها اللّبن والجبن وخبز الصاج.. تذهب إلى خيامهم وتسهر

معهم، ويأتون إلى كرمها ويسهرون معها، امرأة عجيبة مثل عمي عوض هل يحبون البدو أم يكرهونهم؟)..

بين العزيزة: والقرية هذا الوادي الكبير، مشينا فيه أنا وبرهوم حتى وصلنا مشارف القرية، وعندما خرجنا منه كانت الزغاريد تُعلن أن الزفة قد انطلقت من بيت العريس..

- أنظري! هذا جميل حب الرمّان.. دايمًا بيزف العرسان..

كان العريس يركب على فرس بيضاء ويرتدي عباءة بيضاء ويلبس على رأسه عقالاً مقصّبًا مذهبًا.. كان يضع ابن أخته أمامه على الفرس، فاليوم عرس الكبير وطهور الصغير.. كان يضحك فيشرق وجهه الأبيض المستدير، حفّ به رجلان.. شقيقه عن يمينه وابن عمه عن يساره، يسيران معه ويمسكان بالفرس، وأمامه رقصت امرأتان أمه وشقيقته.. تناوبت معهما امرأتان عمته وخالته، وبدّلت معهما امرأتان ابنة عمه وابنة خاله.. كانت النسوة ترقص وتمسك عروق الريحان والتمرحنة والليمون، تُلَوّح بالأغصان الخضراء والصفراء وتغني:

واجب علينا.. واجب .. يا هالحبايب واجب..

ارقص وغنّي.. واجب.. عرس ابن عمّي واجب..

واجب علينا.. واجب.. عرس ابن خالي.. واجب

تناوبت النسوة في الرقص ورش الملح والأرز على العريس، لتتناثر الحبوب على رؤوس الرجال الذين ساروا مصطفين أمامهن.

كان الرجال يتمايلون ويتحركون ببطء، واجههم جميل حب الرمّان وأخذ يضرب على كفيه بقوة، يميل إلى الخلف ثم يضرب على كفيه وينحني حتى يقترب من الأرض، والرجال يقلدونه ويرددون وراءه:

شمّوا لمّوا هالريحان سلطة منّه هالريحان

كلّك ريحة يا ريحان للمليحة يا ريحان

الحنا الحنا يا بنات اشترن منّا يا بنات

أنا الحنّاوي يا بنات أجرح وأداوي يا بنات

وتعالوا نغنّي ع السمرة كلّه عليها.. هالسمرة

والطول عليها هالسمرة يا عود الزّان.. هالسمرة

والوجه عليها هالسمرة قمر نيسان.. هالسمرة

والصدر عليها هالسمرة بلاط حمام.. هالسمرة

والعين عليها هالسمرة فتحة فنجان.. هالسمرة

والفم عليها هالسمرة ختم سليمان.. هالسمرة

وصلت الزفّة إلى دار العدناني، فخرج حاملاً دورقًا كبيرًا من الألومنيوم، وعندما رآه الشباب صاحوا:

- علشان العريس ويا الله.. هييه.. هييه.. هييه

- يعطيكوا العافية يا شباب.. عقبال عندكم جميعًا.. يا الله بلوا ريقكم..

صبّ الشراب الأحمر في أكواب من الألومنيوم، ووزع على الرجـــال، ثم ناول العريس كوبًا، وناول ابن أخته الجالس أمامه كوبًـــا آخـــر.. صبَّت زوجته الشراب للنسوة، وباركت لأم العريس وأخته وقبلتهمـــا، ودعت بالعاقبة السعيدة لجميع الفتيات، ثم وخزت واحدة منهن فـــي صدرها، فشرعت في الغناء:

يـــا هويـــدلي يـــا هويـــدلي	الله معـــــــاك والنّبـــــــي
يا ويلـــي ويلـــي يـــا ربيـــع	يا صـــاحب الخصـــر الرفيـــع
إن كـــــان جلاّبـــــك ببيـــــع	هـــــوّا دوانــــا ونشــــتري
يـــا ويلـــي ويلـــي منّهـــا	وأكبــــر بلايــــا منّهــــا
ضـــحكت وبـــيّن ســـنّها	بـــين الشـــباب الهمّلـــي

لم يكن "الجرن" بعيدًا عن دار العدناني.. وفي "الجرن" لابد أن تقــف الزفة.. مساحة كبيرة ملك للبلدة كلها، مثل العزيزة والساقية، هــذه الأشياء الثلاثة ملك لأهل البلدة كلهم!

قبل أسبوعين انتهي موسم البيادر ولم يبق منها سوى اثنين.. هناك عند طرف الجرن.. في هذا الجرن مكان لكل عائلة تضع فيه بيْدرها، ولا تتجاوزه إلا بإذن!

عندما حصد عمي عوض القمح من الجهة الشرقية في كرمه، أحضر أحد البدو المنتشرين في المنطقة جملاً ضخمًا، ووضع عليه كومــة كبيرة من القمح، ربط تلك الحبال المتشابكة ثم صعدنا أنا وإبـــراهيم

على كومة القمح التي استقرت على ظهر الجمل.. جاء عمي عوض، وعلمنا كيف نميل إلى الأمام عندما يصعد الجمل أو ينهض، وكيف نرجع إلى الخلف عندما ينزل الجمل أو يبْرخ.. نهض الجمل وكنت خائفة لأنها المرة الأولى، أما إبراهيم فكان متماسكًا، لأنّه يمارس هذه الهواية منذ سنوات! منذ سنوات وهو يقوم بهذه الهواية الممتعة والمخيفة.. يدسُ رغيفًا من خبز الطابون في يد البدوي ثم يصعد إلى الكومة قبل أن ينهض ذلك الحيوان العالي وينطلق تجاه الوادي..

قطع الجمل وادي العزيزة وعندما وصلنا إلى "الجرن" قام البدوي بإصدار أصوات آمرة ثم ضرب على أرجل الجمل.. "برخ" الحيوان الكبير وفك البدوي تلك الشبكة الحبلية فانقسم الحمل على الأرض إلى نصفين.. بعد يومين بادر عمي عوض إلى "الدقران" نبوت طويل رُكِبّت في طرفه أربعة أصابع حديدية، أسياخ طويلة مدببة، غرز الأسياخ الطويلة في كومة القش، ثم قلبها إلى الجهة اليمنى، ثم عاد وقلبها إلى مكانها، ثم كرر ذلك مرة ثانية وثالثة.. أحضر البغل وصعد به إلى الكومة الكبيرة ودار.. دار به فوق الكومة، ثم أمرنا أن نصعد ونفعل مثله، ونهبط في القش وندور لساعة أو ساعتين ثم نتعب.. في اليوم التالي أحضر النوْرج - كتلة خشبية مستطيلة تشبه الباب صُنعت من جذوع الأشجار وسوّيت من سطحها، أما في بطنها فقد رُكِبَّت مناجل حديدية مسننة - .. ربط النورج في البغل ثم دار على الكومة الكبيرة، ينهر البغل ويدور فيهبط القمح وتهرس المناجل المسننة السنابل والعيدان الجافة فتهبط الكومة أكثر.. وفي اليوم

الثالث يوافق عمي عوض على أن أركب على النورج الخشبي يـــدور بي النورج وأضحك، أضحك وأتخيله آلة عجيبة تطوف بـــي الــدنيا وتخترق البحار والجبال.. بعدها بثلاثة أيام أحضـــر عمـــي عـــوض "المذراة" نَبوت ينتهي بخمسة أصابع خشبية متقاربة ملساء، أعطـــي ظهره لاتجاه الريح، وغرف من الكومة الناعمة المختلطة ثـــم قـــذف بمهارة وخفة في الهواء.. يتطاير التبن ثم يهبط بعيدًا وقبلـــه بقليـــل يهبط القصل، أما حبات القمح فتهبط قريبًا وتشكل كومـــة صـــغيرة.. يقذف في الهواء فتزداد كومة القمح، وكومة القصل ويتنـــاثر التـــبن مُشَكِلاً كومة ثالثة كبيرة.. بعدها أحضروا زكائب كبيرة، من الخـــيش ذات خطوط حمراء وزرقاء ثم أرسلت إلى الدار لتفـــرّغ هنـــاك فـــي "الخابية"، تلك الصومعة الطينية الكبيرة..

نسمات منعشة، وزغاريد وغناء وفرس بيضـــاء وعـــريس يرتـــدي عباءة بيضاء.. وقفت الزفة في الجرن وأطالت وتحلّق الرجال حـــول اثنين منهما يلعبان "الحَكَمْ".. أمسك كل من الرجلين نبوتًا طويلاً ودار حول صاحبه.. دار الأول ثم هوى على صاحبه بقوة، فتلقاها الثـــاني على نَبوته ثم دار حول صاحبه بدوره وهوى عليه بقوة، تلقاها الأول مثله تمامًا، دار الاثنان وتضـــاربا وقفـــزا وســـط تهليـــل وتشـــجيع المتفرجين، ثم تعانقا واندسا في وسط المصطفين.. بعـــدها تســـابق اثنان على فرسين سريعين، وصلا إلى طرف الجـــرن، هنـــاك حيـــث البيدرين المتبقيين، ثم عادا مسرعين متجاورين وسط زغاريد النسوة وتصفيق المتفرجين.. وجاء دور الدبكة تَحَلّق الرجال ونزل "الدبّيكة"

إلى الوسط.. أخرج أحد الرجال من عب قمبازه شبّابة حديدية وأخذ ينفخ فيها ثم أخذ الرجال يدبون على الأرض بحركات خفيفة.. ناول العريس ابن أخته إلى إحدى النسوة، ثم قفز عن ظهر الفرس شبك يده في يد أول المصطفين وأشار إلى صاحب الشبّابة، فأصدر الرجل أنغامه الشجيّة العذبة، وأخذ يدبّ مع الأنغام:

يا ظريف الطول والله أنك ظريف	عذبّت قلبي يابو الخصر النحيف
يا ظريف الطول وقف تا أقولك	رايح ع الغربة وبلادك أحسن لك
خايف يا ظريف تروح وتتْملك	تستحظي بالغير وتنساني أنا
لأبعث سلامي مع طير الكركز	على ملثمة والعين بتغمز
يا طير يا طاير يا طير يا طاير	سلّم ع الحلوة أم الضفاير
لأبعت سلامي مع صحن نحاسي	على شكت البكل في الراسي

كان أحد الدبيّكة يضع في جيب قمبازه قطعًا نقدية معدنية.. يقفز فتصطك القطع وتصدر خشخشة متناغمة مع قفزاته وكلّما انفعل الرجل وازدادت حماسته، ازدادت الخشخشة وتقافزت القطع النقدية داخل جيبه.

عند بيت العروس كان هناك جمل أيضًا، جمل وضع على ظهره صندوق كبير، صندوق عليه مظلة تشبه العريشة، وأحيطت جوانبه بوسائد حريرية وعلّقت حوله شراشف بشراشيب ملّونة.

- يا سلام ما أحلى "الهودج" عقبال عندنا يا رب!

قالت إحدى الفتيات وتلفتت حولها، ثم اندست في دار العروس مع النسوة المتزاحمات المزغردات..

دخل العريس، فبدأت همهمة ثم ارتفعت الأصوات، ثم مشاجرة واشتباك وشيك.. وتدخل أحد الرجال:

- هذه عاداتنا يا ناس خمسة جنيهات "خلعة" لخال العروس قبل خروجها.. عندهم حق.. بسيطة أنا بأدفعها من جيبي اعتبروها نقوطًا..

خرجت العروس يصحبها والدها وشقيقها.. كانت مغطّاة من رأسها حتى قدميها وقد وضع والدها عباءته على ظهرها وأمسكت بسيف، ألصقته بوجهها وظل مرتفعًا عن رأسها قليلاً.. تعثرت العروس في ثيابها فزغردت النسوة وأعلنت تحيتها لوالد العروس.. في مهاهاة طويلة:

يا أبو قاسم يا ذياب بن غانم	يا صاحب النخوات يا بو الغنايم
في فيّتك تبقي البلاد محيّفة	وفي حظرتك هبّت علينا النسايم

تبعتها مهاهاة ثانية ثم زغرودة.. صعدت العروس إلى الهودج ثم نهض الجمل وتحرّك الشباب:

يا عريس عليك اسم الله	جبنالك غزال محنّا
يا عريس ويا منصور	وبسيفك هدّينا السور
واحنا أولاد الحمايل	بالسيف نربي الهمايل

يـــا ويـــل اللّـــي نحاربـــه بالســـــيف نُقطــــع شــــاربه

ديـــر الميّـــه ع الســـرّيس مبـــارك فرحـــك يـــا عـــريس

ديـــر الميّـــه ع الليمـــون مبـــارك فرحـــك يـــا مزيـــون

ديـــر الميّـــه ع الصـــفّاف احنـــا ســـبوعة مـــا بنخـــاف

ديـــر الميّـــه ع النعْنـــاع احنـــا ســـبوعة مـــا ننبـــاع

وصلت الزفة إلى "الجرن" مرة أخرى فوجدت إبراهيم ممسكًا بيدي:

- تأخرنا يا عزيزة.. ياالله نرجع للعزيزة"..

انطلقنا إلى الجنوب، وعندما وصلنا إلى الوادي أضاف:

- قولي لأمك تبحث عن شهادة ميلادك.. أكملوا بناء مدرسة البنات، بجوار مدرستنا تمامًا.. إذا لم تجدوها، والدي بـــروح علـــى "بنـــدر الصحة" في غزة وبيستخرج واحدة جديـــدة.. لابـــد أن تتعلمـــي يـــا عزيزة..

نسمات لذيذة منعشة، ورمال بيضاء ناعمة تغطي قاع الوادي، وثلاث شجرات كبيرة وأصوات الزغاريد تبتعد رويدًا رويدًا.. والعزيزة هناك أسفل الشجرات، والوادي يتحول إلى طريق للنـــواطير والحصّـــادين والرعاة.. والصبية يحملـــون المخـــالي ويلتقطـــون ســـنابل القمـــح المتساقطة من الجمال.. وأنا أجمع التفاصيل والصـــور، والزغاريـــد وأحاول تركيبها من جديد..

(٣)

خالد الرّبيع

شاءت الأقدار أن يقع بيتنا في مواجهة مخزن التموين.. مخزن كبير يمُدُ المخيم بالحياة والبقاء! كان المخيم هبة ذلك المخزن العجيب.. من جوفه تخرج أشياء كثيرة.. أشياء تستمر بها حياة الناس والبشر.. أكياس كبيرة بيضاء، مملوءة بالدقيق، وأكياس صغيرة غامقة، مملوءة بالسكر والعدس والفول والأرز.. صُرر متنوعة.. ملابس وأحذية غريبة، وعلب اللحم المحفوظ وعلب جبنة القشقوان، وقناني السيرج، وأشهى ما يخرجه المخزن ذلك النوع اللذيذ من السمك "المدخّن" الذي أحبه!! وإذا تجرأ أحد وأنكر فضل ذلك المخزن عليه، ولم يعترف أنه نعمة من نعم الله على عباده، وأنه سبب استمراره وبقائه في الحياة، فأنا وأبي وأمي وأخوتي لا نستطيع أن ننكر أن حياتنا وبقاءنا منّة من ذلك المخزن، بعد الله عز وجل!! كيف لا؟ وأنا لا أستطيع أن أتذكر حياتي بدونه! نعم لا أستطيع أن أتذكر حياتي الأولى إلا معه.. بدأت حياتي مع أصوات المتزاحمين في طوابيره، نداءات الباعة وشتائم الحمّالين وسبابهم، نهيق الحمير

المربوطة، والتي تجر العربات.. بدأت مع خبط الصفائح والتنكات في الرؤوس والأيدي والأكتاف عند بابه.. صراخ الأطفال واستغاثات النساء وعويلهن خارجه وداخله.. بدأت حياتي معه، ومع أربعة أشياء أخرى: برميل من الخشب، وصفيحة من الزنك، وبابور من نوع بريموس، وبرّاد كبير لإعداد الشاي، أربعة أشياء تعيش معنا في الغرفة القرميدية التي أنام فيها مع جميع أخوتي الذكور والإناث!

كنت أصحو على أمي، أراها تزيل الماء من البرميل وتسكب ماءً جديدًا.. وبعد أيام تصب الملح وتُحرك "الترِمِس"، تغرف تلك الحبوب الصفراء وتكومها على صينية كبيرة، ثم تغرف الفول النابت من الصفيحة، تُقلّيه، ثم تكومّهُ بجوار "الترِمِس" على الصينية، بعد أن تجهز معه مخلوط الملح بالفلفل الأحمر المطحون وتضع عليه البقدونس وشرائح الليمون.. تُعِدُ أمي الصينية ثم تبادر إلى ذلك البابور، تدقه في خاصرته ثلاث دقات سريعة، يصعد الكاز إلى عينه، فتفرغه من الهواء وتشعله، ثم تدقه ثلاث دقات خفيفة ثم تضع فوق طربوشه برادًا كبيرًا مملوءًا بالماء.. تصبُ فيه السكر وتتركه ليغلي، ثم تُلَقِمَهُ بالشاي، بعدها تقترب مني ترفع الغطاء عن وجهي بحنان:

- اسم الله عليك يمّه.. صبحنا وصبح الملك لله.. قوم يا خالد.. البرّاد جاهز يمّه.. يا الله يا حبيبي.. أبوك جهز الصينية يا الله.. استغفر ربّك وأتوكل على الله..

وتحمل أمي الصينية على رأسها وفي يدها اليمني تحمل سطلاً مملوءًا بالترِمِس، وفي يدها اليسرى سطلاً مملوءًا بالماء، ويحمل

أبي الحمالة ذات الأرجل الثلاثة في يد وسلة مملوءة بالأقماع الورقية في اليد الأخرى، يسير أمامها ويسعل.. أسير وراءه، وأنظـر إليـه وهو يعْرج على ساقه اليمني، أسير متثاقلاً حاملاً براد الشاي الكبير وأربعة أكواب من الصاج وفي مواجهة المخزن مباشرة، يقف أبـي ويضع الحمالة وبجوارها سلة الأقماع الورقية "القـراطيس".. تضـع أمي الصينية الكبيرة على الحمالة وسطلي التِـرمِس والمـاء علـى الأرض، ثم تعود إلى البيت لتحضر كيس الحلوى.. يسعل أبي ويبـدأ يومه باستغفار الباري وطلب الرزق الحـلال.. يـرشّ المـاء علـى التِرمِس ثم ينادي:

- التِرمِس.. اللوز.. التِرمِس.. الفستق.. النابت.. اللوز..

وانطلق أنا حاملاً براد الشاي الكبير وأكواب الألومنيـوم.. أتثـاءب وأنادي:

- الشاي.. الساخن.. الشاي الحلو.. الشاي.. اللذيذ..

أنادي وأطوف بين الباعة والحمّالين وأصحاب البسطات والمنتظـرين على أبواب المخزن.. أنادي وأدخل فـي زحـام البشـر والعربـات والدرّاجات والدواب!! عند الظهر، يكون أبي قد باع كل مـا حوتـه الصينية والسطل من الحبوب الصفراء اللذيذة وأكون أنا قد أفرغـت ثلاثة من تلك البرّادات الكبيرة.. نعود إلى البيت أنـاول أبـي كيسًـا صغيرًا من القماش، مملوءًا بالتعريفات والقروش المعدنية.. يحصى غلّة اليوم المبارك، يحمد الله ويشكره على نعمته ثم نتغدّى بأقراص الفلافل واثنتين من السمك المدخّن اللذيذ، ثم يصلى أبي ويذهب فـي

قيلولة طويلة.. وأذهب أنا إلى كومة من الكتب والمجلات القديمة، أنزع أوراقها، وأقرأ ما فيها كلمة كلمة ثم ألفها بشكل مخروطي، وأصنع الأقماع الورقية التي نبيع فيها الترمس والفول النابت!

كيف لي أن أنكر فضل هذا المخزن بعد ذلك؟ لولا هذا المخزن "الكريم" لما توافدت هذه الجموع الغفيرة من البشر، راجلين وراكبين! لما تزاحم هؤلاء الناس وتكدسوا أمام الأبواب وحولها.. لولاه لما باع أبي التِرمِس والفول النابت والحلوى لهؤلاء المتزاحمين ولأطفالهم المتصايحين، ولما بعت أنا أكواب الشاي للباعة وأصحاب البسّطات والحمّالين وأصحاب العربات والحمير، ولما جمعت هذه التعريفات والقروش الكثيرة! لولا هذا المخزن الفاضل لما تمكنّا نحن عائلة سالم الربيع، المكونة من تسعة أفراد، من مواصلة الحياة في هذا المخيم، بعد أن فقدنا مواسم الخير في القرية.. وبعد أن استقر بنا المقام هنا.. هنا في غرفتين من القرميد، في مخيم يتلهف سكانه على حاجيات وكالة الغوث وينتظرون خروجها من أبوابه بفارغ الصبر.. بل ينتظرون خروجها بالعراك والصراخ ولعن هذه الحياة والأيام السوداء التي أحوجتهم إليها!

في أحد أيام الصيف حضر رجل مديد القامة إلى بيتنا وجلس بجوار أبي، أمام مخزن التموين.. أذكر أن ذلك حدث قبل دخول اليهود إلى المخيم، قبل العدوان الثلاثي بشهور قليلة.. أعتقد أنه كان في شهر آب .. جاء الرجل على عربة يجرها بغل رمادي قوي.. وجاءت معه امرأة ذات ملامح مريحة ترتدي ثوبًا مطرّزًا جميلاً.. وجاء معهما

صبي يرتدي سروالاً - يبدو جديدًا - وحذاءً لامعًا.. كان الصبي في مثل عمري تمامًا كنا في العاشرة.. أذكر أنني كنت أنهيت الصف الرابع الإبتدائي وكان هو كذلك.. نزل الرجل وزوجته وولده.. ربطوا البغل في جدار المخزن وحملا سلتين كبيرتين مغطاتين بمنديلين أبيضين، ثم تقدموا نحونا مباشرة هش والدي للقائهم وعانق الرجل بحرارة.. سلمت المرأة على أبي ثم دخلت إلى بيتنا.. أحضر أبي كرسيين صغيرين وأجلس الرجل وابنه:

- أهلا.. أهلا أبو إبراهيم.. أهلا وسهلا بالحبايب.. أهلا بريحة البلاد يا مرحبا..

- والله اشتقنالك يا أبو خالد.. والله زمان..

- شايف يا أبو إبراهيم.. شايف الناس وحالهم، شايف الزحام والدعك ساق الله على أيام زمان.. ساق الله على أيام "أم الغزلان".. آه.. كيف حالك وحال الأسرة؟..

- مستورة.. مستورة يابو خالد.. الحمد لله.. الكرم ساترنا.. شوية فواكه وشوية خضرة وماشي الحال..

كان ذلك الرجل هو عوض الشّاهد، وكان الطفل هو ولده إبراهيم.. وأذكر أنني أكلت يومها من تلك الثمار البيضاء والحمراء اللذيذة خاصة ذلك الخوخ المعطر. ومن خبز الطابون المنفوخ، الذي حوته تلك السلة المغطاة بالمنديل الأبيض.. وأذكر أننا ذهبنا -أنا وإبراهيم- إلى دكان الرجل البدين مصطفى البطش، محل تأجير

الدراجات -كان مصطفى البطش صديقًا لوالدي- واكترينا درّاجتين بلون وسط..

ـ بسكليتات البلون ما بتغرز في الرمل.. هذه ما بتطلع إلا للحبايب وأولاد الحبايب.

وخرجنا من المخيم.. ووصلنا إلى ذلك الطريق المظلل الطويل.. طريق "بيّارة القرم".. ثم عرجنا إلى الجنوب ووصلنا إلى "تلة المنطار" استرحنا هناك.. حدثته عن المخيم وحدثني عن القرية، ثم عدنا من طريق "الشجاعية" إلى "بير الصفا".. وهبطنا إلى المخيم.. وعندما وصلنا كانوا في انتظارنا لتناول الغداء.. بعد الغداء سمعت حديثًا شجيًا عن أيام زمان، أيام الحصاد والغلال والموارس والبيادر و"أم الغزلان":

- ما أم الغزلان هذه؟

سألت عندما تكرر الاسم أكثر من مرة..

- آه.. أم الغزلان اسم المنطقة اللّي فيها أرضنا وأرض عمك عوض. كانت أرضنا مجاورة لأرض عمك عوض ولا يفصل بينهما سوى طريق ترابي ضيق.. طريق يفصل بين أحواز القريتين.. كانت الموارس كبيرة.. قمح وذرة وشعير.. وكنا نسقي الدواب ونشرب من "العزيزة"، العين الواقعة في أحواز قرية عمك عوض.. العزيزة مش بعيدة عن أم الغزلان.. قدّيش المسافة يا أبو إبراهيم؟

- نصف ساعة مشي على الأقدام! ثلاث قرى كانت تشرب من "العزيزة" أبوك يا خالد له بطولات في أم "الغزلان" خجلان يحكي عنها..

- بطولات! كيف يعني؟

- بعد ما بنى اليهود المستعمرة في أرض الغصين المجاورة لأم الغزلان، تحولت حياتنا إلى جحيم.. لا زرع ولا قلع ولا مواسم ولا بيادر.. بعدين بدأت الثورة وحملنا البواريد.. كان أبوك من النشامى المعدودين.. ما زلت أذكر رشّاشه الجديد.. آه لو رأيته بذلك الرشاش وصف الفشك على وسطه.. المهم.. بعد كر وفر دخلت الجيوش العربية.. هجمنا على المستعمرة وحاصرناها.. شردوا وتركوها، وسيطرنا عليها.. قعدنا فيها ثلاثة أيام.. انتظرنا المدد والعون.. لكن المدد والعون والعتاد وصل لليهود.. واحنا جيوشنا انسحبت وتركتنا، حاصرونا.. صمدنا ودافعنا.. لكن الذخيرة خلصت.. آه.. أبوك بطل يا خالد.. حمى النشامى حتى آخر واحد.. من كثرة رصاصه حسبوه مجموعة كبيرة من المجاهدين.. قذفوه بالرشاشات الثقيلة.. جرحوه في ظهره وفي ساقه اليمنى.. هجمتُ على المستعمرة أنا وعابد الخيّال الله يرحمه.. وسحبناه من وسط الرصاص والدخان.. كان بين الحياة والموت.. حملته على ظهري وكانت ساقه متل البسكويت مهشمة والدم ينزف. وأنا أخذت رصاصة في فخذي من غير ما أحس..

تقطّع صوت عمي عوض، فناولته إبريق الماء.. شــرب واســتغفر الله.. وعندما نظرت إلى عيني أبي، وجدتهما مغرورقتين بالــدموع.. وخزتني أمي ثم قدمت الشاي:

- اتفضل يا أبو إبراهيم.. هذه السيرة بتجيب النكد.. الله يفرجهــا علينا..

وعلّق أبي وهو يمسح دموعه:

- الحمد لله.. الحمد لله.. إحنا عايشين بالحظ وإرادة الله ســبحانه وتعالى.. إن شاء الله بتهون..

وسحبت إبراهيم من يده وخرجنا لنجلس أمام مخزن التموين، نراقب الناس والدواب والعربات والأطفال المتصايحين..

أحبُّ إبراهيم الشاهد المخيّم.. وبدا في فترة من الفترات أنّه عاشــق له.. كان يحب اكتراء الدرّاجات من دكان البطش، وأكل العوّامة مــن دكان الكحلوت، والفلافل من مطعم البدرساوي.. وكان يحب – مثلي- ذلك السمك "المدخّن".. أمّا الشيء الذي يحبه ذلك القروي أكثر مــن غيره, فهو الجلوس بجوار والدي، والتفــرج علــى تلــك الحشــود البشرية المتصايحة المتعاركة.. ويضحك أبي عندما يسمعه يتفلسف:

- هذه هي الحياة يا أبو خالد.. هذا هو الإصــرار علــى البقــاء.. هؤلاء الناس يثبتون قدرة الإنسان على التكيف والتأقلم مع الظــروف الصعبة!!

كان فيلسوف الشِلّة!.. الشِلّة التي تكونت أثناء وجوده في المخــيم.. عندما دخل اليهود إلى القطاع سنة ١٩٥٦، هجرت أســرة عــوض

الشّاهد قريتها الحدودية وجاءت إلى المخيّم.. عاشوا معنا، في بيتنـــا الصغير الضيق شهرًا كاملاً.. كانت أمي وأمه وشقيقاتي وشـــقيقاته، هذه الأنفس العشر تنام في غرفة.. وأنا وإبراهيم وثلاثة من أشقائي وثلاثة من أشقائه الذكور، ننام في غرفة.. أما والـــدي، فقـــد كـــان ينزوي في ذلك الركن القريب من باب المنزل، يتدثّر ويتكوّم بجـــوار برميل كبير مملوء بالماء.. وكان عمي عوض الشّـــاهد – كعادتـــه- يعيش مختفيًا في القرية متنقلاً بين الحواكير والبيّارات والوديـــان.. يأتي من وقت لآخر، يطمئن على أسرته، ثم يعود إلى مربضه مـــرة أخرى!

خلال ذلك الشهر، اكتشف إبراهيم عيوب المخيم.. اكتشـــف رائحـــة المراحيض المشتركة، وقنوات المجاري التي تنساب في أزقة المخيم برائحتها الكريهة.. أسراب الذباب المجتمعة علـــى أكـــوام القمامـــة، النوافذ الواطئة القريبـــة والجـــدران المتلاحمـــة, والعـــراك الـــدائم، المسموع في الليل والنهار!!

- على الأقل، ما بتزاحمـــوا فـــي قريتنـــا علـــى حنفيـــات الميـــاه والمراحيض.. في القرية ساقية، تملأ النسوة والفتيات جرارهن منها وهناك بوابير في البيّارات، وحنفيات سبيل.. ومعظمنا يقضي حاجته في مراحيض متواضعة خلف البيوت، وبعضهم يقضيها في الحواكير أو الكروم.. في القرية مش محتاجين هذه المراحيض المشـــتركة ولا القنوات ذات الرائحة الكريهة.. بيوتنا واسعة ولا يوجـــد فيهـــا هـــذا الالتحام المقيت.. في المخيم تشعر وكأنك تعيش في العراء، كل شيء

مكشوف ومسموع ومفضوح.. صحيح بيوتنا متواضعة وتكاد تكـــون أكثر تواضعًا من بيوتكم، لأنها مبنية بطوب اللبن ومسقوفة بـــالقش والطين مش بالقرميد، وصحيح البراغيث بتخرج من شـــقوق تلـــك الجدران وتداهمنا في الصيف وتنغص حياتنا، والأمطار تداهمنا فـــي الشتاء وتذيب الجدران والبيوت الطينية الضعيفة، نســـتغيث ونطلـــب العون، نكابد ونُعِد سواتر الطين والقصل، ونرصّها أمام البيوت لمنع تدفق المياه إلى الداخل.. كل هذا صحيح, لكن يظل حالنا أفضل وتظل القرية أرحم!!

توثقت علاقتي بإبراهيم وتكوّنت "رابطة الجوّالين الصغار" كنّا أربعـــة من الصبية، إبراهيم الشّاهد، وعصام الفايز وعبد الله الشريف وأنـــا، كانت أعمارنا بين العاشرة والثانية عشرة.. نلتقي في كل يوم جمعة، أمام دكان مصطفى البطش، نكتري الدراجات، نخـــرج مـــن المخـــيم ونتجه إلى الشرق، حتى نصل إلى "تلة المنطار"، ثم نعود ونتجه إلى الشمال.. نسير وسط البيّارات حتى نصل إلى "العزيزة".. يجلـــب لنـــا إبراهيم ما تيسّر من الفواكه أو الحمضيات ثم نعـــود أدراجنـــا إلـــى المخيم..

بعد انسحاب إسرائيل من القطاع تطورت أهداف الرابطة وتغيّر خـــط سيرها، صرنا نتجه إلى الحدود.. نتحاور مع أفراد قوات الطـــوارئ الدولية.. نقذف في وجوههم ما تعلمناه من مفردات اللغة الانجليزية، نشير إلى الشرق أو الشمال، حيث يبدو العلم الإسرائيلي، نشير لهـــم بعلامة × ونبرز خريطة فلسطين وقد كتبنا عليها **Palestine**، نشير

بأصابعنا إلى الخريطة ونقول هــذه فلسـطين وليسـت إسـرائيل.. يبتسمون ويقدمون لنا اللبان والشيكولاته، نشكرهم ونُصِرُ على إبراز الخريطة والاسم، ثم نعود إلى درّاجاتنا التي وضعناها تحت ظلال الأشجار..

في أيام المباريات، كنا نذهب على الأقدام.. نصل إلى ذلك الملعب الكبير، وهناك نجد فرق قوات الطوارئ من السويد ومن كندا ومن الدنمارك ومن النرويج، وأيضًا نجد فرقتين من الهند ويوغسلافيا وكنا دائمًا نشجع ونهتف للفريق اليوغسلافي أو الهندي!

- هؤلاء أصدقاؤنا.. هؤلاء من دول عدم الانحياز، أصدقاء جمال عبد الناصر..

كنا مقتنعين بما يقوله إبراهيم الشّاهد! لكن النتائج كانت أوروبية غربية في معظم الأحيان.. كانت فرق السويد والدنمارك والنرويج هي أقوى الفرق وأكثرها مهارة وفوزًا.. كنا نهتف طوال المباراة للفريق اليوغسلافي (تيتو.. تيتو.. تيتو) ونهتف للفريق الهندي (نهرو.. نهرو.. نهرو).. كان الفريق اليوغسلافي يُشفي غليلنا ويفوز في بعض المباريات.. أما الفريق الهندي فلم يشف غليلنا يومًا.. بعد انتهاء المباراة يتجمّع أعضاء الفريق اليوغسلافي ويصعدون إلى سيّاراتهم المتجهة إلى الجنوب، ويتجمع أعضاء الفريق الهندي المتجهون إلى غزة، ويصعدون إلى سيّاراتهم، ونبقى نحن فريسة للنرويجيين والدانمركيين وكلابهم الكبيرة المخيفة.. كانوا ينتظرون انتهاء المباراة بفارغ الصبر، ليثأروا من تشجيعنا

لأصدقائنا بإطلاق تلك الكلاب الكبيرة الشرسة وراءنا.. تلحق بنا وتُمزق ملابسنا المتواضعة وترعبنا!!

ومع الأيام تعلمت "رابطة الجوالين الصغار" كيف تتقي شر هذه الذئاب المفترسة.. كنا نغادر الملعب، فور انتهاء المباراة وقبل أن يصعد الحلفاء إلى سياراتهم!! لم نعد ننتظر الأصدقاء لنلوح لهم وهم يصعدون إلى السيّارات البيضاء الكبيرة..

في أحد أيام الربيع، قرر أبي أن يُلبي دعوة صديقه عوض الشّاهد.. انتهز فرصة إغلاق مخزن التموين وإجازة المدارس لأسبوع، فذهبنا أنا وأبي وأمي وجميع إخوتي وأخواتي إليهم في القرية..

وجدنا عمتي هنيّة "أم إبراهيم"، تغلي كمية كبيرة من البيض البلدي.. وضعت معها أوراق اللوز والمشمش والخوخ، وكذلك قشر البصل الجاف بعد ذلك أخرجت البيض الأصفر وأعطتنا ست بيضات.. ثلاث بيضات لي وثلاثًا مثلها لإبراهيم.. أذكر أنها أعطت بيضة لكل طفل من الباقين! ذهبنا –أنا وإبراهيم– إلى الجرن، تلك الساحة الكبيرة، ووجدنا حشدًا من الصبية والفتيان والشباب.. كانوا يدقون البيض على أسنانهم، ثم يضربون رأس البيضة في الأخرى.. وكان بعض الشباب، ذوي الزنود القوية، يمسك أعواد قصب السكر بيد واحدة ويكسرونها بطريقة غريبة، عقلة عقلة..

فجأة صرخ الأطفال وتسابقوا نحو مصدر دق الطبول.. واقتربت "زفة الشيخ محمود".. كانت الرايات ترفرف وقد حملها رجال أقوياء وطوّحوا بها يمينًا ويسارًا.. وحمل رجال آخرون طبولاً كبيرة،

وأخذوا يضربون عليها بقوة فتخرج أصواتًا هادرة.. ورجال آخـــرون يضربون على أقراص نحاسية مدوّرة فتخرج أصواتًا رنانة قويـــة.. لوّح الشيخ أحمد الطاسي وصاح "الله حي.. الله حي" ثم طعن خـــدّه الأيمن بحربته الطويلة، فانبثق الدم منها، وسارع الشـــيخ محمـــود وصفعه على خدّه عدة مرات ثم بصق في فمـــه "مـــدد يـــا ســـيدي المنطار.. مدد يا أسيادي الكبار" ثم لعق الدم النازف من خد الشـــيخ أحمد الطاسي.. كان الشيخ محمود يلف حول رأسه عمامة خضـــراء كبيرة، ويُعَلِقُ في رقبته مسابح ذات حبّات كبيرة.. تمايل الشيخ أحمد الطاسي وتعرّق بدنه، فسحبوه وأخذوه إلى دار قريبة.. ولـــم يظهـــر بعدها في الزفة.. طافت الزفة أركان الجرن، وكلما تحركـــت تزايـــد الناس، وتزاحمت النسوة لتمسح وجوه الأطفال بالرايـــات الخضـــراء والسوداء والصفراء.. وبين الفينة والأخرى كان الشيوخ والدراويش يطلقون صيحات مرعبة مخيفة تهـــز الأبـــدان وتزلـــزل القلـــوب.. ويذكرون عددًا من الأولياء بأسمائهم وألقابهم.. وعندما عـــدنا إلـــى الدار، علمت من إبراهيم أن الزفة ستتجه غدًا إلى "المنطار".. وهناك تلتقي بفرق الدراويش من جميع أنحاء القطاع.. وأذكر أننـــا تغـــذينا يومها بوليمة كبيرة.. ذكر من البط وثلاث دجاجات كبيرة.. لقد أعدت عمتي هنية تلك الوليمة احتفاءً بزيارتنا، وبيوم الموسم..

كانت دار عمي عوض كبيرة واسعة.. دار تتوسطها جميزة كبيـــرة، تزقزق عليها عصافير الدوري في النهار وتهمد على أغصانها فـــي الليل.. وتحتها تنتشر الأرانب والصيصان، وفراخ البط التـــي تنقـــر

الذباب وتلتقطه من على الأشـياء، حتـى مـن سـيقان البشـر أو خدودهم.. كان الصبية يقذفون العصافير "بالشـديدة" مـن الشـارع فتتساقط الأوراق والأغصان الصغيرة، وأحيانًا العصافير، عندها يدخل الصبية من الباب المفتوح ويخطفون العصفور الصغير الهامد بـدون استئذان.. كان للدار باب كبير من الخشب، في الليـل يغلـق البـاب بضبة خشبية كبيرة ولا تفتح إلا بذلك المفتاح الخشبي الـذي يشـبه المسدس، مفتاح تنبت فيه ثلاثة أسنان (خشبية أيضًـا) تلقـط فـي الضبة ويسحب المفتاح فتنزاح الضبّة معه ويفـتح البـاب.. "أيـام الغزلان كنا ندخل منه الجِمال المحملة بزكائب القمح والشعير والذرة والتبن".. بعد دخولك من الباب تواجهك العريشة الكبيـرة. عريشـة تأتيها النسمات الباردة من جميع الاتجاهات، وقد تمددت عليها أوراق الدوالي وظللتها.. يحيط بالعريشة جدار طيني قصير، وفـي زوايـا الجدار هناك ثلاثة "مقاعد" تجلس فيها الأباريق الفخاريـة المملـوءة بالمياه.. وفي العريشة يجثم دائمًا موقد طيني كبير يتوسطه (بكرج) القهوة السادة.. وبجوار الموقد وضعت عدة القهوة: هاون نحاسـي وفرشة ذات شعيرات رقيقة وملقاط وصينية عليها خمسـة فنـاجين مزخرفة.. إلى اليمين، بعد العريشة، تصطف ثلاث غـرف واسـعة: "بيت المعيشة" وتوجد فيه أدوات الطبخ والغسيل وبعـض الفـراش القديم.. "وبيت النوم"، وترتفع بعد مدخله مصـطبة، وفـي زاويتـه اليسرى ترتفع مصطبة طينية أخرى (حامل) توضع عليـه الألحفـة والأغطية والحصائر، وتحته توضع الملابس وبعض الأواني.. وفـي

حيطان "البيت" دُقت بعض المسامير لتعلّق فيهـا الملابـس وبعـض الأشياء مثل السلال.. وفي الزاوية اليمنى من الغرفة يوجد صـندوق خشبي مزركش.. أما الغرفة الثالثة فهي "بيت الضيوف" وقد وضـع فيه بعض الأغطية والحصائر.. وفي الجهة اليسرى من الدار توجـد غرفة مستطيلة كبيرة (بايكة)، مقسمة إلى ثلاثة أقسام فـي القسـم الأول توجد صومعتان (خوابي الغلال) يخزن فيها عمي عوض القمح والشعير في القسم الثاني يبيت البغل وأمامه (مدْواد) حوض طينـي، يخلط فيه الشعير والتبن.. أما القسم الثالث من (البايكة) فهو خـاص بالأغنام والمواشي.. وفيه ترقد نعجة بجوارهـا حمـلان بصـوفهما الأبيض النظيف، وماعز، ينط حولها ثلاثة من الجديان العفاريت..

كانت أسطح الغرف والبايكة (مليّسة) بـالطين المخلـوط بالقصـل، وكانت نباتات الخبيزة نامية عليها، تتخللها بعض (خصلات) الشعير، وراحت اثنتان من القطط تتمرغان وتمارسان لهوهما عليهـا.. بـين (البايكة) والغرف الثلاث يكمن باب يؤدي إلى (الحاكورة).. تدخل من باب الحاكورة لتجد إلى اليمين عربة عُلِقَتْ فيها مخلاة، بعدها تجـد المرحاض المسقوف بالزينكو وقد وضع في زاويته إبريق من الصاج ومكنسة محلية مصنوعة من جريد النخيـل.. وبجـوار المرحـاض حظيرة، تنطلق منها في النهار جميع أنواع الدواجن..

إذا دخلت الحاكورة، وجدت ثلاثة أنواع من الأشجار المثمرة: أربـع شجرات تين وثلاث شجرات من المشـمش وثـلاث شـجرات مـن الزيتون.. وتحيط بالحاكورة ثلاثـة أرصـفة مـن التـين الشـوكي

(الصبر).. عند الفجر، تقف عمتي هنيّة على برميل وتمسك بيدها (طوّالة) عصا طويلة ركبت في آخرها علبة مفتوحة من الجهتين، علبة بحجم حبة الصبر، تمد (الطوالة) ثم (تقصع) الحبّة، وتسقطها على الرمل، تنقل البرميل وتطوف الأرصفة، ثم تعود إلى حبات الصبر تدعكها في الرمل، ثم تأخذها في السلة لتضعها في الماء حتى العصر..

عند العصر جاء رجل يحمل صندوقًا عجيبًا.. صندوق بثلاث عيون زجاجية كبيرة.. أسرع إبراهيم إلى الخابية، غرف منها صحنًا من القمح، ثم جذبني من يدي وقال هامسًا:

- تعال نتفرج على صندوق العجب..

وسمعتنا عزيزة الخيّال فلحقت بنا.. ناول إبراهيم صحن القمح للرجل، فصبّه في كيسه، ثم أنزل الصندوق عن ظهره وأجلسه على حمّالة بثلاثة أرجل.. حمالة تشبه تلك التي يضع عليها والدي صينية التِرْمِس.. طلب منا أن ننظر في العيون الزجاجية، وبدأ يحرك بكرة في يمين الصندوق.. ولأن عزيزة كانت أقصر منا، فقد وضع الرجل كرسيًا خشبيًا صغيرًا، وقفت عليه ثم نظرت في العين الوسطى، فبدأ الرجل أهزوجته:

تعالى اتفـــرج يا سلام .. على عجـــايب الأيــام
تعالى اتفرج معنا وشوف .. في الأزمان تعالى طوف
انظـــر عنتر شايل سيفه .. نازع من قلبه خـــوفه
وانظر بيبرس ع الكفـــار .. نازل يضـــرب هالمغـــوار

انظـــر هذا صلاح الدين .. صاحب همة وتقوى ودين
اتفرج وانظر هالأسلاك .. وراهـــــا أرضك تستناك
واتفرج وانظر يا إنسان .. شعبك مـــــذلول ومنهان
اتفرج وانظر يا حبوب .. وحـــــدة عربية مطلوب
ناصر قايدها المغـــوار .. ع اليهـــــود يهـــد الدّار
تعالى اتفرج يـــا سلام .. على عجـــــايب الأيـــام

كان الرجل يحرك البكرة، فتدور أمامنا الصور والرسومات.. رجـــال بشوارب كبيرة وسيوف طويلة وأجسام ضخمة وزنود بارزة، ورجال بعمامات ولحى وسيوف مُشرّعة.. يحرك البكرة فتدور صور الأسلاك الشائكة الكثيفة، وصورة لجنود بوجوه غليظة وبنادق ورشاشـــات.. ووراءها تبدو هضاب وسهول خضراء.. بعـــدها تـــأتي المخيمـــات والخيام، وصور لأناس يتكومون ويتكدســـون وقـــد غمـــر البـــؤس وجوههم.. ثم تأتي خريطة الوطن العربي، وصـــورة لجمـــال عبـــد الناصر، يستعرض مجموعة من الجنـــود والـــدبابات ويـــؤدي لهـــم التحية!!

احتفى عمي عوض الشّاهد بنا بطريقته الخاصة.. كان يأخـــذنا فـــي الصباح على عربته التي يجرها ذلك البغل الرمـــادي القـــوي، إلـــى "العزيزة".. وهناك ينطلق كل فريق إلى وجهته.. يذهب هو وأبي إلى بيّارة الأفندي، ويتفرج أبي على البـــابور الضـــخم، وعلـــى أشـــجار الحمضيات المتنوعة.. ثم يقفان عند الحدود طويلاً يتحدثان ويتذكران

"أم الغزلان".. وتذهب أمي وعمتي هنية إلى القبرصية، وهناك يتجولن في الكروم ثم يبدأن في جمع الحطب وتجهيز العجين استعدادًا لإعداد ذلك الخبز المنفوخ في الطابون.. أما بقية الصغار فينطلقون إلى وادي العزيزة.. يتراشقون بمياه العين ويتقافزون في الوادي ويتعلقون في أشجار التوت والكازورينا.. ونذهب، وأنا وإبراهيم، إلى البركة نجلس على حافة حوض الورد، ثم ندخل إلى "حديقة الأفندية" يُعَرفني إبراهيم بأسماء الأشجار واحدة واحدة.. يلتقط ما يعثر عليه في جوفها ويناولني.. ثم نذهب إلى وادي العزيزة ونصطاد بعض العصافير.. وعند الظهر، نعود إلى كرم القبرصية، نتناول طعام الغداء، طعامًا شهيًا أُعِدّ في الطابون، وعصافير وبطاطا مشوية.. يعود عمي عوض الشّاهد بعد الغداء إلى بيّارة الأفندي، يوقف "البابور" الهادر، ثم يضرب بقضيب الحديد على ماسورة مُعَلَّقة في جدار "بيت البابور"، ويعلن انتهاء العمل.. بعد قليل تبدأ مجموعات العُمال في الخروج من أرباع البيّارة، يحملون فؤوسهم وصررهم، ويضعون الفؤوس في المخزن، ثم يغتسلون من حنفية صغيرة نابتة في جدار البركة.. بعدها، يتحركون ويسيرون منهكين عائدين إلى بيوتهم في القرى والمخيمات القريبة.. وفي الليل نجلس أمام الدار، نسهر وقد تحلق حولنا الجيران.. يلعب الأطفال في الأزقة الضيقة المظلمة يقفزون ويصرخون.. كان الصبية يلعبون "بيت ربعي" يحزرون الأسماء، ويهللون، ثم يَركَبون على ظهور بعضهم.. أما الفتيات فيجلسن منكمشات، ملتصقات، يستمعن إلى حكايات

الشاطر حسن والغولة، من عمتي هنية والقبرصية.. وفجـأة تقفـز الصغيرات منهن وتطارد (سراج الغولة) يتعقبنها وهي تطيـر وسـط الزقاق المحفوف بأرصفة التين الشوكي، يمسكن بها "دودة صـغيرة" ثم يعدن لمواصلة الاستماع إلى الحكايات والخراريف..

سألته بعد أن انصرف الجيران ونام الأطفال الصـغار منهكـين مـن اللعب:

- أيش حكاية "العزيزة" صحيح كانت جميلة؟

- نعم كانت جميلة! جميلة جدًا.. بدر البدور، وزينة البنات.. عليها جدايل مثل موج البحر وعيون مثل عيون الغزلان.. وخصر مثل عود البان.. كانت العزيز بنت مختار القرية.. طلبها الشباب، ولكن المختار رفض.. لم يجد من يستحقها.. كان ذلك أيام الأتراك.. كانت حـروب الأتراك كثيرة وكانوا يأخذون الشباب إلى حروبهم، يغيب الشباب ثـم يرجع من يرجع ويموت من يموت.. بعد سنة رجع ابن عمهـا مـن الحرب وطلبها من عمه، فوافق وحددوا موعـد الـزواج واسـتعدت القرية كلها للاحتفال بهذه المناسبة العظيمة.. وفجأة اختفت العزيـزة "خُطفت".. قالوا راحت خطيفة مع واحد من جهة نـابلس.. وقـالوا خطفها واحد من جهة الخليل.. وقالوا خطفها واحد من يافـا.. طـار عقل البلد.. طار عقل المختار والعريس وأهل البلد كلهـم.. وركبـوا الخيل وطاروا.. طافوا السهول والوديان والجبال، ورجعـوا، وفـي طريقهم وجدوا رجلاً غريبًا عند الجمّيزة، شَكّوا فيـه وعَلّقـوه فـي الجميزة وشنقوه.. وبعد ليلتين وجدوا فتاة غريبة عند العين.. قتلوها

وقالوا العزيزة.. ذبحوها عند العين!! والصحيح أن البلد غطت على فضيحتها وقالت عليهم الخاطف والخطيفة.. الناس اللي راحوا على يافا شافوها.. بعد سنة شافوا العزيزة في يافا، لابسة لبس فضّاح ودايرة في الشوارع.. شافوها وعرفوها.. ومن يومها صار اسم العين "العزيزة"، وصار اسم الوادي وادي العزيزة.. ولا أحد يذكر الاسم الأول للعين أو الوادي.. ومن يومها كل بنت تولد في مثل تلك الليلة "ليلة ذبح الغريبة" تسقط في الرذيلة وتجلب العار والفضيحة لأهلها..

وعندما أنزل عمي عوض الفانوس المعلّق، ودخلنا إلى الدّار، همس إبراهيم:

- هذه رواية الرجال للحكاية..

(٤)

إبراهيم الشّاهد

في شهر كانون، تنقلب الدنيا وتتغير طقوس كثيرة.. إنه موسم قطف الحمضيات وعلى القرية أن تستعد، وتنتظر ما يَدُرَهُ عليها الموسم من رزق أو ما يجلبه لها من متاعب!! في بداية كانون، تهدر سيارات النقل الكبيرة مزدحمة بالرجال والنساء والصبايا وتقف في وسط الجرن.. ينزل الشغيلة، يشترون طعامهم وحاجياتهم ثم يصعدون إلى السيارات، التي تتحرك إلى الشرق حيث البيّارات الصغيرة التي يملكها أهل القرية..

في كل موسم، يقف أبو محمود كرّاز يجهز عدة الفلافل أمام منزله، وإلى جواره تقف زوجته وضحة، تُقطِع أرغفة الخبز وشرائح البندورة والفلفل الأخضر والبصل وتُعِدُ قارورة مملوءة بالفلفل الأحمر المخروط، استعدادًا لبيع السندوتشات..

وعلى مقربة منهما يقف الزغندي وأبو كرش، يشمران وينهمكان في غسل وتشحيم سيارتهما الكبيرة التي يجلبان بها الشَغيلة ويعيدانهم إلى مخيماتهم وقُرَاهم، ولينتظر الأجرة في آخر الموسم.. وبجوارهما،

ينشغل الحاج خليل سمارة في ترتيب بضاعته وملء دكانه بالخيرات، يُعلق آية الكرسي وسورة الإخلاص، ويدعو الله بالرزق الحلال والستر، وكف شر أبناء الحرام عنه وعن أولاده.. ويطلب الستر لأمة المسلمين كافة..

أما خليل بصبوص، فكان لا يهدأ لعشرة أيام كاملة، يذهب إلى سوق غزة الكبير، يجلب البضاعة ويكدسها في دكانه, وتستعد زوجته الجنوبية سماهر لاستقطاب الزبائن ومنافسة الحاج خليل الهادئ الوقور.. وكان عامر الفرّنجي، يكدس أكبر عدد من أكياس الطحين، وينظف فرنه مستعدًا، لخبز كيسين أو ثلاثة من الطحين تعجنها زوجته وأخته يوميًا.. وفي كل موسم، يستعين بذلك الطويل الضخم "القرّام".. ينتع القرّام أكياس الطحين على ظهره، وينقل الكتل العجينية ويضعها على البلاطة الكبيرة ثم "يُقرّصها" وينزل بيده الغليظة القوية عليها، يدكها عدة مرات ثم يلقفها بكفيه يمينًا ويسارًا ويحولها إلى دوائر رقيقة من العجين، ثم يدقها في وسطها بتلك الأسورة المثلمة، لتطبع نقشًا دائريًا جميلاً.. بعدها، يشرع في قذفها إلى عامر واحدة واحدة، ليقوم بدوره برصها على "المطرحة" تلك القطعة الخشبية الملساء، ويدخلها بمهارة إلى أتون الفرن الملتهب، يمسك قطعة قماش يغلق بوابة الفرن، ثم ينتظر، يشعل سيجارة ويعطي واحدة "للقرّام"، يفتح البوابة ينظر إلى داخل الفرن، يحرك الأرغفة ويُغَير مكانها.. وبعد قليل يجذبها باللقّاطة، تلك اليد المنتهية بقطعة من الصاج الرقيق، يقذفها ويعيدها للقرّام، أرغفة شهية

منقوشة.. يبيع عامر الخبز للوافدين، ويتوقف عن "الخبيز بالشهرية" لأهل القرية، ولا يعبأ بلعنات وشتائم النساء، مادامت النقود ستملأ "جزدانه" في آخر الموسم..

وكانت أم سارة السحّار تنظف بيتها وترُشه بالماء، ومثلها تفعل عائلات السمّري ودرّاج وكرّاز واشتيوي، تنظف بيوتها وتستعد لتأجير غرفة أو غرفتين للعائلات القادمة من الجنوب، والتي تفضل قضاء الموسم في القرية، على الذهاب والعودة من قرى الجنوب ومخيماته يوميًا..

أما الشباب فيستعدون للقصْدرة والتمشي في ليالي الشتاء الباردة!! يملأون جيوبهم بالبزر وملبّس "بيض الحمام" المحشو باللوز ويقطعون الأزقة المظلمة جيئة وذهابًا عسى أن يعثروا على صبية أو إمرأة غريبة، عائدة من دكان أو ساقية، يناولونها بيض الحمام والبزر، وتناولهم بدورها قبلة مخطوفة في ظلام الشتاء الدامس..

ويتحلق الشيوخ والعجائز والنساء – كعادتهم – حول كوانين النار، يحركون الجمر بأصابعهم، ويستغفرون الله ويدعونه أن يستر البلد من هؤلاء الوافدين الذين يرخون الحبل لنسائهم وبناتهم، ويسمحون لهن بالتسكع في أزقة القرية في أوقات متأخرة من الليل!!

وفي هذا الموسم، كانت فرحة طلاب المدارس كبيرة!! جاءت عطلة نصف العام مع بداية موسم الحمضيات.. وها هما أسبوعان كاملان،

يعمل خلالهما الصغار ليدخروا مبلغًا من المال، يساعدون به أهلهم، ويشترون ما يحتاجونه من دفاتر وسراويل وأحذية..

في الصيف الماضي، همس عمي سالم الربيع لوالدي:

ـ أبو إبراهيم، خالد كبر يا صاحبي، ولم يعد يعجبه الطواف ببرّاد الشاي وسط الناس، لقد سَلَّمَ المهمة لواحد من إخوته.. أرجوك يا صاحبي دبر له عملاً عندك، ليعينني في المصاريف والمعيشة.. أنت عارف الحال..

وجاء خالد إلى بيّارة الأفندي، لكنه أحضر معه عصام الفايز وعبد الله الشريف.. نظر والدي إليهم ثم إليّ، ابتسم وقال:

ـ أبو خالد كلّمني على واحد، وأنتم ما شاء الله ثلاثة!! طيّب بسيطة، الله يرزق الجميع، أنا بدبّركم.. خذهم يا برهوم، وتوزعوا اثنين اثنين، كل جماعة على ميّة.. اسقوا البطيخ في ربع الليمون..

- انت بتعرف كل شيء يابا.. السدّات والقنوات والتحويلات وكمية الميّة علمهم، علّم أصحابك يابا، بدّي تديروا بالكم، وترفعوا رأسي.. وإن شالله تشتغلوا طول الإجازة، الله يرزقكم..

واشتغلت "رابطة الجوّالين الصغار" طول العطلة الصيفية، وكنّا نقضي أوقاتًا ممتعة.. كان ربع الليمون عامرًا بثمار البطيخ المرقطة من نوع "شيلين"، كانت ثمارًا كبيرة مغرية، وكنت بالنسبة للرابطة خبيرًا في معرفة الناضج من كرات البطيخ الكبيرة.. أنظر إلى تلك الوريقة عند التقاء البطيخة مع اللّبش، ثم أقطف البطيخة إذا كانت الوريقة جافة، يرفعها عصام ويكسرها على حافة القناة الإسمنتية، ثم ننقض

عليها نحن الأربعة، نضع أقدامنا الحافية في المياه الجاريـــة، نلـــتهم البطيخة طرية حلوة، ثم نغسل أيدينا في القناة، ونتراشـــق بالميـــاه المنعشة اللذيذة صاخبين..

في اليوم الثالث، جاء والدي وهمس في أذني:

ـ أصواتكم عالية، تصلني عند البابور، قول لأصـــحابك أن يهـــدأوا، وألا يكثروا من "فجم" البطيخ على الفاضي والمليان، بلاش فضايح.. ولمّا تأكلوا البطيخة أخفوا قشرها، احفروا في الأرض وادفنوه،..

وفي هذا الموسم الشتوي، ها هي" رابطة الجوّالين الصغار" تعمل مع "مشغل" المعلم "دوّاس"، في بيّارة الأفندي.. وبعد ثلاثة أيّام من العمل في ربع الليمون، انتقل الشغّيلة إلى ربع البلنســـية.. دخـــل الرجـــال حاملين "السيبات الكبيرة"، ونصبوها حول الأشجار المثقلـــة بالثمـــار الصفراء.. توزعت الصبايا ووقفن على مقربة من "القصيصة"؛ "صبية تحت يد كل قصيص".. صعد الرجال على الســـيبات وتحلقـــوا حـــول الأشجار ثم بدأت الطقطقة بتلك المقصات المعقوفة التـــي تتوســـطها دودة قوية.. قطف الرجال الحبات الصفراء بمهارة، وشـــرعوا فـــي إلقائها في السلال التي رفعتها الصبايا قريبة مـــن الأيـــدي.. كانـــت غالبية "القصيصة" من أهل القرية، وكـــان المعلـــم "دوّاس" يعـــرفهم واحدًا واحدًا وكان في كل موسم يجرب قصيصة جددًا، وإذا اكتشـــف بطء أحدهم أو عدم مهارته أو أنّه "يجرح الحبة"، ينزله عن الســـيبة ويكلّفه بعمل آخر.. وكان من حق الصبيّة أن تختار "القصيص" الذي تعمل تحت يده.. في منتصف النهار يكبر ذلك الكوم الأصـــفر عنـــد

نهاية الربع، ويهدأ الشغيلة وتبدأ حبات البرتقال فـــي التوجـــه إلـــى صدور الصبايا، بدلاً من السلال.. تضحك الصبايا المستريحات تحـــت الأشجار ويغمزن للقصيصة بخبث، ثم يجمعن الحبات التـــي أخطـــأت طريقها ويضعنها في السلال. لكن بعضهن لا تعجبه هذه المـــداعبات، فيسرع إلى المعلم "دواس" ويطلب منه تغيير القصـــيص الخبيـــث.. عندها تكون فرصتي، يأتي المعلم "دوّاس" ويطلب مني أن أريح أحـــد "القصيصة".. منذ عامين وأنا أقوم بهذه المهمـــة، دربنـــي المعلـــم "دوّاس" – بناء على رغبة والدي – على مسك المقص و"خطف" حبة البرتقال دون أن أجرحها، وحققت تقدمًا كبيرًا، وها هـــو يثـــق فـــي مهارتي ويطلب مني الصعود إلى السيبة.. سألني خالد عندما رآنـــي أصعد إلى الشجرة وأشرع في الطقطقة دون وجل:

ـ كيف تتمكن من التحكم في هذا المقص المعقوف القاســـي دون أن تجرح حبات البرتقال أو تجرح نفسك؟..

ـ تدربت على ذلك، تألمت في البداية، وشعرت أن يدي ســـتتمزق، ولكن بعد فترة أصبحت معتادًا، أنظر! تمسك المقص بقـــوة، هكـــذا، وبرأسه المعقوف – تقص الحبة بحذر، لا تقترب من حبة البرتقـــال، يجب أن تترك مسافة حتى لا تجرحها.. كذلك تخطف القص خطفًـــا.. هكذا..

عند الكوم الأصفر الكبير، جلست ثلاثة صفوف متتالية.. جلست ثلاث نساء أولاً.. حيث يقمن بفرز حبات البرتقال وتصـــنيفها إلـــى ثـــلاث درجات.. حبّة مئة، وحبّة خمسين، والحبّة الثالثة الصغيرة "البـــرارة"

لا تُعبأ في الصناديق، ولا تصلح للتصدير.. أمام الكومتين المفروزتين للتصدير، جلس "اللفيفة"، عُمال مهرة يضعون بجوارهم لفائف من الورق الخاص، وبخفة يَلِفون حبات البرتقال ويقذفونها إلى الخلف، حيث يجلس معلمو التعبئة.. يقوم المعلم برص حبات البرتقال بطريقة خاصة في صناديق تنبت في ظهرها مطارق ثلاثة.. وعندما يمتلئ الصندوق يضرب المعلم بيده على الصندوق "إرفع"، ليتقدم شاب يرفع الصندوق ويضعه على "السقّالة" عند "المعلم النجّار".. يجذبه "المعلم النجار" ويغلقه بلوح خشبي، ثم يثني المطارق الثلاثة واحدًا واحدًا، و"يطوّق" الصندوق بالمسامير، يضرب على الصندوق بيده أيضًا "إرفع"، ليأتي شاب آخر، يرفعه فوق الصناديق المتراصة في انتظار السيارات الكبيرة، التي ستحمل الناتج الوفير إلى الميناء أو محطة السكة الحديد..

وكان عملنا – أنا وخالد – تقديم الصناديق إلى معلم التعبئة، وكان عملاً مريحًا بالنسبة لغيرنا.. أما عصام الفايز وعبد الله الشريف، فكان عملهما أن يرفعا الصناديق المعبأة من "السقّالة" إلى الصفوف المتراصة في انتظار السيارات.. كان عملاً متعبًا وشاقًا بالنسبة لشابين في سن الخامسة عشرة، لكن البنية الجسمية لكليهما، وكذلك طولهما الفارع قد أوقعهما في هذا العمل الشاق.. تردد عبد الله الشريف، عندما رأى الصناديق ذات الحواف الجارحة، لكن عصام الفايز، أغراه وأقنعه بالعمل، بعد أن علم أن الأجرة ستزيد عشرة قروش، عن أجرتنا نحن.. كانت أجرتنا عشرين قرشًا في اليوم، أما

حمل الصناديق الثقيلة ونقلها إلـــى الكتـــل المتراصـــة فـــي انتظـــار السيارات، فأجرتها ثلاثون قرشًا وافية.. وهذه زيادة "تستحق الصبر والتحمّل" في رأي عصام الفايز.. خلال استراحة الإفطار اشتكى عبد الله الشريف وتذمّر، ولكن عصام ظل يحُثه علـــى التحمـــل ويغريـــه بالفارق المالي الكبير، حتى استسلم لقضاء الله وللصـــناديق الثقيلـــة الجارحة!!

عند العصر، جاء ابن الأفندي سعدي وجاءت معه شـــقيقته الجميلـــة الممشوقة سوزان.. كانت سوزان فتاة بيضاء مستديرة الوجه مليحة التقاطيع، تملك عينين زرقاوين، وشعرًا ناعمًا مسترسلاً، كانت ترتدي سروالاً من "الشمواي" الأسود وبلوزة بيضاء، تلمع عليهـــا سلســـلة ذهبية جميلة، وفوق البلوزة البيضاء كانت ترتـــدي معطفًـــا أســـود قصيرًا له ياقة من الفرو، وكان شعرها الناعم ينـــزل علـــى ظهرهـــا ملامسًا الفرو الرمادي.. كانت تفضل أن تضـــع يـــدها فـــي جيـــوب معطفها، ولا تلمس الأشياء إلا بأطراف أصابعها، تجولا في البيّـــارة ووقفا عند بعض الأشجار المحملة بالثمار الصفراء، ثم عـــادا ليقفـــا عند كوم البرتقال الكبير.. أمسكا حبات البرتقال اللامعة، ثم تحدثا مع والدي ومع المعلم "دوّاس"، أصدرا بعض التوجيهات ثم انصرفا إلـــى سيّارة الجيب متجهين إلى الحديقة العامرة المجاورة لبيت البـــابور.. وهناك يكون أبي قد جهز لهما أربع صناديق محترمة.. صندوقًا مـــن اليوسفي وآخر من برتقال "أبو صرّة" والصندوق الثالث من ليمـــون البنزهير. أما الصندوق الرابع فهو من برتقال "دم الزغلول" هديّة إلى

الحاجة عطاف زوجة الأفندي الكبير.. يضع والدي الصناديق في سيارة الجيب، وينطلق ابنا الأفندي عائدين إلى غزة، وفي طريقهما يمران على محطة السكة الحديد، يتفقدان الصناديق المختومة بعلامات التصدير، ويطمئنان أنها ستغادر القطاع في اليوم التالي..

اقترب عصام الفايز منّي ثم قال هامسًا:

ــ هل رأيت ابنة الأفندي؟

ــ نعم رأيتها!

ــ يا بختك! بتشوفها دائمًا..

ــ أيش قصدك؟

ــ قصدي أنها جميلة؟

ــ بعرف أنها جميلة!

ــ أيش اسمها؟ وكم عمرها؟

ــ اسمها سوزان، أما عمرها فلا أعرفه، أنا لم أسألها عنه!

ــ أظن أنها في مثل عمري!!!

ــ بل تبدو أكبر منك! ماذا تريد بالضبط يا عصام؟

ــ لا شيء، أسكت! المعلم دوّاس قادم.. سأعود إلى الشقاء، إلى الصناديق الثقيلة الجارحة، التي تمزق الكتف واليدين..

هدرت السيارات الكبيرة، ووقفت بجوار الصناديق المتراصة، أشار المعلم دوّاس للعمال، فشرعوا في رفع الصناديق ورصّها في السيارات.. وعندما امتلأت سيارتان، دخل إلى البيّارة أربعة من أصحاب القبعات الزرقاء وسلّموا على والدي بحرارة:

ـ أوه أوض.. دبير فرند، فان تاستك.. فان تاستك..

كان أفراد قوات الطوارئ الدولية يُعَلقون آلات التصوير في رقـــابهم، راحوا يوزعون شرائح اللبان وقطع الشيكولاته فــرحين ويلتقطــون الصور.. كانوا مأخوذين بمنظر البرتقال الأصفر الجميــل، وتتبعــوا عملية القطف من أولها حتى آخرهـــا.. أمســكوا حبــات البرتقـــال والتقطوا الصور.. أمسكوا المقصات المعقوفة والتقطــوا الصـــور.. وقفوا وسط الأشجار المثمرة والتقطوا الصور.. وجلسوا بجوار الكوم الأصفر الكبير والتقطوا الصور.. جلسوا وسط الصـــناديق الفارغـــة وأمسكوا الشواكيش والمسامير والتقطــوا الصـــور.. صـــعدوا إلـــى السيارات وجلسوا على الصناديق المعبأة والتقطوا الصور..

فجأة اكتشف قائدهم أن المعلم "دواس" يتحدّث الإنجليزية.. سأله أين تعلمها فأخبره أنه تعلّم الإنجليزية أثنـــاء عملـــه فـــي المعســكرات البريطانية قبل الهجرة.. ورد دوّاس على أسئلة الضـــابط النرويجـــي كلّها.. عَرَّفه بأنواع البرتقال، ومواعيد القطـــف، وطريقـــة القطـــف، ومسارها حتى تصل الحمضيات إلى الميناء أو محطة السكة الحديد.. كانوا مبهورين ويلتقطون الصور لكل ما تقع عليه عيونهم.. النـــاس والأشجار والصناديق والسيارات حتى "علبة دخان الهيشـــة"، التـــي أخرجها أبو زكي من عبّه وراح يلف منها، قارضًا "ورقـــة البفـــرة" ولاعقًا إيّاها بلسانه باستمتاع.. وكان الضابط يردد عبارة واحدة "فان تاستك.. فان تاستك".. أخيرًا، انسحب أصـــحاب القبعـــات الزرقـــاء

مودعين وملوحين بأيديهم، وتابعتهم العيون حتى خرجوا من فتحة السياج، كما جاءوا..

نظر المعلم دوّاس في السماء، ونظر في ساعته ثم قال:

ـ يعطيكم العافية جميعًا.. يا الله يا شباب المطر جاي.. الجهة القبلية مسكّرة تسْكير.. يالله يا شباب هاتوا النايلون وحطوه على الكوم وعلى الصناديق الباقية، وبعدين على السيارات.. يالله يا أبو زكي الدّامر صورك رايحة تصل النرويج، مين قدّك!! يالله يا جماعة.. يعطيكوا العافية اليوم..

عملنا لأسبوعين في قطف الحمضيات، ثم عدنا إلى المدرسة، وانتظرنا "يوم القبضة".. وفي نهاية شهر آذار وقفنا وسط الحشد الكبير عند دكان خليل بصبوص.. أحضر المعلم دوّاس حقيبة جلدية مملوءة بالنقود، جلس على الكرسي وبجواره على الأرض جلس أبو زكي الدّامر وأخذ ينادي على الأسماء بصوته الجهور المدوّي.. وحول دوّاس، تحلّق خليل بصبوص والحاج خليل سمارة، وأم سارة السحّار، والزغندي وأبو كرش، وأبو محمود كرّاز وعامر الفرنّجي، وأفراد من عائلة السمّري ودرّاج واشتيوي.. كلّهم كانوا ينتظرون سماع صوت "أبوزكي" مناديًا على زبائنهم، لينقضوا عليهم ويأخذوا نقودهم التي انتظروها ثلاثة أشهر كاملة..

وفي يوم الجمعة، التقى أعضاء "رابطة الجوّالين الصغار" عند دكان مصطفى البطش مرة أخرى.. سحب كل منا "درّاجة بلّون" مستعملة.. ثم أنقدنا الرجل السمين المبلغ الذي كنا قد اتفقنا عليه.. لقد ادخرنا

من حر مالنا، ومن حقنا أن نمتلك دراجات خاصـــة.. الآن، أصـــبح بإمكاننا التجول في الوقت الذي نريد وفي المكان الذي نريـــد ولـــن نخشى التأخير وغرامات الرجل السمين الباهظة!!

عندما عدت إلى القرية، تحلّق حولي حشد كبير من الأطفال، تخلصت منهم ودخلت إلى الدار ثم أقفلت الباب.. تهللت أختي فاطمة وركبـــت على الدراجة فورًا، ثم طلبت مني الدوران بها في الـــدار.. أطعتهـــا ودرت دورتين ثم أنزلتها بحنان فقالت أمي:

ــ البسكليت مش للمدرسة! بدناش مشاكل مع العالم!! لمـــا تـــروح السنة الجاية على المدرسة الثانوية في غزة معلش!!.

عندها دخلت عزيزة الخيّال، اقتربت مني، وقالت هامسة:

ــ بدّك تعلمني ركوب الدراجة.. في "العزيزة"..

(٥)

عزيزة الخيّال

كانت مدرستنا ملاصقة لمدرسة البنين ولا يفصل بينهما سوى جدار.. جدار توجد في منتصفه حفرة صنعتها إحدى قذائف العدوان الثلاثي، ثم وسّعها الطلاب لينفذوا منها إلينا كلما سنحت الفرصة.. أما المزرعة الصغيرة التي تطبق فيها دروس الأشغال، فكانت مشتركة بين المدرستين، وكذلك كان مختبر العلوم.. عندما نذهب إلى المختبر في دروس العلوم، كان الطلبة يتقافزون حولنا متعللين بالشرب من الحنفيات القريبة.. يتجرأ بعضهم ويقترب من نوافذ المختبر، يلقي نظرات حائرة، ثم يعود مسرعًا.. بعدها بقليل، نسمع صوت الخيزرانة على ظهره ومؤخرته ويديه.. أما عندما نذهب إلى المزرعة لتطبيق الأشغال والزراعة (لم يكن هناك فرق في دروس الأشغال، كنا نزرع ونمهد الأرض بالفؤوس الصغيرة والنكّاشات، مثل الأولاد تمامًا).. كانت عيون الطلاب تتحول عن سبّورات الفصول وتتسمر علينا وكان المدرسون يأمرون بإقفال النوافذ، رغم القيظ، ثم يزجرون الطلاب ويطلبون منهم الانتباه إلى السبورة والشرح فقط..

لم يكن إبراهيم ممّن يحبون تلك العادة، فقط عندما أذهب إلى المزرعة وأقوم بري شتلات الفول الخضراء أو أمهد الأرض لزراعة البطاطا كان يراقبني بحذر ويبتسم.. وعندما نلتقي عند باب المدرسة بعد انتهاء اليوم الدراسي أسأله عن سر ابتسامته:

ـ أنت الوحيدة اللي بتأخذ الأمور بجد.. بقية الطالبات يقفن ضاحكات متغامزات وأنت بتشتغلي كأنك في كرم القبرصية..

في هذا العام لم يعد إبراهيم ينتظرني.. انتقل إلى المدرسة الثانوية بالمدينة، وبقيت أنا في هذه المدرسة، فقط انتقلت إلى الصف السادس، وإلى الفصل الذي تطل نوافذه على الشارع العام..

في الحصة الرابعة – كانت حصة الجغرافيا - كان المدرس يرسم خريطة لفلسطين.. لوَّن الخريطة بالطباشير ولم يضع حدودًا للضفة أو القطاع.. وضع أسماء المدن والقرى على الخريطة بجوار دوائر ملونة، كتب أسفل الخريطة عبارة بالطباشير الأبيض "تبلغ مساحة فلسطين سبعة وعشرين ألف كيلومترًا مربعًا" ثم رسم دوائر صغيرة ملوّنة، وكتب مقابل كل منها ملاحظة وأخذ يشرح:

ـ الدوائر الحمراء تشير إلى مدن يزيد عدد سكانها على مئة ألف نسمة.. والدوائر البرتقالية تشير إلى المدن التي يزيد عدد سكانها على خمسين ألف نسمة.. والدوائر الصفراء تشير إلى القرى الكبيرة التي يزيد عدد سكانها على عشرة ألاف نسمة..أما الدوائر الخضراء الصغيرة فتشير إلى القرى التي يزيد عدد سكانها على خمسة آلاف نسمة.

ولاحظت أن المدرس لم يذكر اسم قريتنا، ولم يضعها على الخريطة ففهمت أن سكان القرية لم يبلغوا خمسة آلاف نسمة بعد..

سرت همهمة في الفصل، وخرجت من الفتيات ضحكات مكتومة.. أشارت إحدى الطالبات إلى النافذة الجنوبية، وعندما نظرت وجدت رأسًا يطل من النافذة ثم يختفي.. كانت امرأة. امرأة تضع على رأسها منديلاً أبيض اللون.. تنتهز فرصة توجه المدرس إلى السبورة فتعلق بالنافذة وتطل في وجوهنا فاحصة مدققة.. عاودتْ التعلق والنظر مرتين، ثم تسمّرت على وجهي تمامًا.. حدّقت النظر وأطالت، حتى اكتشفها المدرس:

ــ أيوه يا خالة، فيه حاجة، هل تبحثين عن أحد؟

ــ لا.. لا يا أستاذ.. أنا بتفرج بس.. خلص أنا مروحة..

تضاحكت الطالبات.. هز الأستاذ رأسه، عاد إلى السبورة.. وبعد انتهاء اليوم الدراسي وجدت تلك المرأة في انتظاري عند باب المدرسة، في نفس المكان الذي كان ينتظرني فيه إبراهيم:

ــ تعالي يا حبيبتي.. كيف حالك؟

ــ الحمد لله.. الله يسلمك يا خالتي..

ــ انتي أيش اسمك يا حبيبتي؟

ــ اسمي عزيزة..

ــ عزيزة مين يا حبيبتي؟

ــ عزيزة عابد الخيّال..

ـ آه.. إنتي بنت "القبرصية".. ما شاء الله.. ما شاء الله.. طيب يا حبيبتي.. سلمي على أمك وقولي لها خالتي محظية العبد الله بتسلم عليكي، وبدها تزورك اليوم بعد صلاة المغرب..

أخبرت أمي بما حدث، فهزت رأسها، ونظرت إليّ متفحصة ثم ضحكت وتمتمت ببعض الكلمات:

ـ لماذا تضحكين يا قبرصية؟

كنت أنادي أمي بهذا الاسم كلما أردت استفزازها أو إخراج معلومة منها.. أما إذا أردت تدليلها، أو رغبت في الحصول على طلب منها، فأناديها "أم العزيزة" وأقبل يدها:

ـ تناديني يا قبرصية؟

ـ لأني بخاف من هذه الضحكة وهذه التمتمة!

ـ المرة بدها إياكي لإبنها..

ـ زوجة؟.. أنا؟ أنا في الصف السادس..عمري..!

ـ وأيش يعني كثيرات بتزوجن في سنك، ليش مستغربة؟ شوفي نفسك.. مفيش حد مصدق إنه عمرك اتنعشر سنة بس بكرة باشتري لك جرّة.. بتلبسي الثوب وبتنزلي على الساقية مثل البنات الكبيرات.. هيك عملنا لما كبرنا.. وهيك بتعمل بناتنا.. هذه عادات البلد..

ـ في العطلة بلبس الثوب وبحمل الجرّة وبننزل على الساقية.. لكن بدّي أكمل تعليمي..

ـ بدك تتعلمي ولا بدك تنتظريه؟

ـ مين بتقصدي يا قبرصية؟

ـ حبيب القلب.. برهوم!

ـ....

ـ على كل حال يا ريت..هذه أمنيتي.. لكني خايفة.. خايفة ميكونش هو.. اسمعي أنا مش رايحة أغضب عليكِ .. الليلة بصرف محظية العبد الله بطريقتي..

بعد يومين حضرت إلى بيتنا ثلاث نساء.. دخلن الغرفة وأغلقت أمي الباب.. أحضرت لفائف من القطن ومنديلاً وحفنة من الرماد وصندوقًا خشبيًا.. نزعت تنورتي ثم شمّرت قميصي الداخلي حتى صدري.. ثم ناولتني المنديل وطلبت مني أن أعضُ عليه بأسناني.. أمسكت امرأتان يدي وقبضتا عليهما بقوة، ثم أخرجت الثالثة شفرة حلاقة.. دفعتني أمي من ظهري إلى الأمام ففتحت المرأة فخذي بقوة ثم قربت الصندوق الخشبي وأمسكت بأصابع كالملاقط شيئًا بين فخذي.. تألمتُ، فحزّت المرأة بقسوة وقطعت ما تمسكه.. صَرختُ.. دفعتْ أمي الرماد إلى مكان القطع ثم غمرته بالقطن.. أجلستني النسوة، فرأيت الدماء وهي تسيل على فخذي وساقي.. مسحت أمي الدماء ثم أنزلت قميصي وألبستي تنورتي ودثرتني ببطانية قديمة.. كانت النار تكويني وكتلة القطن تتكور بين فخذي، وأصرخ.. أحضرت أمي كوبًا من عصير البرتقال.. شربته دون وعي وشربت النسوة عصير البرتقال ثم انصرفن.. وذهبت أمي لإعداد دجاجة احتفاء بهذه المناسبة.. لم أنم تلك الليلة، ولم أتذوق طعم الدجاج أو غيره.. غيّرت أمي لفائف القطن عدة مرات.. شعرت بقشعريرة، ثم تعرّق

بدني وارتعشت أطرافي.. في الليلة التالية كنت أهذي، ولم أعد قادرة على رؤية الأشياء ولا سماع الأصوات بوضوح.. هرعت أمي إلى دار عمي عوض، أحضرت العربة، دثّرتني جيدًا ثم أصعدتني إلى العربة وانطلقنا عبر الزقاق إلى طريق غزة..

كنت بين اليقظة والغيبوبة، لكنني اذكر أننا وصلنا إلى منزل مكون من طابقين.. أوقفت أمي العربة وكانت هناك لافتة، لافتة كتب عليها اسم طبيبة.. أنزلتني من العربة ودخلنا إلى ممر طويل وفي نهايته نظرت الممرضة إلينا بارتباك ثم صاحت:

ــ أيش هذا الدم؟ أيش عملتوا فيها؟

ــ عملنا زي ما بيعملوا الناس مع بناتهم لما يكبرن..

ــ آه .. فهمت، الختان.. أدخليها بسرعة..

دخلنا إلى الطبيبة، فسارعت إلى حقنة وغرزتها في ذراعي، ثم تناولت حقنة أخرى، وغرزتها في إليتي.. وعندما بدأت الممرضة في تنظيف ساقي، ذهبت في غفوة طويلة..

وعندما استيقظت في الغرفة المجاورة، شعرت أن الألم قد زال ولاحظت أن الدماء قد توقفت ولم تعد تسيل على فخذي وساقي.. دثرتني أمي وعندما هممنا بمغادرة العيادة قالت الطبيبة:

ــ النزيف كان سيودي بحياتها.. الحمد لله.. هذه الفتاة محظوظة.. لكن كيف هانت عليكِ بنتك؟.. إنتِ مش أمها؟

ولأول مرة رأيت أمي باكية.. لكنني كنت متعبة، لدرجة أنني لم أستطع مسح دموعها..

ظل ما حدث سرًا بيني وبين أمي.. وعندما جاء إبراهيم لزيارتي أخبرته أمي أن ألمًا شديدًا اضطرها إلى أن تأخذني إلى الطبيبة.. وأخبرته أن الألم قد زال والحمد لله.. وعندما سألني عمي عوض رددتُ نفس الكلام على مسامعه، وفي المساء جاءت عمتي هنيّة، جلست مع أمي، وسمعت حديثًا بينهما:

ــ محظية العبد الله، طلبت عزيزة لإبنها..

ــ بلا محظية بلا بطيخ أصفر.. مين محظية هذه؟

ــ إيش قصدك؟

ــ قصدي؟.. مش عارفة قصدي؟

ــ لأ مش عارفة..

ــ يعني هذه عروستنا!! عزيزة عروسة إبراهيم، متعمليش حالك مش فاهمة..

ــ على كل حال الحرمة أعطتني مهلة أفكر.. وإنتِ عارفة يا أم إبراهيم الزواج سترة للبنت..

ــ بلاش هبل، البنت صغيرة والولد صغير..

ــ طيب نقرا الفاتحة على الأقل..

ــ عوض بيقول قراية الفاتحة وتعليق البنت مش كويس، عقد قران على طول.. لما يكبروا يفرجها ربنا.. بعدين الولد متعلق فيها..

ــ والبنت كمان..

ــ وإيش باقي لك يا مستورة؟

ــ باقي خوفي! خوفي من الدنيا، مــن الــزمن، أنــا خايفــة يــا أم إبراهيم..

ــ حرام عليكي!! إنتِ بس علشان وحدانية، إحنا أهلك وعزوتك يــا حُرمة.. عزيزة بنتنا وعروستنا وانتهينا..

في الصيف نزلت إلى الساقية.. جابية كبيرة تقع وسط بيّارة وتطــل من الناحية الشرقية على ساحة واســعة.. يســميها أهــل القريــة "الساقية" وبعضهم يقول "الجابية".. ويقولون إنها تسقي القرية منــذ مائة عام.. وهي مثل "الجرن" ملك لأهل القرية كلهم.. تتدفق الميــاه إلى الجابية من "بابور البلد" المجاور لها.. يقوم أبــو اســماعيل - ناطور الساقية - بتنظيفها وغسلها كل يوم خميس، يغطيها بباب من الصاج ثم يغلقها بقفل كبير، من جدار الجابية تنبثق ســت حنفيــات كبيرة، تحنو بأفواهها على حوض مستطيل، تسيل المياه من طرفــه الشمالي متجهة إلى داخل "بيارة الساقية" لتــروي أشــجار الليمــون وشتلات الباذنجان والفلفل.. وإلى اليمين حوض آخر تشــرب منــه الدواب والحمير الواردة بجرارها على "الساقية"، حوض يملؤه "أبــو اسماعيل" كلما نفدت مياهه من حنفية تغلق وتفتح بمفتاح يحضــره معه..

إلى "الساقية"، ترد صغيرات السن من النساء، والصبايا والعرائس.. يملأن الجرار، ويتراشقن المياه بدلال ومــرح.. تتبــاهى العــرائس بجرارهن المزركشة الجميلة، ينشلن الجرار بخفة ورشــاقة، يملــن برؤوسهن ويرشقن دفقة خفيفة من المياه بأيديهن المزينــة بحنّــاء

العرس ثم يتلثمن بالمناديل المطرزة، وبالعين التي تبدو من المنديل، يغمزن إلى الصبايا الواردات حديثًا على الساقية، ثم يعدن إلى العرسان متبخترات مثل الظباء.. ويتركن الصبايا للتنهيدات والهمسات الخبيثة والتمنيات بالوصول إلى يوم الجرار المزركشة..

كل شيء كان جميلاً عند "الساقية" عدا أمرين: أحدهما تلك المرأة الشمطاء زينب الدودة.. امرأة نمّامة مفسدة.. يملؤها حقد غريب لا تعرف القرية سببًا له.. كانت زينب مصدرًا للأقاويل والشائعات، تلدغ الصبايا بلسانها وتنفث سمومها وتلوك سيرتهن في كل مكان! وقعت العائلات في بعضها أكثر من مرة بسببها، وقع ابنها المسكين صالح في مشاكل عديدة من وراء لسانها، طافت كنتها الوديعة وردة على البيوت تعتذر عن سلوكها وتصرفاتها، لكنها لم تتوقف.. ضربها ابنها ذات مرة وبكى.. بكى غيظًا وعجزًا وندمًا.. لكنها لم تلن.. توسلت إليها كنتها أن "تقعد" في الدار ولا تذهب إلى الساقية لكنها رفضت وأبت.. كانت زينب الدودة تجد متعة في الذهاب إلى الساقية! تردد الشائعات وتنغّص على الصبايا وتتدخل في شؤون العباد:

- سمعت أنه محظية العبد الله خطبتك لابنها لكنك رفضتي!

- بدّي أكمل تعليمي..

- بدّك تكملي تعليمك ولا بدكيش ابن محظية؟!

- قلت لك بدّي أكمل تعليمي..

- مصيرك للزواج يا حبيبتي وابن محظية أحسن من غيره.. إيش يعني بدّك تصيري دكتورة؟!

- إيش يعني لو صارت وحدة من البلد دكتورة.. عجيبة.. ولا حرام؟!

- لكن الزواج أحسن! ولا بتفكري في واحد غير ابن محظية؟ حاطة عينك على مين يا عزيزة؟

- أيش هذا الكلام الفارغ..؟

- كلامي فارغ يا أم عين فارغة.. إنتِ بنت قليلة الحيا..

- أنا قليلة الحيا!!.. طيب الليلة أمي بترد عليكي!!

وفي المساء ذهبت أمي إلى زينب الدودة.. أمسكتها من "قبتها" وأقعدتها على الأرض بقوة ثم وضعت الشبرية أمام عينها:

- اسمعي يا زينب يا سوسة البلد.. بنات الناس وسيرتهن مش لعبة.. لو سمعتك حكيتي عن بنتي كلمة واحدة مرة تانية بخلي هاذي الشبرية تنفذ من ظهرك.. أنا بقول هذا الكلام قدام ابنك وكنتك لتفهموا معنى كلامي.. وأنتو بتعرفوني..

- طيب.. طيب يا أم العزيزة طيب يا خالتي.. حقك علينا.. أمي غلطانة.. غلطانة والحق راكبها ومنك السماح..

- خلص.. حقك علينا يا عمتي، امسحيها في دقن صالح هاذي المرة..

- طيب!! المرة هذه سماح.. على شرط

- اشرطي يا أم العزيزة

- زينب الدودة لا تروح على الساقية ولا تقرب ناحيتها..

- ماشي.. والله لو أربطها لأمنعها.. شرطك مقبول يا أم العزيـــزة.. وحقك علينا..

وبقيت حمير البدويات.. ظلت تنغص على الصـــبايا صـــفوهن، بـــل صارت تنغص على البلد كلها.. تأتي البدويات من أطـــراف البلـــدة، حيث يقيم البدو خيامهم، يضعن الجرار على ظهور الحمير في خراج من السلك.. وعندما تتقابل الحمير عند الســـاقية تحـــدث المصـــائب وتنقلب البلد.. تنهق الحمير وتضطرب وتضرب بأرجلها في الهـــواء، تحاول البدويات الإمساك بها دون جدوى، تنفلـــت الحميـــر الهائجـــة خلف الإتان، وتسقط الجرار مهشمة.. تنطلق البـــدويات فـــي إثرهـــا يبحثن عنها في أزقة القرية وبعد جهد يعثرن عليها بعد أن تـــنغص على القرية عيشتها وتدوس في طريقها فـــراخ الـــبط والصيصـــان وترعب الأطفال.. طلبت النساء من رجال القرية أن يضعوا حدًّا لهذه المشكلة، أن يمنعوا البدويات من "ورود الساقية".. لكنهم أجابوا فـــي حزم:

- هذه ساقية، يعني سبيل ماء.. كيف نمنع الناس من الشرب؟

- لكن حميرهم تنغص علينا حياتنا وتعكر صفونا..

- نمنع أنفسنا ولا نمنعهم.. ماذا يقول الناس عنا.. منعنا الناس من الشرب يا حيف عليكن!

بعد شهر فوجئت القرية بوجود ثلاث خيام في "الجرن".. ودُهشوا من جرأة البدو على نصب خيامهم وسط البلدة وقرروا مواجهتهم بالعنف هذه المرة.. لكن البلدة سرعان ما اكتشفت أن الخيام لم تكن للبـــدو،

بل لضيوف آخرين هم "النّور".. جلس النّور أمام خيامهم، ووضعوا عدة الحدادة، كورًا وسندياناً ومطرقة كبيرة وكيسًا من الفحم.. ثم راحوا يدقون وينفخون ويصنعون الملاقط والمواقد وبعض الأواني البسيطة.. أشفقت القرية عليهم وتركتهم يلتقطون رزقهم..
بعد أسبوع سمعت القرية غناءً وطبلاً وزمرًا، وبدأ الغناء في جذب الشباب والرجال، فتقاطروا إلى خيام النور.. تزايدت حلقات السمر فتوقف النّور عن صنع الأشياء البسيطة وأخفوا أدواتهم.. ثم تحول السمر البريء إلى سهرات رقص.. ثم ضحكات وغنج داخل الخيام.. هجر الرجال نساءهم وجذبتهم "النورّيات"، وسمعت أصوات المشاجرات في البيوت المستورة.. امرأة تسأل زوجها عن النقود التي ادخرتها للأيام السوداء.. وثانية تلطم على وجهها لأن زوجها أدمن الخمر وباع مصاغها، وثالثة تشتكي للمختار من زوجها الذي أهمل أولاده ولا يعود إلى البيت إلا مع أذان الفجر، ولم يعد يذهب إلى العمل.. ورجل يطرد ابنه من البيت لأنه سرق نقوده وأنفقها على النوريات..
وجلس أهل العقد والحل.. ولكنهم قالوا في "النّور" مثلما قالوا في البدو:
- هؤلاء ضيوف.. ما بنقدر نطردهم، علينا أن نعاملهم بالحسنى ونطلب منهم أن يحترموا تقاليد القرية..
لكن الحسنى لم تنفع مع "النّور"، لقد تمكنوا من شباب القرية وأوجدوا فتنة بينهم.. انقسم الشباب إلى فريقين: فريق يدافع عن

"النور" ولا يجد فيهم ضررًا على القرية، بل يجد فيهم الفائدة..
ويتزعم هذا الفريق خليل بصبوص الذي وجد فيهم مصدرًا جديدًا لكسب المال.. يبيع الدخان، والبسكويت والحلقوم والبزر، وزجاجات غالية الثمن ملفوفة بأكياس صفراء.. وفريق آخر (منهم الأستاذ زاهر وإبراهيم) يرفض وجود "النور" في القرية ويعتبرهم شرًا يهدد القرية ويطالب بطردهم بالقوة.. وانقسمت القرية، وكاد الأمر أن يتحول إلى مشاجرات عائلية.. وعانى الناس شهرًا كاملاً من خطر "النّور" الجديد..

وفجأة! استيقظت القرية في صباح أحد الأيام ولم تجد خيام النور! وتبعثرت التساؤلات حول سبب رحيل النّور، ولكن أحدًا لم يجب أو يتكلم..

أعاد المخاتير النساء إلى أزواجهن، وعاد الشباب إلى أهلهم تائبين..
أما إبراهيم، فكان في اليوم التالي يجلس في "العزيزة".. يبتسم ويسر لي بحكاية "الجوالين الأربعة" الذين أعدوا خطة إشعال النار في خيام "النور" وأجبروهم على مغادرة القرية عند الفجر..

(٦)

إبراهيم الشّاهد

أخيرًا، غطّ والدي في نومه وتكوَّمت أمي بجواره مجهدة بعد عمل شاق طول النهار.. كان الموسم وفيرًا ميسورًا، وكانت أشجار الخوخ والبرقوق سخية دانية.. وها هي الصناديق المملوءة مغطاة بأوراق الدوالي تنتظر الخميس وسوق فراس، وهناك على مقربة من الصناديق بغل وعربة ينتظران حتى بزوغ الفجر.. بعنا اليوم كميات وافرة للزائرين المصريين، وحملت الوفود الخوخ والبرقوق في السيارات. ثمار لذيذة ذات رائحة عطرة.. فاكهة حمراء داكنة وصفراء زاهية تقلها السيارات في كل موسم وتصل بأكياسها المغلفة إلى مصر.. وبقيت هذه الصناديق متراصة تنتظرني حتى الصباح لأنزل بها إلى سوق غزة الكبير.. اختلط الشخير بنقيق الضفادع وأزير الحشرات. هبّت نسمات آب منعشة لذيذة، فندت عني دندنة لأغنية شعبية عن الليل والسهر والعشّاق.. نظرت في الساعة فإذا الليل يقترب من نصفه، وإلى الشمال - حيث القنطرة- بدت "العزيزة" ساحرة جذابة..

سألتها قبل أن تسقط سلة الفاكهة من يدها وتتبعثر ثمارها:

- لماذا سموك العزيزة؟
- كان أبي من عشاق العزيزة
- العين أم العاشقة؟
- كليهما! كان متيمًا بالعين التي أطفأت ظمأ الحصّادين والحــرّاثين في أوقات القيظ والشدة.. وكان مغرمًا بقصة تلــك العاشــقة، التــي ذبحها شقيقها عند العين، وظل أبي يروي قصتها حتى وفاته..

كنا نقطف ثمار الخوخ، بدأنا بكرمهم كعادتنا، ولم أكن قــد التحقــت بالجامعة.. كانت نتيجة الثانوية العامة قد أعلنت، وبدأت الاســتعداد للسفر.. دخلت تحت شجرة الخوخ الكبيرة، سألتني عن يوم الســفر وناولتني حبة من البرقوق المعطر.. قضمتها ثم ســألتها عــن ســر العزيزة، أجابتني ثم رفعت يدها لتقطف الثمار الصــفراء الزاهيــة.. اشتعل جسمي بلهيب جسمها، اقتربتُ، فلامستْ يدي نهدها الفــائر، ارتعشتْ مثل السمكة العالقة في شبكة الصيّاد وتعرق بدنها ووجهها. همّت بالانسحاب فجذبتها نحوي وخطفت قبلة ساخنة وضممتها إلــى صدري بقوة. سقطت سلتها وتبعثرت ثمارها. خطفتُ قبلــة شــهية ثانية.. استسلمتْ لرعشة لذيذة فهمست لها أن تتماسك، لكنها جثمت على ركبتيها منهارة. انسحبت من تحت الشجرة لاهثًا، وثمّة رعشــة لذيذة مازالت تهزّ بدني.. سمعت أمها تناديها وتسأل عــن مكانهــا، عندها لعلع صوت جميل حب الرمّان:

- سن الستّعش وارد على الميّه.. مسكته من نهوده سخسخ يأبيّه

- أسكت يا جميل اشتغل وأنت ساكت..
- حتى الغناء يا قبرصية خلينا نفضفض شوية.
- هذا غناء ولا قلة حيا؟
- الله يسامحك يا أم العزيزة.

ثم عاد يصدح بصوته الجميل:

ثلاث غزلان ناحي العين ماضن عليهن سيوف وحراب ماضن
كشف جرح الطبيب وقال ما ظن ما ظن يطيب مجروح الهواا
أوووف.. أووف.. أوووف..

على يير الصفـــا وَرْدتْ حليمة جدايلها شقر وارختهن حليمة
روحن ياسمر ما انتنش غنيمة حليمة القمر ونجــوم الضحاا

فردد أبي وراءه "ونجوم الضحى.. قلبك مقطّع يا "أبو سامر"..

منذ عامين ظل أبي يمر على جميل حب الرمـــان ويطلـــب منـــه أن "يسرح" للعمل معنا في موسم الفواكه.. كان يقول: غناؤه يخفف عن النفس وصوته جميل..

لاحظت اليوم أنها تتحاشى الاقتراب مني.. طوال النهار تهرب منـــي وتتحاشى محادثتي أو النظر إليَّ. لكنها فعلـــت ذلـــك عنـــد العصـــر بطريقتها..

قالت السيدة المصرية عندما وضعت البرقوق في سيارتها:

- سمعتك تتحدث باللهجة المصرية!
- أنا طالب في الجامعة هناك.

- أي جامعة؟
- جامعة عين شمس، في كلية الآداب
- أي سنة؟
- في السنة الثانية، قسم اللغة العربية وآدابها..

أدرت ظهري عائدًا فوجدتها في مواجهتي تمامًا، حملت صندوقًا من الخوخ وداهمتني مباشرة ثم ضربتني بالصندوق في بطني.. وعندما تأوهت قالت فيما يشبه الفحيح:

- لم تشبع منهن هناك! وتريد أن تكمل هنا..
- أنتِ مخطئة أنا لم..

ألقت أكياس الفاكهة في صندوق السيارة بعنف وعادت مغتاظة حانقة، تهذي بكلمات غامضة.. كانت تتعثر في مشيتها. اصطدمت بأختي فاطمة التي فاجأتها مبتسمة.. ضربتها هي الأخرى بالصندوق في بطنها واختفت وسط الأشجار..

قالت السيدة المصرية التي انتبهت إلى ما حدث:

- إنها جميلة وممشوقة القوام.. لماذا لا تتزوجها؟
- إنها عنيفة كما ترين.

وعلقت أختي التي وصلت بصندوق الفاكهة:

- لكنها طيبة..

ما الذي يجعلني أفكر في هذه القروية العنيفة ذات الكفين الخشنين؟ لماذا أتعلق بهذه المتوحشة؟.. في الجامعة تتبختر الفتيات بشعورهن المسترسلة الناعمة أو المعقوصة إلى أعلي.. يتبخترن ببلوزاتهن

الشفافة المفتوحة.. ويتمــايلن بأجســامهن البيضــاء وبنطلونــاتهن المحزقة.. يضحكن بدلال فتبدو أسنانهن البيضاء اللؤلؤيــة وتشــرق ملامحهن الجذابة المترفة وينتشر عطــرهن فــي المكــان.. وفــي الشوارع فتيات أنيقات مرحات.. وفي الشرفات فتيات ناهدات.. فــي الحدائق صدور وأجسام بيضاء مغرية وفي الحافلات والميادين ودور السينما فتيات، والخير ميسور فــي كــل مكــان.. لمــاذا إذن هــذه العزيزة؟.. ها أنا أعود إلى بنت القبرصية المتشبهة بالرجال، لأجدها كما هي.. تضع رغيف الطابون في يد وحبتين من البندورة في اليــد الأخرى، تفغم من الرغيف ومن حبة البندورة، وتــدبّ علــى الأرض مثل الحصان.. تطارد الغربان والطيور، تبعدها عن شــتلات القثــاء والخيار والفول المزروعة حديثًا، تصيح عليها ثم تميل على الرعــاة البدو تلعن أباهم وأيامهم السوداء وتحذّرهم من الاقتراب من ســياج الكرم ومن أرصفة التين الشوكي التي تحيط به.. يتخــابثون عليهــا ويتعذرون بالعطش وعندما تسقيهم يسرقون من كرمها حبّات التــين والخوخ ويقتربون بجِمَالِهم من أرصفة التــين الشــوكي، فتنهــرهم وتطردهم وتطرد الطيور الطامعة.. تفغم مــن الرغيــف والبنــدورة وتصيح فتخشخش الزواحف الفائرة على الأوراق والأغصان الجافــة وتندس هاربة في السياج..

أيها المعتوه! لماذا تتعلق بهذه المجنونة التــي لا تعــرف إلا العمــل والقبرصية والصياح على الرعاة والغربان والنواطير؟! غضبت منــك وظلّت نافرة حرنة.. لم تهذبها قصص إحسان عبــد القــدوس التــي

جلبتها لها في العام الماضي! ولم تذب جليد غضبها أغـاني الحـب والشوق التي أهديتها لها!!.. مازحتها في الإجازة الماضية ودعوتها إلى السينما (إذا رآنا أحدهم حرقونا في ساحة القرية أو قتلوني مثـل المجنونة وشنقوك مثل العاشق) وشدّت رسن البغل ووجهت العربـة نحو البلدة وقالت وهي تنهر البغل (ابحث عن رفيقة غيري تأخـذها معك)..

أيقظتني سيارة الجيب من أفكاري، نظرتُ إلى مصدر الصوت الآتـي من الجنوب وعرفت أنها سيارة دورية قوات الطوارئ (هذه حاميـة الحدود، تجثم على صدورنا منذ عام ١٩٥٧م بعد انسحاب إسـرائيل من القطاع).. راقبت السيّارة وهي تتجه إلى الشمال وعدت ينظـري حيث القنطرة وكرم القبرصية..

قال أبي قبل أن يغطّ في نومه:

- موعد الجماعة بعد منتصف الليل، بعد الدوريـة مباشـرة عنـد البركة.. سلاحهم تعرف مكانه، خذ لهم شويّة فواكه..

أبي ناطور بيّارة الأفندي، بيّارة مساحتها مائتا دونم بطولها وعرضها وفي خاصرتها الغربية يقع كرمنا، كما يقـع كـرم القبرصـية فـي خاصرتها الشرقية.. وبين الكرمين بقايا هذه القنطرة العتيدة، التـي تشهد على أيام الانتداب البريطاني ومعسكرات الإنجليز. قنطرة بثلاثة أقواس كبيرة.. بقايا أقواس كانت تتدفق منها المياه في فصل الشتاء حيث ينساب وادي العزيزة. الوادي العريض الآتي من الشرق.. مـن هناك، من جبال الخليل.. يهبط إلى الغرب، يخترق النقب ويصل إلـى

حدود قطاع غزة.. يخترق القرية ثم يلــوى إلــى الشــمال مخترقًــا الحدود.. فجأة يهبط إلى الغرب ليصب في البحر الأبيض المتوســط.. هذا الوادي العجيب يجمع تضاريس الوطن كأنه ينظمهــا فــي عقــد جميل.. الجبال والصحراء والسهل، يبث في الأرض النماء، يمنحهــا الخير، ثم يلتحم بالبحر..

سألته ذات مرة:

- صحيح هذه الأرض كانت لنا؟

- صحيح! ورفع جدك قضية على الأفندي في المحكمــة بالقــدس. لكنهم زيفوا ختم جدك وبعد سنتين خسر جدك القضية.. لم يســتطع توفير مصاريف المحامي والسفر إلى القدس لمتابعة القضية.. بعــد ذلك سُويت القضية ومَنَّ علينا الأفندي بهذا الكرم.. عشــر دونمــات فقط من مائة دونم.. وكذلك فعل مع والد العابد، زوج القبرصية..

- كذلك زيّفوا ختمه وأخذوا أرضه؟

- لا! كان والد العابد يسمي "الخَيَّال" كان عاشقًا للخيل، وكان يحب فرسًا له مثل زوجته.. ويقال إن أحدهم دسّ لها السم.. وفجأة ماتت الفرس. فبحث الخيّال عن شبيهة لها، وطاف البلدان باحثًا عن البديلة وعثر عليها في حظائر خيول الأفندي، التي كانت في قريــة هــوج.. وعندما رأوا تعلّقه بها قايضوه على الأرض. مائة دونم مــن أفخــم أراضي البلدة.. وهكذا بصم على البيع واحتفظ فقط بعشرة دونمــات يتيمة..

- طيب ليش بتشتغل عندهم؟

- علشان بأحس إنها لسّه أرضي! أنا مكنتش مولود لما خسر جدك القضية ورضي بهذا الكرم.. حدثتني جدتك بكل التفاصيل وأخبرتني أنني ولدت هنا على هذه الأرض بعد ذلك بشهور.. كانوا في موسم الحصاد عندما جاءها المخاض ونقلوها إلي "المنطرة" وظللت النسوة عليها وحجبت عيون الحصّادين.. وعندما صرختُ باكيًا قال جدك: هذا عوضنا.. هذا عوض الشّاهد.. ثم مات بعدها بعام واحد!! مازلت أشعر أنني صاحب الأرض.. أتَفْهمُ الآن لماذا أقبل هذه المهنة؟ (بيّيرجي) أدير البابور وأملا البركة وأراقب العمال والسقاة وأخَدم على أسرة الأفندي، وأحرس البيّارة من اللصوص والطامعين والبدو.

- لكنها مش أرضنا وأرض الخيّال فقط!

- صحيح!! ثلاثة أرباع أرض البلد لهم! اسمع إذا أردت تفاصيل هذه الأشياء إذهب إلى الشركسي نجاتي السبروت، إنه يعرف كل شيء ويحتفظ بكل الأشياء. الأسماء والأوراق والأرقام.. وبيعرف أنساب البلد كلها.. أصلهم وفصلهم ومن أين جاءوا، كل هذه الأشياء يعرفها. أنا كل ما أعرفه أنه كان لجدك ثلاثة قراريط من الأرض، قيراط ونصف هنا، وقيراط ونصف في أم الغزلان.. هناك إلى الشرق.. أيه.. هيا هيا هذا موضوع طويل.. هيا انهض إلى دروسك.

نهضت وسرت بمحاذاة السياج نحو البركة التي ملأها أبي بالماء منذ العصر. بركة كبيرة، حمّام سباحة جميل ينتظرني في كل صيف لأستمتع به في منتصف الليل. بركة مربعة عشرة أمتار في عشرة أمتار وعمقها متران ونصف تحيط بها نباتات عبّاد الشمس

والياقطين.. بجوارها غرفتان.. واحدة كبيرة تسمى "بيت البـــابور".. ويقبع فيها "البابور" محرك ماركة ستين حصانًا يشبه البغل الأسود.. رُكِبّتْ على يمينه عجلة كبيرة تتوسطها عجلة صغيرة يلتف حولهـــا سير جلدي عريض، يمتد حتى "الطلمبة" مضخة رُكبّتْ على فوهة بئر قطرها ثلاثة أمتار.. في النصف الشرقي من البئر يهبط سُلّم حديدي، يستخدمه العمال للنزول إلى البئر لإصلاح الأعطال.. وفـــي النصـــف الغربي من البئر هناك ثلاثة تروس متصلة ببكرة يلتف حولها السير الجلدي العريض، الآتي من المحرك. اتصلت بالتروس ثلاثة صبّابات. أعمدة حديدية تهبط إلى قاع البئر لتسحب الميـــاه، وتضـــخها فـــي ماسورة كبيرة، تصعد حتى تخرج من "بيت البـــابور" متجهـــة إلـــى البركة، وقبل أن تصل إلى البركة تتفرع منهـــا ماســـورة بجوارهـــا مَحبْس يُستخدم في تحويل المياه.. تتجه الماسورة إلى الشرق حيـــث أعلى بقعة في البيّارة وهناك تنتهي على حوض كبيـــر تتفـــرع مـــن أسفله أربعة جداول إسمنتية، يتجه كل منها إلى ربع من البيّارة.. إلى الشمال، ربع الكيرفوت، وإلى الجنوب، ربع البلنسية، وإلـــى الغـــرب ربع الليمون، أما في الشرق فيتجه الجـــدول الإســـمنتي إلـــى ربـــع البرتقال البلدي.. يدير والدي العجلة الكبيرة ببطء، ثم يســـرع أكثـــر وينزل عتلة في وسط "البابور" فينطلق هادرًا مدويًا.. بعد قليل يـــزيح أبي السير الجلدي العريض بعتلة حديديـــة إلـــى البكـــرة المتصـــلة بالتروس، فتدور التروس الثلاثة وتعمل الصبابات كالعفاريت، هابطة صاعدة ثم تتدفق من الماسورة مياه قوية، وتنتظم ضربات "البـــابور"

بصوت مألوف، فيقول النواطير والرعاة "اشتغل بابور الأفندي".. منذ أربعة أعوام وأنا أقوم بهذه المهمة بدلاً من والدي.. أدير العجلة الكبيرة يتفحص والدي زيت البابور، ثم يسقط العتلة لينطلق الهدير.. والغرفة الثانية، تُخزن فيها براميل الوقود وأكياس السماد وبعض الحاجيات والأدوات.. وعلى مقربة من البركة، حديقة عامرة، خاصة بعائلة الأفندي.. تحتوى أربعة أصناف من الحمضيات،.. ثلاث أشجار من "دم الزغلول" الذي يحبه الافندي، وثلاث أشجار من اليوسفي، الثمار التي تحبها زوجة الأفندي، وثلاث أشجار من "أبو صرّة" الذي تحبه ابنة الأفندي، وثلاث أشجار من ليمون "البنزهير" الذي يحبه ابن الأفندي. بجوارها ثلاثة أحواض من الورد وثلاث شجرات من الرمّان، جلبها الأفندي من بلاد الترك.. وهذه الثمار اللذيذة أتذوقها أنا ابن "البيّرجي" قبل الأفندية..كأن هذه البركة قد أُعدّت لتحقيق هدفين: ري هذه الحديقة "الأفندية" الخاصة ولأستمتع بها أنا العبد الفقير ابن الفقير في أيام الصيف القائظة..

خشخشة في سياج كرم القبرصية، ثم ثلاثة رجال يعبرون القنطرة القديمة، في اتجاه كرمنا.. يسيرون بمحاذاة السياج نحو البركة. وعندما التقينا تعانقنا ثم جلسنا بين حوض الورد ونباتات عبّاد الشمس التي حجبت عنا الحدود.. قلت بعد أن وضعت سلة الخوخ بينهم:

- رحم الله الكتري كان يحب الخوخ المعطّر..

- الله يرحمه.. بعد الاشتباك جُرح منا عند مستعمرة الغصين، كنا قد اقتربنا من الوادي، حملناه حتى هذه البركة، ولفظ أنفاسه الأخيرة هنا، في هذه البقعة.

وسألني أبو الكاس:

- كيف حال حبيبنا عبد الناصر؟

- بخير..

وعلّق أبو ثابت:

- بخير لولا حرب اليمن، لقد جروه إلى ورطة، مستنقع؟

وأردف أبو شاويش:

- والجنيهات الذهبية السعودية تعمل عملها هناك..

- كيف حال الوطن في الداخل؟

- بخير، هناك حشودات على الحدود مع سوريا، إسرائيل مذعورة من قصة تحويل نهر الأردن وبناء السد هناك..

ربّت أبو الكاس على كتفي، شعرت بيده حانية ودودة، ابتسم ثم قال:

- شكرًا على هذه الفاكهة اللذيذة، وعندما نعود سنحكي لك عن كل ما ترغب في سماعه، وإن شاء الله نحضر لك هدية جديدة.. كالعادة هنا بعد ثلاث ليالٍ وفي نفس الموعد – إن شاء الله – والآن نستودعك الله.. نريد أن نقطع قبل موعد الدورية الثانية..

أخرجتُ أسلحتهم وعتادهم والذخيرة وحقائبهم الخاكية التي تحوي زوّادة الطريق من داخل نباتات الياقطين.. وسلّمت عليهم ثم راقبتهم حتى نزلوا إلي الوادي وانسلوا إلى قلب الوطن..

استلقيت على ظهري وقد ملأتني النشوة وراودتنـــي الرغبــة فـــي الغناء.. طردت الفكرة من رأسي، فالحدود قريبة والليل ساكن فضّاح والمنطقة تغط في سبات بعد ضجيج أصــوات "البــوابير" المختلطــة بأصوات النواطير والرعاة.. وعندما هممت بخلع ملابسي خشــخش سياج القبرصية مرة أخرى! يا إلهي! من يجرؤ على اختــراق هــذا السياج غيرهم؟ البدو الذين ينصبون خيامهم بالجوار لا يجــرؤون.. ولا النواطير قد فقدوا عقولهم ليفعلوها! حتى العفاريت لا تجرؤ على الاقتراب من سياج القبرصية! خاصة في هذه الأيام الحافلة بالفاكهــة والصناديق المملوءة بالخيرات! كيف يجرؤون على الاقتــراب مــن القبرصية والعزيزة معها؟.. هل تكون العاشقة المجنونة؟ مــا هــذا الهراء؟ لا أؤمن بالخرافات ولا بقصص المقتولين الــذين يعــودون ويظهرون في أماكن موتهم.. يبكون ويصــرخون ويتجولــون فـــي المكان باحثين عن أحبّتهم المغدورين.. من خرج من الســياج لابــد وأن يكون إنسيًا، من لحم ودم.. تواريت خلف البركة وراقبت القــادم وقد عبر القنطرة واتجه حيث البركة تمامًا.. اقتربتْ ودنتْ وتبينــتُ هيئتها ومشيتها.. إنها العزيزة! يا إله الكون هل أصــدق عينـــي؟.. اختفيتُ خلف نباتات اليقطين والتصقت بجــوار البركــة ثــم كتمــت أنفاسي.. وفكرتُ: ما هذا الجنون؟ فتاة في السابعة عشرة، ناضــجة طافحة بالأنوثة، في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل هنا؟ في هــذا المكان القصي البعيد عن العالم، على بعد أمتار من الحدود؟ ماذا لــو خرجت عليها الذئاب؟ أو داهمها البــدو أو اللصــوص أو النــواطير

الطامعون؟ فتاة تأتي بمفردها إلى البركة مثل الجنيات؟ لو قرأت هذا في قصة لما صدقت؟ أو لاعتبرت ذلك جنوحًا إلى الخيال أو تصــويرًا غريبًا انبثق عنه ذهن الكاتب. فتاة قروية هي العزيزة بنت القبرصية تجازف وتدخل بيّارة الأفندي بعد منتصف الليل وتصل إلـــى البركـــة! لا.. لا.. هذا غير معقول!! وعندما اقتربتْ خطواتها ووصـــلت إلـــى حافة حوض الورد، كان التساؤل قد استقر في رأسي: هـــل رأتنـــي وجاءت من أجلي؟!

دخلتْ بين نباتات عبّاد الشمس ونظرتْ إلى اليـــاقطين، دارت حـــول البركة ثم عادت لتقول بصوت خافت مرتعش:

- برهوم أخرج.. أنا عارفة أنك موجود.. خلص.. أنا خايفة ومـــش قادرة أتحمل..

خرجت من بين نباتات الياقطين فارتمت في حضني وضمّتني إليهـــا بقوة. قبضت على عنقها وقلت:

- مجنونة.. أنت مجنونة! أيش اللي جابك هان؟
- برهوم بحبك..
- ليش جيتي هان.. ردّي؟

وقذفتها بعيدًا عني.. تحسّستْ رقبتها وجلستْ علـــى حافـــة حـــوض الورد ثم قالت بصوت متقطع:

- مش حتصدقني لو قلت لك مش عارفة كيف وصلت هان! صحيت ونظرت إلى القمر فوجدته مكتملاً باهرًا.. أذهلني المكـــان والهـــدوء والجو والعزيزة.. خطرتْ ببالي، شعرت أنك لابد في هـــذا المكـــان،

أعرف مواعيدك وشغفك بالسباحة في البركة في مثل هذا الوقت.. صدقني لم أقصد المجئ إلى هذا المكان، لكن قدميّ قاداني إليه..

اقتربت منها ومسدت شعرها وتحسست رقبتها وخديها ثم نفضت يدي بسرعة.. قلت وأنا أحاول الابتعاد عنها:

- عجيب! تَصُدينني عقابًا لنزوة عابرة أغرتني بها حبة برقوق معطرة! مازحتك ودعوتك لمشاهدة فيلم سينمائي، قلت سيحرقوننا ويفتكون بنا وهربت!! تتحاشين النظر إليَّ وتهربين مني ومن محادثتي.. تخشين أن تلامس يدي جسمك!! أسعي إليك وأهديك القصص والكتب وزجاجة من العطر، وتبقين جامدة نافرة حرنة.. أدخلتيني في حيرة عامين كاملين.. والآن، الآن في هذا المكان وفي هذه الساعة بمفردك وحدك، تأتين راغبة واهبة، تقامرين بكل شيء.. لماذا؟

- هكذا فعلت بطلة القصة!!

- أية بطلة؟! وأية قصة؟!

- القصة اللي أهديتني إياها! كانت تستيقظ عند منتصف الليل بعد أن تسمع نداء حبيبها الذي يسكن الطاحونة المهجورة. تعبر الجسر وتسير عبر الطريق المليئة بالأشواك لتصل إلى الطاحونة.. وهناك تلتقي حبيبها وتسهر معه حتى الفجر. يتناجيان ويتعانقان ويرشفان من الشهد حتى يشبعا ويرتويا، ثم تعود أدراجها وتندس في فراشها راضية مرتوية..

- هذا جنون، تلك قصة خيالية، وحبيبها كان جنيًا! أنا مش جنـــي! أنا إبراهيم بن عوض الشّاهد، "بيّرجي" بيارة الأفندي، وأنت عزيــزة أمك القبرصية، وأبوك عابد الخيّال.. إحنا من طين هذه البلدة مــش من الجن.. هذا جنون أنا مش مصدق اللي شايفه أنت فعلاً عزيــزة بنت عابد الخيّال؟ ولا واحدة ثانية بتشبهها؟ وهل ما أنا فيه حقيقة أم خيال؟

- أنا هي بلحمها وشحمها يا برهوم.. أتعذّب منــذ وصــولك مــن مصر.. عندما ضربتك اليوم بالصندوق في خاصرتك بعد أن رأيتــك تتحدث مع المرأة المصرية أصبت بالغثيان، وانبثقت كل الشياطين من داخلي.. هربتُ إلى آخر الكرم حيث شجرة التــين الكبيــرة، بكيــت، وبكيت وأفرغت كل الدموع التي حجبتها سنتين كــاملتين، وعنــدما لحقت بي أختك فاطمة لتخفف عنــي بكيــت أكثــر.. بكيــت مثــل المجنونة.. بكيت حتى أنني لم أسمع صوت أمي تناديني وتلعن كــل بنات هذا الجيل.. وعندما كنت قد جففــت دمــوعي ورددت عليهــا، تأكدت أنك لم تعشق سواي ولم يذهب قلبك إلي غيــري فقــررت أن أنهي صدي لك، قررت أن ألوذ بك منك، أن أروي ظمأك وأن أرتوي منك، أسقيك من شهدي وأرشف شهدك، لن أحرمك منى بعد اليــوم أنت قدري وسأتركك تفعل بي ما تشاء!!

كانت تقترب مني وتحاول الالتصاق بي، أبعدتها عني وقلت:

- يا إلهي!! أنت حافظة كلمــات بطلــة القصــة تمامًــا، وكمــان بترتعشي، مثلها!.. أيتها القروية الساذجة، أيتها العزيزة "المســكينة"

من أين جئت بهذا العشق والهيام؟ من أين جئت بهذا الشبق مرة واحدة؟ تبًا لك ولهذه الليلة الملعونة؟؟

وأزحتها بعيدًا، ثم مشيت إلى نباتات عبّاد الشمس وأنا لا أكاد أسيطر على نفسي، ولا أصدق ما يحدث..!!

- أنت لا تحبني إذن!

عدت إليها، وأمسكتها وهززت كتفيها:

- بحبك، بحبك يا مجنونة، لكن مش بهذه الطريقة هيا.. هيا عودي إلى أمك.. إذا استيقظت ولم تجدك ستفضح الدنيا.. أما إذا استيقظ عمك عوض الشّاهد فستكون الليلة أسود من غراب البين.. حتى هذا القمر سيصبح مثل القطران..

ودفعتها بيدي في كتفها فسارت بطيئة منكسة الرأس، ولم تدب بقدميها على الأرض وعندما خرجت من حوض الورد التفتت إليَّ قائلة:

- سامع؟

- سامع أيش؟

- بكاء العزيزة!.. بتنادي حبيبها وتصيح باحثة عنه، تريده أن يطفئ شوقها.

- بلاش تخريف وهذيان.. هذا نباح كلب البدو في الجوار، روحي.. روحي قبل أن تفقدي بقية عقلك..

راقبتها حتى وصلت إلى القنطرة القديمة ودخلت السياج.. خلعت ملابسي وتعلقت بالماسورة، ثم قفزت إلى بركة الماء..

(٧)

عزيزة الخيّال

أكاد أنكر أنني فعلتُ ما فعلت.. عليَّ الآن أن استعيد ما حدث في تلك الليلة المشئومة.. استعيده وأرتبه، ثم أحاول استيعابه!! لماذا فعلت ذلك؟ هل كنت واعية مدركة لما قمت بفعله؟ تختلط الأمور في رأسي لدرجة أنني لم أعد قادرة على تفسير الأشياء والتصرفات.. أعترف أن جزءًا كبيرًا مما فعلته أقرب إلى تصرفات المجانين.. والغريب أنني لم أخبر أحدًا!.. منذ أن سقطت سلة الفاكهة مني، في ذلك اليوم القائظ، وبرهوم يدغدغ جسمي الطري، ويعصر نهدي الفائر.. منذ أن قبلني تلك القبلات الساخنة الملتهبة.. لم تكونا قبلتين؟ بل أربع قبلات ساخنة شهية جعلتني أجثم على ركبتي وأسقط السلة من يدي..

- لم تعودي صغيرة.. حافظي على نفسك..

قالت أمي ذلك، بعد أن لاحظت انتفاضة الأنثي في جسدي.. ومنذ ذلك اليوم وأنا مطاردة، ملاحقة، مستهدفة.. ملاحقة بنظرات وغمزات وخبث ذلك المتصابي جميل حب الرمّان.. اسم مضحك.. هذا الذي تسمّى على اسم أمه "الجنكية" يلاحقني مثل الكابوس.. يغمز بعينه..

ثم يتجرأ أكثر، ويمدُ يده، يلامس نهدي.. رجل مدوّر الوجه.. ينتف كل شعرة في وجهه.. فيبدو وجهه نسائيًا..وجه امرأة تهيأت لزوجها.. بل مثل وجوه الراقصات والجنكيات.. لعله يشبه وجه أمه "الجنكية" يضحك فتبدو سنّهُ الذهبية.. يتثنى فتتضاحك النساء وينهره الشيوخ ويلكزونه بعكاكيزهم ويضربونه على مؤخرته.. ماذا أفعل؟ كيف أتدبر هذه المصيبة؟ إني حائرة!.. أأخبر أمي؟ فتغرز تلك "الشبرية" في صدره.. يموت وأصبح أنا نذير الشؤم وأصير لبانة في أفواه أهل البلدة كلهم!! أأخبر عمي عوض؟ فيشق رأسه بذلك النبوت الطويل، وينتهي الأمر بموته، أو بعاهة مستديمة تقعده.. وتحدث نفس النتيجة: الشؤم والسيرة الحلوة التي تلوكها الألسن!! أأخبر إبراهيم وأضع كل همومي بين يديه؟.. يقتل الرجل أو يظن بي الظنون! أو يحسب أنني أخترع حيلة لأجعله يسرع في خطبتي!.. لماذا لم يخطبني هذا المجنون، ويخلصني من هذا العذاب؟ لماذا لم يفعلها حتى الآن؟.. حتى الفاتحة! لم يقرأوها لأنتظره مطمئنة طوال عمري! لو فعلها لأسكت ذلك المخنث وألجم تصرفاته.. كان جميل حب الرمّان يكمن لي عند دكان صديقه خليل بصبوص الذي يقع في طريق الساقية.. أملأ الجرّة وأعود فيستقبلني حب الرمّان بعباراته وتأوهاته.. "لك مستقبل يا غزال".. "أحضنك ليلة وأموت".. أنا خيّالك يا فرس". "لأركبك لو آخر يوم في عمري".. حتى زوجة صديقه!، تلك اللعوب سماهر، التي أحضرها خليل من الجنوب وأجلسها معه في الحانوت.. تلوك اللبان وتتقصع للشباب.. تغمز وتتعطر، "تتبودر"

وتقف بجواره، وقد نتفت وجهها ومشّطت شعرها؟ ووضعت على رأسها منديلاً ملونًا.. تسقطه إلى الوراء لتظهر شعرها المسترسل المدهون بالزيت.. تتقصّع وتتثني وتغنج، ويبيع خليل بصبوص الدخان والسكر والشاي وأشياءً أخرى.. يصر عمي عوض على أن يسميه "أبو سامر" وليس هناك سامر ولا سامرة. لم ينجب من ثلاث نساء.. ولم تُعمر معه امرأة واحدة.. تقرصني سماهر في صدري:

- "والله احلويتي يا عزيزة.. وجسمك تدوّر (تضحك وتغنج): أبو سامر نفسه فيكي يا بنت.. "أستوى الرمّان يا عزيزة وطلب الأكّال.."..

- استحي يا سماهر.. وبلاش قلة حيا.. أما صحيح مرة ناقصة.. والله لأقول لأمي ولعمي عوض..

وأنصرف غاضبة مرتبكة.. لكنني لا أخبر أمي ولا عمي عوض، فتعود سماهر إلى قلة الحياء، ويعود جميل حب الرمّان إلى التأوه وإلى العبارات التي تزلزل كياني وتزرع الرعب في جسمي.. ماذا أفعل؟ من يشعر بي وينقذني من هذه المصيبة؟

قلت لفاطمة أخت إبراهيم، التي تصغرني بثلاث سنوات، لمَّحي لأمك عن خطبتنا أنا وإبراهيم قبل سفره إلى مصر.. لكنها عادت بإجابة فاترة مقلقة:

- أبي ما بيفكّر في هذا الموضوع الآن!.. قال عندما يتخرّج إبراهيم من الجامعة يفرجها الله، إن شاء الله تكوني من نصيبه.

قبل أن أتهوّر وأطلق العنان لشيطان غضبي على إبراهيم، بعد حديثة مع المرأة المصرية، عصرني جميل حب الرمّان تحت شجرة الخوخ، ومدّ يده إليَّ.. إلى صدري وهمّ بتقبيلي.. بصقت في وجهه وأفلتُ من بين يديه بصعوبة، ثم بكيت.. كان يومًا للبكاء.. ماذا أفعل غير البصق في وجه هذا المتصابي، ونعته بأقذر الصفات والبكاء.. عبّرت أمي عن عدم ترحابها به في أكثر من مناسبة.. وعمتى هنية، أم إبراهيم، لا تقبل حتى سماع سيرته "مركب سن ذهب مثل النوريات، ويتقصّع مثلهن".. لكن عمي عوض لا يستمع لأحد ويُصر على إحضاره في كل موسم ليعمل معنا.. نهرب منه في القرية، فيحضره عمي عوض إلى العزيزة!.. "صوته جميل، يخفف عنا التعب" آه يا عمي عوض! أنت لا تعرف هذا النذل.. لا تعرف هذا الشيطان الحقير!.. عليَّ أن أرتب الأشياء مرة أخرى، أرتب الأشياء الغريبة التي حدثت.. لماذا تشددت أمي معي وبالغت في حذرها وحيطتها؟ لماذا تصر على تضييق الخناق عليَّ ولا تسمح لي بأبسط الأشياء التي تقوم بها الفتيات مثلي؟.. لا تسمح إلا بملء الجرّة وقضاء الحاجات الضرورية فقط! حتى الأفراح وليالي الحنة، لا تسمح لي بحضورها!.. هل ما تقوم به مجرد حرص من أم، لها بنت واحدة، بنت يافعة فائرة بالأنوثة مثلي، مجرد أم تخشى على ابنتها من أولاد الحرام؟!

لماذا يصر عمي عوض على تأجيل الحديث عن الزواج والخطبة، أو حتى قراءة الفاتحة؟.. ولماذا لم يبادر إبراهيم بفعل أي شيء، وهو

الذي يحبني ويشتاق لي دائمًا؟ لماذا لا يأخذني معه، أكون برفقتــه، خادمة له، بل حبيبته وصديقته؟

ولماذا يصر هذا الحقير جميل حب الرمّان على ملاحقتــي وتنغــيص عيشتي؟ لماذا اختارني أنا من بين بنات وصبايا هذه البلدة كلهــا؟.. لماذا سَخّر نفسه لمطاردتي ورشقي بسهامه السّامة الشريرة؟..

ثم لماذا ذهبتُ إلى البركة في تلك الليلة الملعونة؟ لماذا ذهبتُ إليــه في ذلك الوقت بالذات؟ عليَّ أن أرتب الأشياء.. ها أنا أرتبها.. أذكــر أنني نهضت من نومي مذعورة.. نهضت على صوت، بــل بكــاء.. العزيزة.. أدرك وأعلم أن العزيزة لم تعد كما كانت!.. غارت العــين منذ سنين.. نضبت المياه وتهدّم الجدار الصخري المقوّس.. لم يعــد الوادي حافلاً بالرعاة والحصّادين والحرّاثين والصبية الذين يلتقطون السنابل وراء الجمال.. لم يعد هناك سوى المياه الضحلة والــدبابير والحشرات والسحالي.. تحولت الكروم المحيطة إلى بيّارات صــغيرة وهدرت أصوات البوابير وتدفقت المياه في كل مكان.. لم تعد العزيزة استراحة الحصّادين والرعاة ومطفئة عطشهم وقيظهم! لم يعد هنــاك من يبكي ويصرخ ويطلب الحبيب ويستدعيه ليطفئ شوقه.. تهــدّمت "العزيزة" وتهدّم جدارها.. أعرف ذلــك.. لكننــي ســمعت صــوتها وبكاءها!! هل كان ذلك خيالاً؟ وهمًا؟ أذكر أنني سمعته وسرت علــى القنطرة، بقايا القنطرة القديمة الهابطة في الوادي.. دخلت الســياج، سياج بيّارة الافندي.. هل سرتُ نحو البركة، لا أذكر بالضبط؛ لكنني أذكر أحواض الورد!! أذكر نبات الياقطين!! أذكر إبراهيم يخرج منــه

ويقبض على عنقي.. اذكر أنني ارتميت في حضنه ودسست رأسي في صدره، وأذكر أنه قذفني بعيدًا عنه.. كيف حدث ذلك، كيف أنسي ذلك، وهل فعلاً حدث ما حدث كما أرويه؟ من يُصبرني، من ينقذني من هذا الهذيان!.. نعم هذيان؟ هذا ما قاله بالضبط! "هذا تخريف وهذيان". وطلب مني أن أعود إلى أمي.. وعُدت إليها منكسة الرأس، مثل صبية غرة أسقطت جرّتها الصغيرة.. "عسليتها" كسرتها ولم تستطع المحافظة عليها!..

عندما قرأت قصة العاشقة التي أهداني إياها شعرت بالراحة، بل بالنشوة.. هل كانت القصة سببًا في ذهابي إلى تلك البركة في تلك الليلة؟ هل سحرتني البطلة وأخذتني إلى البركة؟.. لماذا لا أبحث في هذا الاحتمال؟ أذكر أنني قلت ذلك عند البركة.. لكن هل هي الحقيقة؟.. هل سيّرتني القصة وبطلتها ودخلت في السياج وذهبت إلى البركة تحت تأثيرهما؟ لا أجزم بذلك!! بل لا أصدق ذلك البتة!.. قرأت القصة قبل تلك الليلة المشئومة بأسبوع.. وقرأت قصصًا عديدة بعدها.. لم تكن تلك القصة في ذهني، ولم تكن بطلتها ساحرتي.. لا.. أنا أحاول أن أجد المعاذير وأبحث عن التبريرات!!.. إذن لماذا ذهبت إليه في تلك الليلة؟. لأتخلص من شيء ما! نعم، بالضبط كنت أريد التخلص من عبء ما، عبء ثقيل يجثم على صدري! عبء ثقيل ألقيه في حجره، أسقطه بين يديه! "أنوثة طافحة وعاشق محروم" يا إلهي! ها أنا أعود إلى تلك القصة، وأكرر عباراتها ماذا لو أطاعني إبراهيم؟! لو استسلم ورضخ لنزوتي، لشبقي المفاجئ؟!.. ماذا لو

استسلم إبراهيم لشهوتي المحمومة المكبوتـــة؟ مـــاذا لـــو استســـلم لأشواقه التي لمستها في يديه وصوته وارتعاشة بدنه؟ ماذا لو تم لي ما أريد؟ لكن ما الذي كنت أريده بالضبط؟ أن يجردني من ثيـــابي!.. ينهال عليَّ، ويلثم نهدي في ضوء القمر! يتمرغ في شعري وجسدي ويقطف كل ثماري!.. أن أرتوي وأن يفعل هو ذلك!! أهذا مـــا كنـــت أريده؟ ماذا لو تحقق ذلك؟ هل كنت سأستريح؟ أستريح وأعود لأندس في الفراش مطمئنة؟ أعود مرتاحة لأنني تخلصت من "عبء الأنوثـــة الثقيل" مثل بطلة القصة؟! أم أنني كنت سأعود وأفعـــل مـــا تفعلـــه القرويات الساذجات الساقطات في الخطيئة؟.. القرويـــات البائســـات المخدوعات المنزلقات في الوحل؟ أعود وأسكب على جسمي صفيحة الكاز، ثم أشعل عود الثقاب في شعري وصدري، وأترك النار تأكـــل جسدي، تأكله وتحرق خطيئتي ونجاستي، وتطهرني حتى المـــوت!! هل أنقذني إبراهيم من هذا؟ هل أنقذني من جنوني؟ هل كنت مجنونة وكان هو عاقلاً؟ من كان منا على صواب و من كان على خطأ؟ لـــم أعد أعرف! ولم أعد قادرة على ترتيب الأشياء واستيعابها!!.

بعد عودته من السوق ذهبتُ إليه.. لكنه صدّني بقسوة وهرب مـــن مواجهتي:

- بدي أحكي معك..
- لم يعد بيننا حديث!
- إبراهيم لابد أن تسمعني.. بدي أشرح لك بعض الأمور..

- بديش اسمع مجانين.. لما يرجع لك عقلك يفرجها الله..

وعند العصر، جاءت فاطمة.

- الليلة سامر البدو.. هل تذهبين نتفرج؟

- أستأذن أمي، وإذا وافقت نذهب..

- ما بك يا عزيزة؟ تبدين غير طبيعية!.. يا شيخة لا تتأثري من كلام عمك عوض.. غدًا يروق الحال.. ويعود إبراهيم بشهادته وتتزوجان وتنجبان الصبيان والبنات، وتعيشان في تبات ونبات..

- أحلام!!

- لا تكوني متشائمة.. هه.. ما هذه "الشبرية"؟.. أليست هذه "شبرية القبرصية"؟..

- نعم هذه شبرية أمي..

- لم تحمليها من قبل!!.

- مجرد صدفة.. كنت أقطع بها بعض الخضراوات..

أمام الخيمة البدوية الكبيرة عُلّق فانوسان.. جلس الرجال على فراش أرضي مخطط، يتوسطهم رجل يحتضن ربابة.. دارت فناجين القهوة السادة ورحب البدو بعمي عوض وابنه الجامعي إبراهيم.. وجلست أنا وفاطمة وسط الصبايا البدويات؟ نتفرج، وقد أنزلنا ذلك الساتر الذي يحجبنا عن الرجال.. تناول الرجل ربابته "حن" عليها فأصدرت صوتًا يشبه البكاء، ثم أخذ ينشد:

الصلاة ع النبي روحى فداه   ألفين صلاة على ذاك النسابِ

يا إله العرش يا حامي الحمى   تفرّج الشدّات عنّا والصعابِ
تسقط الرحمات، رحمة برضاه   يا إله العرش ترفع هالعذابِ

عندما فرغ الشاعر من قصيدته، دارت فناجين القهوة من جديد.. وأثنى الحاضرون على قصيدته المؤثرة.. وبعد قليل نهض بعض الرجال وبدأوا يصطفون، مصدرين همهمة تشبه الفحيح فهمست صبيّة من البدويات إنها الدحية:

دحيّة.. دحيّة.. دحيّة

ع الألف وألفته يا خوي..   ع الحروف الألفية

دحيّة.. دحيّة.. دحيّة

ع الباء إبتليت بحبّه   ..   أبو العيون العسلية
ع التاء تهتهتوا عقلي   ..   يا ربعي ردّوا عليه
....
ع الذال ذلّي يا نفسي   ..   وصيري للزين مطيّة
ع الضاد ضلّت دروبي   ..   والحلو ما وصل ليّه
ع الهاء هالت دموعي   ..   زادت همومي عليّه

ودخلت امرأة ملفوفة بالسواد، مثل الشبح.. وأخذت تطوّح بسيف أمام المصطفين.. فازدادت الهمهمة وضرب الرجال على أكفهم بقوة..

نهضت في هدوء وتسللت من خلف الخيمة الكبيرة. اتجهت نحو الوادي حتى وصلت "العزيزة".. أخذت كيسًا من الخيش وضعت فيه حبلاً ثم تقافزت طائرة نحو القرية..

كان ضوء القمر خافتًا وسيطر الهدوء على المكان، هدوء لا يقطعه سوى نباح كلب، أو خشخشة سحلية، أو أزير حشرة.. ها هي أشجار الكازورينا تنتشر على ضفتي الوادي مثل الأشباح الكبيرة.. أحفظ هذا الوادي شبرًا شبرًا.. هذه بقايا القنطرة.. وهناك إلى اليمين، العزيزة بجدارها المتآكل.. بعدها هناك المنحنى الواطئ الصغير، بقايا كهف كنا نختبئ فيه صغارًا.. وهناك كروم الجعيدية، لم يحولوها إلى بيّارات.. وتلك بيّارة الصوالح.. وإلى اليسار هناك.. أرض حمدان التي زرعها من جديد بالحمضيات.. وذلك هناك بيت البابور. وهناك يتحول الوادي إلى الشمال.. أعرف كل شبر في هذا الوادي وأحفظ تضاريسه عن ظهر قلب؟ ويمكنني أن أسير فيه مغمضة العينين.. لماذا تلازمني هذه الرعشة إذن؟ لماذا هذا الخوف؟ هل أنا خائفة حقًا؟ نعم! أنا خائفة، وأخشى شيئًا واحدًا فقط، أخشى شيئًا مرعبًا فظيعًا!! أن تكتشف "القبرصة" أمري! أن تعلم أمي أنني ذهبت في هذه الليلة إلى القرية بمفردي.. ماذا ستقول؟ ماذا ستفعل؟ قد تقتلني وتتخلص مني؟

عندما وصلت إلى المنعرج خُيل إليَّ أنني سمعتُ صوتًا، صوت أقدام تقريبًا.. هل يسير أحدهم في إثري؟ هل يتعقبني شخص ما؟.. وقفت.. التفت.. لم أر أحدًا..ولم أسمع صوتًا.. سرت.. صعدت من الوادي واتجهت إلى القرية.. عندما وصلت إلى دكان خليل بصبوص كان جميل حب الرمّان هناك ضاحكًا مشرقًا كعاته.. مررت من أمامه وابتسمت ثم أومأت برأسي.. ترك الحانوت وتبعني.. سرت أمامه في

الزقاق واتجهت إلى شجرة الجميز الكبيرة.. وعندها وقفت وانتظرته. ابتسمت، فهشّ منتعشًا.. تظاهرت بالليونة وبسرعة ألصقته إلى جذع الجمّيزة وغرزت "الشبرية" في رقبته.. وأمرته ألا يتنفس.. وقبضت على عنقه، ثم أخرجت الحبل، وبسرعة درت حوله أربطه وأشدُّ وثاقه إلى جذع الجميزة.. حاول التخلص من الحبل فطعنته في ذراعه مرتين، تأوه وهمد فعدت إلى لف الحبل، وأحكمت وثاقه:

- والآن أيها الخنزير الحقير.. تفه.. أيها النذل.. إيّاك أن تلاحقني أو تنظر في وجهي مرة أخرى.. إيّاك أن تتفوه بعباراتك القذرة أو تتجرأ وتلمسني مرة ثانية.. هه تفه.. فاهم يا كلب؟

- فاهم.. فاهم..

كنت أبصق في وجهه وأرتعش.. ألفُ الحبل حوله وأرتعش.. وأكيل له الشتائم وأرتعش.. وفجأة وجدت من يمسك يدي من الخلف وينزع الشبرية مني.. انتفضتُ ونظرتُ، فإذا هو إبراهيم!! ربّت على كتفي.. بصق في وجه حب الرمّان المتأوه.. أحكم الحبل على وسطه وأوثق يديه.. ثم جذبني من يدي وأنصرفنا..

سرنا في الوادي صامتين.. لم أتكلّم كلمة واحدة.. كنت أبكي.. بل كنت أنتحب وأذرف الدموع في صمت، وعندما وصلنا "العزيزة" وقف، مسح دموعي.. تشجّعت وقلت:

- برهوم عدني أن تظل على حبك لي..

- وأنت عديني أن تظلي مجنونة

وقبلني ثم صعد الدرجات الصخرية قفزًا..

(٨)

خالد الرّبيع

تقاطر الشباب على نادي المخيم، وخلال ساعة كانت القاعة قد اكتظّت، ووقف صفان طويلان على الجانبين.. صدحت الأناشيد الوطنية وانتشرت اللافتات والملصقات على الجدران، وبهدوء، اندسّ رجال المباحث يتفحصون الوجوه ويتابعون التفاصيل.. جلسنا، أنا وعبد الله الشريف وإبراهيم الشاهد متجاورين.. تبادلنا التعليقات على الشعارات والأشخاص، وبعد لحظات قدّم عريف الحفل الأستاذ القومي المعروف.. كانت خطابات الأستاذ رأفت شعبان تبدأ دائمًا بالهجوم على "الأنظمة الرجعية العميلة للاستعمار".. لكنه فاجأ الناس هذه المرة، وحوّل الدفة إلى "الأنظمة الدكتاتورية الفاشية العميلة للاستعمار".. وصفّق الحاضرون وهتفوا ورفعوا الزنود.. في المرحلة الثانوية، كنا نصفق ونهتف بجنون، كنا نصفق للجميع، ونهتف ونردد وراء الجميع.. التهبت حناجرنا وبُحّت أصواتنا وكلّت زنودنا.. واجهنا الرصاص بصدورنا، وتسلقنا الجدران والأبنية والأعمدة.. وأنزلنا أعلامًا وصورًا، وأحرقنا أعلامًا وصورًا، ورفعنا وثبتنا أعلامًا

وصورًا.. فعلنا ذلك في كل المظاهرات.. مظاهرات التأييد ومظاهرات الغضب والرفض.. هتفنا بحياة الثوّار والمناضلين والأبطال.. وهتفنا بسقوط الخونة والعملاء والجبناء.. هتفنا لثـورة الجزائـر وثـورة اليمن، وهتفنا ضد الانفصال ومشاريع التقسيم.. هتفنا لفيتنام وكوبـا والصين، وهتفنا ضد الفاشية والإمبريالية والاستعمار!! وكان الأستاذ رأفت يزودنا دائمًا بالأهازيج والهتافات، وبالأفكار الجريئة.. "علينـا أن نفضح الدور المشبوه للرجعيات العربية، علينا أن نكشف تحالفها التاريخي والمصيري مع الاستعمار".. كان يـردد ذلـك فـي دروس التاريخ وخارج الفصول.. وها هو اليوم، على المنصة، يغير نبرتـه ويبدل أفكاره..! "علينا أن نفضح الأنظمة الدكتاتورية الفاشية ونكشف دورها في مشاريع التقسـيم" رجعيـات ودكتاتوريـات، وتبـدّلات.. والمحتشدون يصفقون ويهتفون ويرفعون الزنود.. وسألت إبـراهيم الشّاهد، وسط التصفيق والهتاف:

- لا أراك متحمسًا! أليس هذا هو الأستاذ رأفت شعبان الذي كنـت مبهورًا بأفكاره؟

- الشخص هو الشخص! لكن المبادئ تغيرت.. أنا لا أحتـرم مـن يبدل أفكاره كما يبدل حذاءه.. أنا أحترم المُخلصين لمبادئهم حتى إذا اختلفت معهم!!

- ماذا تعني؟

وبادر عبد الله الشريف بالإجابة:

- يعني أن الاستاذ المبجل غيّر لونه وأصبح من المخلصين لفكــر جديد، بل من المخلصين لنظام مشبوه، نظام تــآمر علــى قضــيتنا وشعبنا منذ نشأته.. وها هي البشائر أمامك! الأستاذ الــذي صــدّع رؤوسنا بالحديث عن الارتباط الجــذري والتــاريخي بــين الأنظمــة الرجعية والاستعمار، تحوّل فجأة، وأصــبح بوقــا لترديــد أكاذيــب وتلفيقات الدوائر الرجعية والاستعمار، لم يعد القومي العتيد منزعجًــا من تحالف الرجعيات مع الاستعمار.. لم يعد يرى في تلك الأنظمة ما يريب أو يخيف!!! وها هو يتلقف ما تبثّه تلك الدوائر، ويشنف آذاننا به..

وأضاف إبراهيم:

- أخبرني أحد الأصدقاء أن مجموعة حزبية جديدة تشــكلت فــي القطاع لتحقيق هدف واحد.. "مناهضــة الفكــر الناصــري وحشــد المؤيدين لذلك النظام العميل".. وقال الصــديق أن أمــوالاً وصــلت للقطاع لإنجاز ذلك الهدف وأن الأستاذ رأفت شعبان من مؤسسي هذه المجموعة.. في الحقيقة أنا مندهش! كيف يبدل الأشخاص مبــادئهم بهذه السهولة؟

وخزني عبد الله الشريف، فخرجنا من القاعة، وجلسنا فــي زاويــة الحديقة على مقاعد حديدية قديمة نظر إبراهيم الشّــاهد إلــى بــاب القاعة، وقال عندما رأي القمصاني يخرج ويبحث بنظراته عنا:

- يبدو أن خروجنا لم يعجب المباحث!!

فسألته:

- كيف عرفته، وهو ابن المخيّم؟

- أعرفه، وأعرف اثنين آخرين في القاعة.. أبو حجر والسلول..

وسأله عبد الله الشريف:

- هل تعرضت لابتزازهم؟

- لست أنا بل والدي!.. منذ خمس سنوات، كان ذلك بعد مظاهرتنا ضد الانفصال بأسبوع، طلبوا منه البندقية!! "البارودة اللي عندك مطلوبة يا عوض.." أنكر والدي وجود بندقية لديه، لكنهم أصروا، وهددوه بالاعتقال.. عندها قال والدي "البارودة أخذها، الكتري، خذوها منه.."، الكتري فدائي، وكان صديقًا لوالدي.. جاء في اليوم التالي، فأخبره والدي بما حدث، ضحك ثم قال: "أولاد الحرام!! بدهم منك مصاري يا أبو إبراهيم، اسمع حضّر أكلة زغاليل، واترك الباقي علي"..

وجاءوا يوم الجمعة، وجلسوا في الكرْم.. وعند الظهر أعدت أمي "باطية" محترمة عليها خمسة أزواج من الزغاليل.. وتحلّق حولها خمسة رجال، هؤلاء الثلاثة المتلصصين والكترى ووالدي.. أذكر ذلك، وأذكر عندما ذهب الثلاثة ليملأوا حقائبهم بالفواكه، همس الكترى لي ودسّ في يدي تلك الهدية الثمينة، هدية ما زلت أحتفظ بها في مكان ما..

- مكان ما! لعله في ديوان المتنبي!!

وخزني إبراهيم في خاصرتي، فضحك عبد الله الشريف، ثم قال:

- على كل حال، لم يكن والدك ضحيتهم الأولي ولن يكون ضحيتهم الأخيرة!! عندكم، انتهت القضية "بأكلة حمام وشوية فواكه"، لكنها لم تكن كذلك عند عصام الفايز وأمه.. عندما قُبل عصام في الكلية الحربية ذهبوا إلى مختارنا، تعرفون أن عصام من قريتنا، وقالوا "ابن بلدكم موقفه صعب يا مختار، إنه ينتمي لأحد الأحزاب، وإذا كتبنا ذلك في التقرير لن يدخل الكلية الحربية، وأنت عزيز علينا يا مختار.." ثم أفصحوا عن طلبهم "ستون جنيهًا مصريًا.. عشرون لكل منّا".. وطافت أم عصام، على أقاربها وبناتها في مخيمات القطاع، وبعد معاناة كبيرة تمكنت من جمع المبلغ، والتحق عصام بالكلية الحربية..

- وهل كان عصام منضمًا لأحد الأحزاب فعلاً؟

- لا! لم تكن له علاقة بهذه الأمور، مجرد ابتزاز، إنهم يرتزقون من هذه القضايا! يبتزون الناس ويعيشون على مصائبهم!!

انتهي الحفل، وخرج الشباب من القاعة الكبيرة وتفرقوا في أزقة المخيم، متحاورين بأصوات مرتفعة.. سلّمنا على بعض الأصدقاء، ودسَّ أحدهم نسخة من مجلة "الحريّة" في صدري.. تجاهلنا الأستاذ رأفت، الذي خرج محاطًا بحشد من المتحمسين، ثم انصرفنا.. وفي الطريق تساءل عبد الله الشريف:

- هل حددتم موعد السفر؟ ما رأيكم في يوم الجمعة القادم؟

- وأضفت مازحًا:

- في القطار! أليس كذلك؟ في القطار بناء على رغبة الفيلسوف الجماهيري الذي يؤمن بالتفاعل وقدرة الإنسان على التكيف!!

ووخزني إبراهيم في خاصرتي مرة أخرى، ثم قال:

- طبعًا في القطار أيها البرجوازي الكبير! في القطار يا ابن سالم الربيع.. في القطار يا ابن بائع التِّبْن..

- كفى.. كفى أوافق وأعلن الاستسلام.. أنقذني من لسانك.. أعرف ما ستقوله!.. في القطار، يوم الجمعة القادم.. وسأنهض مبكرًا، في الثانية صباحًا.. لاستقبال الضربات والكدمات والخبطات والسلال والصناديق.. اللّهم لا اعتراض على حُكمك..

وصلنا إلى الزقاق المؤدي إلى بيتنا، فاستأذن عبد الله الشريف، مؤكدًا على لقائنا في محطة القطار..

قبل أن نذهب إلى النادي، كان إبراهيم الشّاهد قد وضع في بيتنا سلة مغطّاة بمنديل أبيض، هدية سيأخذها إلى السيد نجاتي السبْروت.. ناديت على شقيقي الأصغر، وطلبت منه أن يحضر الدرّاجة، وتلك السلة المغطاة، فأحضرهما بسرعة:

- بتعرف دار السبْروت؟.. هناك عند الظهرة في آخر المخيم؟!

- بعرفها.. فيها ثلاث شجرات رمّان وتكعيبة عنب وأشجار كثيرة من التفاح..

- آه.. تتسللون إليها، وتسرقون منها أيها العفاريت! على العموم، تأخذ هذه السلة، وبتسبقنا، وتنتظرنا هناك عند البوابة..

وضع شقيقي السلة أمامه على الدراجة، ثم انطلق إلى دار السبْروت عبر الطريق العريض، في حين دخلنا، أنا وإبراهيم، في أزقة المخيم وقد شمرنا سروالينا، حفاظًا عليهما من الأوساخ ومياه المجاري التي "تكرع" بين البيوت القرميدية..

كان بيت نجاتي السبْروت من البيوت النادرة المبنية بالأسمنت.. بيت من طابقين تحيط به حديقة عامرة بأشجار التفاح.. دخلنا من البوابة، فاستقبلنا رجل مديد القامة، وأجلسنا تحت تكعيبة العنب على كراسي من الخيزران.. وعلى مقربة من التكعيبة، كان هناك ثلاث شجرات من الرمّان.. حضر رجل يقارب السبعين من عمره، وظهرت أصوله الشركسية في احمرار وجهه وضيق عينية وقصر قامته.. كان السيد السبْروت يتكئ على عصا مطعّمة بالأبنوس ويضع على رأسه طربوشًا أحمر، ويلبس سروالاً أسود وقمبازًا مقلّمًا، ويمسك في يده مسبحة ذات حبّات من الكهرمان.. أوصله حفيده، فسلّمنا عليه وأجلسناه، وعاد الطفل ليحضر نظارة سميكة ويدسّها في يد جده..

- هذا الولد شاطر، يعرف أنني سأحتاج النظارة!

تحسس سلة الفواكه، ثم أضاف:

- هذا خوخ معطّر! هذا النوع لا يوجد إلا في كرم الشّاهد وكرم الخيّال! جربت زراعته هنا ولم ينجح.. فقط نجحت هذه الأشجار الثلاث من الرمّان.. هذه من بيّارة الأفندي،- جلبوها من تركيا.. والآن أيّكما ابن عوض الشّاهد؟!

- أنا ابن عوض الشّاهد، إبراهيم.. وهذا صديقي خالد بن سالم الربيع، يمكن بتعرف والده!!

- بعرفه.. إنه صديق والدك منذ سنين طويلة.. منذ أيّام أم الغزلان، وحاربا معًا في معركة مستمرة الغصين الشهيرة.

أحضر مديد القامة أكواب عصير الليمون، ووضعها أمامنا على طاولة الخيزران.. أشار إليه السيد السبروت فانحنى الرجل ودنا من سيده بأدب، همس السبروت ببضع كلمات، لينصرف الرجل ثم يعود متأبطًا ثلاثة مجلدات مهتزنة، وضعها ثم حمل سلة الفواكه وانصرف، فقال السيد السبروت:

- والآن، ماذا تريد أن تعرف يا أستاذ إبراهيم؟

- أولاً، كيف استولى.. عفوًا كيف تمكن الأفندية من إمتلاك هذه الأراضي الشاسعة؟

- لا داعي، للاعتذار يا ولدي! صحيح أنا عملت في خدمة الأفندية، لكنني لست منهم.. أنا كنت موظفًا عندهم.. موظف لا يملك من أمره شيئًا.. وكما ترى! أنا لم أخرج من الدنيا إلا بهذا البيت.. لم يرزقني الله الأولاد الذكور، رزقني ببنت واحدة، تزوجت، لكن زوجها تركها وعاد ليعيش في لبنان، لم تعجبه الحياة هنا، وظلّت هي وابنها معي.. وقاطعته بلطف:

- سيد نجاتي، أنت رجل فاضل وجئنا للاستفادة من خبرتك..

- أشكرك، ولنعد إلى سؤال إبراهيم!! كان هناك نظام عثماني يسمّى نظام "الالتزام الضريبي" أو "المالكانة".. وبموجب هذا النظام

تفوض الدولة أمور جباية الأمـوال الأميريـة إلـى أشـخاص مـن الإقطاعيين عن طريق المزايدة.. وتقوم الحكومة بتزويـدهم بـالقوة اللازمة لجباية أعظم مقدار من الأموال والأرزاق.. طبعًا لجأ هـؤلاء الملتزمون إلى ضروب عديدة من التسلّط والقمـع لتحقيـق ذلـك.. وتمكنوا من الحصول على مساحات واسعة من الأراضي.. ورغم أن النظام قد ألغى في عهـد الانتـداب البريطـاني، إلا أن الملتـزمين الإقطاعيين تمكنوا من السيطرة على مزيد من الأراضي عن طريـق موظفي الحكومة أنفسهم.. كان "الملتزم" ينصب خيمته فـي قـريتكم وسط الساقية.. وعلى الفلاحين أن يقوموا بخدمته وخدمة حاشـيته وإطعامهم طوال فترة الجباية، وفي ختام الموسم علـيهم أن يجلبـوا المكوس والأعشار التي فرضها عليهم.. أول ملتزم في قريتكم كـان الوديدي، وقد عامل أهل القرية بقسوة وغطرسة، لقد ضـرب أحـد الأهالي بالكرباج، لأنه تجرأ وحمل غليونًا مثله.. فاشـتكاه اشـتيوي إلى الوالي العثماني، الذي حرمـه مـن "الالتـزام" فـي السـنوات التالية.."والملتزم" الثاني كان أبو خضرة، وكان رجلاً طيبًا قريبًا مـن الفلاحين.. لكنه خسر في الالتزام ولم يعد إليه مرة أخرى.

ثم جاء الأفندي، واستقر له الأمر، وسخّر الفلاحين لأطماعه وجشعه، وبدأ في امتلاك الأراضي، أجود الأراضي! واستولى عليها بأسـاليب متعددة قانونية، وغير قانونية.. ركوب حصان، عباءة، شربة لـبن، تزييف ختم، شهود زور، وغيرها..

وفتح أحد المجلدات، قلّب صفحاته، ثم أضاف:

- في عام ١٩٢٥ جرى مسح للأراضي، في عهد الانتداب البريطاني.. وفي هذا المسح بلغت مساحة القرية وأحوازها ثمانية عشر ألف دونمًا.. وثبت أن ممتلكات عائلة الأفندي من أراضي القرية قد بلغت اثنى عشر ألف دونمًا.. أي أن ما تبقى لأهالي القرية ستة آلاف دونم فقط.. ثلثا الأرض للأفندية والثلث فقط لأهل القرية، هذا عدا عن ما استولوا عليه عن طريق الموظفين بعد ذلك.. وها هي أسماء الملاك الأصليين للأراضي وأرقام القطع والقسائم.. هه.. إنها هنا..

وتناول مجلدًا ثانيًا قلّب صفحاته، ثم أضاف:

- قطعة رقم ٢١ – قسيمة رقم ٤ – أرض البطّاح – المالك الأصلي: أحمد سعيد خيرات – مساحة القطعة قيراطان (قيراطان يعني مئة وثلاثون دونمًا) – بيعت للأفندي سنة ١٩٢٠ – باعها خيرات بشربة لبن (الزلمة نفسه في اللبن)!!..

قطعة رقم ٥٤ - قسيمة رقم ٦ - منطقة أم الغزلان – المالك الأصلي: صبري محمود السمّري – مساحة القطعة قيراط واحد – بيعت مقابل عباءة - سنة ١٩٢١ – وقيل إن الأفندي استولى عليها، لأنها كانت باسم شقيق صبري، الذي مات في حروب الأتراك.. (الفلاحون يموتون، والأفندية يستولون على الأرض)..

قطعة رقم ٤٣ – قسيمة رقم ١٢ – منطقة السلطان الأحمر – المالك الأصلي: سعدون إبراهيم الحسني، مساحة القطعة ثلاثة قراريط (ثلاثة قراريط يعني حوالي مائتي دونم) بيعت سنة ١٩٣٢ – (هذه الأرض

سمْسر عليها الموظفون، لم يستطع سعدون دفع المكوس والضرائب، فبصمّوه على البيع وتفضلوا عليه بصاعين من الشعير (الأرض للأفندية والشعير للفلاحين!!)..

وهنا، هذه أراضي "وادي العزيزة" – وهذه أرضكم – قطعة رقم ٤ – قسيمة رقم ١ – منطقة العزيزة – المالك الأصلي – الشّاهد إبراهيم الشّاهد (النجدي).. المساحة قيراط ونصف – (قيراط ونصف يعني مائة دونم) – بيعت سنة ١٩٢٧ – لعلك تعرف قصتها – من سوء حظّكم أن أرضكم جاءت مجاورة لأرض اشتراها الأفندي، ولم يعجبه وجودكم بجواره.. في الحقيقة جدك لم يسلم بسهولة، رفع قضية وراح إلى القدس والمحاكم، لكن النقود خذلته والشهود خانوه.. زيّفوا الختم وشهدوا على جدك.. وانتهت القضية بمصالحة على عشرة دونمات.. الكرم!!..

قطعة رقم ٣ – القسيمة رقم ١ - أيضًا منطقة العزيزة، بجوار الوادي.. المالك الأصلي: الخيّال عبد الله الخيّال – مساحة القطعة قيراط ونصف هذه الأرض استبدلت بفرس.. الحقيقة فرس من نوع ممتاز (كان الخيّال رجلاً مهووسًا بالخيل).. على فكرة في قريتكم يا خالد نفس الشئ ولها دفتر خاص بها..

وسألت السيِّد نجاتي:

- طيّب! ما هي حقيقة الغصين؟ القرويون البسطاء ضحك عليهم الأفندية الإقطاعيون وتمكنوا من الاستيلاء على أرضهم، وهم لم يبيعوها لليهود على كل حال! لكن الغصين! كما سمعت رجل عاقل

وشبعان! كيف يبيع أرضه لليهود؟ هذه الأراضي الشاسعة! كيف امتلكوها وبنوا عليها تلك المستعمرة؟

- الغصين لم يبع أرضه لليهود! في الحقيقة كان الغصين رجلاً وطنيًا شريفًا، لم يكن جشعًا أنانيًا مثل الأفندية.. كان فلاحًا ثريًا وكان يشتري السلاح للمجاهدين.. كانت له علاقات بالثوّار في نابلس والخليل والقدس والغور.. في أم الغزلان امتلك الغصين حوالي عشرة آلاف دونم.. بريطانيا هي التي تآمرت على الغصين وحطّمته.. اقترض الغصين من البنوك البريطانية لتوسيع تجارته، وأغرته بريطانيا وشجّعته على ذلك.. نجح في التجارة وبدأ في تصدير الحبوب والحمضيات، عبر البحر إلى أوروبا، ويبدو أن بريطانيا ومن ورائها اليهود فطنوا إلى خطورة نجاحه وتنامي تجارته، فقامت بريطانيا بإغراق سفنه في البحر! قصمت ظهره وأهلكت تجارته كلها.. وهكذا اضطر إلى بيع أراضيه إلى البنوك البريطانية التي اقترض منها.. عشرة آلاف دونم من أجود الأراضي، بعدها قامت بريطانيا ببيع نفس الأراضي للوكالة اليهودية، التي أنشأت عليها تلك المستعمرة الكبيرة!!

وسأله إبراهيم:

- هل صحيح أن الأفندية من أصول تركية، عثمانية؟

- بل هم عرب أقحاح! أنتم عائلة الشّاهد تعود أصولكم إلى منطقة "نجد" في الجزيرة العربية.. جاء جدكم إلى القرية منذ مئة سنة فقط! وجلب معه العبيد والأرزاق والإبل، وظلت كنيته "النجدي" حتى فشلت

ثورة الشريف حسين، بعدها تحوّل إلى "الشّاهد".. والأفندية ينتسبون إلى بني هِرْماس، من ثعلبة.. إنهم عرب جنوبيون – مثلكم.

عاد مديد القامة بالسلة، مغطاة بنفس المنديل الأبيض.. فشكرنا السيد نجاتي السبروت على المعلومات القيمة، واعتذرنا له عن الإجهاد الذي بدا عليه، ثم استأذنا للإنصراف.. وعندما نهض متكئًا على مديد القامة، قال:

- الهدية لسالم الربيع! أعرف أن عوض الشّاهد لديه فواكه.. سلموا على الجميع – عوض وسالم والأولاد وسلموا على القبرصية، زوجة الخيّال، آه.. كان عندها بنت، ما اسمها؟

وبادر إبراهيم:

- اسمها عزيزة.. وهي الآن في المرحلة الثانوية..

خرجنا من البوابة، نظرت حولي، وجدت الشارع خاليًا من الناس، فقلت مازحًا مشاكسًا:

- هل ما زلت تعلمها ركوب الدراجة يا برهوووم؟!

انقض على السلة بغيظ، أزاح غطاءها، ثم أخرج ثلاث حبات من التفاح.. تركت السلة وركضت.. وراح إبراهيم يقذفني بالحبات الصفراء، وأنا ألتقطها واحدة واحدة وأدسها في عبي.. ألتقط حبات التفاح وأركض مقهقهًا، مستجيبًا لنوبة من المزاح، ومنتعشًا بالنسمات التي بدأت تهب باردة لذيذة من الشمال..

(٩)

عزيزة الخيّال

المصائب.. آه من المصائب! إنها تهبط علينا دون مقدمات.. هكــذا، تسقط من السماء فجأة، وتُجسد لنا التعاسة والبؤس والحزن دفعــة واحدة.. تسقينا إياها بلا شفقة أو رحمـــة.. تجرعهــا بـــدون إرادة، نشرب الكأس المُرّة، ونستسلم لأقدارنا، ونتركها تلهــو بنــا كيفمــا تشاء.. عندما تعتدل الدنيا، عندما نظن أنهــا اعتــدلت واســتقامت، ونتوهم أن حظوظنا تغيّــرت وأن ســعادتنا قريبــة، عنــدها تهــبط المصائب، بلا مقدمات، بلا رحمة، تهبط كالصواعق وتقتلعنا، ومعنــا كل أوهامنا وبراءاتنا..

هييه يا سامعين الصوت هييه.. هييه يا أشجار يا طيور يــا وديــان هييه.. ماتت القبرصية!! ماتت صائدة الثعابين! انكسر رمح العزيزة ولن ينتصب مرة أخرى!! ماتت القبرصـــية بـــلا مقــدمات وبــدون استئذان!! آه يا أمي، لماذا الآن؟ لماذا الآن يا "قبرصية" همومي و.. وأحلامي؟..

كنت عائدة إليك.. عائدة بذلك الزي العسكري الجميل!! الزي الــذي ارتديته في الاستعراض.. كنت عائدة من غزة، من ميدان اليرمــوك، وكنت مزهوة فخورة بعد أن حازت مدرستنا (وحزتُ) على إعجــاب المشرفين على الاحتفالات! عائدة إليك لترى ابنتك! ابنتك الممشــوفة الواثقة!! كنت مزهوة وأردتك أن تكوني مثلي! لماذا حرمتني من تلك الفرحة؟ لماذا تموتين الآن؟ تموتين وأبقــى أنــا وحيــدة حزينـــة، حائرة!!..

قالت عمتي هنية إنك كنت في قيلولة الظهر.. وعندما ذهبتْ لتوقظك وجدتك ميتة!! وكانت ثمة قطرات من الدم قــد نــزّت مــن فمــك. وبجوارك كانت هناك عصا معقوفة ذات شعبتين صــغيرتين وكانــت هناك آثار لثعبان!! ثعبان في الربيع يا صائدة الثعابين؟!.. لــم يكــن الجو قائظًا فائرًا! في القيظ والحر اللاسع، تفور الثعابين وتخرج من مخابئها لامعة هائجة.. لكنه الربيع، والجو المعتدل! بل كــان الجــو رطبًا باردًا.. يا إلهي! صائدة الثعابين تموت بلدغة ثعبان! كيف حدث ذلك؟ كيف غافلك ذلك الثعبان وتمكّن منك؟ انتظر غفوتك، ثم تســلل هادئًا واثقًا سخر من تلك العصا المشعّبة وأفرغ سمّه في فمك!! كيف أقدم على ذلك، وقتلك؟..

"لعلها اصطادت أمّه وقتلتها.. الثعابين تثأر لنفسها".. لم أكن مستعدة لمجادلة البدوية، ولم أكن مهيأة لسماع تفسيرات في ســبب المــوت "كفنوها وادفنوها.. المهم أنها ماتت.. ماتت وانتهى الأمر.." ماتــت فرس الخيّال، التي تحمل شبريته وتتمنطق بحزامه وتلف حول رأسها

كوفيته.. من يعيدها؟ من يوقظها لساعة واحـدة؟.. سـاعة أراهـا وتراني! أودعها وتوصيني! وتحذرني.. وتهددني.!!
آه يا إبراهيم ليتك معي! أسند رأسي على كتفك.. أرتاح على صدرك! أنوح، أذرف الدموع سخية وأبكي أمي! أبكيها، وأبكي أيامي القادمة!
آه يا إبراهيم ليتك تسمعني، تهدهدني وتعيدني إلى عقلي..
لم يتركني عمي عوض بمفردي، ولم تفارقني عمتي هنيـة لشـهر كامل.. أما فاطمة فقد لازمتني وظلّت معي، تبيت معي وتخفف عنـي آلامي.. وبعد شهر من موت أمي، تمكنت من الاقتـراب مـن ذلـك الصندوق.. صندوق عرسها الذي احتفظت بمفتاحـه فـي صـدرها، بالقرب من قلبها.. كنت آراها، تستيقظ في ساعات متأخرة من الليل، تفتح الصندوق بحذر، تخرج بعض الأشياء، أظنها ملابس، فتتنشقها وتمسح وجهها بها، ثم تنظر في صورة، تقبلها، وبسرعة وحذر تعيد الأشياء إلى مكانها وتقفل الصندوق بنفس الحذر الذي فتحتـه بـه.. كنت أتصنع النوم، ولم أقترب من ذلك الصندوق ولم أسـألها عنـه يومًا.. احترمت طقوسها القاسية وتركت لهـا الصـندوق بأسـراره وحاجياته التي تستنشقها كأنها أكسير يمدّها بالحياة والبقاء!!
لكنه اليوم لي.. لن تنهض أمي ثانية، تقتنص دقائق ليلية متـأخرة، تفتحه خلسة، ثم تغلقه وتضع المفتاح في صدرها..
- هذا مفتاح أمك.. وجدته في صدرها.. إنه لك الآن!!
وها أنا أفعل مثل أمي.. اختلس الليل في ساعاته المتـأخرة، انتهـز فرصة نوم فاطمة، وأحاول الاقتراب من الصـندوق، أحـاول فتحـه

وهتك تلك القداسة التي لازمته لأكثر من سبعة عشر عامًا.. ترددت، وأصابني الوجل.. لماذا تفتحين الصندوق يا عزيزة؟.. "لماذا لا تفتحي الصندوق يا عزيزة؟.."، "هيا افتحي الصندوق الآن هيا افتحيه وتفحّصيه واكتشفي أسراره.."، أدرت المفتاح الصغير بهدوء، وعلى ضوء المصباح الصغير بدأت في إخراج الأشياء وتفحصها واحدة واحدة..

هذه هي الملابس، ملابس أبي، هذه التي كانت أمي تستنشقها وتعيدها مطوية برائحتها المميزة.. وهذه الصورة، صورة أبي، إنه يرتدي كوفية وعقالاً ويتمنطق بحزام من "الفشك" ويضع في كتفه "بارودة ألمانية".. وهذه! ما هذه؟ لقّة من الأوراق! هذا "كوشان" الأرض.. طابو قضاء غزة– اسم المالك: عابد خيّال عبد الله الخيّال – القطعة رقم ٤– القسيمة رقم ١ - المكان أرض وادي العزيزة– المساحة عشرة دونمات فقط.. وهذا! كوشان آخر أيضًا– طابو قضاء غزة – اسم المالك– خيّال سريع عبد الله الخيّال– القطعة رقم ٣٢– القسيمة رقم ١٥ - المكان: أم الغزلان– المساحة قيراط ونصف– وهذه ما هذه؟.. وثيقة زواج باهتة الحروف.. (رفعت ضوء المصباح وقرأت)، اسم الزوج: عابد الخيّال عبد الله الخيّال – السن تسعة عشر عامًا.. اسم الزوجة: تماضر محمود سالم الراعي– السن أربعة عشر عامًا.. مكان وتاريخ ميلاد الزوج: العزيزة في ١٩٢٧/٤/١٦– مكان وتاريخ ميلاد الزوجة: الخليل في ١٩٣٢/٧/١٥– وقبل أن تذهب ظنوني إلى امرأة أخرى، تذكرت حديثًا لعمتي هنيّة:

- القبرصية ليس اسم أمك الحقيقي إنه اسم جدتك.. وهي القبرصية الحقيقية.. لكن أمك تسمت باسمها.. الناس سموها باسم أمها.. جدك الراعي "جدك لأمك" جلب زوجته (القبرصية) من بلاد الترك.. ذهب في أحد حروب الأتراك، وعاد برفقته القبرصية.. امرأة طويلة عريضة واسعة العينين طويلة الشعر.. أمك تشبهها في أشياء كثيرة لكنها أخذت من جدك الراعي أيضًا.. من جدتك القبرصية، أخذت الطول والعرض والشعر والأسنان البيضاء الجميلة.. ومن جدك الراعي، أخذت وسع العينين وسمرة الوجه وحدة الطبع.. كان جدك (الخيّال) صديقًا لجدك (الراعي) منذ تجارة الحبوب بين غزة والخليل، فتوجا هذه الصداقة بالمصاهرة.."

وهذه ما هذه الورقة؟ علبة قديمة تحوي ثلاث أساور فضية منقوشة، أساور تشبه المقابض "وكردان" من الفضة أيضًا، كردان جميل يحوي أهلّة وسلاسل وعقود.. هذا مصاغ أمي، ثروتها الوحيدة التي ورثتني إياها.. وهذه، ما هذه؟ شهادة ميلاد.. الاسم: عزيزة.. النوع: أنثى.. اسم الوالد: عابد الخيّال عبد الله الخيّال.. اسم الأم تماضر.. تاريخ الميلاد: الخامس عشر من شهر آب (أغسطس).. ساعة الولادة: الواحدة صباحًا.. يا إلهي! الواحدة صباحًا.. الخامس عشر من شهر آب (أغسطس).. الآن أستطيع ترتيب بعض الأشياء مرة أخرى..

"..ذبحوها في ليلة منتصف آب (أغسطس).. والقمر مضئ مكتمل.. ومن يومها، كل بنت تولد في مثل ذلك اليوم وذلك الوقت تصاب بالجنون".. وكدت أغيب عن الوعي.. إذن لم تكن تصرفاتي بعيدة عن

الجنون! وتذكرت تلك الليلة المشئومة، وتذكرت البركـــة، وإبـــراهيم يقبض على عنقي ويدفعني بعيدًا.. آه.. لقد أخفــت أمـــي الشـــهادة الأصلية، واستخرجت شهادة (حلف يمين.. إدّعت أن الشهادة الأصلية فُقدت، وسجّلت تاريخًا مزيفًا..(العشرين من شهر أيلـــول)، وهكـــذا، أخفت تاريخ ميلادي الحقيقي! الآن أستطيع تفسير كثير من الأشياء.. الآن أستطيع تفسير تصرفات أمـــي، خوفهـــا، حـــذرها، وقبضـــتها الحديدية!!. ترى من يعرف الحقيقة غيرها؟ عمي عوض! لابد أنـــه يعرف! نعم أنا أجزم إنه يعرف! كل تصـــرفاته تؤكـــد ذلـــك!.. كـــل تصرفاته تدل على أنه يعرف ذلك التاريخ المشـــئوم!! رفـــض عقـــد القران! ورفض قراءة الفاتحة.. رفض حتى الحديث في أمر زواجـــي من إبراهيم.. الآن أستطيع ترتيب بعض الأمـــور.. لا.. لا أســـتطيع شيئًا.. وأجهشت بالبكاء وارتميت على صندوق أمي..

استيقظت فاطمة مذعورة باكية، وأخذت تمسح دموعي وتهدهـــدني.. وفي غمرة البكاء والدموع، أقفلت الصندوق ودسست مفتاحـــه فـــي صدري.. مثل أمي!!.. واحتفظت بأسراره وقداسته وجنونه بجـــوار قلبي..

بعد شهرين، من موت أمي، انشقت الأرض وخرج عنها عـــمُ لـــي.. جاء عمي عوض ومعه رجل نحيف، أصفر الوجه، كان الرجل مســـنًا متعثرًا في مشيته، وكان يرتدي ملابس رثة مهلهلة..

- هذا عمك شعبان.. ابن عم والدك، يعني عمك.. هاجر إلى مصر منذ سنين.. علم بموت والدتك، وجاء ليطمئن عليك ويكون بجانبك، الدم ما بيصير ميّه.. وهو ولي أمرك الآن!!

كانت كلمات عمي عوض غريبة.. وكانت الزيارة غريبة.. لقد بالغ عمي شعبان في مواساتي والتودد إليَّ وذكر محاسن أمي.. لكن أغرب ما في تلك الزيارة، ظهور ذلك المتاصبي الحقير مرة أخرى.. كان جميل حب الرمّان ملازمًا لعمي الجديد، كان ملتصقًا به مثل الغراء، يناوله السجائر واحدة تلو الأخرى ويسرع إلى مساعدته في قيامه وقعوده.. وأخيرًا، أعدَّ له وليمة كبيرة واشترى له ملابس جديدة.. ثم علمتُ أن عودة عمي شعبان لم تكن بريئة، ولم تكن تصرفات حب الرمّان عفوية لوجه الله.. ولدهشتي وعذابي وتعاستي، علمت أن عمي عوض الشّاهد، لم يكن بعيدًا عن هذه المفاجآت الغريبة.. لقد قرر عمي عوض التخلص مني.. فقررتُ الكتابة لإبراهيم! الكتابة له ووضع الأمور بين يديه، بل واتخذت قرارًا قاطعًا سأبلغه به:

(عزيزي وحبيبي ومنقذي برهوم..

قررت أن أكتب لك، لأعبّر لك عمّا في صدري من حب وشوق، ولأعرفك كذلك بكل التطورات والمفاجآت التي حدثت بعد سفرك. ماتت أمي يا إبراهيم! ماتت القبرصية يوم الرابع عشر من مارس.. بعد انتهاء الاحتفالات.. كنت مرتدية الزي العسكري وعائدة إليها بفرحتي وزهوي.. ولكنها ماتت.. شعرت بعدها بالحزن والوحدة

والدمار.. تعرف علاقتي الحميمة بأمي، وتعرف أنني بدونها مقطوعة الجذور.. في الحقيقة لم يُقصِر أهلك معي.. كانوا أهلي وعزوتي ولم يفارقوني.. لكن أمورًا حدثت لابدّ أن أطلعك عليها.. مفاجآت غريبة.. لقد ظهر فجأة عم لي.. وهو رجل مسن فقير.. وعلمت أن والدك هو الذي أرسل في طلبه وأخبره بوفاة أمي.. اعتقدتُ في البداية أن الرجل جاء بدافع القرابة الحقّة ورابطة الدم.. جاء ليقدم واجب العزاء ويواسيني في محنتي.. لكنني اكتشفت أن الرجل جاء من أجل هدف آخر.. "بالاتفاق مع والدك".. وتيقنت من ذلك، بعدما رأيت جميل حب الرمّان يدخل الدار دون وجل أو خشية.. ذلك الخنزير يأتي إلى الدار، يأتي به والدك ويلازم عمي الجديد ويسلب عقله، بالنقود والمصاريف.. وعلمت من فاطمة أنهم تحدثوا في أمر زواجي.. زواجي ممّن؟.. من جميل حبّ الرمّان! مصيبة أخرى! لم يكتفوا بموت أمي.. هل تذكر يا إبراهيم؟ يوم الجمّيزة؟ عندما لحقت بي في تلك الليلة، تبعت آثاري في وادي العزيزة لتعرف وجهتي وهدفي.. وتذكر أنني شددت وثاق ذلك الخنزير وطعنته وبصقت في وجهه.. وأنت الذي خلّصه وأنقذه من جنوني.. واليوم، ها هو يعود من جديد، يأتي به والدك يريد أن يزوجني إياه.. في الحقيقة أنا مندهشة من موقف والدك، عمي عوض، الذي لا عم لي سواه، لماذا يكرهني إلى هذا الحد؟ لماذا يريد أن يحرمني منك؟ أنا أجزم إنه يعلم بحبنا وتعلقنا ببعض.. يعلم أنني لا أستطيع الحياة بدونك، ورغم ذلك يفعل ما يفعل!! على فكرة، هناك سر أود أن أطلعك عليه.. سر قد يفسر لك

بعض الأمور.. عندما بحثت في صندوق أمي وجدت بعض الأشـــياء والأوراق.. ومن هذه الأوراق شهادة ميلاد باسمي.. كانـــت شـــهادة ميلاد أصلية.. وفيها تاريخ ميلادي هــو الخــامس عشــر مــن آب (أغسطس).. لا أدري ماذا يعني لك هــذا التــاريخ؟ هــل يعنــي أن مصيري إلى الجنون؟ إذن فلن أجن إلا بك.. وسأكون مجنونة فعلاً إذا فرّطتُ فيك واستكنت لما يريدون ويخططون.. على العموم لقد اتخذت قرارًا قطعيًا لابد أن تستعد له.. سأستخرج وثيقة سفر وأحضر إليك.. نعم سآتي إليك تاركة كل شئ.. ولن يمنعني أحد من ذلك، لن استسلم للتعاسة، وسأحضر لك يا حبيبي.. يا برهوم..

أخيرًا، أودعك إلى لقاء قريب..

ملاحظة: هذه الرسالة سأسلمها مغلقة لابن السمّري، الذي سيســـافر إلى طرفكم يوم الجمعة القادم.. انتظرني بعد عشـــرة أيـــام.. وإلـــى الملتقى.

المخلصة إلى الأبد

عزيزة الخيّال

١٩٦٧/٥/١٥

لكن الرسالة لم تصل، وظلّت مغلقة!! أعادها ابن السمّري بعد إعلان حالة الطوارئ، ولم يسافر.. ولم تخرج وثيقة ســفري مــن الأدراج الرسمية.. ووضعت الرسالة مع الأشياء والأوراق السرية، المجنونة، في الصندوق! وضعتها ثم أغلقت الصندوق ووضعت مفتاحــه فـــي صدري بهدوء وحذر، بجوار قلبي.. كما كانت تفعل أمي..

(١٠)

إبراهيم الشّاهد

دوّت صافرة القطار فنظر موظف المحطة في ساعته ثم قرع الجرس معلنًا تحرك القطار.. تراكض الناس للصعود قبل أن يســـرع القطـــار تاركًا محطة "باب الحديد" متجهًا إلى الشرق.. كنا قد وضعنا حقيبتنـــا في مقصورة شاغرة بالدرجة الثانية، وعلينا أن نسرع لأخذ مكاننا.. دفعت خالد الربيع أمامي وتمايلنا مع اهتزاز القطار، وعندما وصـــلنا المقصورة، اكتشفنا أن رجلاً بدينًا يرتدي جلبابًا داكنًا قد احتل المقعد المجاور للنافذة.. وضع الرجل سلّته بجواره ثم أسند ذراعـــه عليهـــا وراح في معزوفة شخير مبكرة.. نظر كل منا إلى الآخر، ثم انفجرنا في قهقهة مدوية..

لم تكن تلك المرة الأولى! في العام الماضي حدث نفس الشئ، وكـــاد اثنان من الصعيد أن يحرمانا من متعـــة مرجـــوة وجلســـة بجـــوار النافذة.. كنا في طريقنا إلى أسوان لزيارة السد العـــالي، وكنـــا قـــد حجزنا مقعدين متقابلين مجاورين للنافذة، جلسة تمتعنا بنهـــر النيـــل الذي يبث الحياة في كل شئ حوله، مزارع القطـــن وقصـــب الســـكر

والذرة والأرز والبرسيم. وسواقي بعجلات كبيرة مثلّمة تربض على ضفاف الترع المتفرعة من النهر، تغرف المياه ثم تصبها في قنوات وتروي المزارع و"الغيطان" الخضراء.. وجواميس كبيرة بظهور محدّبة معصوبة العينين.. تدور الجواميس، فتدور السواقي وتجري المياه في الأراضي الخضراء الواسعة.. وعلى سطح النهر الكبير، تتحرك المراكب والعبّارات و(المعدّيات)، تجوب النهر وتقطع الترع، لتصل بين القرى والبلدات والمدن.. عبّارات ومراكب مزدحمة بالبضائع، والناس الذين يغادرونها إلى بيوت مبنية بالطوب الأحمر، بيوت فقيرة تعلن عن تواضع الحياة وبساطة العيش وكفاح لا ينقطع..

كانت أمنيتنا أن نظفر بمقعدين ونافذة تمتعنا بهذه اللوحة الفنية الجميلة، لكن الرجلين أحبطا المحاولة الأولى واستقرّا في المقعدين بعناد:

- القطر ده مفهوش حجز يا بهوات!! إنتو شايفين الزحمة.. كمان إحنا دافعين فلوس، مش راكبين ببلاش!!

يومها، جلس خالد مغتاظًا، غمزت له وبدأت الحديث مع الرجلين ودودًا هادئًا، وتعمّدت إظهار لهجتنا الفلسطينية.. بعد دقيقة واحدة، نهض الرجلان وتنازلا طوعًا عن المقعدين، وحلفا بالطلاق أن نجلس بجوار النافذة، وقدّما لنا السجائر والمرطبات:

- أنتم ضيوفنا.. إحنا بنتشرّف بيكم.. إنتم حبايبنا وحبايب الريّس!!

لكن هذا المتكوّم النائم، كيف لنا أن نقنعه بالتنازل عـن المقعـد، أو حتى التحرك قليلاً؟ ومن يجرؤ على إيقاظـه مـن هـذه المعزوفـة المبكرة؟ نظرت إلى بطن الرجل وهي تتناغم مـع سـيمفونيته، ثـم نظرت في وجه خالد فوجدته ممتقعًا:

- نفسي أعرف سر عشقك للقطارات؟ دائمًا تصر على ركوب القطار! في غزة تترك سيارات المرسيدس السريعة المريحة، وتصـر علـى الحجز في القطار، لنصحو في الثانية صباحًا، نزاحم البشر بأكياسهم وصناديقهم وحقائبهم، نترنح أمام دَفَعَـات الأذرع القويـة، تدوسـنا الأقدام العمياء وتسقط الحاجيات والصناديق فوق رؤوسنا.. ويسـتقر بنا المقام على مقعد خشبي متعب بالدرجة الثالثة، وسط حشد بشري يتمايل مع قرقعات العجلات، في قطار بطئ يكابد بحمولته من الناس والمتاع.. وهنا، في قاهرة المعز، تترك سيّارات الأجـرة والحـافلات وتسحبنا إلى "محطة باب الحديد"، إلى القطار!.. لماذا أيها القـروي العنيد؟..

- القطار هو الوسيلة المثلى لاكتشاف الناس والحياة، لمعرفة اللوحة من جميع جوانبها.. أنظر أيها المهندس المحترم إلى هذه الوجـوه! تمعن في هذه اللوحة البشرية!.. الجنود، الموظفين، الطلاب، العمال، النساء، الأطفال، العجائز، المرضى، الشحاذين، والمجاذيب!! أنظـر، هذه مصر كلها! لوحة بشرية متكاملة.. أمَـا رأيـت أولئـك الـذين يهرولون على سطح القطار، وكأنهم يهرولـون علـى الطريـق؟!.. هؤلاء الهاربين من ثمن التذكرة؟ أرأيت كيـف يجـازفون بحيـاتهم

هروبًا من قروش قليلة؟ هؤلاء يكملون هذه اللوحة البشرية، لابد من وجودهم، لتكتمل اللوحة وتصبح واقعية صادقة!! خالد، أتذكر مخزن التموين؟ هناك، حيث تتعارك الحشود البشرية وتنتــزع حقهــا فــي الحياة والبقاء!! هنا في هذا القطار أشعر أن الأمــر نفســه يتكــرر، إصرار على البقاء وديمومة الحياة!!

- لكن اللوحة ناقصة أيها الفيلسوف الفنــان! يغيــب عــن اللوحــة المترفون والإقطاعيون، أنظر هنــاك.. أولئــك أصــحاب الســيّارات الفاخرة وربطات العنق الأنيقة.. أنظر إلى الإسفلت، ها هم يطيــرون ولا ينتظرون قطارك التعس هذا!

- لا ينتظرون هذا القطار، ولن ينتظروه!! إنهم خارج هذه اللوحــة، كما أن أمثالهم خارج اللوحة في بلادنــا.. لوحــة مخــزن التمــوين والمظاهرات والعمل في البيّارات والورش، لوحــة مكابــدة الحيــاة والدعك - كما يقول والدك- أمام مخزن التموين!! هؤلاء مكانهم في لوحة أخرى يا صديقي، لوحة غير واقعية، سوريالية! تحتاج إلى من يفك طلاسمها.. أنا أحدثك عن اللوحة البشرية الواقعية الصادقة، ولا أحدثك عن نتوءات الواقع وجوانبه الداكنة السوداء..

- المهم! ماذا لو رافقنا هذا المتكوم حتى المحطــة الأخيــرة، حتــى الزقازيق؟..

- انتهى الأمر! علينا أن نتأقلم مع الوضع، أن نتكيّف مع الواقــع.. حاول أن تنسى وجوده.. من يدري؟ لعل وراء هذا المســكين همًّــا أغرقه في هذا الشخير والسبات العميق.. علــى العمــوم، إذا كنــت

متضايقًا وراغبًا في العودة، فلا بأس! لم نبتعد كثيرًا، نهبط في المحطة القادمة ونعود أدراجنا!!

- ها أنت تتخابث أيها القروي! تعلم أننا مدعوان من الحاج صادق العرابي وولده إسماعيل، زميلنا..

- ومن كوثر العرابي! أيها العاشق المسكين! يا لعجائب الدنيا! هذا الفلسطيني الفقير، ابن المخيّم، ابن بائع الترْمِس، الطالب في كلية الهندسة، والذي يتعلّم بمنحة تفضّلت بها وكالة الغوث، لأنه من المتفوقين، هذا المهندس، الذي لا يؤمن بالمعلّقات وقصائد الحب العذري، يسقط على أنفه، ويعْلق من النظرة الأولى، في حب كوثر العرابي! الشرقاوية الثرية الفاتنة.. زميلته في كلية الهندسة، حفيدة أشهر الثائرين على الظلم والاستبداد في تاريخ مصر الحديث.. كوثر ذات العيون الحوراء..

إن العيون التي في طرْفها حور قتلتنا ثم لم يحيين قتلانا

ما أروعك يا جرير! يا صاحب أم عمرو! هنا قتيل مثلك، ومن نفس الطعنة، لكنها ليست أموية، بل شرقاوية نجلاء..

وضع خالد يده على فمي وتوسّل أن أصمت وأتوقف عن الحديث، لكنني واصلت في عناد:

- من منا الخبيث أيها العاشق أنا أفهم ألاعيبك؟ خططت لهذه الزيارة واتفقت مع كوثر، ثم أوقعتما شقيقها إسماعيل في الفخ، زميلي المسكين إسماعيل، مساكين طلبة الآداب، يقعون في شراك طلبة

الهندسة بسهولة!! "الحاج يهديكما السلام، ويدعوكما لقضاء يـومين أو ثلاثة طرفنا، وهو لا يقبل أي عذر، هذه أوامره"..

- ليش مش مصدق إنه لا توجد حيلة ولا يحزنون! لماذا لا تريد أن تصدق يا صاحب "العزيزة"؟

- آه.. بدك تغير الحديث! أعرف نواياك الخبيثة!

- أسأل جادًا، ما هي أخبارك معها؟ أين وصلت؟

- في الحقيقة الموضوع يحيرني يا خالد! والدي يعرف تعلقي بهـا، ووالدتي لمحت له أكثر من مرة وطلبت منه أن يخطبها لي، أو حتى يقرأ الفاتحة! لكنه رفض! رفض بعناد.. في الإجازة القادمة سـأنهي الأمر، سأطلب منه أن يخطبها لي وسأعترف لـه أنني أحبهـا ولا أستطيع الاستغناء عنها.. أتعرف ماذا قال لي وهـو يـودعني فـي الصيف الماضي؟ "إذا أعجبتك واحدة مـن بنـات مصـر، أخبرنـي! لأحضر وأخطبها لك".. وعندما لاحظ غضبي قال" أنا بمزح يا ولد".. مسكينة عزيزة، قلبها يتلظى بالنار مثلـي، ووالـدي يتعامـل مـع الموضوع بأعصاب باردة، بل بغرابة تحيرني..

- يمكن بتبالغ شوية! والدك بدوش يشغلك عن الدراسـة.. تعـرف عقليتهم! وما دام يعرف تعلقك بها، كما تقول، فلا يوجد ما يدعو لهذا القلق! بدّه إيّاك تتخرج أولاً، ثم يربطك عنده بالزواج، كلهم هيك..

طرق المفتش بقلمه على باب المقصورة، ثم دسّ جسمه إلى الداخل:

- ورق.. تذاكر.. إنت يا بلديات، تذكرتك.. إصح يا أخينا تذكرتك..

ناوله خالد تذكرتين من الورق المقوّى، نظر فيهما وعلّم عليهما بالقلم، ثم عاد مخاطبًا الرجل البدين ناقرًا على رأسه بالقلم:

- إنت يا بلديات تذكرتك..

تململ الرجل، ثم اعتدل متثائبًا فسقطت سلّته مفرغة من جوفها حاجيات كثيرة.. قطع صابون، زجاجات عصير، علب حلقوم، علب حلاوة ولفائف أخرى.. دسّ يده في جيوب جلبابه، وبعد بحث طويل أخرج للمفتش تذكرته.. نظر المفتش فيها، وعلّم عليها:

- استعد يا بلديات، المحطة الجاية.. القطر داخل على قليوب.. إنت قاطع درجة ثالثة، بلاش ندفعك غرامة.. يا الله لم حاجتك المبعترة..

- قليوب، وصلنا! معلش يا حضرة المفتش، أصلي منمتش بقي لي يومين، معلش يا أفندية يمكن شخيري ضايقكم شوية..

لمّلم الرجل حاجياته المبعترة، وأضاف:

- أصل مراتي بعافية شوية، ربنا يكفيكوا شر المرض.. سايبها في المستشفى ورايح أشق على العيال وأرجع لها تاني..

أظهر الرجل مودة كبيرة، وفجأة أخرج من السلّة علبة من الحلقوم وأقسم أن نأخذها.. أخذ كل منا قطعة من الحلقوم، ثم شكرناه، ووقفنا للسلام عليه ومساعدته.. وعندما خرج من المقصورة قال خالد:

- ظلمنا الرجل! صحيح الناس أسرار..

صرّت عجلات القطار، ثم أطلقت الصافرات محذرة جموع المحتشدين عند المحطة.. تدافعت الحشود البشرية، فتلاحمت الجماهير الصاعدة والهابطة.. وفي لحظات، انتشر الباعة منادين على بضاعتهم، وكانوا

يحملونها ويرصّونها بطرق عجيبة وينسلون من زحام الناس بمهارة فائقة..

"اللّب، السوداني، الصاقع، كازوزه، الفلايات، الإبر، المشط بتعريفه، العسلية، معنا سكر نبات، السميط، السميط والبيض"..

أشار خالد إلى بائع الكعك، وأنقدته قرشين وتناولت كعكتين وبيضتين..

- فاكر البيض الملّون والموسم والدراويش وصندوق العجب؟

وأجابني خالد وهو يقضم الكعكة ويشرع في تقشير البيضة:

- فاكر.. فاكر كل شئ، خاصة صندوق العجب! وتلك الخابية التي كنت تغرف منها القمح، وتقدمه إلى ذلك الجوّال، كان الرجل يضحك على عقولنا، يلصق الصور، ثم يديرها ويغني! كان يخدع عقولنا الصغيرة!

- بتعرف! لقد اكتشفت أن ذلك الرجل كان يقوم بدور هام.

- ذلك الجوّال المحتال، كان يقوم بدور هام! كيف؟

- ليس المهم تلك الصور والرسومات.. أتذكر أهزوجته التي كان يرددها؟ عن الشجاعة والبطولة، صلاح الدين، وبيبرس والوحدة العربية وجمال عبد الناصر.. والأرض المستلبة المهانة.. كان الرجل يؤدي رسالة ويزرع فينا المعاني الوطنية! أنا لا أجزم أنه كان مدركًا لدوره لكنه كان يقوم بذلك!! هل تعلم أن ذلك الجوّال المُتَكَسِبْ كان يطور أهزوجته حسب المراحل! كان يضيف إلى أهزوجته ما يناسب المرحلة.. قبل العدوان الثلاثي كان يقول شيئًا.. وبعده قال شيئًا

آخر.. وعندما أعلنت الوحدة بين مصر وسوريا أضاف شيئًا جديدًا.. وبعد الانفصال عدّل ما قاله، وهكذا..

- ما الفائدة؟ الصور والرسوم لا تعيد الوطن! المهم الفعل، القوة..

- الفعل! صحيح! لكن الوعي بهذا الفعل هـــام أيضًـــا.. وهـــذا دور الفنون.. إعداد الناس وإقناعهم بالفعل الذي نريد.. خذ مثلاً صـــلاح جاهين.. هذا الفنان العبقري! أنظر إلى رسوماته الساخرة، أغانيـــه، أناشيده، تعليقاته! سيمفونية رائعة، تُحرك الإنسان وتدفعـــه للفعـــل، الفعل الواعي الصحيح..

وضحك خالد:

- كيف تقارن هذا الفنان العبقري بذلك الجوّال المحتال؟ هـــذا ظلـــم كبير!!..

- هناك فرق صحيح، لكن أهزوجة ذلـــك الجـــوّال وأهازيجنـــا فـــي المظاهرات حتى أغانينا صغارًا التي أخذناها من أفواه آبائنا.. "بابور محمل مرتين.. هديّة للحج أمين" هي نوع من الفنون شئت أم أبيت.. الناس تمارس الفنون منطلقة من ظروفها وحسب إمكانياتها..

كان تمثال أحمد عرابي أول شئ لفت انتباهنا بعد خروجنا من محطة القطار في مدينة الزقازيق.. انطلقت بنا الســـيارة وبعـــد أن قطعنـــا حوالي أربعة كيلو مترات، واجهتنا لافتة كتب عليها "هريّة رزنـــة".. عندها، قال إسماعيل:

- هذه قريتنا، قرية أحمد عرابي، ودارنا هناك، إلى اليمين.. جميعهم في انتظاركم.. الحاج وخالي وأعيان القرية وبعض المدرسين والمثقفين.. كلهم سيتناولون الغذاء على شرفكم..

كانت الوليمة عامرة، دجاج وبط وحمام، يتوسطها خروف مشوي.. وكان أربعة من الفلاحين يحيطون بنا، مستعدين لإشارة من الحاج أو ابنه إسماعيل، ليُحضروا في سرعة البرق ما يحتاجه الضيوف، أو يضيفوا أصنافًا جديدة من الطعام.. شمّر الحاج صادق وقطّع اللحم بيده وكوّمه أمامنا.. أكلنا من الطعام بنهم شديد، وكانت نسمات "العصاري" تضيف إلى متعة الطعام متعة أخرى..

قلت لخالد، بعد أن غسلنا أيدينا وتوجهنا إلى شجرات الصفاف الحانية على الماء، المنساب هادئًا رقراقًا:

- أين تضع الحاج صادق؟ في لوحة القطار، أم في اللوحة الثانية؟ في الحقيقة لا أجد له مكانًا في اللوحة الثانية؟.. هل نعد له، ولأمثاله، لوحة ثالثة. وماذا نسميها؟

- حيرتك لها ما يبررها! البرجوازية العربية محيّرة فعلاً.. عواطفها ومشاعرها ومواقفها وطنية وقومية عالية!! لكن سلوكياتها وحياتها متعالية، وتنم عن رغبة في التميّز..خذ مثلاً الحاج صادق هذا.. رغم أن ثورة يوليو أخذت منه أكثر من مائة فدان ووزعتها على الفلاحين، فإنه يحب عبد الناصر جدًا، ولا يتأخر في أية مبادرة وطنية أو اجتماعية.. ورغم هذا، يحافظ على مكانته ويصر على

وجود "درجة" بينه وبين الفلاحين، مع أنه يشاركهم في جميع أفراحهم وأتراحهم..

- هذه ليست البرجوازية التي عناها ماركس، هنا تختلف! هذه برجوازية وطنية.. طبقة الفلاحين الأثرياء لها دورها في حياتنا وتطورنا.. وهي تساهم في النضوج الوطني والقومي ولا تعيقه! مثلما حدث في روسيا وغيرها من الدول الإشتراكية..

أحضر الفلاحون عددًا من الكراسي، فجلسنا تحت أشجار الصفصاف، وجلس معنا إسماعيل وخاله الأستاذ نجيب ومدرس آخر نحيف.. كان خالد قد حدّثني عن خاله نجيب العرابي "الناصري العتيد وعضو الاتحاد الإشتراكي" وحدّثني عن الشبه بيننا في أمور كثيرة.. "أنت تشبهه في أمور كثيرة.. حبه الشديد لعبد الناصر، عشقه لصلاح جاهين، إيمانه القوي بالوحدة العربية.. حتى الأغاني.. يحب القصائد المغناة، ويعشق المواويل المصرية والشامية.."

وسألت الأستاذ نجيب الذي كان يرتدي جلبابًا زاهيًا ويمسك بيده منشة محلية مصنوعة من سعف النخيل:

- هل ترى أننا مقبلون على حرب؟ الأمور تتصاعد وإسرائيل تهدد بضرب سوريا إذا مضت في بناء السد؟..

- هذه فرصتنا.. أتمنى أن تقدم إسرائيل على هذه الحماقة لنضربها ونحطمها.. هذه المرة سنضربها ضربة قاضية.. بعدها، نعيد فلسطين ونقذف هذه الشرذمة إلى الجحيم، نعيدهم إلى حيث جاءوا، إلى بلدان أوروبا التي قذفت بهم إلينا.. المعركة محسومة هذه المرة..

- لا تتفاعل كثيرًا يا أستاذ نجيب.. قواتنا منهكة من حـــرب الـــيمن، وصاحبك "بتاع كلام".. والحرب يلزمها الاستعداد والإعداد.. هــؤلاء الجنود المساكين، لم يرتاحوا من حرب اليمن بعد.. لا أعتقــد أننـــا جاهزون لحرب كبيرة مصيرية مثل هذه.. هذه حرب تحتاج إلى كـــل الطاقات العربية، علينا أن نحشد الطاقات أولاً..

كان مدرس الفيزياء النحيف يرد على الأستاذ نجيب ويُفند كل نقطـــة يطرحها! "حزبي مسيّس" نزل ضيفًا على المعتقلات لأكثر من ســـبع سنوات، يكتب في الصحف والمجلات ويُعبر عن أفكاره اليسارية دون تردد أو وجل:

- الاستهانة بالعدو أمر خطير.. علينا أن نحسب حســـاب إســـرائيل ومن وراء إسرائيل، بالفعل وليس بـــالكلام.. الصـــهيونية العالميـــة، أمريكا، أوروبا الغربية، ثم علينا أن نتأكد من حشد جميع الإمكانيات في المعركة، العسكرية والمالية والاقتصادية.. والبترول أيضًا بالفعل وليس بالكلام.. ثم ما هي حكاية "تقذفهم إلى الجحيم" هذه؟.. هذا كلام يؤلب علينا العالم ويدفعه إلى التعـــاطف مـــع إســـرائيل "المســـكينة المحاصرة".. يا سيدي فلسطين أرضنا، طُردنا منها، نحـــن معتـــدي علينا ونحارب من أجل استعادة حقوقنا وإقامة الدولة الديمقراطيـــة.. لن نقذف أحدًا إلى الجحيم.. فقط ســـنقذف المؤسســـة الصـــهيونية العسكرية، ونبني دولة الكادحين.. الدولة الديمقراطية الواحدة..

- الله.. الله يا أستاذ محسن، أنتم الشيوعيون هكذا دائمًا! تـــرددون هذه المقولات والشعارات الفارغة.. القضية قضية وجود يا صديقي،

إما نحن أو هم.. لا خيار ثالث هناك.. لابد أن نقذفهم خارج وطننا العربي.. كما قذفوا أبناء جلدتنا، أبناء شعبنا، هؤلاء، وحولوهم إلى لاجئين!

- هؤلاء يعودون إلى بيوتهم وأراضيهم، إلى وطنهم..

- أين بيوتهم؟ أين هي أراضيهم؟ اغتصبها هؤلاء الخنازير الذين تدافع عنهم وسكنوا فيها!! احتلوها أيها الثوري..

- أنا لا أدافع عنهم يا أستاذ نجيب، فقط، استخدم العقل في تحليل الأمور وفهم أبعاد الصراع.. لابد أن نتحالف مع الكادحين والثوريين في العالم.. لابد من بناء جبهة قوية لتعرية المؤسسة الصهيونية العسكرية.. يجب أن نُعد للمعركة إعدادًا جيدًا..

- ننتظر الشيوعيين ليحرروا لنا فلسطين! ويقيموا عليها "الدولة الشيوعية الديمقراطية!!" الله أكبر.. ما أسخف هذا الكلام! لن ننتظركم يا أستاذ محسن.. بل سنقصم ظهر إسرائيل بالزنود العربية المخلصة، وننشئ الدولة العربية الفلسطينية، وأظن أننا على وشك تحقيق ذلك..

كانت مبارزة حادة، بين ناصري عنيد وماركسي لا يلين.. تابعناها - أنا وخالد وإسماعيل - ولم نتدخل في الحوار إلا في حالات نادرة، لكن إيماءات الرؤوس كانت البوصلة التي تحدد المواقف.. كان إسماعيل يهز رأسه دائمًا موافقة وإعجابًا بما يقوله خاله نجيب العرابي.. في حين كانت رأس خالد لا تتردد في تسجيل الإعجاب والموافقة على أفكار وتحليلات ذلك المدرس النحيف محسن.. أما رأسي، فكانت

متأرجحة (بوصلة) متنقلة بين هـذا وذاك.. كنـت معجبًـا بحـديث المدرس النحيف عن حشد جميع الطاقات العربية، والتأكد من متانـة الجبهة الداخلية والعربية.. لكنني لم أكن متحمسًا لحديثه عن "دولـة الكادحين الديمقراطية".. و"جبهة الكادحين العالمية".. ولم تعجبني تلك العبارة الاستفزازية التي كررها أكثر من مرة.. "صاحبك بتاع كلام".. كانت صورة الزعيم تملأ رأسي، ولا تترك مكانًا لمثل هذه التلميحات المحبطة..

وضحك الأستاذ محسن، ثم أشعل سيجارة، وتنهد:

- على كل حال، للحديث بقية أيها الناصري المخدوع، سـتبدي لـك الأيام ما لم تعلم.. دعنا نرحب بضيوفنا..

- معك حق.. لقد انشغلنا عنهما.. أهلاً وسهلاً يا مرحبا..

في اليوم الثاني، تمكّن خالد من رؤية كوثر.. أحضر إسماعيل عربة الحنطور العائلية، وأشار لي أن أصعد بجواره، وصعد خالد وجلـس بجوار كوثر، في المقعد الخلفي.. كانت جميلة جذّابة، ارتـدت ثوبًـا ريفيًا أسود، بأكمام واسعة وثنايا وكرانيش.. وعلى رأسها وضـعت منديلاً أسود مزينًا بالدانتيلا اللامعة.. ووسط هذا البهاء الأسود كانت كوثر تزداد سحرًا وفتنة.. وبادرها خالد:

- ما هذه الثياب الجميلة؟

- هذه ثيابنا الريفية.. ألبسها هنا، ولا أخرج بغيرها.. أليست جميلة؟

- بل رائعة.. تبدين ساحرة.. فاتنة..!!

كان إسماعيل يبتسم وينظر لي.. كان يعرف أن أخته هائمة في هـذا الفلسطيني الوسيم.. لكنّه لم يجرؤ حتى الآن على إعلان ذلك للأسرة.. طلب ترك الموضوع للفرصة المناسبة.. وها هو اليوم يتخذ خطوة، ويحاول تقريب خالد من قلب الحاج صادق.. خطوة أولى..
تجولنا في مزارع القطن والذرة، ومشينا في "الغيطان" والأراضي الخضراء، وسألت إسماعيل، عندما رأيت الدخان:
- لماذا تحرقون جذور الأرز؟
- نحرقها ونغمرها بالماء، ونتركها، لتتحول إلى سماد يفيد الأرض.. كما أن الدخان يساعد في طرد البعوض بعيدًا عن بيوت الفلاحين..
انفرد خالد بكوثر، واختفيا عن ناظرينا.. وجلسنا أنا وإسماعيل تحت ظلال الصفصاف.. دائمًا تسترسل أغصان الصفصاف هابطة حتى تلامس الماء.. تحدثنا في أمور كثيرة.. في الأدب، قرأ على مسامعي نماذج من شعره، وفي السياسة والزراعة والتربة والسماد..
ثم عدنا إلى الدار عند الظهر، وعندما وصلنا، علمنا أن الرئيس عبد الناصر قد أعلن إغلاق خليج العقبة وطلب سحب قوات الطوارئ الدولية.. سيطرت علينا حالة من الحيرة، ولم نتحدث في شئ ولم يستطع خالد التقرب من الحاج صادق..

في صباح اليوم التالي، غادرنا "هريّة رزنة" مبكرين، لم ننتبه إلى تمثال عرابي، كانت الشوارع تعج بالسيّارات العسكرية، سيّارات تنقل الجنود وأخرى تجر المدافع، وثالثة كبيرة تحمل الدبابات، وكلها كانت متجهة نحو الشرق.. وعندما وصلنا إلى القاهرة وجدنا عصام الفايز

في انتظارنا.. كان عصام قد سبقنا إلى القاهرة مع عبد الله الشريف، التحق عصام بالكلية الحربية والتحق عبد الله الشريف بكلية العلوم بالإسكندرية.. وفي كل خميس يأتي عصام ليقضي إجازته الأسبوعية معنا.. لكن اليوم لم يكن خميسًا:

- جئت لأودعكما.. أنا مسافر إلى غزّة الليلة!

- غزة! الليلة!! لماذا؟

- تخرجت! تخرجت الدفعة كلها بسبب الطوارئ وحالة الاستنفار.. وسألتحق بجيش التحرير في غزة..

- غزة!

طوال ثلاثة أسابيع، بعد سفر عصام، لم نذق طعم الراحة!! انتابتنا حالة من الوجوم الممزوج بفقدان التوازن.. تارة نتفاءل، ونشعر بالنشوة، لأن يوم العودة بات قريبًا، ونمني أنفسنا بخلاص طال انتظاره! وتارة نغرق في خوف غريب! خوف من شئ مجهول.. كنا نحدق في الوجوه ولا نتكلم.. كان الجميع يتكلمون ويثرثرون.. الطلبة والمدرسون والجيران والباعة والمعلقون في الحافلات.. كلهم كانوا يلغطون بأحاديث عن النصر وتدمير إسرائيل وعودة فلسطين.. ونحن - خالد وأنا وعبد الله الشريف، الذي حضر من الإسكندرية وأقام معنا - ننصت ونسمع، ونغطس في دوامة من الهواجس المكتومة.. كانت جميع أفكاري وقناعاتي وآمالي مستسلمة لعاصفة عاتية، تتقاذفها وتلهو بها كيفما تشاء..

في ليلة الخامس من حزيران (يونيو)، رأيت العزيزة!! كانت تصـــرخ وتبكي.. رأيتها تغرف من ماء العين وتبكي.. استيقظت، وقلت "اللّهم اجعله خيرًا، البكاء في الأحلام خير". لكنه لم يكن كذلك هذه المـــرة!. في ظهيرة اليوم التالي كنت أنا الباكي! بكينـــا جميعًـــا!! صـــرخت، صرخنا جميعًا.. حطمت صورة الزعيم وبكيت حتى مرضت..

وبعدت غزة هاشم، وبعد عوض الشّاهد، وبعدت هنيّة جاد الله، وبعدت العزيزة.. آه.. آآآه أيتها العزيزة!! هوت مطرقة الهزيمة على رأسي ودكّت كل قناعاتي.. وأحلامي..

§ الجـزء الثاني

الــدمــوع

(١)

إبراهيم الشّاهد

وجاء الخريف.. وتساقطت أوراق الأشجار وهبّت الرياح فبعثرتها على رصيف الكورنيش وعلق بعضها على حواف المقاعـد الخشبية المنتشرة في المكان.. ثمة أضواء سقطت في الماء.. هناك, حيث ينتصب الفندق الكبير شاهقًا على الضفة الأخرى.. أضواء صفراء وحمراء وزرقاء.. وهنا في الجـوار تنبعث من الكازينو (الذي كان عوّامة) أصوات الغناء والرقص والضحكات!! وعلى سطح النهر, هناك, قريبًا من المياه الملونة ثمة (مراكبي) يحاول موائمة شراعه مع اتجاه الريح.. ولا يغني!! إنه الخريف.. والليل يمضي وعقارب الساعة تستعد للعناق على الثانية عشرة والكورنيش يكاد يخلو من المتنزهين وبين الفيْنة والأخرى تقف سيارات فاخرة يهبط منها رجال ببذلات وآخرون بكوفيات ومسابح مضيئة!! إنه الخـريف وأنا وخـالد الربيع نقطع الليل حتى منتصفه،ونمتص السجائر والتنهيدات ونعاند عـودة حتمية إلى مدينة الطلبة.. هذا خريف السقوط! خريف الخسائر! سقطت غزة في براثن الاحتـلال.. وسقطنا في بـراثن

التدخين ومدينة الطلبة التي حشـــرتنا فيها الهزيمة.. نفدت النقود واختفت أيام الشقق المفروشة الواسعة والدراسة في أجواءٍ مريحة.. حشرتنا الجنيهات العشرة التي تفضّلت بـــها الجــامعة العربية في معسكرٍ مكتظ بالطـــلاب والصخب وروائح الطعام وقرقعة الأطباق ومناظر الملابس المنشورة في النوافذ وعلى الجدران, والحبال المتقاطعة بالممرات.. هذه آثار العدوان! وها هي الجامعة العربية تصد العدوان عنا بعشرة جنيهات، ومعسكر مكتظ لا ينقصه سوى الخيام والأسلاك! يا لسخاء الأمة وعلو همتها!!..

- لابد أن تترك مدينة الطلبة لابد أن تترك ذلك المكان التّعِس..

لم يجبني خالد! لم ينظر إليَّ.. جذب نفَسًا عميقًا من سيجارته وظلّ متشبثًا بالنظر إلى نفس الاتجاه.. هناك، حيث المراكبي مازال يجاهد الشراع والريح.. هل ينجح المراكبي في مهمته؟ أظن خالدًا يفكر مثلي الآن!! أن ينجح المراكبي في السيطرة على الشراع، يوائمه مع الريح المفاجئة، بعْدَها ينظر إلى الشراع منتشيًا ثم ينطلق صادحًا بالغناء الشجيّ العذب:

يـــا بهيّـــه وخبِّريني يا بُويَه   علّي قـــتـــل يـــاسين

قتلُوه السُّود عِينَيَّه يا بُويـــهَ   من فوق ظهر الهجين

مَن قتل ياسين؟ من تركه هائمًا في الصحراء دون زادٍ أو عتادٍ أو حماية جوية؟ ساعة! ساعة واحدة فقط ثم صَمَتتْ كل الطائرات! هَمدتْ في مرابضها بلا حراك.. دُمِّرتْ المدرّجات فتعطّلت لغة الطيران وظلّ ياسين مكشوفًا في العراء لتفتك به الطائرات والدبابات..

والإنهاك! مَن قتل ياسين؟ سؤال يمور في الصدر ملتاعًا يا بهية! مَن خانه؟ لم تكن عيونكِ يا بهية! بل عيون الذين سهروا حتى الفجر صاخبين مترنحين، رغم حالة الاستعداد القصوى! عيون الذين منحوهم الثقة، واكتفوا بتقاريرهم الكاذبة "كله تمام يا أفندم" مَن قتل ياسين؟ الثقة الزائدة؟ أم الخيانة؟ أم الجهل؟..

في شهر آب هربنا من القاهرة المهزومة الساخرة (كانت تسخر من نفسها بمرارة وقسوة) عدنا مع عبد الله الشريف إلى الإسكندرية، هربنا.. هربنا من النيل إلى البحر!.. قبل أن تصل الحافلة إلى الإسكندرية بقليل حدث شيء غريب

- اللي نازل المطار السري يستعد.. بعده اللي نازل محطة الرادار الجديدة، يستعد!

تبادلنا النظرات وزفر عبد الله الشريف ثم قال:

- عندما أسمع هذه الكلمات من (الكُمساري) أشعر بغصّة مريرة.. هذه الكلمات تلخص لي سبب الهزيمة..

- الجماهير تسخر مما حدث بطريقتها..

- هذه طريقة لجلد الذات أيضًا..

عندها، حدّثنا خالد عن ذلك (الدكتور) الحزين:

- بعد مراجعة الإدارة بخصوص المنحة، جذبني الدكتور فتحي فودة من يدي وسار معي بضع خطوات ثم قال:

- أنا حزين اليوم حزين جدًا..

سألته عن سبب حزنه الشديد فقال:

- قرأتُ في إحدى الصحف أن باخرة محمّلة بالحمضيات قد غرقت في البحر بعد مغادرتها ميناء يافا..

ضحكتُ (قال خالد) وسألته عما يدعو للحزن في هذا فأجابني بكلمات صدمتني وعمّقت الجروح في داخلي:

- هيّه مش برضه يافا مدينة فلسطينية دي أموال الفلسطينيين دي أموالكم ولازم نزعل علشانها!

وتساءلتُ: فيمَ يختلف هذا الأستاذ الأكاديمي المتعلم عن بيومي الجزار المعلم؟! كنتُ أشتري نصف كيلو من اللحم وأُوصي على واحدة من (الكوارع) لعمل الشوربة، قطّع المعلم بيومي اللحم وكسّر الساق الكبيرة ولفّها ثم توجّه إليَّ بالسؤال في جديّة واضحة:

- هيّه غزَّة قبل الإسماعيلية ولاّ بعدها يا أستاذ إبراهيم؟

- لأ بعدها بشوية يا معلّم!

- آه.. يعني قريّبة من السويس!

- أيوْه بالظبط يا معلم.. هات اللحمة وخد الفلوس..

ولم يفعلها المراكبي لم يفلح في السيطرة على الشراع ولم يصدح بالغناء الشجيّ! استسلم أخيرًا وأنزل شراع مركبه.. لملمه وطواه، ثم جدَّف بطيئًا بطيئًا حيث المرسى الخشبيّ الصغير.. ربط المركب, رفع (قُلّة) الماء وأفرغها في جوفه ثم تدثّر في أسمالٍ بالية ونام..

نام المراكبي، فقذف خالد سيجارته في النيل بغيظ.. وظلّت أضواء الفندق الكبير متلألئة باهرة على صفحة الماء ولم تخفتْ أصوات الغناء والرقص والضحكات ومن جديد، توقفّتْ أمام الكازينو سيّارات

فاخرة، وهبط منها رجال ببذلات أنيقة وكوفيّات ومسابح مضيئة.. وعقارب الساعة تفك عناقها لتشكل عمودًا مائلاً.. والليل يمضي وأوراق الأشجار تتساقط والرياح تداعبها وتقذفها وتبعثرها على رصيف الكورنيش وحواف المقاعد الخشبية..

- ما اسم هذه الأشجار يا إبراهيم؟ وهل لها مثيل في بلادنا؟

سألني خالد فجأة، وكأنني لم أطرح عليه قضية، أو أتحدث معه في أي موضوع!!

- لا أعرف بالضبط! لكن أوراقها تشبه أوراق اللوز.. أنظر، إنها تشبه أوراق اللّوز كثيرًا، لكن الشجرة نفسها لا تشبه شجرة اللّوز، بل هي أقرب إلى نوع قصير من الكازورينا ينتشر في بلادنا.. لعلّها نوع من الأشجار غير المثمرة!! (وأمسكتُ ذراعه بقوة).. اسمع! الهروب من المشكلة لا يحلها.. لابد أن تترك مدينة الطلبة، ذلك المعسكر المقيت.. لا يمكن أن تستمر على هذا الحال أنت بالذات لن تستطيع الدراسة والتركيز أنا أعرفك، ستفقد المنحة إذا بقيت في ذلك المكان.. لابد من المحافظة على تقديرك اسمع كلامي يا صديقي..

- إذن لم يبقَ أمامنا إلا "الباطنية" سنترك مدينة الطلبة معًا.. هذا هو شرطي!!..

يبدأ حي الباطنية من حيث ينتهي جامع الأزهر.. بعد رواق المغاربة يبدأ الزقاق المؤدي إلى الباطنية.. عندما دخلنا الزقاق تقافز الصبية من حولنا، وتطايروا مصدِرين الصفّير وصائحين بعباراتٍ مبهمة!!

- لماذا يتقافز الصبية هكذا يا معلم؟

سأل خالد السمْسار الذي يرافقنا إلى الشقة المنتَظرة:

- دول "الناضورجيّة" أصلهم بيحسبونا مباحث مكافحة المخدرات وجايين نعمل "كبْسة".. الناضورجيّة بيبلّغوا التجّار علشان يلمّوا البضاعة ويخبّوها، البضاعة يعني الحشيش..

أطلّت النسوة من شرفات البيوت ونوافذها ووقف أصحاب الحوانيت والمحلات في انتظار "الكبسة" وكانت عيونهم المترقّبة تُنبئ عن استعدادهم لتحمُّل المصيبة الجديدة.. سِرنا في الزقاق وخذلنا العيون المحمرّة الذابلة وأحبطنا الملامح المحشورة في النوافذ والشرفات.. لم نقتحم المحلات والبيوت! لم نخطف الرجال والنساء عنوة! لم نلطم وجوههم وننهال عليهم بالضرب ثم ندفعهم بقسوة إلى داخل سيّارات مكافحة المخدرات! لم "نتحرّز" على لفائف و"بواكي" الحشيش المضبوطة معهم! ولم ننهِ الكبسة - كما توقعوا- بخراب البيوت وأحكام طويلة من السجن لأحبتهم وأخوتهم وجيرانهم! لم نفعلها! ووصلنا إلى آخر الزقاق ثم صعدنا في طريق عريض، فَفَتَرتْ نظرات التّرقُّب والغضب المكبوت، واسترخى أصحاب المحلات من تشنُّجهم. لكنني شعرت بشيءٍ من الخوف، وفكرتُ "كيف لنا أن نعيش في هذا الجو المتوتر؟.. كيف سنتمكن من الدراسة والذهاب إلى الجامعة وسط هذه النظرات الخائفة المتشككّة؟"

اتجهنا إلى اليسار وعند "كشك" مكافحة المخدرات القابع في الساحة الصغيرة توقف السمْسار ثم أشار بيده إلى شرفة في الدور الثاني من العمارة المقابلة:

- هيَّ دي الشقة.. والست عزيزة في انتظارنا آهه..

يا إلهي عزيزة هنا أيضًا؟! تبًّا لك أيُّها السمْسار التَّعِس، لماذا لم تنطق الاسم من قبل؟

ووجدتُ نفسي أتراجع خطوتين إلى الوراء وتخيّلتُ العزيزة! ممشوقة فائرة شهيّة.. رأيتها تلملم الأوراق الجافة المتناثرة (لابد أنها تفعل ذلك الآن) تفرك الأوراق الصفراء ثم تُطيّرها مع رياح الخريف، تلهو بها قليلاً ثم تدب في أخاديد الكرم تطوف به بمحاذاة السياج وتصيح على النواطير والرعاة وتهش بعصاها وصوتها البشر والزواحف والطيور.. آه أيتها العزيزة اشتقتُ إليكِ! اشتقتُ إلى عنادكِ وحرنكِ، إلى دبّات قدميكِ في أخاديد الأرض، اشتقتُ إلى بنيانك الأنثويّ الشهيّ، اشتقتُ إلى الخوخ المعطّر متناثرًا مبعثرًا من سلتكِ.. أشتهي قضمةً من الخوخ اللذيذ أشتهي شفتيك الشهيتين ونهدك الفائر ورعشتك اللذيذة بين يديّ.. آه يا عزيزة! خطفتك الهزيمة مني! خطفَت أبي وأمي وأهلي خطفتكم جميعًا! ما أوجع الهزيمة! نعم هزيمةولا شيء غير ذلك! أعْجبُ من أولئك الذين يجمّلونها ويطلقون عليها أسماءً مستعارة "النكسة" وهل تُغيِّر الأسماء المستعارة من حقيقة ما حدث؟! هل تمحو ملامح الكارثة؟!

تراجع خالد نحوي وجذبني من يدي، ثم دفعني إلى مدخل العمارة.. وعندما صعدنا درجات السُلَّم قال مداعبًا هامسًا:

- إصحَ يا برْهــوم.. إحنا في مصر.. إحنا مش في العزيزة!!

لكن، ماذا لو ذكر السمْسار هذا الاسم أمامي من قبل؟! كنتُ سأطلب من خالد أن نبحث عن شقةٍ أخرى! كنتُ سأتعذّر بأي شيء.. أعود إلى كلام إسماعيل العرابي - مثلاً!..

جاء إسماعيل العرابي منذ أسبوع، دسَّ في خزانة خالد لفّة تحوي مئتي جنيه: "أرسل الحاج هذا المبلغ ويقول لا تُقصِّروا في أنفسكم.. لكم أهل هنا أيضًا" وقبل أن يغادر غرفتنا غاضبًا مستهجِنًا قال:

- الباطنية؟! بتقولوا الباطنية؟! ده وكر للمخدرات! الفلوس معكم أهِه خدوا أحسن شقة في أحسن مكان!..

لكن خالدًا – باتفاق بيننا – أعاد له المبلغ بعد يومين شاكرًا ممتنًّا، وأخبره أن نقودًا وصلتنا من أحد الأقارب في الخليج.. ثم تغلّبنا على عقدة "وكر المخدرات"، ما دخْلُنا نحن في ما يفعله هؤلاء الناس، مادمنا سنظل في حالنا وسنحترم البلد الذي يستضيفنا ولن نخالف القوانين وندخل في متاهات غير محمودة؟ سنحترم الجيران ونحافظ على حُرُماتهم وأعراضهم وأسرارهم.. لكن هذه العزيزة الجديدة لم تكُن في الحسبان!!

كانت الست عزيزة في الثلاثين من عمرها تقريبًا يميل جسمها إلى البدانة وكانت ترتدي قميصًا لوزيًّا جميلاً كشف عن ذراعين أبيضين وصدر مرمريّ عريض وكانت عيناها عسليتين جميلتين جذّابتين وشعرها كان معقوصًا منسّقًا ببنْساتٍ جميلة ملونة ومع كل حركة من يديها كانت تُسمَع خشخشة الأساور الذهبية.. ومن حينٍ لآخر كانت تداعب السلسلة الذهبية الثمينة المعلّقة على صدرها الأبيض الجميل

وتهبط بيدها حتى تصل إلى القطعة الذهبية المستديرة عند بطنها.. كانت ودودة مرنة.. اتفقنا على الأجرة بسرعة وعندما قدّمت لنا المرطبات قالت:

- إحنا اتفقنا، بس أنا ليّه شرط واحد..

- شرط؟! شرط إيه يا ست عزيزة؟! إحنا متفقناش على شروط! دول جماعة مش محتاجين شروط!.. دول أولاد ناس، أولاد أصول يا ست عزيزة مش زيّ اللّي في بالك.. اللَّه!!.

- معلش يا معلم! الأساتذة على عيني وراسي بس شرطي مفيش شغّالات! الشغّالات ميدخلوش العمارة!..

تبادلنا النظرات، أنا وخـالد، ثم ضحكنا معـًا.. وردّ خـالد:

- شرطك مقبول يا ست عزيزة.. إحنا أصلاً مش محتاجين شغّالة.. إحنا بنعمل حاجتنا بأنفسنا.. اطمئني وهذا مقدَّم شهرين.. خمستعشر جنيه، زي ما اتفقنا مع المعلِّم..

- يا سلام.. شوفي الناس الكُمَّل إزّاي.. والله لو لفّيتي مصر كلَّها ما تلاقي أحسن من الناس دي، أنـا عارفهم بقالي مدة..

بعد شهر من وصولنا إلى الباطنية جاءني المعلم حسنين وقال:

- بكره نطلع للدرَّاسة لازم تشوف كل حاجة على الطبيعة.. السوق والنظام..

كان المعلم حسنين أكبر تجّار الحشيش في الباطنية.. توطّدت علاقتنا به من خلال صدفة غريبة!.. في الليلة التي وصلنا فيها إلى الباطنية، وضعت زوجته مولودًا ذكرًا "ولد على خمس بنات" جاء الولد من

زوجته الجديدة التي أحضرها من المنصورة.. قابلني بفرحة في صباح اليوم التالي كنتُ في طريقي إلى الجامعة، استوقفني متهلّلاً سعيدًا:

- إنتم وشّكم وش السعد.. وقدمكم قدم خير.. وأنا سمّيت الولد إبراهيم، على اسمك يا أستاذ.. ولد على خمس بنات! عارف يعني إيه ولد على خمس بنات؟! أنا فرحان.. فرحان يا أستاذ إبراهيم.. الدنيا كلّها مش سيعاني!

وأصدر المعلم حسنين تعليماته الصارمة إلى حيّ الباطنية كلّه.. "الجماعة الفلسطينيين تحت حمايتي واللّي بيدوس لهم على طرَف أُمُّه تترحَّم عليه"، وانهالت علينا صواني المكرونة وطواجن البامية وصحون الملوخية ووقف الجميع لتحيّتنا في ذهابنا وإيابنا وشعرنا بالأمان والمودة، وزالت نظرات التوجُّس والريبة.. كان المعلم حسنين رجلاً غريبًا متناقضًا.. يُتاجر في الحشيش ولا يتعاطاه، يصلّي الفجر حاضرًا في سيدنا الحسين القريب، وكانت له زبيبة في جبهته تدل على سجوده الطويل! وكان يصوم رمضان ويساعد المحتاجين وعائلات المسجونين، لكنه لا يرحم مَن يعصي أوامره ويبطش بكل مَن ينافسه من التجّار! وكان يحمي الحي من كل طامع ويردع كل امرأة تحاول اللعب بذيلها ويحاسب كل رجل يتهرَّب من مسؤولية بيته!! كانت كلمة المعلم حسنين لا تُرد، وكان الحاكم الفعلي لحي الباطنية بأكمله! وكان يحمل تفسيرًا عجيبًا للدِّين! سألته:

- كيف تجمع بين الصلاة والحشيش وبين التقوى والبطش؟

- دي حاجة ودي حاجة!! بعدين المؤمن القويّ خير من المؤمن الضعيف وأنا بحبِّش الظلم أنا شديد على الظَّلَمة بس!!..

كان للمعلم حسنين (وكالة) كبيرة يبيع فيها الفواكه والخضراوات بالجملة ووراء هذه المهنة كان صبْيانه وشركاؤه يجلبون الحشيش من السويس والصعيد ومرسى مطروح.. لا يتعامل بنفسه مع التجّار ولا يُخزِّن البضاعة في مخازنه، دائمًا هو بعيد عن الأمور ولا تَمَسَّه الشبهات لكن بأوامره تُوزَّع الحقوق والأرزاق للتجّار والصبيان والمحتاجين وأسر المساجين.. كان المعلم حسنين غريبًا لم يستوعبه عقلي في البداية لكنني تعوَّدتُ عليه واكتشفتُ في شخصيته ما يجذبني ويغريني بالغوص في عالمه المتناقض الغريب.. قبل أن نصعد إلى الدرَّاسة، همس المعلم حسنين في أذن أحد الصبية، فأسرع الصبي النحيف إلى كشك مكافحة المخدرات ودسَّ في يد كلٍّ من الشرطيّيْن القابعَيْن فيه ورقة نقدية من فئة خمسين قرشًا ومعها ورقة فضيّة تحوي قطعةً من الحشيش وعرفت أنها المئونة اليومية التي يُضمَن بها سكوت شرطة المكافحة وعدم زج أنوفهم فيما لا يعنيهم، وكذلك إبلاغهم بالكبْسات في حال علمهم بها.. كان السوق منظّمًا سالكًا كل صبي يقف وأمامه طاولة عليها قطعةً كبيرة من الحشيش وبجوارها سكين حادة.. يتقدم الزبون فينظر الصبي في المبلغ ثم يقطع القطعة المناسبة لنقود الزبون، يضعها على ميزان يشبه ميزان الذهب ثُمن، رُبع، نُص، قرش ثم يلفها في ورقةٍ فضّية ويسلمها للزبون.. ونادرًا ما يخطئ الصبي في قطع الوزن المناسب..

وخلف الصِّبية، من بعيد كان التجّار يراقبون بضاعتهم وصبيانهم وزبائنهم في هدوء.. كانت الأمور تسير في نظام عجيب تشعر كأنك في سوق للفاكهة أو السمك! كل له مكانه وزبائنه و"رزقه"! وعند مدخل الدرّاسة، من الشرق، وقف "الناضورجية" يراقبون كل شيء، ويتفحّصون بعيونهم الحادة الزبائن ولا يُدْخِلون إلى "حِمَى" السوق إلا مَن يذكُر كلمة السر ويبلّغ بالأمان أو يعطي إشارة من صديق أو تاجر! وفي بعض الحالات كان الناضورجيّة يلجأون إلى التجّار يهمسون في آذانهم فيعطي التجّار الإشارة بالموافقة على الدخول أو المنع!! وهمس المعلم حسنين في أذني:

- معظم الزباين اليومين دول من العساكر اللّي رجعوا من الجبهة وفيهم ظبّاط ورتب كبيرة!!

كان سوق الدرّاسة عالمًا جديدًا مثيرًا، عاريًا من الرتوش أو الأقنعة!! لم أتخيل وجوده في الواقع! كيف أتخيّله، وأنا القادم من قرية تتبرّأ فيها العائلات من أبنائها الذين تدور حـــولهم الشبهات بأنهم يتعاطـــون الحشيش أو الأفيون؟!

كان سوقًا موجِعًا، متفردًا في نهوضه المفاجئ أمامي.. أذهلني! وصدمني بجرأته في إعلانه عن نفسه في ذلك الظرف بالذات!! لكنني سرعان ما اكتشفتُ من خلاله حاجتي لأن أعرف أشياءً أخرى غير الجامعة والمحاضرات والرحلات والنزهات البريئة! أن أعرف حياة جديدة ونماذجَ جديدة.. وأسبابًا جديدة! وها قد عرفت! وكان للمعلم حسنين الفضل في ذلك!

لم أذهب في اليوم التالي إلى الجامعة، وعندما عاد خالد سلّمني رسالة زرقاء موسومة بختم الصليب الأحمر.. أخيرًا ها هي رسالة تصلني من الوطن وها هو خط أختي فاطمة "المنمنم" الجميل يزيّن غلافها..تركتُ خالدًا لرسالته وأسرعتُ إلى غرفتي فضضتُ المظروف بلهفة وعندما أخرجتُ الرسالة سقطتْ تلك الصورة!! يا للصورة الفاجعة!! عزيزة الخيّال في ثوب الزفاف الأبيض! ومعها مَن؟ جميل حب الرمّان!! يا إلهي! يلتصق بها ويضمّها! هل أصدق ما أرى؟! وقرأتُ الرسالة: "سلام سليم أرقّ من النسيم من والدك المشتاق ووالدتك التي تدعو لك ليل نهار ومن أخوتك فردًا فردًا.. وقفزتُ عن التحيّات والسلامات بسرعة ووصلتُ إلى الكلمات الدامية في آخر الرسالة ملاحظة: نود أن نخبرك أن القبرصية قد ماتت بعد سفرك في شهر آذار.. وتزوجَتْ ابنتها عزيزة بعد الحرب في شهر تموز من جميل حب الرمّان ومُرفق مع الرسالة صورة للعروسين وعقبال عندك".. هذه ليست ملاحظة يا فاطمة! ليست ملاحظة يا عوض الشّاهد! ليست ملاحظة يا هنيّة جاد الله! تعلمون أنها ليست ملاحظة عابرة بالنسبة لي بل هي قذيفة! قذيفة موجعة بعثرتني وهشّمتْ ما تبقّى من كياني! بهذه السهولة؟! هكذا! تتزوج العزيزة وتتخلّى عني لم تصمد ولم تنتظرني كما وعَدَتْ! هذا خريف السقوط!! خريف الخسائر! سقَطَتْ عزيزة الخيّال في أحضان جميل حب الرمّان وسقطتُ أنا في أحزاني وجثمتْ عليّ الهزيمة ثقيلة فبللّتُ الرسالة بدموعي.. وعندما علا نحيبي دخل خالد مرتبكًا ملهوفًا:

- ما بك؟ تكلّم يا إبراهيم!!

- تزّوجتْ يا خالد! خانت عهدنا! تزوجت من أحقر عباد الله! من جميل حب الرمّان..

ودفعتُ الرسالة إليه..

ومكثتُ في الشقة، ولم أخرج منها ثلاثة أيام متتالية! كنتُ أدخّن السجائر وأرتشفُ فناجين القهوة واحدًا تلو الآخر، ولا أتناول الطعام إلا نادرًا! وكلّما عاد خالد من الجامعة، كان يتوسل إليَّ أن أرحم نفسي!!.. وكانت تسليتي الوحيدة ذلك البيك آب واسطواناته العشر!! كان ذلك البيك آب هديّة تركها أحد أقارب خالد، استخدمه لشهرين كاملين، أقامهما معنا في شقتنا، وعندما انتهت إجازته وحان موعد عودته إلى السعودية، تركه "مُحرَجًا" وقدّمه هدية لنا.. كانت معه اسطوانات لعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وفايزة أحمد ونجاة، وكانت هناك اسطوانة أحببتها أكثر من غيرها في تلك الأيام العصيبة!

غريب الدّار عليّا جـــــار زماني قاسي وظلمني

مشيت سوّاح مسا وصباح بدوّر علّـــي راح منّي

غريب.. غريب.. غريب الدّار

أنا اللّــــي الدهر عاداني وباعني و اشتــرى فيّه

وخـــدْ أحبابي وادّانــــي بدالهـــم هجـــر وقسّية

ومين شـــاف اللّي أنا شفته ومين قاسى اللّي قاسيته

غريب.. غريب.. غريب الدّار

كان المطرب ينوح بصوته الشّجي وأخرج أنا الزفرات ساخنة ممزوجة بدخان السجائر..

وسمعتُ نقرًا على الباب!! كان الوقت ظهرًا، وكانت حركة العمارة هادئة.. فتحتُ الباب فوجدتها أمامي! دخلتْ وأقفلتْ الباب وراءها! كانت الست عزيزة بكامل أنوثتها! كانت ترتدي قميصًا شفافًا مفتوحًا يُبرز صدرها المرمري الأبيض! وشعرها تركته غجريًّا منثورًا! آه يا امرأة جاءت لتنبش ضعفي وهزيمتي! وتستفز بقايا رجولتي!.. تراجعتُ دون أن أتكلّم.. وقعت على السرير! تقدّمتْ ثم جثمتْ على ركبتيها قبالتي تمامًا! وكان هناك صدرها وعيناها وشعرها! كانت كلها في مواجهتي، تحاصرني بعطرها! كان عطرها يغمرني، وينفذ إلى شراييني! وأذكر أنني استنشقته ونشرته في بدني! غمرتني الأنوثة والشهوة.. و.. صهلَتْ "العزيزة"!! ركضتْ في مروج جسدي، ومعها، كنتُ أطوف السهول والوديان والهضاب! وكنتُ أفرغ هزيمتي وإحباطي ومخزون عمري المكبوت!!.. وانتفضتُ فجأة! فإذا أنا بكامل ملابسي مُستلْقٍ على السرير!! و"البيك آب" يدور على حافة الاسطوانة دون غناء! ولم تكُن هناك امرأة! وليس ثمة أثر لعطرٍ نسائيّ في الغرفة! ولم تكُن هناك آثار على مروج جسدي! ما الذي حدث بالضبط هل جاءت "الست عزيزة" واحتوتني بأنوثتها وشبقها؟! هل هربت "العزيزة" من جميل حب الرمّان، والمسافات وارتمت بين أحضاني؟!.. هل ما رأيته (ولمسته واستنشقته) كان مجرد خيال؟!.. أذكر أن "الست عزيزة" حدثتني في المرّات السابقة عن نفسها! (كانت

تأتي دائمًا حاملة صحون الطعام والحلوى).. واكتشفتُ أنها تعرف مواعيد محاضراتنا ومواعيد عودتنا! وتعرف الأغاني التي نسمعها وألوان قمصاننا وسراويلنا!! حدّثتني عن زوجها الذي أحضرها من المنصورة بعد زواج فاشل في المرة الأولى (بعد ذلك أحضَرتْ هي واحدة من مدينتها للمعلم حسنين) بعد الطلاق، مكثتُ عند أهلي خمس سنوات (قالت) ثم جاءني مصطفى (زوجي المسجون) واكتشفتُ بعد وصولي أنه تاجر مخدرات!! وأنجبتُ منه طفلين ثم تركني وأودِع السجن، ليقضي فيه عشر سنوات! عشر سنوات طويلة قاسية!! قضى منها ثلاثًا فقط!.. كانت تلمّح في طيّات حديثها إلى الحرمان الذي تعانيه! وإلى حاجتها إلى رجل مخلص حنون يشعر بها! رجل نظيف! "أنا نفسي في واحد نِضِيف! واحد متعلّم بيفهم ويقدّر وكنتُ أصدّها! كنتُ أكسر موجات شبقها بالمعاذير وافتعال مواعيد طارئة للمحاضرات! كنتُ أحافظ على عهدي مع خالد، ومع الآخرين! "صيانة العرض والحُرُمات".. هل هُزمتُ اليوم مرة أخرى؟! هل خنتُ العهد – مثل العزيزة؟ هل مَن كانت بين أحضاني امرأة من لحم ودم؟ أم أنها هزائمي التي صوّرت لي امــرأة وهمية؟!

أقحمني خالد في المحاضرات والنزهات البريئة! ظلّ يلازمني حتى هَمَدتْ آثار سوق الباطنية، وآثار رسالة عوض الشّاهد، وهلوسات تلك الظهيرة الغريبة.. وساهم الشتاء، بصقيعه وأمطاره الخفيفة، في كُمُون جسدي وأوجاعي.. وجاء الربيع وجاءت معه النقود وصلتْ عن طريق أحد أقاربي.. وصلتْ بعد أن نسيتُ تلك العبارة التي وردت

في رسالة أبي: "ستصلك نقود قريبًا عن طريق ابن سلمان العبد الله في الخليج.. اتفقتُ مع أبيه على أن يرسل لك النقـــود اللاّزمـــة، وأقوم أنـــا بسدادها هنا"

وذهبنا إلى شارع اللواء القريب من ميدان العتبة، حيث يوجد مطعم صغير مقابل سوق الطيور تمامًا.. ويوجد على مقربة منه فندق يحمل اسم الشارع.. كان الفندق مقرًّا مفضّلاً لأبناء قطاع غزَّة خاصةً التجّار وسائقي سيّارات المرسيدس.. توجد في المطعم طاولتان فقط وحول كل منها ثلاثة كراسي.. كنا نزور ذلك المطعم مرّات قليلة حسب الظروف! كان صاحب المطعم "السّيد" يُعِدّ الكباب والحمَام بطريقة فريدة.. يفرد قطع اللحم ويدكّه.. يشق الحمام إلى نصفين ثم يُتبِّل "الطلب" بالبصل والثوم والبهارات يتركه بضع دقائق ثم يفرده على شبكة من السلك ويُدخله إلى الفرن لينضج الشواء على الفحم.. عندما دخلنا المطعم استقبلنا السّيد بالترحاب وذكّرنا أننا غبنا عنه هذه المرّة أكثر من تسعة أشهر! وخمَّن أننا نريد حمامًا مشويًا! وعندما وافقنا على "فراسته" وطلبنا زوجين من الحمام مع السَّلَطَة ذهب لإعداد "الطلب".. وأمر أحد صبْيانه أن "يُشغّل" المذياع.. كانت أغنية لعبد الحليم حافظ:

ابنك يقـــول لك يا بطـــل   هـــات لي انتصار

ابنك يقـــول لك يا بطـــل   هـــات لي النّـــهار

وتوقفت الأغنية.. وجاء صوت المذيع حاملاً أخبار الكرامة انتفض خالد عندما سمع الأخبار السَّارة:

- إنها الكرامة!ها نحن نصعد مرةً أخرى! ها نحن نمسك بمصيرنا.. نواجه العدو ونقاتله!!..

وقلتُ بعد أن احتضنته وأمطرته بالقبلات:

- أشعر أنني ألتئم من جديد.. أتوحّد مع نفسي! إنها الكرامة! الحياة! ها قد عدنا إلى الحياة!!

وانتفض خالد مرة أخرى:

- اسمع! سأقلع عن التدخين!!

- ونقلع من الباطنية!!..

- ونقلع عن الإحباط والسلبية وجَلْد الذات!!.

- ونبدأ حياة جديدة.. حياة فاعلة..

عندها، تقدّم "السيّد" نحونا حملق فينا للحظات، ثم صاح بصوته الهادر:

- عليَّ الطلاق ما انتو دافعين فلوس.. غداكم النهارده على حسابي..

(٢)

عزيزة الخيّـال

آه يا وادي العزيزة! آه يا وادي الغرائب والعجائب! حتى أنت تتغيّر! تتبدّل مع الأيام والسنين! تتقلّب مثل الناس وقلوبهم ها أنت تفقد ملامحك وأشياءك الجميلة!! أين عصافيرك المرحة الملونة المتقافزة؟ ها هي تختفي تاركة المكان للبوم والغربان. أين أعشابُك الطريّة الخضراء المنبسطة في بطنك؟ أين تلك الحملان والجديان تنط و"تتشيطن" عليها؟ أين هي تشاكس العصافير وتطيّرها وأين رمالُك البيضاء الناعمة، رمالُك الأليفة الودودة، لنبني عليها بيوتنا الصغيرة وأحلامنا الكبيرة؟! اختفت.. واختفت معها تلك الشعاب والشقوق المتعرّجة الآمنة!! وها هي شجرات التوت الثلاث تقف ضامرة عجْفاء حزينة! لم تعُد نضرة مورقة، محمّلة بالثمار البيضاء اللذيذة.. كأنها شاة جفّت ضروعُها، أو امرأة هدّها الحزن وفقدان الأحبة مثلي.. كانت أمي تعتني بشجرات التوت كما تعتني بأشجار كرْمها.. كانت "تقشْبرها"، تنزع أغصانها الجافة اليابسة في كل عام!.. وكانت تنظف تربتها من النباتات الشائكة المتطفلة.. وتنقل إليها الماء على

كتفها الصلب القوي، تسكبه بحنان حول جذوعها وتمهّد الأرض بيديها لينساب الماء رقراقًا راقصًا وكانت ترشق جذع الشجرة بالماء لتبلله!! ترشق الجذع بالماء وتداعبه، كما كانت تفعل معي عندما أغتسل بين يديها!! تبلل جسمي الطري الصغير وتداعبني قبل أن تدعكني بالليفة والصابون اللاسع في العينين!! آه يا وادي العزيزة! لم تعُد كما كنتَ حنونًا أليفًا مبهجًا! اختفتْ أشجارُك الظليلة! قطعوها! قطعوا أشجار الكازورينا الضخمة وحملوها أخشابًا هامدة على العربات والجرّارات الشرسة!! ولم تعُد هناك ضفّتان! ها هي أطرافك تتآكل ببطء وملامحك تندثر رويدًا رويدًا.. وأمام عينيّ انهالت إلى قاعك أكوام الأتربة وبقايا الطَّمْي والطين ها هم أصحاب البيّارات والكروم - جيرانك الذين أعطيتهم بلا حدود - يرْدمونك! ينتهكون تضاريسك بالجرَّارات وسيّارات النقل! ثم يصلون إلى قلبكَ! ها هم ينزعون الأسلاك والحواجز، يطمعون في حِماكَ، ويظفرون بكَ، ولم تعُد واديًا!.. تحوّلت إلى تضاريس ومسطّحات غريبة منفّرة! تحوّلت إلى شيء مشوّه! شيء يُذكِّر بأن واديًا جميلاً كان هنا في يـــوم من الأيام.. حتى القنطرة! القنطرة التي صمدتْ لأعوام طويلة! صمدتْ منذ الانتداب البريطاني ها هم يقتربون منها ويحاولون تطويعها والسيطرة عليها! زحفوا عليك يا وادي الخير، وألحقوكَ ببيّاراتهم وكرومهم وأراضيهم.. واغتصبوك!.. اغتصب اليهود الأرض، ثم اغتصبوا المياه الآتية من الخليل، اغتصبوا مياه الأمطار.. بنوا السدود والخزّانات وحجبوا عنا ما يجود به الباري! منعوه عنا،

منعوه عنك يا وادي الخير فجفّت ضروعك، وتيبّست حشائشُك الطرية، وتحوّلَتْ الى هشيم أصفر جاف!.. أسرع الطامعون وتسابقوا!! نسوا كل عطاياك وخيراتك! انهالوا بلا شفقة على قلبك، "نهشوك"يا وادي الذكريات! ومعك نهشوا وشوّهوا أجمل أيام عمري.. ورائحة أمي.. وهواجس أمي.. كانت أمي تعبِّر دائمًا عن خشيتها من الزمن!.. كانت تشكو الى الوادي - إليكَ- همومَها! كنتُ أسمعها "تُحنِّن" في محرابك، كانت تترنم بذلك الغناء الملتاع الحزين.. كانت تودع أحبتها الذين تركوها.. كنتُ أقترب منها بحذر، استمع إلى تحنينها!! وأذرف الدموع بصمت:

قومــوا نودع   إن نويتو الوداع   قوموا نودع

خــذوني معاكــو   إن نويتو الــوداع   خـــــذوني معاكو

مـــا بصْبر بلاكو   ومـــا بطيق الفراق   مـــا بصْبر بلاكو

سقوني كاس مُر وكاس كبريت   وعلينا قدّر البــــاري تفريق

يا يوم فراقهم عجّة ونشاف ريق سَموم وريح وما حدا ودَّع حدا

مع السلامة يا جملة حبايبنا لا يوم اشتكينا ولا في حقكو عبنا

وانتو سافرتو واحنا اللّه يصبّرنا

وها هو الزمن يُصادق على خوفها!! ها هو الزمن يحرمني من أحبابي ويسقيني من الكأس المُرة!! ها هو يقذفني في أتون اللهيب! يرميني في أحضان مَن أكره! ومَن يكرهه إبراهيم! كنتُ أريد التخلص من نفسي! فكرتُ في شنْق نفسي! أن أصعد فوق البرميل الموجود تحت شجرة التين الكبيرة! أعلق رقبتي في الحبل ثم أربطه في غصن

قوي من أغصان الشجرة، بعدها أركل البرميل بقدمي.. وأموت!!
وفكرتُ أن أحرق نفسي، وأطهرها من العذاب! وفكرتُ أن أغافل عوض الشّاهد "القاسي الظالم" وأقذف نفسي في بئر الأفندي! لتهرسني الصّبابات والتروس المثلَّمة الحادة وتفتّتني!.. ثم فكرت في الهروب.. وجهّزتُ زوّادتي وصرّة ملابسي!!.. كان أبو الكاس ومعه أربعة رجال، أربعة فدائيين! كانوا ينتظرون الغروب بين نباتات الياقطين عند البركة! بركة بيّارة الأفندي التي أحبّها إبراهيم، وكان يُسْلِم نفسه إلى أحضانها بعد منتصف الليل.. كانوا يستعدون للرحيل.. اقتربتُ منهم وقلتُ بصوتٍ مرتجف:

- عمّي أبو الكاس، خذوني معكم.. بدّي أرحل معكم..

- نأخذك معنا!! إلى أين؟ أنتِ مجنونة! نحن ذاهبون إلى الموت!! سنسير ليلتين ونختبئ نهارًا كاملاً.. وقد نصل أو لا نصل!! ثم، ماذا سيقول الناس ماذا تقول القرية عنا؟ القرية التي أحبتنا وأحببناها؟! خطفوا البنت!! بلاش قلة عقل! اسمعي! أنتِ مكانك هنا!.. دوْرك هنا! كوني مثل أمّك! مثل عوض الشّاهد ومثل إبراهيم الشّاهد! كانت القبرصيّة تساعدنا وتكتم أسرارنا وتراقب لنا كلَّ شيء! كانت تخبئ السلاح تحت القنطرة.. والآن دورك! نظفي القنْطرة يا عزيزة! نظفيها، وإذا لم نعُد نحن فسيأتي غيرُنا! دوْرك هنا يا بنت القبرصيّة! يا بنت الشّهيد عابد الخيَّال! مكانك هنا..

وبقيت!! وعدلتُ عن فكرة الموت، فكرة الانتحار.. وتزوّجني جميل حب الرمّان!.. وفي الليلة الأولى رأيتُ النّدبتيْن! آثار طعنات خنجري،

خنجر أمي القبرصية!!.. كانت آثار الطعنات بائنة في ذراعه الأيمن!.. لكنه سدّد طعناته هذه المرة بقسوة أكبر! انتقم مني! أخذ بثأره مضاعفًا.. امتلك جسدي وتمرّغ فيه! لكنه لم يمتلك قلبي! لم يمتلك روحي ومشاعري!

بعد أسبوع من زواجنا، جاءت أخبار "أبو الكاس" وجماعته!! ردّدتْ القرية أخبارهم.. كانت القرية كلها تحبهم. استشهد أربعة منهم وكان أبو الكاس أحدهم. وأرسل النّاجي الوحيد أخباره الموجعة "فاجأنا اليهود قرب الخليل.. كنا على وشك دخول الخليل.. اشتبكنا معهم، ثم تمكنوا منا!! وبأعجوبة نجوتُ من موتٍ محَقَّق"..آه يا وادي العزيزة.. استشهد أبو الكاس وبقيَتْ كلماته تنْقر في رأسي وتُشكِّل دوائر الحيرة في صدري! "دورْك هنا يا بنت القبرصيّة.. يا بنت الشهيد عابد الخيّال! كوني مثل أمك، مثل عوض الشّاهد وإبراهيم الشّاهد. نظّفي القنْطرة يا عزيزة!.. وإذا لم نعُد نحن، فسيأتي غيرُنا!" وتساءلتُ: هل أستطيع القيام بما كانت تقوم به أمي الصابرة الكتوم؟! بما كان يقوم به عوض الشّاهد القويّ الشجاع؟! بما كان يقوم به إبراهيم الجامعي الواثق؟! ووجدتُ نفسي أبدأ في تنظيف القنْطرة.. كم هي الأيام التي أمضيتُها في تنظيف القنْطرة وتهيئتها؟.. كم هي الأيام التي قضيتُها في إعداد الأخدود الموازي لها ليصبح آمنًا نافذًا من الجهة الأخرى؟! كم هي الأيام التي جلبتُ خلالها ألواح الزينكو والأغصان الجافة لأُغطي بها الأخدود! لأستره! لأوهم الرّائي أنها مجموعة من أكوام الحطب أكوام من الأغصان الجافة اليابسة التي

يستخدمها القرويّون في الخبيز والطَّبْخ وتسخين الماء.. أغصان من أشجار الليمون والتين والخوخ توفر الكاز وتؤدي الغرض، رغم دخانها الكثيف المُدْمِع.. ومرّ عامان.. بل عامان وعشرون يومًا.. سبعمائة وخمسون يومًا هي إذن! جاء بعدها ذلك الأسمر الممشوق.. كان الوقت عصرًا (لم نعُد نبيتُ في الكَرْم بعد دخول الإسرائيليين).. دخل من السياج ووجدته فوق رأسي فجأة:

- ها أنتِ تنفذين الوصية!!

- أية وصية؟

- وصية "أبو الكاس"..

- وهل تعرفه؟

- نحن تلاميذه وأبناؤه ونحن ننفذ وصيته مثلك!

- وما هي وصيته لكم؟

- أن نقاوم!! ألاّ نستسلم!! وهذه وصية الكتري من قبله..

في أم "القرّيص" أقامت قوات الاحتلال مركز قيادتها! ربْوة في شمال البلدة قريبة من الحدود كانت تلّة "أم القرّيص" معسكرًا دائمًا للجيوش! أقام الجيش البريطاني - كما روت أمي- عليها قيادته في المنطقة وعمل في هذا "الكمْب" الكبير كثير من أهالي القرية خليل بصْبوص ودوّاس وزاهي السّمري وأبو محمود كرّاز والزغندي وآخرون وبعد الهجرة والانسحاب من الفالوجة، أقامت القوات المصرية عليها نقطة عسكرية متقدمة وحذت حذوها قوات جيش التحرير الفلسطيني بعد إنشائها أما قوات الاحتلال الإسرائيلي، فها

هي تعود إلى بريطانيا وتقيم على الربْوة مركزًا للقيادة.. سألت أمي ذات مرة:

- ليش سمّوها "أم القرّيص"؟

- هذه التلّة أعلى مكان في القرية تربتها مالحة مليئة بالحجارة والحصى ولا تنبتُ فيها سوى نباتات القرّيص وبعض النباتات الشّوْكية الأخرى، لذلك سمّاها الناس "أم القرّيص"..

وأذكر أنها روت لي طُرْفة عن تلك الربوة - كان ذلك في لحظات مرحها النادرة - قالت: بعد الهجرة بثلاث أو أربع سنوات، أظنّها أربع سنوات، بعد ثورة مصر بشهور.. هطلت أمطار غزيرة، وتدفقتْ السيول في الوديان والشِّعاب والأخاديد كان الجنود المصريون ينْصبون خيامهم فوق تلك الربْوة.. وكانوا يقضون حاجتهم في خنادق خاصة بهذا الغرض.. خنادق مغطّاة بألواح الزينكو.. تدفقتْ السيول إلى الخنادق وغمرتها بالمياه وشعر أحد الجنود برغبته في قضاء الحاجة! يبدو أن البرد قد أثّر عليه وأن معدته قد "مشت"!! ذهب إلى الخلاء وقضى حاجته واستراح.. وأراد أن ينظف.. نظر حوله فلم يجد سوى نباتات القرّاص، تناولها وذهب بيده إلى المكان المطلوب.. وفجأة قفز ملسوعًا صارخًا: "يخْرب بيتك يا فلسطين مش كفاية سماكي مخْروقة وكمان عشبك مسْموم"..

من مركز القيادة الإسرائيلية، تخرج الدورية المحْمولة ثلاث مرّات في اليوم.. المرّة الأولى في الساعة السابعة صباحًا.. والثانية في الساعة الواحدة ظهرًا أما المرّة الثالثة فتكون في الساعة السابعة

مساءً.. وتطوف الدورية البلدة من خارجها! تبدأ من الشمال ثم تتجه إلى الغرب، ثم إلى الشرق، لتدخل الحدود القديمة، إلى المستعمَرة.. لم تكُن قوات الاحتلال تجرؤ على دخول البيّارات والكروم!! وأما القرية نفسها فلا تدخلها الدورية إلا بعد سَرَيَان منع التجول، بعد العاشرة مساءً!!

وجاءني الأسمر الممشوق مرة أخرى.. وطَلَب جمْعَ المعلومات الدقيقة! عدد ناقلات الجنود، والجيبات، عدد الجنود إذا أمكن! نوع السلاح والعتاد.. كل ما يتعلّق بالدورية وعتادها وأفرادها وحالتهم النفسية كذلك! متى يشعر الجنود بالأمان؟ متى يسترخون ويعتقدون أنهم أصبحوا في مأمن؟..

وبدأتُ في رصْد الدورية ومراقبتها كانت الدورية مكوّنة - غالبًا - من ثلاث ناقلاتٍ للجنود يتقدّمها جيب واحد وأحيانًا اثنان من الجيبات العسكرية وكانت تسير ببطء! وراقبتُ الجنود وتمعنتُ في السلاح والعتاد وخمّنتُ أن عدد الجنود من عشرة إلى اثني عشر جنديًا ووصفتُ الأسلحة..

- إذن سيكون الصيدُ ثمينًا! لابدّ من عملية نوعية، عملية في وضح النهار!!..

ذهب إلى القنْطرة.. اطمأن على السلاح، ثم عاد وقال:

- غدًا تحضرين القنابل من الأفضل أن تحضريها ليلاً.. لابدّ من أخْذ الحيطة والحذر..

في مساء اليوم التالي، أعددتُ لجميل حب الرمّان زوجًا من الحمام ثم تهيّأتُ له.. كان عليَّ أن أسترضيه، وأن أمهّد لتلك المهمة الليلية السِّرية!!

منذ يومين كنتُ قد دسسْتُ القنابل في الحاكورة الملحقة ببيتنا.. هناك تحت "ركبة" التين الشوْكي الغربية.. كان الأسمر الممشوق قد أحضرها، توقف أمام البيت، ثم وضع كيس الخيْش -كان بائعًا جوّالاً!! وضعتُ في يده بعض النقود، همس ببعض الكلمات، ثم مَرَق سريعًا قبل أن يكتشفه أحد..

عندما دخل جميل حب الرمّان، بعد سهرته عند خليل بصْبوص وزوجته سماهر، استنشق رائحة "الزغاليل"، ثم شهق من النشوة.. ضحكتُ له وتدلّلتُ عليه! فتح عينيه غير مصدِّق:

- معقول! أهذه أنتِ؟! ترتدين ثوبًا جميلاً!! حمَام وثياب جميلة وكحل وعطر لا أصدق!.. ما الذي حدث في الدنيا؟..

- ألست زوجي؟

- طبعًا! زوجك وحبيبك، لكن..

- لكن ماذا؟ جميل، لا تُفسِدِ الليلة..

أسْلمتُ نفسي لجميل في تلك الليلة، وأظهرتُ له مودّةً مفتعَلَة، وبعد آذان العشاء هَمَد في الفراش وعلا شخيره كأنه لم ينَم منذ شهور.. اغتسلتُ ثم دخلت إلى الحاكورة بحذر، أخرجتُ كيس الخيْش ثم أفرغتُ القنابل في السّلة ووضعتُ فوق القنابل ستة أرغفة من الطّابون وعشر بيضات مسلوقة وكمّية من حبّات البنْدورة وصرّة

صغيرة من الزيتون (وضعتُ فتائل القنابل وأذرع التفجير في صرة منفصلة - كما علّمني الأسمر الممشوق) وتقافزتُ طائرة نحو الشرق، نحو العزيزة، كانت القرية ساكنة ولا توجد حركة للناس، إنه الاحتلال، ولا يتحرّك في هذا الليل إلا مريض أو صاحب ضرورة.. سرتُ في الطريق المسيّج وعندما هممْتُ بالتحوّل إلى اليسار فوجئت بصوت الهدير والأضواء وتوقفتُ! إنها دورية! يا إلهي هذا ليس موعدها! وفكرتُ في دخول البيّارة! لكنني تماسكتُ "إذا أقدمتُ الآن على أية حركة سيطلقون النار! عليَّ التوقف إذن مهما كانت النتيجة وصاح أحد الجنود:

- إنتَ وين بروخ؟
- أنا رايحة أودّي العشاء للبابا!
- إنتَ وين البابا بتاعك؟
- في البيّارة! هناك لم يأكل منذ الصباح.. جوْعان، هَمْ!!..
- تعالَ قرَّب أشوف إيش معك؟

"يا إلهي! هذه نهايتك يا عزيزة! ماذا لو قلّب السلّة وأفرغها على الأرض لماذا تنتفضين يا عزيزة؟ لابد أن تتماسكي وإلا حدثت مصيبة! تماسكي يا بنت القبرصية"..

وتقدّمتُ نحو الجندي:

- شوف! هه.. خبز وبيض وبندورة وزيتون.. تفضّل!

أضاء الكشّاف وسلّطه على السلّة، ثم مدَّ يده - فانخلع قلبي! تناول بيضةً مسلوقة وأعطاها لزميله ثم تناول بيضة أخرى وأخذ معها رغيفًا من الخبز:

- إنتَ مش عارف ممنوع تجول في الليل!!

- ممنوع تجول على الساعة عشرة..

- إنت عارف ساعة كم هسَّه؟

- لأ مش عارف ساعة كم هسّه!

- طيّب امشي.. امشي بسرعة يالله روخ بلاش كلام كتير..

وجاء يوم جديد.. يوم مشْرق بهيج.. بدأتُه بنشاط، جمعتُ الأغصان الجافة من أطراف الكرْم ومن بيّارة الأفندي.. وطُفْتُ حول السياج متفقدة الثغرات والسدات، جلبتُ المياه من بير الأفندي وسقيتُ شتْلات الباذنْجان والفلفل والبنْدورة.. كان جميل حب الرّمان يجلس مع عوض الشّاهد عند البركة، بجوار حديقة الأفندية وكانا يتهامسان! بعد آذان الظهر صعدتُ إلى شجرة التين الكبيرة موعد الدورية يقترب وحال وصولها عليَّ أن أُصدِرَ الصّفير إيذانًا ببدء العملية! كانت أمي قد علّمتني طريقة خاصة للصّفير أضع أصابعي في فمي بطريقةٍ معيّنة وأكور لساني، ثم أُصدِرُ ذلك الصّفير المميّز في العزيزة كلها. كنتُ أُصدِرُ الصّفير في حالات محددة.. حالات التحذير! أو النداء.. كنتُ أحذر الرعاة والبدو وآمرهم أن يبتعدوا!! وكان هناك دائمًا مَن يُجيبني كان هناك مَن يعرف ما أعنيه بهذا الصّفير! الزّجر أو النداء، كانت سالمة البدوية تُجيبني بنفس الصّفير

ثم تهُشّ أغنامها مبتعدة عن سياج الكرْم.. قبل أن أتعلّم الصّفير من أمي كان عوض الشّاهد يُجيب أمّي بصفير مشابه.. أمَّا وقد تعلّمته أنا، فلم يكُن يُجيبُني سوى شخص واحد "إبراهيم"! كان يفعلها قبل دخوله الجامعة وبعد الجامعة عندما يقضي إجازته الصّيفية.. كان يجلس بجوار البركة في معظم الأحيان وعندما أُصدِر ذلك الصّفير يُجيبُني ثم يحضر إلى الكرْم.. ها هو الكرْم خاليًا منه! وبيّارة الأفندي لم تعُد تُجيب صفيري!! حتى سالمة البدوية لم تعُد تُجيب! تزوجتْ، تركتْ العزيزة وذهبتْ مع زوجها إلى الجنوب! وجميل حب الرّمان لا يُجيد الصّفير وعوض الشّاهد لا يرد على صفيري بعد أن فعل فعْلتَه وزوّجني كرْهًا من جميل حب الرّمان! كنتُ أرى العزيزة منبسطة أمامي كانت شجرة التين الكبيرة تكشف معظم بيّارات المنطقة، خاصة ذلك الطريق المسيّج الطويل! ونظرتُ إلى القنْطرة "لابد أنهم جاهزون الآن" مسحتُ المنطقة بعينيّ وركّزتُ على آخر الطريق المسيّج وعندما ترنّمتُ بأغنيةٍ شعبية ظهرتْ الدورية.. جاءت الدورية في موعدها!! وها هي تقترب.. تقترب.. ها هي تصل الآن إلى العزيزة تُحاذي القنطرة تمامًا وها هم الجنود مسترخون متضاحكون! إنهم يقتربون من المستعمرة، من عرينهم الآمِن! فلماذا لا يطمئنون؟! وأصدرتُ الصّفير ثلاث مرات "لابدّ من ثلاث مراتٍ للتأكيد" وانطلق النّشامَى في مجموعتين.. ثلاثة شباب لكل مجموعة من أمام الدورية ومن خلفها خرجوا من السّياج فجأة وقذفوا القنابل واحدة اثنتان، ثلاث عشرة وأطلقوا صليات الرشاشات السريعة.. طافوا بناقلات

الجنود والجيبات وقذفوها بالقنابل وصليّات الرصاص مشّطوها ثم انسلّوا في سرعة البرق إلى داخل الكرم!..

ونزلتُ عن شجرة التين.. وعندما وصلتُ إلى باب الكرْم، دوّتْ سيّارات الإسعاف وحلّقتْ طائرتان مروحيّتان في المكان.. ثم هبطتا على الأرض المنبسطة القريبة.. أرض عامر الفرَّنجي التي "بوَّرها" وتركها للبدو يرتعون فيها! وطُوِّق المكان , طُوِّقتْ العزيزة! واقتحم الجنود البيارّات والكروم لأوّل مرّة.. واعتقلوا كل مَن وجدوه في طريقهم.. اعتقلوا عوض الشّاهد وجميل حب الرّمان وأربعة من العمّال وثلاثة من البدو واثنين من الرُّعاة الآخرين.. واعتقلوني! وعندما دفعوني إلى داخل "الجيب" العسكري، همسْتُ: "الله يستر الشباب".

(٣)

خالد الرّبيع

"انهضوا.. انهضوا.. انهضوا.. ضمدوا جراحكم وانهضوا.. تغلبوا على أوجاعكم وانهضوا.. اجعلوا من أرواح شهدائكم القناديل التي تضيء لكم الدرب.. لا تجعلوها قيودًا، سلاسل، تشدّكم إلى جدران اليأس والثبور والعجز.. أنتم! يا أحفاد بناة الحضارات.. يا أحفاد الفاتحين الذين نشروا النور والعلم والعدل، انهضوا.. كان أجدادكم دائمًا يتغلبون على الهزائم. كانوا دائمًا ينهضون من عثراتهم.. كانوا دائمًا يهزمون الغزاة.. كانوا دائمًا يواصلون الدرب، ويصلون.. انهضوا.. انهضوا.. انهضوا.. دوّت قاعة مسرح كلية الآداب بالتصفيق ووقف المشاهدون لتحية أعضاء فرقة المسرح الجامعي.. كانت المسرحية من تأليف الدكتور فاضل عزت، أستاذ الأدب العربي.. راقبتُ إبراهيم الشّاهد وهو يصعد إلى المسرح لتهنئة الدكتور فاضل وزملائه.. ولاحظتُ أنه يغالب دموعه.. وكان الدكتور فاضل متوترًا من شدة التأثر.. كان يمسح دموعه من تحت نظّارته.. ونظرتُ حولي فإذا كثير من المشاهدين يفعل الشيء نفسه.. كان

بعض أولياء الأمور يمسح الدموع ويمسح النظارات أيضًا.. كان المقطع المسرحي مؤثرًا.. شعر كل فرد أنه المقصود وأن الدعوة إلى النهوض ومواصلة الدرب موجَّهة إليه.. وشعرتُ أن شيئًا جديدًا يحـــدث، شيئًا مـــا ينمو في رحـــم الزمن، رغم الملامح المحبطة والسخرية المريرة والنكات الموجـــعة!

كانت حرب الاستنزاف قد بدأت منذ عام.. وجرت عمليات جريئة داخل العُمق في سيناء، وتم تهجير ثلاث مدن.. السويس والإسماعيلية وبورسعيد.. المدن الواقعة على قناة السويس.. وكانت الأخبار تتسرب عن محاولاتٍ حثيثة لبناء قواعد الصواريخ من جديد.. "جلبوا نوعًا جديدًا من الأسمنت، والسوفييت يحاولون ابتكار طريقة لبناء المنصّات ليلاً، قبل أن تتمكن إسرائيل من تدميرها.. حيّا أعضاء فرقة المسرح الجامعي الجمهور، ثم انسحبوا وسط التصفيق.. طلب عريف الحفل الهدوء من الجمهور.. ثم بدأ في قراءة الأشعار الوطنية.. قرأ أشعارًا للأبنودي وصلاح جاهين وأحمد فؤاد نجم، ثم أعلن عن الفقرة التالية.. دخلتْ فرقة الجامعة للرقص الشعبي، فنهضتُ وتوجهتُ إلى غرفة الملابس.. تقابلتُ مع إبراهيم الشّاهد وسميرة صالح وآمنة سرور وهدى سالم وثلاثة شبّان فلسطينيين آخرين.. كانوا من كلياتٍ مختلفة بل كان أحدهم من طلبة جامعة القاهرة تبادلنا كلمات مقتضبة - كنا واقعين تحت تأثير المشهد المسرحي- ثم شرعنا في تبديل ملابسنا.. ارتدى الشباب القمْباز المقلّم والسروال الغامق والحزام الجلدي العريض ثم لففنا

رؤوسنا بالكوفيّات المرقطة أما الصبايا، سميرة صالح وآمنة سرور وهدى سالم فذهبن إلى جناح ملحق، ليَعُدْن بعد قليل بثيابهن الفلسطينية المطرَّزة الجميلة.. وأمامنا وضعْن حول رقابهن الكوفية المرقطة نفسها.. أمسكتْ سميرة صالح منديلها الأبيض من طرفيه، جــدّلته ثم اقتربتْ من إبراهيم الشّاهــد:

- اليوم يومك يا برهــوم

نظر إليها، كان يسمعها تدلـــله لأول مرة، تأملها للحظات ثم قال في صوت جـــاد:

- اسْمعي! خليكي ع الإشارة، ظريف الطول ودلْعونا والشّمالية والطيّارة متردّيش على حـــدا (ووجّه حديثه إلى الشاب الأسمر الذي يمسك بالشبّابة) بدّي القاعـــة تولّع، اليوم يومنا يا شباب والناس نِفْسَها مفتوحة..

وبدأنا بضرب أقدامنا على الأرض.. ثم تشابكتْ أيدينا استعدادًا لدخول المسرح.. قابلنا الجمهور الحـــاشد بالتصفيق.. وحنَّ الشاب الأسمر على الشبّابة فأخـــرج من حنجرتي، بل مـــن صدري، غناءً، حنينًا، حُبس لفترةٍ طويلة:

على دلعــونا على دلعــونا   هــوا الشمالي غيّر اللّونا
هوا الشمالي غيّرلي حالي   وينه حبيبي اسمر اللّونـــا
ويلي عليهم ويلي عليهم   طالت الغربة واشتقنا ليهم
يارب السما ترضى عليهم   هادول أحبابي كانوا يعزّونا

ودبكْنا حتى هدرت القاعة بالهتاف "فلسطين عربية".. وفجــأة خرجتْ من وسط الحشد الهادر.. خرجتْ مرتدية ثوبًا فلسطينيًا مطرَّزًا! وكانت تضع حــول رقبتها كوفيَّة مرقطة! صعدتْ إلى المسرح بخطواتٍ ثابتة.. اندستْ بيني وبين هــدى سالم، شبكتْ يدها في يدي وابتسمتْ.. كانت كــوثر العرابي بجسمها الممشوق ووجها المشرق الجميل وعينيها الحوراويتين الفتّاكتين! قفزتُ، تطايرتُ مــن النشوة! إنها هنا! بجانبي! معي! تدبك معي! أعطيتُ الإشارة لإبراهيم فدخل حلقة الدبكة ودخلتْ معه سميرة صالح،وخــرجتُ أنا وخــرجتْ معي كــوثر ودبكنا متقابليْن وكانت عيناها تزوداني بطــاقة عجيبة شحنة لانهائية من النشوة.. من الجنون، وشعرتُ أنني أحــلق في السماء.. عزلتُ نفسي عن الآخرين وأظنها فعلتْ ذلك! ورقصتُ لعينيها، لحبنا، للوطن، للمخيم، ولكل من أفتقدهم..

وعندما انتهتْ وصلة الدبْكة، تساءلتُ: متى تعلمتْ كوثر هذه الرقصة العذبة؟ متى تعلمتْ هذه المصرية الفاتنة الدبْكة الفلسطينية؟ أذكر أنها تعلمتْ مني بعض الحركات، مبادئ أولية, لكنها اليوم ترقص وتدْبك مثلهن مثل سميرة صالح وآمنة سرور وهدى سالم، مثل الفلسطينيات! لابد أنها سميرة، صديقتها سميرة صالح لاحظتُ أنها تبتسم لها، تغمز لها بعينها وتبتسم! إذن هي أنتِ يا سميرة! أنتِ مَن علّم كوثر رقصة الحياة! هذه رقصة أفديها بدمي، أفديها بعمري كلّه.. سأموت من أجلكِ أيتها الحوراء الشهيّة! ها أنت اليوم تبعثينني من جديد! تعودين بعد أن تركتني لعذابي عامًا كاملاً..

كانت كوثر قد بعثت رسالتها الواعدة منذ أسبوع! أرسلتها مـــع سميرة صالح.. كتبتها باللغة الإنجليزية! لماذا تكتب هذه المرّة باللغة الإنجليزية؟ كيف تهرب من لغتنا الجميلة؟ لغتنا التي تعبر عن اللوعة والشوق والحنين بأكثر من مرادف؟ هل تخشى أن تتغلب عليها أحزانُها، فتخرج عباراتها يائسة محبَطة؟ أم أنها تخشاه؟ والدها، صادق العرابي؟! تخشى أن يكتشفها الحاج صـــادق العرابي الذي تحبه أيضًا! هذا الرجـــل يحيرني! هذا الرجل الشهم الودود، الرجـــل الذي يُشعرك أنك في منزلة ابنه، أنك بين أهلك، أنك في بيتك.. هذا الرجـــل الذي يبادر في كل محنة ويغمرك برعايته وكرمـــه، مثل أب حنون!! صـــادق العرابي هذا، لم يقبلني زوجًا لابنته! تقدمتُ وطلبتُ يدها، يد كوثر، لكنه رفض! رفض وطلب عدم الحديث في الموضوع مرة أخرى! وأمـــرها أن تبتعد عني! هدّدها بحبسها في البيت وحرمانها من الجامعة! وابتعدتْ كوثر! وعذبتني عامًا كاملاً! ويقترب مني إسماعيل العرابي، وفي أدب جم يطلب مني أن أبتعد عن شقيقته!! أن اتركها في حالها! أن أنساها! إسماعيل العرابي الذي يعـــرف، أكثر مـــن غيره، تعلقي الشديد بهـــا ويعرف أنها تحبني، إسماعيل هذا، يطلب مني أن أبتعد عن كوثر! أن أنساها! آه يا كوثر الحياة، كوثر العمر! هل تذهب خمس سنوات من الحب هباء؟ هل أنسى أجمل سنوات عمري, هل أفرط فيها بهذه السهولة؟ خمس سنوات عزفنا خلالها لحنًا ملائكيًا صافيًا، لحنًا لم تتخلله نغمة نشاز واحدة.. ها هي مدرجات الجامعة، فصولها، الكافتيريا، الحديقة،

الشوارع، الحافلات, النزهات المرحة البريئة، كلها، شاهدة على حبنا الطاهر العفيف! لمـــاذا القسوة إذن؟ لمـــاذا يحرمني صادق العرابي وابنه من حياتي؟ نعم كوثر هي حياتي! كتبت كوثر في رسالتها "حبيبي خالد هل تظن أنني نسيتك لحظة واحدة؟ إذن تكون شخصًا آخر غير خالد الذي أعرفه! كيف أنساك وحبك في دمي! في شراييني يمد قلبي بالنبض يمدني بالحياة! لا معنى لحياتي بدونك أظنك تفهم معنى هذا! أنا متأكدة أنك تعرف مدى تعلقي بك! عشقي لك هل تكفي هذه الكلمات للتعبير عن علاقتنا؟ أظنها قاصـــرة عن ذلك، إنها لا تمدني بالروحـــانية بالسحر بالقداسة التي أريدها! هل أقول بكلمات تقليدية أنك أنا وأنا أنت؟ هل اقتربتُ من المعنى المناسب؟ لا أدري! لكننا في ورطـــة يا خالد أنا حائرة , واقعة بين سيفين! بين نارين! نار حبك! ونار حبي لأبـــي! أبي المريض، أبي الذي لـــم يحرمني من شيء في يوم من الأيام.. آثرتُ أن أطيعه وأن أبتعد عنك حتى لا أكون سببًا في تدهور صحته! أعرف أنني أقسو عليك، وأقسو على نفسي.. قدرنا أن نقبل هذه الحالة إلى حين، علينا أن ننحني لهذه العاصفة الشديدة وأعدك ألا أنساك لحظة أعدك أن أرفض كل رجال الدنيا من أجلك وأعدك أن أكون لك مهما حدث وأينما تكون!! تذكر سأكون لك أينما تكون، فقط عليك أن تنتظرني أن ترتدي أجمل ثيابك وتكون في استقبالي أيها الوسيم المهيب!!

ولك مني مفاجأة قريبًا (ك. ع)

إذن! كانت الدبْكة هي المفاجأة التي وعدت بها كوثر! كانت رقصة الحياة هي المفاجأة! أعترف أنها لم تخطر ببالي! وأعترف أنها كانت أطرف وأعذب مفاجآت حياتي..

بعد أسبوع من حفل التخرج البهيج، جاءت سميرة صالح حاملة في يدها مجموعة من البطاقات، وعندما دخلتْ همس إبراهيم:

- جاءت سميرة تونج، هذه دعوات من السفارة الصينية..

وضعتْ البطاقات على الطاولة ثم قالت:

- هل تذهبون إلى عُرْس الزعيم ماو العظيم؟! إنّهم يحتفلون غدًا بواحدة من بطولاته التي لا تُحصى..

كانت سميرة فتاة غير عادية، متمردة، تلبس الجينز، وتترك شعرها منثورًا، تقفز في الشوارع وتدخل وسط السّيارات وتنط في الحافلات، وكانت تدخن أحيانًا.. كانت دائمة الابتسام، مرحة، تداعب الشباب، وتشاكسهم وتخطف أشياءهم.. طالبة في قسم الاجتماع، جاءت من مخيم الوحدات في عمان.. أحد تجمعات البؤس واللجوء والثورة.. استشهد والدها في حرب ١٩٦٧، كان جنديًا في الجيش الأردني واستشهد في القدس.. استشهد دفاعًا عن جبل المكبّر، الجبل الذي يبعد عن قريته عشرة كيلومترات فقط.. بعده، تولّت جدتها رعايتها.. تزوجت أمها من رجل آخر وتركتها.. كانت سميرة صالح كتلة من النشاط والتفاؤل رغم ظروف نشأتها وحياتها!.. وكانت عاشقة لماوتسي تونج! مؤمنة بأفكاره وعاشقة لتجربته إلى درجة الوله!! كنا نسميها ونداعبها "سميرة تونج" ذهبنا بصحبتها عدة مرات إلى

السفارة الصينية إلى أصدقائها تعرّفنا عليهم وأصبحوا أصدقاءنا.. كانوا يدعوننا في كل مناسباتهم، وكنا ندعوهم أحيانًا إلى شقتنا في العباسية وعندما نتناول وجبة الغداء معًا كنا نضحك.. كنا نفاجأ من كمية الطعام القليلة التي يكتفون بها وعندما نلح عليهم كان أحدهم - المستشار الثقافي- يقول بعربيته الفصحى الصينية "شبعتُ كثيرًا.. شبعنا كثيرًا هذا كثير طعام.. هذا أسبوع بعد أكل.. أسبوع طعام بعد" ونضحك ويضحكون اعتذرنا هذه المرة عن تلبية دعوة الأصدقاء.. كانت الأجواء مشحونة، متوترة.. قبِلَ عبد الناصر مشروع روجرز، وخرجتْ في عمّان مظاهرات وهتفتْ ضده وضد المشروع، وقام بعضهم بسلوكيات طفولية كانت فيها إهانات جارحة. غضب عبد الناصر فغضبتْ علينا أجهزة الأمن والمخابرات!! شدّدت علينا كانوا يراقبوننا ويرصدون حركاتنا وطُرِدَ إبراهيم الشّاهد من المدرسة الخاصة التي عمل فيها بعد تخرّجه.. اعتذر له ناظر المدرسة وطلب منه عدم العودة حرصًا على سلامته.. مسكين إبراهيم! كان لديه عرض للعمل في ليبيا في مجال التدريس لكنه رفض الذهاب إلى ليبيا وعمل في مدرسة خاصة وانتظر تخرجي لنقرر معًا ونتفق على بلد واحد نذهب إليه.. في اليوم التالي جاء عصام الفايز جاء بلباسه العسكري مغبَّرًا حاملاً حقيبة صغيرة جاء من منطقة "فايد" قرب الإسماعيلية.. بعد هزيمة ١٩٦٧ تجمّعت قوات جيش التحرير الفلسطيني في العامرية - قرب الإسكندرية ثم أُرسلت بعد ذلك إلى الجبهة مثل القوات الكويتية والليبية.. اغتسل عصام وبدَّل ملابسه ثم

جلس على الأريكة.. تناول طعامه ثم أخرج علبة سجائره وقدَّاحة فضية على شكل سفينة.. نظر إبراهيم إلى القدّاحة، تناولها، تمعّن فيها، عندها، قال عصام:

- هذه القدّاحة هدية.. هدية من شخص عزيز..

وتذكّرتُ القدّاحة رأيتها مع إبراهيم قبل أن نقلع عن التدخين لقد أشعلتُ سيجارتي منها أكثر من مرّة.. ارتبك إبراهيم، كتم غيظه ثم نهض وتوجّه إلى الشرفة.. لحقتُ به فوجدته ممتقع الوجه:

- قدّاحتك!

- نعم! أهدتْها له ال.. ألحّت لأترك لها ذكرى وعندما أقلعنا عن التدخين تركتُ لها القدّاحة وها هي تعطيها له..

- ما معنى هذا؟

- معناه أنها..! تذْكُر زيارة المعلّم حسنين منذ شهر؟

- أذكُرها وأذكُر أنه..

- طردها وقال يومها: مش كل الناس بتحافظ على العيش والملح زيّكم.. فيه ناس من جماعتكم خانوا العيش والملح.. ناس كانوا بيطلعوا وينزلوا عليكو.. والله والله لولا معزّتكم وسيرتكم اللّي زي البفتة البيضة لخليت الرجالة بتوعي يودوه ورا الشمس وأنتو عارفين أنا بقدر أعمل أيه!

وعندما سألناه عن الشخص الذي خان العيش والملح قال: بلاش بلاش خلي الطابق مستور خلاص الموضوع انتهى وكل حيّ راح لحاله..

وتعكّرتْ الأجواء من جديد، تسارعتْ الأحداث وأربكتْ الجميع.. توترت العلاقات بين النظام الأردني والثورة.. خُطفت الطائرات وتحرَّش الجيش الأردني بقوات الثورة.. وبدأتْ تهديدات الملك فَفَجّرتْ الطائرات على الأرض الأردنية نفسها وبدأ الحشد للمواجهة!! تعالتْ أصوات التعقل والخوف من الكارثة وكان عبد الناصر أكثرهم وعيًا بخطورة ما يحدث.. وفي غمرة هذا التوتر تمّ اعتقال العديد من الطلبة الفلسطينيين.. في القاهرة والإسكندرية وأسيوط.. واختفينا عن الأنظار.. ذهبنا إلى بني سويف – جنوب القاهرة وأول الصعيد.. ذهبنا إلى بيت أحد الأصدقاء المدرسين.. وذهبتْ سميرة صالح إلى الشرقية، إلى كوثر العرابي.. ومن بيت الصديق الفلسطيني تابعنا دماءنا المهدورة، تابعنا مجازر أيلول (سبتمبر) بقلوبنا النازفة تابعنا لجان المصالحة برئاسة النميري ثم الاستعدادات لمؤتمر القمة. وفجأة، وصل ياسر عرفات إلى القاهرة! ثم وصل بعده الملك! وعُقد مؤتمر القمة وتمكّن عبد الناصر، أخيرًا، وبعد جهدٍ كبير، من فرْض اتفاق!.. ثم مات عبد الناصر.. فعدنا إلى القاهرة!

في الشرفة، جلس إبراهيم الشّاهد مسكونًا بحزن عميق.. حزن لا تعبر عنه أعظم لوحة سوداوية.. شعرتُ به! لكنني لم أستطع مواساته!! كيف أواسيه وأنا حزين مثله؟ كان إبراهيم عاشقًا كبيرًا لعبد الناصر، رغم أنه دأب في السنتين الأخيرتين على نقده!! كان يوجه النقد إلى علاقته ببعض مَن منحهم الثقة وإلى بعض خطواته الاقتصادية والعسكرية (المتعجِّلة) كان يصل أحيانًا إلى درجة التهكم

وردد بعض العبارات الجارحة! لكنه اليوم يبكي بمرارة! يبكي مثل طفل صغير! طفل فقد أباه فجأة، كلنا فقدناه فجأة! لم يستأذن في الرحيل! لم يودعنا كان منهكًا وذهب في غفوةٍ طويلة! تركنا ونحن في أمَس الحاجة إليه!.. بعد أسبوعٍ من وفاة عبد الناصر عاد إبراهيم حاملاً صورته.. كانت صورة الزعيم موشّحة بالسواد.. وكان عليها توقيع الفنان الفلسطيني إسماعيل شمّوط.. وفي حركات تشبه الطقوس، علَّق الصورة، ثم تأملها وأطال ثم نطق بصوت ضعيف:

- علينا أن نفكر في مستقبلنا.. ما رأيك في ليبيا؟

- لكن العام الدراسي هناك قد بدأ.. ولا أظن أنك ستجد فرصة في التعليم الآن!!

- قد أجد فرصة في مجال آخر- الصحافة مثلاً.. سأعرض بعض المقالات والقصص التي نشرتها..

- إذن هي فرصتك! اذهب أنت، أما أنا فسأنتظر ردود أقاربي في الخليج.. فرصة المهندسين هناك أفضل..

- أنت لن تذهب إلى الخليج! إنك تفكر في مكان آخر!

وحملقتُ فيه، لكنني هربتُ من عينيه الواثقتين!! إذن، عرف إبراهيم أنني لا أنتظر ردودًا من أقاربي! عرف أنني أكذب عليه وأُخفي نواياي الحقيقية! أريده أن يسافر لأطمئن عليه فقط! وهو الذي انتظرني وضحى من أجلي! إذن عرف إبراهيم أنني انضممتُ إلى الجبهة وأنوي السفر إلى لبنان..

لكنهم جرونا معًا!! زوار الفجر! جاءوا بعد أن نسيناهم! انشغلوا عنا لبضع شهور، ثم جاءوا، جاءوا بعد خروج الثورة إلى جرش! إلى مصيدة جرش وعجلون!! جاءوا قبل أن يحزب إبراهيم أمره! قبل أن أطمئن عليه وأوصله إلى الحافلة المتجهة إلى طرابلس الغرب بنفسي.. جاءوا في صقيع كانون (يناير) القارص.. كان ذلك بعد وفاة عبد الناصر بشهور في منتصف كانون (يناير) ١٩٧١ أذكر أن إبراهيم قال قبلها بثلاثة أيام "ذكرى ميلاد الزعيم ستكون بعد خمسة أيام".. كنتُ قد أمسكتُ ديوان المتنبي وكان إبراهيم "يُبيِّض" خاطرة كتبها بعد رحيل الزعيم.. طلب أن أستمع إلى ما كتبه فوضعتُ الديوان على السرير وأنصتُ:

كيف لي أن أصف القاهرة في الأيام الأخيرة من شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠؟ هل تسعفني الكلمات؟ هل تعينني مفردات اللغة وعباراتها؟ هل تعينني لأصف الشوارع وأسطح البنايات والشرفات والحدائق والساحات والحافلات والقطارات، المكتظة بالبشر والأحزان؟ هل تسعفني لأصف الوجوه والملامح والدموع والتنهيدات والحشْرجات؟ كيف أصف السَّاعات التي حُمل خلالها الجثمان الطاهر منطلقًا من مسجد عمر مكْرم على عربة عسكرية مخترقًا بصعوبة طوفان الجماهير؟ هل تعينني اللغة في وصف بكاء الرجال ونحيبهم، الذي اختلط بعويل النساء وصراخهن؟ هل تعينني في وصف العجائز وكبار السن المتعثرين المتساقطين المُصِرين على تأدية طقوس الوداع الأخير؟ هل أستطيع وصف أصوات المذيعين وحشرجاتهم ونحيبهم وهم

يتابعون الحدث العظيم، وينقلوه عبر الأثير وشاشات التلفاز، ليوجعوا الدنيا كلها؟ هل أستطيع وصف هذا كله يمر من أمامي، في طريقه إلى منشية البكري، حيث مثوى الزعيم الأخير؟.. لا! لا أظن أن الكلمات ستسعفني!! ها هي عاجزة عن وصف هذه الحالة المتفردة! حالة الوجد الممزوج بالحزن والشعور بفقدان الدليل والأب! لن تُجدي بلاغة اللغة وصورها فهذه حالة خاصة، خاصة جدًا، لا توصف بالكلمات ولا ترسم بالألوان.

وارتجَّ باب الشقة فظننتُ أنها الريح، لكن الخبْط ازداد.. نظرتُ في ساعة الحائط بجوار الصورة فوجدتها تُشير إلى الثالثة صباحًا.. كنتُ متدثرًا ببطانية ولحاف قطنيّ وكان إبراهيم جالسًا على الطاولة وقد ارتدى معطفًا ثقيلاً ولفّ رأسه ورقبته بكوفية، خرجنا معًا لنفتح الباب فوجدناهم أمامنا.. ثلاثة من ذوي المعاطف المميزة.. رجال المخابرات!! دفع أحدهم الباب ودخلوا.. وتفرّق اثنان لنبش الشقة.. توقف الضابط عند سريري تناول ديوان المتنبي وعندما تصفّحه سقط شيء منه فتناوله:

- أيه دي؟

اقتربتُ منه أتفحّص ما في يده، لكن إبراهيم أجابه بسرعة:

- هذه هويّة، بطاقة.. إنها هدية من أحد الفدائيين.. جماعة مصطفى حافظ هل تعرفه؟

- آه.. هدية.. مصطفى حافظ مين؟! جنسيته أيه يعني؟ وأيه دي كمان؟

- خاطرة كتبتُها وأُعدّها للنشر..

- وبتكتب خواطر يا أستاذ إبراهيم!

وتوجّه نحوي:

- وأنت يا أستاذ خالد بتكتب ايه بقى.. شعر؟!..

- إيه الحكاية يا حضرة الضابط؟

- بعدين.. بعدين حتعرفوا..

اقترب الاثنان المكلّفان بنبش الشقة وفحْصها, ضَرَبا أقدامهما على الأرض، وقدّم أحدهما مجموعة من الأوراق التي وجدها:

- تمام يا أفندم.. لقينا المنشورات والمجلات دي..

وجرونا إلى المعتقل..

وبعد عشرة أيام قاسية مهينة توسطت لنا منظمة التحرير فقذفونا في جنح الظلام إلى جوف الطائرة, ثم فكوا قيودنا.. وعند الفجر اخترقنا السحب الكثيفة وشرعت الطائرة في الهبوط فجاءت دمشق رويدًا رويدًا..

(٤)

عصام الفايز

كان إبراهيم الشَّاهد ينتصر دائمًا! كان يتفوّق عليَّ، رغم أنه يصغرني بعامين.. منذ أن تعرّفت عليه وأنا أشعر أنه الأفضل، وكنت دائمًا أحاول أن أثبت العكس! عندما كنا نكتري الدرّاجات ونذهب في جولة "رابطة الجوّالين الصغار"، كنت دائمًا أحاول أن أتفوّق عليه وأثبت له أنني الأفضل والأقوى كنت أقطع الطريق بدرّاجتي، وأعاكسه حتى أسقطه وأقلب الدرّاجة به.. كان ينفض ملابسه ثم ينهض لينطلق بالدرّاجة ويلحق بنا.. وفي نهاية الجولة كان يحضر لنا الفواكه واللبن والماء البارد، يبتسم ويقول:

- أنت تشرب أول واحد لأنك استطعت أن تقلبني بالدرّاجة!!

كان إبراهيم الشَّاهد ينتصر بابتسامته!!

وعندما احتجت إلى العمل، هو الذي دبّره لي، هناك في بيّارة الأفندي التي يعمل فيها والده.. وعندما رأيت سوزان الأفندي وحلمت بها، كان إبراهيم هو الذي يقرّبني منها ويمكنني من التمتع برؤيتها!!..

عندما أنهينا الثانوية العامة دخل ثلاثتهم الجامعة وتخلّفت أنا عنهم!! كان الفقر واليتم قد أخراني سنتين عن الدراسة وأنهيت الثانوية العامة مع من يصغرني ومن هم أقصر مني! قُبل إبراهيم الشّاهد في كلية الآداب وتعهّد والده بتوفير المصاريف.. وقُبل خالد الربيع في كلية الهندسة ووهبته وكالة الغوث منحة تقديرًا لتفوقه.. وقُبل عبد الله الشريف في كلية العلوم وتكفّل خاله الموظف في الخليج بنفقات دراسته.. وبقيت أنا! أنا الفقير، اليتيم الذي توفي والده بالذبحة الصدرية.. أهلكه "دخان الهيشة" الذي كان يتعاطاه فمات بعد أن بصق قطرات الدم من فمه.. وواصلت أمي بيع الحليب من بعده.. كانت تدب في أزقة المخيم، مع آذان الفجر، تحمل "قسطل" الحليب على رأسها وتنادي "الحليب الطازة.. الحليب العسل.. الحليب البلدي".. وطفتُ معها الأزقة والبيوت القرميدية! كانت أمي تعرف زبائنها من الموظفين الذين لا يحبون حليب الوكالة الأصفر.. وفي البرد القارص كنت أنادي معها على الحليب واحمل "القسطل" على كتفي.. وكان إبراهيم هانئًا هناك، مرتاحًا في قريته العامرة بالخيرات!! الفواكه والخضروات وخبز الطابون و.. الحليب! كان إبراهيم يشرب الحليب البلدي ولا يبيعه.. وكنت أنا أبيع الحليب ولا أشربه!! كنت "أسري" مع آذان الفجر لأبيعه وأدّخر القروش القليلة لأغطي مصاريف المدرسة.. كيف لي إذن أن ألتحق بالجامعة؟! لا عوض الشّاهد أبي.. ولا خال في الخليج يتكفّل بمصاريفي وتعليمي!! ولا أنا تفوقت فتمنحني الوكالة هبة دراسية! لم يكن أمامي سوى

الالتحاق بالكلية الحربية.. حباني الله بطول فارع وبنيان قوي وفي نادي المخيم اختارني أحد المدربين وشجعني على الالتحاق بفريق كمال الأجسام.. واستطعت بصعوبة أن أخطف من اليوم ساعة، لأتدرب فيها وأقوى هذه الهبة الجسمانية التي منحني الله إيّاها.. قالت أمي ذات مرة "أنت طالع لخالك.. هذا الجسم كان جسمه".. لكن خالي كان قد غرق في الشراب ولعب القمار ولم يعد يدري بالدنيا ولا بأسرته وأولاده.. أصبح هزيلاً محنيًا لا يقوى على حمل كرسي صغير في المقهى، بعد أن كان أحد لاعبي حمل الأثقال في المخيم، بل كان أشهرهم على الإطلاق..

كان إبراهيم الشاهد يتفوق دائمًا، لكنني شعرت بالتوازن والثقة، عندما دخلت الكلية الحربية.. "إذا كانوا قد دخلوا الجامعة فسأتخرج أنا ضابطًا محترمًا.. لن يكونوا أكثر من موظفين أو مدرسين يجيدون الثرثرة والكلام المنمق".. وتعمدت في زياراتي لهم أن أرتدي الزي العسكري، زي الكلية الحربية.. في القاهرة، كنت أذهب إلى إبراهيم الشَّاهد وخالد الربيع في الجامعة مرتديًا ذلك الزي الذي يشعرني بقيمتي ويعوضني عن حرماني من الجامعة! كانت النظرات وهمسات الإعجاب والابتسامات تدغدغ غروري وتشعرني بأهميتي.. كنت أنتشي عندما أكون محل اهتمام الفتيات.. كنت دائمًا أحب أن تهتم بي الفتيات والنساء، أنا المحروم منهن ومن الجامعة! حتى في الإسكندرية، عندما كنت أذهب لزيارة عبد الله الشريف، قريبي، كنت أتجوّل معه في الجامعة بالزي العسكري.. كنت أريد أن يشعر الجميع

بأهميتي ومكانتي!! لكن إبراهيم الشاهد لم يكن يحب ذلك الزي.. كان دائمًا يقول:

- هذا الزي للمعسكرات والثكنات العسكرية.. لماذا تصر على ارتدائه في كل مكان؟!

كنت أشعر أنه يغار مني ويحسدني على هذه النعمة التي جعلتني محل اهتمام الآخرين..

وتخرجت من الكلية الحربية فجأة، أعلنت حالة الطوارئ، فعدت إلى غزّة والتحقت بجيش التحرير الفلسطيني.. ثم قامت الحرب وحدثت النكسة.. أو "الهزيمة" كما يصر إبراهيم الشّاهد على تسميتها!.. دوّخني إبراهيم الشّاهد وهو يتحدث عن الهزيمة وآثارها وأبعادها.. وعقّدني عندما علّق صورة "الزعيم المهزوم" ثم شرع في الثرثرة و"التحليل" مع خالد الربيع.. لا يحلو لهما سوى الحديث عن "الأبعاد الفكرية والسياسية والاجتماعية للهزيمة وأثرها على بنية المجتمع العربي!!..لكنهم لم "يحللوا" أثر الهزيمة على المقاتل نفسه.. اكتشفت أن إبراهيم الشاهد – ومعه خالد الربيع وعبد الله الشريف – لا يعرفون معنى الهزيمة الحقيقي!.. أنا الذي يعرف مذاق الهزيمة الحقيقي.. وقع الهزيمة على المقاتل في خط النار.. أنا الذي يعرف معنى أن يتركك "الأشقاء" فريسة لطيران العدو ودباباته ومدافعه!! أنا الذي يعرف شعور الجندي الذي تُرك وحيدًا، يواجه الموت في شريط صغير من الأرض، الساقطة من الناحية العسكرية.. أنا الذي يعرف معنى أن يصمد المقاتل ويصد الدبابات ثلاث مرات بجسمه وسلاحه

الضعيف في "تلة المنطار".. وأنا الذي يعرف شعوره وقد نفدت ذخيرته وهلك عتاده وهو يرى الدبابات تهدر فوقه، تدوس بجنازيرها أحبابه وزملاءه و"تخلطهم" مع تراب الخنادق.. أنا الذي يعرف معنى الهزيمة عند المقاتل، معنى أن يقصف موقعه الصغير غير المحصّن بأربعة من مصادر النيران، كلها تدكّه وتجتث من أمامه رفاقه وتحوّلهم إلى قطع مبتورة هامدة.. المدافع والبوارج الحربية والدبابات والطائرات من السماء والأرض والبحر، يأتي الموت والدمار طاغيًا على "صوت العرب" الذي ظل يجأر معلنًا النصر الوشيك من مذياع فتحه المقاتلون ثم ماتوا!! أنا الذي يعرف معنى الهزيمة ومعنى أن تشتعل الدنيا وتتحوّل إلى جهنم في تلك المواقع الصغيرة، في غزة، في الشريط الذي لا يزيد عرضه على عشرة كيلو مترات!! أنا الذي يعرف حجم الدمار بعد أن تسقط تلك المواقع المشاكسة الصغيرة طائرة إسرائيلية مقاتلة، تسقطها في بحر غزة ليبتلعها، وتأسر قائدها وترسله في سرعة البرق بزورق بحري إلى تليفزيون "الزعيم المهزوم"!! وأنا الذي يعرف كيف ينهار المقاتلون!! كيف يسيطر عليهم العجز واليأس، فيلوذون بالغابات والبيّارات والوديان، بحثًا عن بقية من حياة، بقية من أمل!! يلوذون حاملين هزيمتهم معهم.. لم يعرف إبراهيم الشّاهد هذا المعنى للهزيمة! ولا أظن أن خالد الربيع يعرفه ولا حتى عبد الله الشريف، قريبي الطيب، يعرفه.. لا أظن أنهم يعرفون شيئًا عن معنى الهزيمة بالنسبة للمقاتل في دائرة الموت!! لأنهم ببساطة لم يعرفوا الموت! لم يتذوقوه! ولم

يشاهد أي منهم الدبابات وهي تفرم أعز الناس، أعز المقاتلين أمام عينيه وهو جريح عاجز لا يستطيع أن ينقذه أو حتى يواري أطرافه التراب!! لا أظن أنهم سيعرفون هذا المعنى للهزيمة، رغم أنهم يحاولون التعبير عنه والإحساس به!!..

كنت هاربًا في إحدى البيّارات، لائذًا بهزيمتي، أنتظر موعدًا لإقلاع الزورق البحري إلى مدينة بورسعيد.. كنت في انتظار من يأتي بالموعد الدقيق.. كان ذلك بعد شهر من الهزيمة – من الانكسار.. وفجأة ظهرت عزيزة الخيّال في طريقي.. وجدتها بجوار بيّارة الأفندي.. كنت مثقلاً بهزيمتي وانكساري، وكانت شهيّة فائرة.. ووحيدة.. كنت أعرف أن إبراهيم الشاهد يحبها.. لكن، أين إبراهيم الشّاهد الآن؟! لا يوجد هنا غير الهزيمة واليأس والشهوة المكبوتة.. لماذا لا أحاول الانتصار الآن؟! لماذا لا أنتصر على إبراهيم الشّاهد ولو مرة واحدة.! لماذا لا أمسح هزيمتي وأدراني في عزيزة الخيّال؟! خطفت منها قبلة وهممت أن أعصر نهديها وأقطف ثمارها الشهية.. لكنها صدتني! لم تكن عزيزة مهزومة مثلي! ذكّرتني بإبراهيم الشّاهد (صديقي) وانسحبت بهدوء! هزمتني عزيزة الخيّال، هزمتني عزيزة إبراهيم الشّاهد وهزمني إبراهيم مرة أخرى!..

بعد وصولي إلى مصر، في الإسكندرية عدت إلى البزّة العسكرية.. عدت إلى تعلقي بها بعد أن أضيفت نجمة ثانية إلى كتفي!! أذكر أن إبراهيم الشّاهد جاء مع خالد الربيع إلى الإسكندرية، كان ذلك في شهر أغسطس، بعد النكسة بشهرين.. التقينا نحن الأربعة "رابطة

الصغار" وتجولنا في المدينة.. كان الناس دائخين ساخطين.. كانوا يقذفون النكات والعبارات الساخرة ويهربون من واقعهم.. وقفنا في "محطة الرمل"، "عزمنا" عبد الله الشريف على شراب مثلج.. وفجأة! التف حولنا مجموعة من الشباب وبدأوا في تبادل "القفشات" والتعليقات ثم وضعوني في مرماهم:

- قولّي يا أفندي هيّه الدبابير دي بتقرص ولا بتهرب في الحرب؟!

هوّه صحيح إنت بتلمعها بالليمون ولا بدموع العين؟!.. هه.. هه..

ولطمه إبراهيم الشّاهد على وجهه، وفي نفس اللحظة ركل خالد الربيع الشاب الثاني بركبته بين فخذيه فتلوّى وخر ساجدًا على الأرض.. نظرتُ إلى عبد الله الشريف فإذا هو "ينطح" الشاب الثالث برأسه فيخر الدم من جبهته.. وقبل أن يتداعى "الإسكندرانية" جذبني إبراهيم الشّاهد من يدي، قطعنا "شريط المترو" وهرولنا في اتجاه البحر وعندما وصلنا طريق الكورنيش أوقف خالد الربيع سيّارة أجرة وحشرنا أنفسنا فيها بسرعة.. عندها تذكّرت أنني لم أقل شيئًا! بل لم أفعل شيئًا! لماذا لم أبادر، أنا الطويل القوي، بضرب الشاب القصير الصفيق؟! لماذا تركته لإبراهيم الشّاهد؟! بل، لماذا لم أشارك في الاشتباك ووقفت واجمًا متسمّرًا؟!..

قال خالد الربيع بعد أن جلسنا في الكازينو:

- لماذا تصر يا عصام على ارتداء هذا الزي؟! هذه البزة تستفز الناس في هذه الأيام..

- لا أدري لماذا يصر على هذا الزي المكروه!! كنت أعتقد أن الحرب غيّرته.. عصام لماذا تشعر أنك في حاجة إلى ما يبرزك ويميزك عن الآخرين؟! قاومت في غزة وصمدت، صمدتم جميعًا في ظروف صعبة.. صمدتم عندما اندحرت الجيوش الجرّارة وتقهقرت مهزومة خائبة.. يجب أن تكون راضيًا عن نفسك!! لا حاجة لأن تعلن عنها بهذه الطريقة.. ثم، أنظر حولك، ألا ترى هؤلاء الناس؟! ألا تعتقد أن بينهم ضباطًا ورتبًا كبيرة؟! لماذا لا يرتدون بزّاتهم العسكرية المرصعة بالنجوم والنياشين؟! لأنهم يعرفون مزاج الناس، سخطهم على أصحاب هذه البدلات الكاكية!!

كان إبراهيم الشّاهد يهدر مثل البركان.. وعندما هزَّ عبد الله الشريف، (قريبي) رأسه موافقًا على ما يقوله إبراهيم، عرفت أنني هزمت من جديد!

كان عبد الله الشريف يهز رأسه دائمًا موافقًا على ما يقوله إبراهيم الشّاهد! كان رجلاً هادئًا قليل الكلام لا يعرف غير محاضرات الجامعة والوفاء للأصدقاء.. والصلاة!!.. كان دائمًا ينصحني بالصلاة للتغلب على هموم الدنيا والشهوات!! وعندما أتغيّب عنه كان يذكرني بخطورة الأمراض التي تأتي من وراء النساء.. كان عبد الله الشريف يرفض أن تدخل النساء إلى شقته وكان يعرف أنني أتغيّب عنه لأمارس متعتي الأسبوعية مع "أم كاترين".. كانت أم كاترين في الأربعين من عمرها، ذات أصول يونانية، أحبّت الإسكندرية، وعندما مات زوجها فضّلت البقاء فيها ولم تعد إلى بلدها الأصلي.. كانت

تعيش مع ابنتها ذات السنوات العشر، تدير محلاً لبيع الملابس، والعطور وفي حالات نادرة كانت تؤجر غرفة في شقتها بمنطقة "سبورتنج" الراقية.. عندما وصلت إلى الإسكندرية استأجرت غرفة عندها، مكثت فيها شهرًا، ثم جاء عبد الله الشريف وأصرَّ على أن يأخذني لأقيم معه في شقته.. لكنه كان يحرمني من ممارسة تلك المتعة التي "دربتني" عليها أم كاترين.. كانت محرومة مكبوتة وكنت في عنفوان شبابي وفتوتي.. وجدت عندي ما يعوضها عن ذلك الكهل السكير الذي كان يبتزها ويزورها خلسة، ووجدت في أحضانها ما حرمتني منه ظروف المخيم والفقر واليتم!! ذقت معها "العسل"، الذي كنت أسمع عنه ولم أجرؤ على طلبه من نساء المخيم!! عودتني أم كاترين على "عسلها"، لكن الأمر بنقل القوات جاء ليحرمني منه فجأة!..

كان ذلك في نهاية ديسمبر ١٩٦٧.. تحرّكنا إلى منطقة فايد، وعلى ضفاف البحيرات المُرة أقمنا معسكرنا الجديد.. كنت "أنزل" إلى القاهرة كل أسبوعين.. وأذكر أنني كنت نائمًا عندما فوجئت بخالد الربيع وإبراهيم الشّاهد يقتحمان عليّ الغرفة التي استأجرتها في الفندق ويأمراني بالنهوض والذهاب معهما إلى "الباطنية".. رفضت، واصطنعت الأعذار، لكنني وعدت بالزيارة كلما سنحت الفرص..

عندها أخرج إبراهيم الشّاهد مفتاحًا من جيبه ثم قال:

- على كل حال، هذا مفتاح الشقة، تستطيع أن تأتي إلينا في الوقت الذي تريد.. نحن أصدقاء، وفي الإسكندرية لم أقصد الإهانة! أريدك

أن تظل كبيرًا.. تعرف أن المشاجرة كادت أن تتحول إلى كارثة لو تجمّع علينا "الإسكندرية" لفتكوا بنا..

زرتهما بعد شهر.. انتظرني إبراهيم عند محطة الحافلات، وعندما دخلنا "الباطنية" لاحظت أنه يحظى باحترام التجّار وأصحاب الحوانيت والجيران.. كان الجميع يحيونه ويقفون احترامًا له.. وتساءلت: كيف وصل إبراهيم إلى هذه المكانة؟! كأنهم يعرفونه منذ سنين!..

كانت زيارتي الثانية في شهر مارس؛ في منتصف مارس ١٩٦٨.. فتحت الشقة وعندما دخلت اكتشفت أن إبراهيم وخالدًا غير موجودين ووجدت ورقة تفيد أنهما سيبيتان خارج الشقة.. بدّلت ملابسي ودخلت المطبخ لإعداد كوب من الشاي.. وعندما نظرت من النافذة رأيت امرأة ترتدي قميصًا رقيقًا يسفر عن صدر ناهد وذراعين ممتلئين.. كانت تبتسم! ترددت، ثم أومأت لها بحذر واستأذنت لرد النافذة.. لكنها بعد دقائق كانت تدق بخفة على باب الشقة.. كانت تحمل طبقًا من الحلوى.. وضعته على الطاولة ثم قالت:

- همّه الجماعة مش هنا ولاّ إيه؟!
- لا.. تفضلي..
- أنت عصام! مش كده؟!
- أيوه.. كيف عرفتي؟!
- حكوا لي عنك.. وقالوا إنك ضابط..
- آه صحيح.. وإحنا أصدقاء من زمان..

كانت تجربتي مع "أم كاترين" قد زودتني بخبرة في لغة النساء وحركاتهن.. وفي الفندق أعطتني امرأة أخرى دروسًا جديدة في الغمز والآهات وأصبحت قادرًا على فهم المعاني والإشارات.. وأصبحت "الست عزيزة" جاهزة لاستقبال أول إشارة مني.. داعبت السلسلة الذهبية المعلّقة على صدرها وقلت:

- سلسلة جميلة، لكن الصدر الذي تستقر عليه أجمل..

ومسّدت نهديها ثم أمسكت يدها، دعكتها ثم أضفت:

- أتشربين الشاي معي؟!

- أشرب مشربش ليه!

وأخرجت من صدرها سيجارة مبرومة ثم قالت:

- ولّعني!

ابتسمت ثم أحضرت علبة الكبريت وأشعلت لها السيجارة.. أخذت نفسًا منها ثم غرزتها في فمي.. وعندما جذبت نفسًا شعرت بالدوخة.. وتذكرت أنني في الباطنية فعرفت أن السيجارة "ملغومة"! عندما كان المعلم حسنين "يعزم" علينا بالسجائر كان إبراهيم يتردد ويقول:

- خايف تكون ملغومة يا معلم!

فيرد المعلم حسنين:

- استغفر الله.. أنا لا أتعاطى الحشيش يا أستاذ إبراهيم.. كفاية عليَّ الدخان.

اقتربت "الست عزيزة" مني ثم التصقت بي، وعندها سحبت السيجارة من فمها وهويت على شفتيها ثم جذبتها ودخلت بهـا إلـى غرفـة إبراهيم الشّاهد..

وعندما ارتدت قميصها، تناولتْ قلمًا وكتبت على يدي:

- ده عنوان في "العمرانية" تقابلني هناك كل يوم خمـيس، السـاعة عشرة بالليل.. ومتخليش حد يشوفك.. هه.. وعندما أقفلـت البـاب وراءها تساءلت: هل فعلت نفس الشئ مع إبـراهيم الشّـاهد؟! هـل نامت في سرير خالد الربيع؟ خالد الربيع لا.. إنه هـائم فـي تلـك الشرقاوية الفاتنة ولا يمكن أن يفكر في امرأة غيرهـا.. وإبـراهيم الشّاهد؟.. إذن هي عشيقة إبراهيم الشّاهد!! ارتمى بين أحضانها بعد أن تزوّجت عزيزة الخيّال وتخلّت عنه.. ها أنـا أنتصـر عليـك يـا إبراهيم! ها هي "الست عزيزة" تسلمني جسدها وتسقيني من "عسلها" في سريرك!! وشعرت بنشوة الانتصار وتخيلـت إبـراهيم الشـاهد مهزومًا، فضحكت..

ترددت على "بيت العمرانية" ثلاثة أشهر متتالية.. كنت أنقـر علـى نافذة البيت الخلفية كل يوم خميس ثلاث نقرات.. تفتح "الست عزيزة" وتأخذني بين نهديها.. ندخّن تلك السجائر الملغومة ونأكـل الكبـاب والحمام ثم نذوب في متعتنا.. وعندما تبدأ تسـابيح الفجـر أرتـدي ملابسي وأنسحب عبر الطريق الزراعي حتـى أصـل إلـى محطـة الحافلات..

خلال تلك الشهور الثلاثة انقطعت عن خالد الربيع وإبراهيم الشّاهد.. وغرقت في "العسل" حتى أذني! حتى كانت تلك الليلة الملعونة، الليلة المهينة الموجعة!!

نقرت على النافذة، ففتح باب الشقة، وعندما دخلت كان في مواجهتي رجل عملاق عريض الأكتاف.. كان يرتدي جلبابًا غامقًا ويضع على رأسه عمامة داكنة ويلفّ حول رقبته "تلفيعة" عريضة.. وكان يعلو فمه الواسع شارب كبير.. ولاحظت أن رأسي تصل بالكاد إلى كتف الرجل.. جذبني من يدي ثم دفعني إلى الداخل بقوة، فتدحرجت على البلاط وارتطمت بالطاولة..

- أيوه يا حبيبي! أي خدمة؟ نعم! عايز مين؟!

مسحت الدم النازف من أنفي وشفتي:

- أنا.. لا.. مش عارف!

- أه.. مش عارف إنت عايز مين! أنا عارف يا روح أمّك.. إنت عايز الست اللّي بتقضي معاها ليالي الغرام.. اسمع يا شاطر الست بتعتك غارت، راحت في ستين داهية ولو ما كنتش حرمة لدخلت بيت خالتها زي الجماعة اللّي كانوا شغّالين معاها.. دخلوا بيت خالتهم، السجن.. كل واحد عشر سنين يا حبيبي.. الست بتعتك كانت بتشتغل من ورا المعلم حسنين يا شاطر، بتبيع الصنف لحسابها.. مش بس بتقضّي ليالي الغرام معاك، كمان بتخون المعلم الكبير.. اسمع إحنا قادرين نكتّفك ونرميك في الترعة ولا من شاف ولا من دري.. لكن المعلم حسنين قال بلاش.. علشان خاطر الأستاذ إبراهيم والأستاذ

خالد، الجماعة الجدعان أولاد الأصول اللــي مــا خــانوش العــيش والملح.. علشان خاطرهم بنعتقك لوجه الله، وإيّــاك تورينــا وشــك تاني!!

وعندما قذفني إلى خارج البيت شعرت بالهزيمة، بالانكسار.. وشعرت أن إبراهيم الشّاهد انتصر عليَّ هذه المرة أيضًا..

(٥)

إبراهيم الشّاهد

أمام المقهى جلست أم نبيل تدخّن النرجيلة وحولها تحلّق عدد من المثقفين الشباب، كانت صاحبة المقهى الحافل تحاورنا دائمًا في السياسة وشؤون الدنيا والحب، وكان بعض الشباب يتجرأ ويتبادل معها النكات أحيانًا.. منذ أن عملتُ في مكتب الإعلام الموحَّد القريب وأنا زبون دائم في هذا المقهى، إنه يُعوضني عن خالد الربيع، يملأ الفراغ الذي تركه غيابه.. بعد انتهاء عملي أنزل من الفكهاني إلى مخيم صبرا أعرّج على سوق الخضار أشتري قليلاً من الفواكه والخضراوات الطازجة، ثم أتّجه في الأزقة الضيقة إلى اليمين حيث الغرفة التي استأجرتها في بيت أم سعيد.. أستريح قليلاً واغتسل ثم أبدل ملابسي وأعود إلى المقهى لأتناول وجبة الغداء الخفيفة وأتصفح بعض المجلات.. التحق خالد بقاعدة "الجبهة" تركني وذهب إلى الجنوب, إلى صيدا وتركني حائرًا بين الفكهاني ومخيم صبرا.. تغيّر خالد ولم يعد يحب الثرثرة، كان يحب العمل، الفعل أكسبه تخصصه في الهندسة الميكانيكية عقلية عملية.. وكان مشروع

تخرجه عن تطوير بعض الذخائر والأسلحة الخفيفة.. رفضتْ الجهات الأمنية دخوله للمصانع الحربية المصرية في البداية، وتدخلت منظمة التحرير، وأعدّ مشرفهُ تقريرًا داعمًا فدخل خالد المصانع الحربية وأكمل مشروع تخرجه وكان متفوقًا كالعادة.. ذهب خالد إلى صيدا لكنه لم يحرمني من زياراته.. كان يأتي إلى بيروت مرة كل أسبوع أو أسبوعين يأتي في سيارة "الّلاندروفر" ويأخذني لنطوف بها لبنان.. أصبح خالد خبيرًا في المدن والبلدات والقواعد والمخيمات.. ذهبنا إلى الجنوب ودخلنا القواعد والمخيمات، تعرَّفنا على المناضلين والرفاق.. أدخلني إلى الورشة التي يشارك في تأسيسها، كانت ورشة تسليح لجميع التنظيمات.. عرَّفني على مهندس عراقي وآخر مصري وثالث لبناني "هنا تتجلى الوحدة الوطنية.. والقومية".. وبتنا ليلة ثم عدنا إلى بيروت وفي أسبوعٍ آخر ذهبنا إلى طرابلس والبقاع ووصلنا الشام، بتنا فيها ليلتين ثم عدنا!! كانت الطرق والحدود مفتوحة لم تكن هناك حاجة للجوازات ووثائق السفر.. كانت "هويتنا النضالية" جواز مرورنا إلى الدنيا كلها!! يعرف خالد هذا المقهى جيدًا.. دائمًا كان يجدني فيه إذا لم يعْثُر عليَّ في العمل أو الغرفة.. كنتُ أنتظره بعد عشرة أيام من لقائنا السابق.. أترقب وصوله لنتجوّل في الأماكن التي نحبها، لنختلي ببعضنا ونطوف بذكرياتنا وأيامنا الخوالي.. في الساعة السابعة، هدرتْ سيارة "اللاّندروفر" ووقفتْ أمام المقهى.. أسرعتُ إلى خالد لأحتضنه فتهامس الشباب الجالسين في المقهى.. كانوا دائمًا يستغربون "قومي وماركسي! كيف لا يختلفان فيفترقان؟"

لم تكن العلاقة بيننا بهذا التسطيح الساذج.. لم نترك للأيديولوجيا أي هامش لإفساد علاقتنا.. أعلن خالد عن احترامه لقناعاتي وأفكاري القومية وعبَّرتُ له أكثر من مرة عن تقديري واحترامي ليساريته ورؤيته الكفاحية "الطبقية" ولم نفترق!! كنَّا نتفق دائمًا على هدف واحد نسعى إليه "تحرير الأرض والإنسان" وكنتُ أضيف "وتحقيق الوحدة العربية" وكان يبتسم ويقول "وتحقيق الوحدة العربية، وحدة الشعوب العربية"!..

- سنسهر الليلة في مكانٍ هادئ، في الرملة البيضاء..

وأجبته مداعبًا:

- حسنًا أنك لم تقل شارع الحمراء..

ثم صعدتُ بجواره في "الجيب"..

كانت قد مضت على وجودنا في لبنان سبعة أشهر.. لم تصلنا خلالها أية أخبار من الأهل.. ولم تصلنا أية رسائل من مصر.. عندما جلسنا قريبًا من البحر عبَّر خالد عن قلقه على كوثر، ثم انتقل للحديث عن سميرة صالح!! وسألني فجأة:

- ما رأيك في سميرة تونْج؟

- خالد, تحدّثتَ عن كوثر بإيجاز، ثم تحوّلتَ إلى سميرة! ماذا تريد أن تقول بالضبط؟!..

- أرسلتْ سميرة خطابًا مع أحد الرفاق قالت أنها ستأتي إلى لبنان فور تخرجها.. على فكرة تسأل عنك وتريد معرفة أخبارك بالتفصيل..

- أخباري أنا؟!..

- اسمع يا إبراهيم! هذه الفتاة تحبك.. لقد عبّرت عن ذلك في خطابها قالت إنها تغيّرت! وقالت بالحرف الواحد: لقد أقلعتُ عن تصرفاتي (الصبيانية) وأقلعتُ عن التدخين وطلبتْ مني أن أخبرك بذلك.. طلبتْ أن أخبرك بأنها تغيّرت وكفَّت عن كل ما كان يضايقك في شخصيتها!..

- وماذا عن عودتها إلى الأردن؟

- لم يعد لها أحد هناك ذكرتْ أن جدتها قد توفيت أثناء مجازر أيلول، إنها وحيدة الآن!

- وماذا عن علاقتها بكوثر؟

- قالت أنها تزورها أحيانًا وذكرتْ أن المرض يشتد على الحاج صادق العرابي.. هذا كل ما ذكرته عن كوثر! آه يا صديقي إن ما يصبّرني هو العمل فقط.. لكن عندما أخلو بنفسي أشعر أن الدنيا ستخذلني، ستحرمني منها، أشعر أنني لن أراها ثانيةً وأنني سأفتقدها إلى الأبد..

أحضر النادل كأسين من الآيس كريم وتكسّرت الموجات الخفيفة على الشاطئ أمامنا فجاء صوت صباح فخري متناغمًا مع وشوشات البحر:

تذلّلتُ حتى رقَّ قلبُ حاسدي   وعادَ عذُولي في الليالي شافعُ

وإن تتفضَّل يا رسولي فقُل له   مُحِبُّك في ضيقٍ وعفوُكَ واسعُ

ثم صدح صباح فخري بقصيدته التي أعشقها:

لمَّا أناخوا قبيْل الصُّبح عيسهُم   وحمَّلوها وسارت بالهوى الإبلٌ

فأرسلتْ من خلال السَّجْفِ ناظرَها ترنو إليَّ ودمـــعُ العينِ منهملُ
وودّعت ببنان زانُـــهُ عنـــمٌ ناديتُ لا حـــملتْ رجـــلاكَ يا جـــمَلُ
يا حادي العيْسِ عرّج كي نودّعّهم يا حادي العَيسِ في تَرْحالِكَ الأجلُ
وسألني خالد وقد بدا عليه التأثر:

- مَنْ هذا الشاعر الذي يكاد يذوب من شدة العشق والوله؟
- قد تستغرب إذا علمتَ أنه ليس ابن الملوَّح ولا صاحب بثينـــة ولا ابن أبي ربيعة ولا جرير صاحب أم عمرو ولا..
- دوّختني.. من هو إذن؟
- إنّه صفي الدين الحلّي..
- أليس هو صاحب القصيدة المعروفة "سَلِ الرّماحَ العَوالي"؟
- نعم هو، وفي هذه القصيدة بيته الذي أُخذتْ منه ألوان علم الثورة العربية:

بيضٌ صنائعُنا، سودٌ وقائعُنا خُضرٌ مرابعُنا، حُمرٌ مواضينا

- وعلمنا الفلسطيني أيها القومي العتيد..

وضحكنا معًا ثم نظرنا إلى البحر..

عندما عدنا إلى المنزل وجدنا صاحبته في انتظارنا.. جلستْ أم سعيد على عتبة الدَّار محمرة العينين مجهدة هدّأتُ من روعهـــا وجلســـتُ بجوارها على عتبة البيت.. أحضر لها خالد زجاجة كوكاكولا بـــاردة تمنّعتْ قليلاً، ثم أخذتْها ودلقتها في جوفها دفعةً واحـــدة.. كانـــت أم سعيد امرأة في الخامسة والستين من عمرها تُوفي زوجُها وترك لها ولدًا وبنتًا.. سافر ابنها سعيد مع زوجته وطفليه إلى الخليج، وبقيتْ

معها ابنتها نبيلة وحفيدها طارق.. كانت نبيلة في السادسة والعشرين من عمرها مليحة التقاطيع.. استشهد زوجها "أشـــرف" وتـــرك لهـــا طارقًا ذكرى وسندًا يعوض حرمانها منه، حدثتني أم سعيد عن ابنتها العنيدة التي ترفض العرسان وتُصر على "البقاء على العهـــد" عهـــد الشهيد أشرف الذي أحبته وأخلصت له وقالت إن محاولاتها في إقناع ابنتها باءت بالفشل رغم أنها جسّدت لها حاجة المـــرأة الضـــرورية للرجل، وأنها ستكتشف ذلك عندما تكبر ويتركها ابنها ليتزوج ويذهب إلى بلاد الغربة!! كانت نبيلة تردد دائمًا "لن يمسّني رجل آخـــر بعـــد أشرف!! لا أستطيع تحمل ذلك"!! تمكّنت نبيلة من الحصول على عمل بمساعدة الأصدقاء الشرفاء.. عملت موظفـــة فـــي مؤسســـة أُســـر الشهداء أحبّتْ عملها وأقبلتْ على الحياة، شعرتْ بالمسؤولية، بأنهـــا جزء من هذه الشريحة وعليها أن تساهم في تخفيف معاناتها.. ألـــم تكن مثلهن منذ شهور قليلة؟ مثل زوجات وأخوات وأمهات الشهداء! تقف أمام الشباك منكسرة، يتفحصها الموظف بعينيه الثـــاقبتين، ثـــم يسلمها الليرات القليلة على مضضٍ وكأنه يقطع من لحمـــه.. جـــاء دورها الآن لتعامل قريناتها باحترامٍ ومودة، تعاملهن بما يليق بأرواح الشهداء الغالية..

- والآن! ما الذي جرى؟ ما الذي يبكيك يا أم سعيد؟ هل هو ســـعيد الذي لم يرسل خطابات ولم يتذكرك ببعض النقود؟ أم أنها نبيلة مـــرةً أخرى ترفض عريسًا جديدًا؟

- بالنسبة لسعيد نسيته الله يرضى عليه ويخلي له أولاده.. المهم يكون مرتاح ومبسوط، مصيبتي في نبيلة يا أستاذ إبراهيم.. أولاد الحرام لا يريدون تركها في حالها، لتربي ابنها في هدوء.. النذل ابن النذل رجع اليوم لمضايقتها وتهديدها.. جاءت اليوم منهارة.. لطمتْ على وجهها وبكتْ، بكتْ حتى فزع طفلها المسكين ونام مرعوبًا خائفًا.. قالت إن "المدير" النذل تجاوز حدوده اليوم وهدّدها بالطرد إذا لم تُطعه وتلبي رغباته الدنيئة.. يريدها أن –أستغفر الله العظيم– أن تتجمّل وتتزيّن وتذهب له بعد أوقات الدوام "للفرْفشة وإلا! فسيطردها من العمل".. بكتْ وقالت إنها لن تذهب إلى العمل مرّةً أخرى.. مصيبة يا جماعة دبّروني.. إذا تركت العمل مصيبة..

- كيف تترك العمل إنها لا تعمل في بيّارة أبيه.. من هو ذلك "المدير" يا إبراهيم؟

- إنه أبو الشوارب أحد أقارب أبو الشّريم.. رجل وقح مثل قريبه ويستمد نفوذه وسطوته منه.. عمتي أم سعيد أعطينا يومين وإن شاء الله تُفرج..

- إحنا ملناش حدا غيركم.. دبّروني الله يرضى عليكم..

في اليوم التالي ذهبنا إلى أحد مكاتب الكفاح المسلح.. استقبلنا الشباب باحترام كبير، وتعرّف بعضهم على خالد الربيع، كانوا من نفس المخيّم وذكّرنا أحدهم بأيام الصِّبا, بدرّاجات البلّون التي كنا نكتريها.. وذكّرنا شاب آخر بنادي المخيَّم والندوات الصاخبة التي

كانت تقام فيه.. وعندما قدموا لنا الشاي همستُ في أذن صديقي المناضل الكهل:

- قاصدك في خدمة يا أبو نزَّال..

- ولو يا أستاذ إبراهيم! على عيني حتى لو طلبت روحي..

- العفو.. العفو. بدّي معلومات عن سهرات وعلاقات مدير مؤسسة أُسر الشهداء في صبرا سمعت أنّه من منطقتكم ولك معرفة سابقة بيه.

- آه.. فهمت! ذيل الكلب عمره ما بنْعدل! ابن الــ.. على كل حال بكرة بجيب لك قراره وين بسهر وين بروح ومع مين.. أعطيني يوم واحد بس.

بعد يومين أحضر أبو نزَّال سيّارة جيب رُكِّبتْ عليها أرقام مزيّفة وكان يحمل مسدسه على جنبه وجاء معه شابان آخران.. كان كل منهما يحمل (كلاشنكوف).. عندما وصلنا إلى "الهدف "تلثّمنا جميعًا وكمنّا في مدخل العمارة.. ثمّ خرج أبو الشوارب متعثّرًا مسطولاً فانقض أبو نزال عليه وكتم فمه ونزع مسدسه، وبسرعة كمّمه الشباب وحملناه إلى سيارة الجيب، ثم انطلقنا إلى مقبرة الشهداء، عند طرف المخيّم.. عندما وصلنا حملناه إلى داخل المقبرة وعند أحد القبور المفتوحة طرحناه أرضًا.. سحب الشاب الطويل أجهزة الكلاشنكوف وصوَّب إلى رأس أبو الشوارب الدّائخ..

قال أبو نزَّال بعد أن فكّ الكمامة عن وجهه:

- والآن أيها الحقير هل ترى هذا القبر المفتــوح؟ صــحيح أنّــك لا تستحق أن تُدفن فيه لأنه للأجساد الطاهرة الشريفة وليس للأجســاد العفنة النجسة مثلك لكن لا بأس ما رأيك أن تُدفن فيه حيًّا؟ لن يدري بك أحد في هذا الليل! ولن يستطيع قريبك الذي تستمدّ نذالتك منه أن ينقذك ما رأيك.. هه؟

وتأتأ مرتعدًا مذعورًا:

- دخيلك.. دخيلكم.. أنا في عرضكم.. أنا ما عملت شي..

- ما عملت شي يا أخو..! والله لأخلّص الناس منك ومن قــذارتك.. بدَّك تحوّل زوجات الشهداء وبنات الشرفاء إلى عاهرات يا ابن.. مــا عندك حيا ولا شرف ولا دين..

- دخيلك أنا تحت أمرك أنا في عرضك.. في عرضكم.. بنفّــذ اللــي بدكم إيّاه.. أنا في عرض ولاياكم..

- طيّب! هات الورقة والقلم يا أستاذ إبراهيم..

وناولته الورقة والقلم وأضاء خالد بالكشّاف:

- اكتب يالله اكتب: أعترف وأقرّ أنا فلان الفلاني (واكتــب اســمك الحقيقي) أنني طلبتُ من السيدة نبيلة الشريف أرملة الشهيد أشــرف حسَّان، أن تتزيّن وتحضر لي في أماكن غير العمل وفي غير أوقــات الدوام الرسمي، وذلك بهدف قضاء الأوقات الممتعة معها، وأعتــرف أنني هددتها بالطرد من العمل إذا رفضت ذلك.. وقع.. يا الله..

ووقع بأصابعه المرتعشة.. فسحب أبو نزَّال الورقة من يده:

- هات الورقة اسمع، معك ثلاثة أيام بعدها تنتقل من مكان عملك خلّي قريبك ينقلك! والآن هات المقص يا أستاذ خالد لنْشوف شواربه اللّي بيخوّف الناس بيها..

ناوله خالد المقص فقصّ به شارب "أبو الشوارب" الكث ثم جزَّ من شعره الطويل وفجأة شرم أذنه اليمنى!!

- هذه ذكرى لك..

وعندما صرخ كتم أبو نزّال فمه وطرحه على وجهه ثم وضع حذاءه فوق رقبته.. ربط الشابان يديه من خلاف ثم انصرفنا جميعًا مغادرين المقبرة..

بعد حادثة المقبرة بثلاثة أشهر جاءني أبو نزَّال حاملاً ثلاث بطاقات مذهّبة.. ضرب بالبطاقات على يده ثم قال:

- هل "تحزر" من أين هذه البطاقات؟

- من السفارة العراقية أو الكويتية! هؤلاء أصحاب البطاقات الفخمة!!

- لا! هناك من هو أفخم منهم.. أبو الشّريم يا عزيزي.. هذه بطاقات سهرة في حديقة "أبو الشّريم" العامرة..

- أبو الشريم! ما لنا نحن وأبو الشريم؟ ولماذا يدعونا إلى حديقته.. ما علاقتنا به؟..

- بل قريبه الذي دعانا قريبه أبو الشوارب (وقهقه بصوته الهادر) أعطاني ثلاث بطاقات هل نسيت أنه معرفة قديمة؟ سلّمني البطاقات

وقال تستطيع اصطحاب شخصيْن آخريْن.. ولا يوجد عندي أعز منك ومن الأستاذ خالد..

- لكن..

- أستاذ إبراهيم أنت بالذّات لابد أن تتعرّف علـــى الوجـــه الحقيقـــي لهؤلاء الناس.. يجب أن ترى بعينك, لا أن تسمع فقط!!

كان لابد أن أرى، أن اكتشف! كان لابد أن أعرف كيف ينخر السوس في عظام الثورة!! أن أعرف وأتأكد بأمّ عيني مما يُشاع ويُقال.. قال أبو الشريم: عُقد المجلس المركزي من أجل.. ولـــم أصـــدِّق "هـــذه دعايات ماركسية مغْرضة.. أعداء التنظيم يلفّقون الأكاذيب". ورأيـــت ما رأيت..

على سطح العمارة الكبيرة، ثمانمائة متر مربع، أقيم الحفـــل! وســـط الأشجار المثمرة! أشجار البرتقـــال والليمـــون والخـــوخ والبرقـــوق والمشمش، تتوسطها صحون ونافورات بمياه ملونة وأضواء ساحرة تنعكس على تماثيل من المرْمر وأزهار ذات روائـــح عطـــرة وخـــدم يتمنطقون بملابس زاهية نظيفة، يحملون الأطباق والكؤوس ورجـــال متأنّقون، مزجّجو الشوارب والحواجب، ونســـاء ناهـــدات ســـافرات متعطّرات مزيّنات حتى العظم وسط هذا كلّه كان الحفل، في الحديقـــة العامرة حديقة أبو الشريم الحافلة بالأشجار المثمرة.. من أين جاءت هذه الأشجار وكيف زُرعتْ؟ من أين جاءوا بهـــذه التربـــة الحمـــراء الخصبة؟ متى أحضروها؟ وكيف أوصلوها إلى سطح هـــذه العمـــارة الضخمة؟ متى انبعثت هذه الحديقة العامرة بالثمار الزاهية اللذيذة؟ كم

هي الأموال التي أُنفقتْ عليها؟ ومَن سدَّد هذه الفاتورة الباهظة؟ يـا إلهي أين أنا؟ هل هذه إحدى حدائق المتوكّل أو ابن المعتز؟ أم أنهـا واحدة من حدائق ابن جَهْور أو ابن عبّاد، أم هي فعلاً حديقـة أبـو الشرّيم الواقعة في بيروت!!

- عملتْ كل هذا لأتذكّر وطني ببيّاراته وفاكهته! هكذا أتذكّر الـوطن ولا أنساه أبدًا!

قال أبو الشرّيم ذلك وهو يتأبّط ذراع أحد المتأنّقين:

وعلّق أبو نزّال بصوتٍ مسموع:

- يا أولاد الشرموطة.. أهكذا نتذكّر الوطن؟ فضحْتونا!!

دوّختني تلك السهرة! ووجدتني أكتب قصة.. كان عنوانها "السـوس" وأرسلتها إلى مجلة الآداب فنشروها بعد أسبوعين فقط.. كانت تلـك القصة الرابعة التي أنشرها في مجلة الآداب.. أربع قصص ودراسـة عن رواية غسان كنفاني الرائدة "رجال في الشـمس" وكنـتُ أعـد دراسة جديدة عن روايته "أم سعد"..

أتذكّر الآن! كان ذلك في بداية شهر تموز (يوليو) من عام ١٩٧٢.. عندما حملتْ الأنباءُ خبر استشهاد غسان كنفاني، وتناثرت مع أشلائه أشلاءُ لميس.. مثل زهرة شقائق النعْمان، تنـاثرت ولوّنـت سـيارة الفولكس فاجن -كنا نُشيّعُ الشهداء بلا توقف- وبجواري كان خالـد الربيع يسير حزينًا قلقًا.. أثناء مراسم الدفن جذبته من يده وسـحبته بعيدًا ثم قلتُ:

- جاءت برقية من سميرة صالح قالت إنها ستصل بعد أسبوع إلـــى دمشق سنذهب لاستقبالها معًا ستحضر معها مفاجأة..

- ماذا تقول مفاجأة؟ إذن..غير معقول! تعني أن..

- نعم ستحضر معها كوثر أيّها العاشق الكبير!

وهجم عليَّ احتضنني بقوة ودار بي.. دار حتى وقعنا على الأرض.. عندها أطلق الشباب صلّيات الرصاص.. فزغردت النسوة من خـــارج المقبرة..

(٦)

عزيزة الخيّال

مَن الذي ربط زينب الدودة في شجرة الجميز وهددها بقطع لســانها؟ مَن الذي تسبب في مرض هذه العجوز ورقادها في الفراش أسبوعين كاملين؟ أُقسم أنني لم أفعل ذلك! أُقسم أنني لم أُخبر أحدًا بما حــدث، ولم أطلب من أحد أن يعاقب زينب الدودة على ما قذَفَتْه في وجهــي من عباراتٍ مؤذية! كانت عائدة من غزَّة، وكنتُ فــي طريقــي إلــى العزيزة، ولم أنتبه إليها إلا عندما أمسكتني من كتفي، كانــت تحمــل سلَّة، مسحتْ العرق بمنديلها، ثم قذفتْ عباراتها:

- ما أقوى عينك يا بنت القبرصية! وكمان بتردِّيش السلام.. جلبــتِ العــار لأهلك وللقــرية، تزوجتِ من ابن الجنكيّة الذي رفضته بنات القــرية، وكمــان بتردِّيش السلام.. صحيح، اللّي استحوا ماتوا..

كتمتُ غضبي وواصلتُ سيري "عجوز خرفانة، لا تُؤاخَذ على كلامها" لكن هناك مَنْ سمعها! هناك مَن أغضبته كلماتها، استفزّته فأقدم على تلك الفعلة القاسية.. ذهبتُ إلى زينب الدودة في بيتها بكتْ وطلبــتْ مني الصفح:

- ولا يهمك يا أم صالح.. أنا نسيت الموضوع.. واللّه أنا ما لي ذنب في اللّي حصل لكِ..

أشفقتُ عليها ومسحتُ دموعها.. لكن عبارة واحدة من كلامها ظلت تقرع أذني و"ترنّ" في رأسي.. "جلبتِ العار لأهلك" هل حقًا أنني جلبتُ العار لأهلي؟.. وتذكرتُ أنني ولدتُ في تلك الليلة المشئومة.. ليلة ذبْح العاشقة.. وتذكرتُ أن أمي أخفت تاريخ ميلادي الحقيقي.. كانت تخشى عليَّ من الجنون! أو لعلها كانت تخشى عليَّ من العار مثل عوض الشَّاهد الذي تخلَّص من عاري، وزوّجني من جميل حبّ الرّمان.. خشي على ابنه مني! خشي على عائلته من عاري!!.. ها هي عبارة زينب الدودة تفجِّر أوجاعي وجراحاتي الهامدة.. تنبشني من جديد.. كيف لي أن أبرر زواجي من جميل حبّ الرّمان؟ كيف أبرر قبولي بالزواج من هذا الرجل الذي رفضته القرية كلها؟! هل كان عليَّ أن أستوقفَ كل فردٍ في هذه القرية وأُخبره بسبب قراري الغريب؟! لكن، ماذا كنتُ سأقول لأهل القرية؟! أنني بقيتُ في القرية لأن "أبو الكاس" أراد ذلك؟! هل أُخبرهم أنني رجعتُ عن قراري بالانتحار أو الهروب لأنه طلب مني البقاء في العزيزة؟! هل أُخبرهم أنه طلب مني أن أنتظر تلاميذه، أُنظف القنطرة، وأنتظرهم، لأمدَّهم بالعوْن وأساندهم في المقاومة– لأكمل دور أمي؟! كيف لي أن أُخبر أهل القرية بذلك؟! وهل أذيع سر الشباب ليصبح عملهم مكشوفًا وأرواحهم مهدّدة؟! وهل تُصدقُ القرية ما كنتُ سأقوله؟! هل كانت ستصدق أنني قمتُ بتنظيف القنطرة وتغطيتها بالحطب وقمتُ بنقل

القنابل عندما كانوا يغطون في نومٍ عميق؟! هل كـانوا سيصـدقون أنني راقبتُ الدورية وأعطيتُ الإشارة وأطلقتُ الصفير لتبدأ العمليـة التي تتغنّى بها القرية، وتفخرْ بشجاعة الذين نفّذوها!!.. هل كانـت القرية ستصدق كل ذلك؟! لكن، ماذا يهمّني إن صدّقتْ القرية أو لـم تصدّق؟! ما يهمّني فقط، ألا تردد القرية عبارة زينب الدودة الجارحة! هل تُخفي القرية حقيقة مشاعرها عني؟! هل تكتمُ كلمات زينب الدودة في صدرها؟ أكادُ أشك في نظرات الناس!! منذ أن قذفتْ زينب تلـك العبارة المؤذية وأنا أشك في نظرات الناس! كنتُ أتمنـى ألا يصـبح جميل نصيبي وقدري العاثر.. لكن، ما ذنبي إذا كانت هذه القرية قـد اكتفت بالتفرج، ورضختْ لرغبة عوض الشّـاهد؟! "لا نسـتطيع أن نُغضِب (أبو إبراهيم)"! تقاذفتني الهواجس، وهجمـت علـى رأسـي الأسئلة، لكن واحدًا منها برز من وسط الغابة المتشابكة هل حقًـا أن كل فتاة تولد في مثل تلك الليلة تجلبُ العار لأهلهـا – كمـا يعتقـد عوض الشّاهد؟! أو حتى تُصاب بالجنون– كما كانت تعتقد أمي؟! كم فتاة ولدت في تلك الليلة، منذ أن ذُبحت العاشقة على العين؟! مائـة، مائتان، أكثر؟!..لم أسمع بفضائح كثيرة! لم أسمع عن بنات كثيـرات جلبن العار لأهلهن! ولم أسمع عن حالاتٍ كثيرة من الجنون! واحدة.. اثنتان.. خمس حالات نادرة.. يوجـد مثلهـا فـي القـرى والمـدن والمخيمات!! حتى بنات القريـة اللـواتي تـزوجن رغـم إرادتهـن و"البديلات" رضخن للأمر الواقع ورغبة الآباء، ولم يتمـرّدن علـى تقاليد القرية! عشْن في ثباتٍ وتبـات وأنجـبن الصـبيان والبنـات!

والنساء اللواتي هجرهنّ الأزواج وتركوهن لأخريات أو مكثوا سنوات طويلة في الغربة صَبَرْنَ ولم يُقْدمنَ على الفاحشــة!! وأنـــا! التـــي أُرغمتُ على الزواج من شخصٍ لا تحبه، شخص تكرهه القرية.. أنا لم أفكر يومًا في خيانة جميل حبّ الرّمان!! لم أفكر في خيانـــة ابـــن الجنكية الذي تكرهه القرية كلها!! كيف أفكر في ذلك وأنا بنت عابـــد الخيّال، بنت القبرصية؟ كيف أفكر في ذلك وأنا بنت هذه القرية التي تحافظ بناتها ونساؤها على شرفهن وشرف القرية، حتـــى إذا لحـــق بهن الأذى والضّيْم؟! وتذكرتُ ناهد السمَّري! ناهد التي فضحتْ أهلها وهربتْ!! واحدة من الحالات النادرة في القرية! كانت ناهد فتاة يتيمة مسكينة.. كانت زميلتي في المدرسة.. أخرجوها من الصف الثـــاني الإعدادي، وزوجوها إلى رجلٍ كهل.. وصَبَرتْ.. تحمَّلـــتْ ورضـــيتْ بقدرها! لكنهم صبُّوا عليها غضب الدنيا والآخرة.. بنـــات زوجهـــا، أبناؤه، زوجاتهم، وزوجها الكهل الضعيف! كلهم كـــانوا يســـومونها سوء العذاب.. كفرتْ وهربتْ.. هربتْ ولم يعرف أحـــد وجهتهـــا أو مكانها.. أذكر أن أم أحمد الدَّاية جاءت إلى بيتنا بعـــد يـــومين مـــن فضيحة ناهد السمَّري.. كانت "الدّاية" تعرف الأوقات والفصول والشهور التي استقبلت فيها بنات القرية وأبناءها!! كلّهم نزلـــوا مـــن بطـــون أمهاتهم إلى يديها وحضنها! كانت لها حافظة عجيبة.. يومها قالت أم أحمد:

- بنت السمَّري اللّي فضحتْ أهلها وهربتْ، مولودة في شهر كانون (يناير) في آخره – بعدك يا عزيزة بحوالي أربعة شهور.. نزلت بنت

السمَّري على هاليدين بعد منتصف الليل.. كان المطر ينهمـــر مثـــل المزاريب.. أدخلنا الكانون إلى الغرفة ثم لففتها في بطانية قديمة بعد أن نظفتها بالماء الدافئ.. والله أمها مسكينة وبنت حـــلال وســـيرتها زي الحليب.. لكن المكتوب مكتوب..

بعد أسبوع من زيارتي لزينب الدودة، جاءني الأستاذ زاهر.. جاء إلى العزيزة وجلس بجواري تحت شجرة التين الكبيرة، ابتسم ثم قال:

- هذه شجرة مباركة أصبحتْ جزءًا من تاريخ هذه القرية!

- شجرة التين هذه أصبحتْ جزءًا من تاريخ القرية! كيف؟!

لم يجبني! نظر إلى القنطرة.. ثم مسح العزيزة بعينيه وكأنَّـــه يراهـــا لأول مرة.. كان الأستاذ زاهر مدرِّسًا للتاريخ.. عنـــدما كنـــتُ فـــي المدرسة الإعدادية كان صوته الهادر يجلجل في الفصل.. كان دائمًـــا يقول "بريطانيا هي سبب الدَّاء، ودواؤنا في وحدتنا".. لكنه اليـــوم لا يجلجل في الفصول.. طردته سلطات الاحتلال من الوظيفة.. اتهمتـــه بتحريض الطلاب على الخروج إلى المظاهرات والهتاف ضد الاحتلال وفصلته..

- أراكِ مهمومة يا عزيزة هل يزعجك جميل؟ صحيح ما هي أخبـــاره الآن؟!

- بعد خروجه من السجن تحسّنتْ أحواله يعمل في التجارة..

- في التجارة!! وابنك؟!

- شادي بخير في الرابعة من عمره.. أستاذ زاهر هـــل جئـــت إلـــى العزيزة هذا المشوار الطويل لتسألني عن جميل وشادي؟

- بل لأسألكِ عن عوض الشَّاهد!

- عوض الشَّاهد! عمي عوض ما به؟

- عمك عوض مريض.. الواجب أن تذهبي لزيارته..

وشعرتُ أنه قد لكزني في خاصرتي.. أيقظني من سباتٍ طويل كيف أكون قاسية إلى هذا الحد؟ عمي عوض الشَّاهد، أبو إبراهيم، وفاطمة، وزوج عمتي أم إبراهيم!! جيراني، أهلي الذين لم أعرف غيْرهم! لماذا تركتُ غضبي يقودني إلى القسوة؟ إلى الجفاء؟ تزوجتُ جميل حبّ الرّمان وانتهى الأمر! لماذا أُصر على الجفاء والقطيعة؟ لماذا أُصر على القسوة على هذا الرجل المسن؟ القطيعة مع عائلته؟! حتى فاطمة، التي تعاطفت معي، نالت مني الصدود.. واغرورقت عيناي بالدموع:

- إن شاء الله سأزورهم! يظل عمي وتظل أسرته مثل أهلي!

- أأعتبر هذا وعدًا؟

- نعم وعد.. إن شاء الله..

ومسحتُ دموعي:

- لكنني كنتُ أريد أن أسألك عن شيء أنا أعرف أنَّك تسجل التطورات والتغيرات التي تحدث في القرية منذ سنين، وأريد أن أسألك عن حالات جلْب العار هل هي كثيرة في قريتنا؟ وحالات الجنون هل هي كثيرة بين الفتيات والنساء؟..

- أسئلتك غريبة.. هل تقومين بإعداد بحث عن القرية؟

- أريد أن أعرف شيئًا عن هذه الحالات.. هل تزيد في قريتنا عن مثيلاتها في القرى والمخيمات الأخرى؟!

- بل هي أقل منها! تقاليدنا الصارمة حدَّت منها.. صحيح أنني لا أوافق على كثير من هذه التقاليد، لكنها في الحقيقة قلَّلت من الفضائح وحالات الانحراف.. آه.. فهمت! أنت تربطين هذه الظاهرة بتلك الحكاية القديمة التي تناقلتها القرية! حكاية العاشقة والمخطوفة والذبح على العين إلى آخر القصة! اسمعي يا عزيزة سيأتي اليوم الذي تأخذين فيه حقَّك من التقدير.. أنتِ تستحقين وسام الشرف..

- أنا؟!

- نعم أنتِ!! دَعكِ من تلك العبارات الجارحة التي تلفّظتْ بها زينب الدودة.. عجوز خرفانة وقد نالت ما تستحق! رغم أنني أوصيتُ الشباب ألا يمعنوا في إيذائها.. قلت تحذيرها فقط!

- إذن! أنتَ!..

- نعم أنا! أنا أعرف كل شيء! القنطرة وعملية العزيزة.. دوركِ وكما قلتُ لكِ، قريبًا ستأخذين حقَّكِ من التقدير وعندما يحين الوقت المناسب ستعرف القرية كلها مَن هي عزيزة الخيَّال، بنت القبرصيّة وبنت الشهيد عابد الخيَّال!!

نهض واقفًا وهمَّ بالانصراف، لكنه عاد وقال:

- انتظري التعليمات. هناك عملية جديدة لكنها ليست في العزيزة هذه المرّة..

في المساء عاد جميل من الدكان الذي افتتحه حديثًا.. ولاحظـتُ أن نقودًا كثيرة تملأ محفظته وجيوبه.. بعد الخروج من السجن تغيّـرت أحوال جميل، انقطع عن العمل في البيّارات والكـروم ثـم اشـترى ملابس جديدة وزادت "روحاته" إلى غزة.. وبعد شهور قليلة افتتح هـذا الدكان.. ادعى جميل أن صديقه خليل بصْبوص ساعده بالمصـاري.. لكنني أعرف خليل بصْبوص وزوجته سماهر.. تموت النخوة عندهما في موضوع النقود "كله إلا المصاري".. ولم يكن الـدكان مزدهـرًا رائجًا.. لكن النقود كانت تلعب بين يدي جميل، وسألته:

- هل الدكان يُربح كل هذه الأموال؟ إذن، لماذا لم يظهر ذلـك علـى خليل بصْبوص وكامل كرّاز وخليل سمارة وغيـرهم مـن أصـحاب الدكاكين؟

- ليس الدكان فقط! أنا بشتغل في التجارة..

- أي تجارة؟

- كل شيء.. الملابس والأدوات المنزلية و.. الأراضي..

- الأراضي؟ هل هناك تجارة في الأراضي هذه الأيام؟!

- بعدين.. بعدين بتعرفي..

وتهامستْ القرية حول قصة تجارة الأراضي.. "الأفندية بدأوا في بيع أراضيهم هرب معظمهم إلى خارج البلاد وبعض السماسرة يشـتري أراضي الأفندية سرًّا.. وتساءل الناس عن أولئـك الـذين يشـترون أراضي الأفندية.. وراجتْ بعض الشائعات عن الأموال التي "جرت" في أيدي هذه الفئة بعضهم قال: هذه أموال المنظمة وبعضهم قال هـذه

أموال المخابرات الإسرائيلية وبعضهم قال هذه أموال تجار كبار من غزة لا يريدون الظهور الآن.. وسألتُ جميل حب الرّمان مرة أخرى:

- من وين حصلت على النقود؟

- قلتُ لكِ أن خليل بصْبوص بيساعدني..

- بعرف خليل وزوجته.. ما بيساعدوا مسلم في دخول الجنّة..

- استدنتها من صديق في غزة..

- جميل.. هل هي أموال المنظمة؟

- آه.. آه.. لكنني لا أستطيع الإعلان عن ذلك.

المنظمة ترسل نقودًا إلى جميل حبّ الرّمان؟! هذا غريب!! وما الهدف من شراء الأراضي الآن؟ ووجهت السؤال إلى الأستاذ زاهر:

- تخشى المنظمة وقوع الأراضي في أيدي الإسرائيليين وتكرار القصة القديمة التي حدثت عام ١٩٤٨، عندما هرب الإقطاعيون العرب بعد أن باعوا أراضيهم للوكالة اليهودية.. إنّه تصرف حكيم من المنظمة..

ولكن هل جميل هو الشخص المناسب لهذه المهمة؟ لقد سُجن جميل بالصدفة! بعد عملية العزيزة وجدوه في طريقهم واعتقلوه ثم أصدروا عليه حكمًا بالسجن سنة ونصف ظلمًا.. لم تكن له علاقة بالعملية ولا بالوطن كله! هل اعتبرته المنظمة "مناضلاً" وأرسلت له النقود لينجز هدفها "الوطني"؟! لماذا لم ترسلها إلى الأستاذ زاهر أو إلى أي شخص عاقل غيره؟!..

عندما دخلتُ إلى دار عمي عوض الشَّاهد استقبلتني عمتي أم إبـــراهيم بالأحضان والقبلات، وبسرعة أرسلتْ في استدعاء ابنتها فاطمة ثـــم أدخلتني على عمي عوض.. كان عمي عوض الشَّاهد ممـــددًا علـــى فرشة قطنية وبدا نحيلاً مصفر الوجه.. انحنيتُ عليه وقبلـــت يديـــه وجبهته وأجهشتُ بالبكاء.. رفع يده المرتعشة، قرّب رأسي ثم قبلني في جبهتي وقال بصوت ضعيف:

- أنا سمعت الصّفير (والتفتَ ليتأكّد أن لا أحد غيرنا في الغرفة) سمعتك عندما أعطيتِ الإشــارة.. ثــلاث مــرات للتأكيــد.. بعــدها خرجــوا.. ومشّطوهم.. طالعة لأمك.. طالعة للقبرصية!!

- عمي شد حيلك.. شدّة وتزول.. إن شاء الله ترجع لــك الصــحة وتصقّر أنت المرة الجاية..

- إن شاء الله.. الله يرحم أمك.. عزيزة أنا غلطت في حقك.. بليتــك في واحد نذل سامحيني.. سامحيني يا عزيزة..

ودخلتْ فاطمة تسحب ابنها وهجمتْ عليَّ تمطرني بالقبلات:

- هيك.. هيك يا عزيزة هالقد قلبك قاسي..

- خلص.. خلص يا فاطمة اللّي فات مات.. اسمعي يا فاطمــة فيــه ورقة، مكتوب مسكّر، هناك فوق، في الجراب هاتيها واطلعي عنــدي كلام مع عزيزة..

كانت الرسالة مقتضبة وموجّهة إلى (المناضل) عوض الشَّاهد وكانت مذيّلة بختم المنظمة وتوقيع قائد معروف.. "تهديكم القيادة تحياتهــا وتشد على أياديكم جميعًا.. ونفيدكم أننا لم نتصل بالمدعو جميل حبّ

الرّمان ولم نرسل له نقودًا ولم نكلفه بأية مهمة.. هذا للعلـم وإنهـا لثورة حتى النصر"

- هناك نسخة للأستاذ زاهر.. بعرف أنه زارك في العزيزة..

دخلتْ أم إبراهيم حاملة بعض البرتقال.. كانـت عمتـي أم إبـراهيم "تُخزن البرتقال دائمًا، تدسه في التبن وتدّخره للضـيوف الأعـزاء.. مسحتُ جبهة عمي عوض المبلّلة بالعرق.. ودلكتُ يديه المرتعشتين ثم تناولتُ حبتين من البرتقال وخرجتُ مع فاطمة إلى صحن الدار..

بعد أسبوعين مات عمي عوض الشّاهد.. وفُجعتُ مرة أخرى! بكيـتُ عليه كما بكيتُ على أمي! مات عوض الشّاهد بعد أن زرع الشك في داخلي، كانت الرسالة المقتضبة كافية لأن تـزرع الشـك وتغمرنـي بالحيرة.. إذن! فأنا متزوجة من رجل مشبوه!! ليس رجـل تكرهـه الدنيا كلها فقط، بل رجل تلعب النقود المشبوهة فـي يديـه وتلـوك سيرته الألسن من جديد! لكن المصيبة أن هذا الرجـل هـو زوجـي ووالد ابني شادي! ابني الذي يملأ الدنيا عليَّ ويعوضني عن عذابات السنين و"خبْطات" القدر الظالمة! ماذا أفعل؟! كيف أتصرّف؟! هل أقنع جميل بالتوقف عن هذه الجريمة والابتعاد عن المحظور؟ هل أطلـب منه أن يتوقف ويبدأ حياة جديدة نظيفة؟ عليَّ أن أجـرب! لـم يكـن باستطاعتي أن أكشف لجميل سر تلك الرسالة التـي وصـلت مـن القيادة.. ودرتُ حول الموضوع.. لمّحتُ له عن الشائعات التي تدور حوله وحول مصدر النقود التي تلعب بين يديه! لكنه لم يكترث! وظل متشبثًا بموقفه "هذه النقود من المنظمة ولا أسـتطيع إعـلان ذلـك"

وفجأة أُطلقتْ على جميل أربع رصاصات كان في ميــدان فلســطين بغزة.. قالوا إنه كان هابطًا لتوّه من إحدى الســيّارات المشــبوهة.. أُطلقتْ عليه الرصاصات فخرّ متخبطًا في دمائه وهرعتُ إليــه فــي مستشفى الشفاء.. كانت الإصابات في فخذه الأيسر ويــده اليمنــى، وعندما عدتُ إلى البيت سلَّمني الأستاذ زاهر رســالة مــن القيــادة وكانت باسم المناضلة عزيزة عابد الخيّال!!..

(٧)

خالد الرّبيع

لم أكن أعرف أن لدمشق هذا البهاء! لم أكتشف سحرها إلا بعد وصول كوثر! أيهما أكثر بهاء؟ نهار دمشق النَّشِط الحافل بالناس والحياة ورائحة التاريخ أم ليلها، الساحر العذب الحاني على العشَّاق؟!.. عندما وصلتْ كوثر مع سميرة، قطعنا دمشق طولاً وعرضًا.. تجوَّلنا في الأسواق و"تبضَّعنا"، زرنا المساجد والآثار القديمة.. ومشينا في الشوارع التي تجوبها درّاجات "الترولّلّي" الزنَّانة.. وكنّا دائمًا ننهي مشوارنا بمخيم اليرموك، حيث هيّأ لنا "الشباب" سكنًا مؤقتًا.. وفي الليل كنا نهيم ببعضنا! نجلس في زوايا الحدائق والكازينوهات المنتشرة على نهر بردى.. اكتشفنا دمشق.. اكتشفنا أننا لم نكن نعرف "الشّام"!! وأن زياراتنا القليلة لها لم تكن كافية لأن نعرفها.. هل كانت المرأة دليلنا إلى دمشق، دليلنا في اكتشافها جمالاً جديدًا أُضيف إليها، ففجَّر الحنين إلى المكان والتاريخ والسَّحر؟! بعد أسبوع من وصول كوثر وسميرة تزوجنا.. تزوجنا في يومٍ واحد.. بل في ليلة واحدة.. تزوجنا في مخيم اليرموك.. ولم

يُقصِّر الشباب!! كان العُرس فلسطينيًا خالصًا، وكانت كوثر في أبهى حالاتها.. كنتُ أنظر إليها فتعتريني رعشة لذيذة.. وأتساءل: هل هي حقًا بجانبي وستكون بعد قليل زوجتي وعالمي الجديد؟! كانت منتشية جذلى.. ترقص وتغني وتضْحك، وتغوص بعذوبتها في أحشائي..

وبجوارها جلست سميرة، سعيدة هادئة ودودة تغيّـرت سـميرة! بـدت وكأنها فتاة غير التي عرفناها! لم ترقص إلا بإشـارة مـن إبـراهيم وهمس إبراهيم في أذني ونحن جالسين في "الجلوة":

- اكتشفت اليوم أن سميرة تشبه عزيزة الخيَّال! تشبهها في أشـياء كثيرة طولها استدارة وجهها وابتسامتها.. حتى فـي كلامهـا إنهـا تتحدث مثلها تمامًا..

بعد أسبوع من زواجنا أخبرتني كوثر بوفاة والـدها الحـاج صـادق العرابي حزنتُ على ذلك الرجل الودود الشهم.. وعاتبتها:

- لم يكن من اللّياقة أن نعمل عرسًا، ووالدك متوفى.. لماذا أخفيـتِ الخبر عني؟

- كان من الضروري أن نفرح.. انتظرنا هذا اليوم سنوات عديـدة.. كنت في انتظاري وكان لابدّ وأن نمسك بالسعادة التي انتظرناها.. لقد انتظرتني طويلاً! وأسبوعان ليسا بالوقت الطويل! عندما سألتني عنه في المطار كنتُ على وشك أن أخبرك لكنني شعرتُ بلهفتك وأشواقك وفرحتك.. لمستُها في يديك وتعبيرات وجهك وبريق عينيك، لمسـتها في ارتعاشة بدنك كلّه!! ثم أنني تذكرتُ وصيّة أخي إسماعيل فقررتُ أن أتماسك.. عندما ودعني إسماعيل في المطار شدّد على وصيته "لا

تفجعيه بالخبر! افرحوا ببعضكم أولاً.. اقتنصوا لحظات السعادة مَــن يدري ماذا تخبئ الأيّام؟"

واقتنصنا لحظات السعادة.. سرقنا من الزمن وقتًــا مقتطعًــا للفــرح وذهبنا إلى الشهباء.. سهرنا مع القدود الحلبية والموشحات وعانقنا قلعة حلب والبحر حتى الفجر، تجوّلنا في المدينة النابضة بــذكريات الأجداد الفرسان ثم عدنا..

في بيروت، استأجرنا شقة مشتركة في "الفكهاني"، وأرخــى الــزمن حبال مودته لنا.. كان إبراهيم الشّاهد راعي البيت والمســئول عــن المصاريف.. وكنتُ أعود من الجنوب، لأجد الجميع متلهفًا مشــتاقًا! كنّا نذهب إلى الرملة البيضاء مكاننا المفضّل - نأكل الآيس كــريم أو الفرّوج المشوي وفي يومٍ آخر نصعد إلى شــتورة أو بحمــدون، أو نهبط إلى سوق سرسق ووسط المدينة.. وكان إبراهيم يأخــذنا فــي بعض المرَّات "للقصْدرة" في طريق المطار.. كان "يعْزمنا" علــى ذلــك الشراب اللذيذ! "جلاّب بالصنوبر".. كان الباعة يعرفــون "إبــراهيم"، وعندما نصل إلى أحدهم كان يغني بصوته الجميل "برهوم حاكينــا.. جلاّب نادينا" وتضحك كوثر، تداعب إبراهيم وتقول "جلاّب الهــوى.. ياالله يا برهوم، متكْسفْش الراجل.. وفي يوم الجمعة، كنَّا نذهب إلــى سوق الخضار في مخيم صبرا وهناك نعرج علــى بيــت أم ســعيد.. نطمئن عليها، وتجلس نبيلة مع كوثر وســميرة.. أصــبحت نبيلــة صديقة لهما.. كانت كوثر وسميرة تقدمان الهدايا لطارق، وتداعبانه بمرح، فتقول أم سعيد: إن شاء الله عن قريب نشوف أولادكم ونفرح

بيكو.. تنظر إلى بطن كوثر وتسألها: كم شهر؟ فتجيبها كوثر: أربعة شهور يا خالة.. وتسأل أم سعيد: وأنتِ يا سميرة فتجيبهـا بفـرح: ثلاثة، ثلاثة شهور يا عمتي.. يا رب ابني يطلع شـبه برهـوم، يـا رب.. ويضحك إبراهيم ويقول: ولد ولاّ بنـت، اللّـي يجيبـه ربنـا كويس.. وأنظر إلى كوثر وأقول: أمّا أنا فابنتي أريدها مثـل أمهـا.. ونضحك جميعًا..

أحاطتني كوثر بشلاّل من الحب والرعاية.. لكنها كانت تخفي عنـي توترها وخوفها! كانت سميرة تخبرني عـن خشـيتها علـيَّ أثنـاء غيابي.. كانت قلقة على حياتي بعد أن رأت جثامين الشهداء محمولة على الأعناق.. أعطتني كوثر كل ما أشتهيه، ومنحتها بدوري كل ما شعرتُ أنها بحاجة إليه.. كنتُ أشعر أنني ظلمتها معي.. وأنها أكثرنا حاجة للحنان.. وكنتُ أقول مداعبًا -جادًا: تورّطتِ معي أيّتها الثريـة الفاتنة.. مالكِ أنت وحياتنا وقدرنا؟ تتركين أرض النيـل، السـاحرة الهانئة وتأتين إلى هنا، لتكابدي معي، أنا اللاجئ المطارَد المسـكون بهموم الوطن والناس الكادحين.. وكانت تغضب ويتدفق الـدم إلـى وجهها الجميل.. فأصالحها وأعتذر لها.. وعندما تصفو، وتعود إلـى ملائكيتها، كانت تقول:

- لا تقل هذا مرةً أخرى.. ثم لا تنسَ أنني حفيدة أحمـد عرابـي.. يعني الكفاح والنضال يجريان في دمي.. ثم إنَّك لـم تجبرنـي علـى شيء.. فعلتُ كل شيء باختياري وإرادتي.. وأنـا سـعيدة بـذلك..

واللّهِ.. واللّهِ لو ما سْكِتّ لأروح معاك للجنوب وأعــيش معــك فـــي القواعد..
كانت كوثر عاشقة مجنونة تعطي بلا حدود فتبهرني ويزداد جنـــوني بها يومًا بعد يوم.. وعاد إبراهيم إلى مشاكسة سميرة ومـــداعبتها.. أصرَّ على مناداتها باسمها "الحركي" القديم سميرة تـــونج!! اســـمها الذي نسيته من أجله.. واكتشفتْ أن إبـــراهيم يحـــب تـــدليلها بـــه، اكتشفتْ أنه لا يكرهه.. كانت سميرة تتفنَّن في تلبية رغبات إبـــراهيم واسترضائه.. كانت تعرف أشياء كثيرة عنه.. الأشياء التـــي ينفـــر منها، والأشياء التي يفضّلُها! أحضرتْ ذات يوم قدرة فخّارية صغيرة - لا أدري أين عثرتْ عليها!.. كانت القدرة مغطاة وملفوفة بقطعـــة من القماش وبدت كأنها خرجت من الفرن للتو.. وقبـــل أن نســـألها، قالت:
- عشاؤكم الليلة من هذه القدرة.. طبيخ شهي لذيذ.. عدس وفـــول وأرز وبصل.. مخلوطة برهـــوم العجيبة!!
وفتحت غطاء القدرة فاستنشق إبراهيم الرائحة الفائحة ثم صاح:
- يخرب بيتك! كيف عرفتِ أنني أحب هذا الطعام؟! ومن أين أتيـــتِ بهذه القدرة مَن فتح لكِ كتاب طفولتي وأشيائي المنسية؟ توقعتُ كـــل شيء في بيروت إلا هذه القدرة! أنا نفسي نسيتُها! ســـميرة، أشـــهدُ أنني أُحبُك!!..
- ليست القدرة فقط يا برهوم أنظر! هذه الأشـــرطة أيضًـــا!.. كـــل الأغاني والقصائد التي تحبها تجدها هنا.. وهذا! هذا شريط سُـــجّلتْ

عليه قصيدة الهرم الرابع لنزار قبّـاني.. بصـوته، سـمعتُك تتـرنّم بمقاطع منها:

يامن بتساءل: هل يأتي عبد الناصر؟

السيّد موجود فينا..

موجود في أرغفة الخبر، وفي أزهار أوانينا

مرسوم فوق نجوم الصيف، وفوق رمال شواطينا

موجود في أوراق المصحف في صلوات مصلّينا..

واحتضنها إبراهيم فضحكتْ كوثر.. ضحكتْ حتى اغرورقت عيناهـا بالدموع وأصابتها الغصَّة.. خشيتُ عليها وعلـى الجنـين، قفـزتُ وناولتها كوب الماء.. جرعت قليلاً من المـاء.. مسـحتْ دموعهـا وتنهدت، ثم قالت:

- يا جماعة سميرة عارفة وحافظة كل حاجـة بيحبهـا إبـراهيم.. وعارفة كمان إنّه..

لكزت كوثر في يدها بخفة.. فمسح إبراهيم جبهته ثمّ قال:

- الآن زوجتي وحبيبتي سميرة.. على فكرة أنـا حكيـت لهـا كـل شيء..

- طيّب أيش رأيكم أنا ما بكره عزيزة الخيَّال! بالعكس أنـا متلهفـة لرؤيتها والتعرف عليها.. نفسي أشوف الفتاة التي سلبت عقل هـذا الرجل! مَن تستطيع فعل ذلك لا شك أنها تستحق الاحترام.. مش هيك حبيبي برْهوم!!.

في الجنوب في ورشة التسليح كنتُ منهمكًا في العمل كنّا جميعًا مشغولين بقضية واحدة.. بعد إنجازاتنا في مجال الذخائر والرشاشات الخفيفة، كان لابد من تطوير ذلك النوع من الصواريخ المضادة للدبابات.. كان لابد من تحسين أدائه وجعْله خفيفًا على الحمل والتصويب من مسافة ليست خطيرة على الأفراد.. وسهرتُ ثلاث ليالٍ لإعداد الرسوم ثم عرضتها على الرفاق وهتف المهندس المصري عندما رأى الرسوم:

- هايل.. هايل يا خالد.. هكذا يسهل حمل الصاروخ على الكتف، وتصبح الإصابة به أكثر دقة.. وأيضًا المسافة تصبح آمنة على الرفاق.. والآن دور المخرطة والرفيق جاسم.. ياالله يا "أبو فرات" ورّينا الهمَّة

- حاضر عيني.. ماكو مشكلة.. أسبوعان أو ثلاثة وإن شاء الله يكون النموذج الأول بين أيديكم..

- إيدي على إيدك يا أبو فرات..

ودعك المهندس اللبناني جبهته، ثم قال:

- هَيْك الأمور تمام.. طيب، ما رأيكم أن نعطي الصاروخ اسمًا جديدًا.. أنا أقترح أن نسمّيه على اسم الرفيق خالد، تقديرًا لدوره.. في الدول المتقدمة هَيْك بيعملوا..

- لا لا يا جماعة، أنا رأيي نسمّيه على اسم الشّهيد "نضال" الذي بدأ معنا المشوار واستشهد قبل أن يفرح بالإنجاز..

أذكر الآن أن ذلك كان في شهر يوليو ١٩٧٣، في أواخــر يوليــو.. تأخرتُ على كوثر، فاتصلتْ هاتفيًا وذكرتنـــي بعيــد زواجنــا الأول.. نزلتُ إلى بيروت واحتفلنا.. تبادلنا الهدايا والقبلات، وقطعنا "التورتة" وصفقنا وغنينا واحتضنا الصغيرين.. كان ثائر ابني قــد دخــل فــي شهره الرابع، وكانت لَمى ابنة إبراهيم، قد أكملــتْ شــهرها الثــاني وعندما جلستُ مع إبراهيم في الشرفة قال:

- أنت سعيد! لكنني لا أعتقد أن عيد الــزواج وحــده الســبب! أنــا أعرفك.. ابسطني معك يا أبو ثائر..

- هناك مفاجأة يا إبراهيم.. حققنا إنجازًا هامًّا، سأخبرك عنــه فــي الوقت المناسب.. طلبتْ القيادة عدم إفشاء الخبر، وكذلك أمَرَتْ عدم استخدام..

- فهمت.. خالد، أنت رجل عظيم! أنتَ بطل، وإعجابي بك يزداد يوماً بعد يوم..

وسال قلم إبراهيم، بعد اختقانه عامًا كاملاً.. كتب قصتين جديــدتين.. ثم نشر مجموعته الأولى.. حملتْ اسم القصة التي كتبها عــن أبــو الشريم "السوس".. ثم كتب عدة خواطر.. وأخيرًا، كتب مقالاً رامزًا، ثم ألحقه بمقال لاذع..

وبدأت حرب أكتوبر فانتعشنا، دخلنا إلى عمق العدو كثَّفنــا عملياتنــا وقذفنا المستوطنات ومعسكرات العدو، سقط منا شــهداء كثيــرون، وجرحى كثيرون حملنا بعض الشهداء عدنا بهم إلى القواعد.. وتركنا البعض في الأرض حسب وصيّته "إذا استشــهدتُ داخــل الــوطن لا

تحملوني! اتركوا جسدي في الأرض لتشرق عليه شمس الوطن وتزقزق فوق روحه عصافير الوطن.."

وتوقفتْ الحرب، فعاد إبراهيم إلى مقالاته اللاّذعة.. وفجأة حاولتْ سيارة مجهولة دهْس إبراهيم، وأطلقَ مَن فيها رصاصتين.. أخطأته واحدة لكن الثانية اخترقت يده اليمنى.. هرعتُ إليه في المستشفى كانت يده معلَّقة ملفوفة بلا حراك. تهلّل إبراهيم عندما رآني وعندما قبّلته قال:

- شلُّو يدي يا خالد يريدون التخلص منّي.

في المستشفى تقدَّم مني شاب نحيف طويل القامة سلَّم وقدَّم نفسه فعرفتُ أنه من أقارب إبراهيم وفهمتُ أن الشَّاب قد حضر منذ أيام للتسجيل في جامعة بيروت العربية.. استأذنني في خمس دقائق على انفراد فخرجتُ معه إلى الحديقة الملحقة بالمستشفى، وعندما وصلنا إلى النافورة الصغيرة بدأ الحديث مرتبكًا:

- أستاذ خالد لا أدري كيف أبدأ لكن هناك خبرًا لابد أن تعرفه لقد توفي عمي عوض الشَّاهد وأنا في حيرةٍ من أمري! هل أُخبر الأستاذ إبراهيم بالنبأ المفجع وهو في هذه الحالة؟أم أُخفي الخبر فأكون مسئولاً ومُلامًا أمام خالتي أم إبراهيم!! لقد ألحَّتْ عليَّ أن أخبر ابنها وأشرح له حال الأسرة بعد وفاة العائل.. في الحقيقة طلبتْ مني أن أعود إليها ومعي "شوية مصاري" من الأستاذ إبراهيم!! أستاذ خالد، أنا حائر..

أخبرتُ كوثر بوفاة عوض الشّاهد ونقلتُ لها حـديث الشَّـاب عـن ظروف الأسرة بعد الوفاة.. وبعد أسبوع فوجئتُ بها تُخرج من حقيبة يدها رزمة من الأوراق النقدية:

- خذ يا خالد.. خذ هذه النقود.. وأعطها للشاب، قريـب إبـراهيم، نصف المبلغ لأهل إبراهيم، والنصف الثاني لأهلك.. أنت لم ترسل لهم نقودًا منذ أن تخرجتَ من الجامعة!.. أخبر الشَّـاب أن يقـول لأهـل إبراهيم أن النقود منه، وشدِّد عليه كذلك ألاَّ يخبرهم بالحادثة..

- ومن أين أتيتِ بهذه النقود الكثيرة؟!

- وفَّرتها من مصروف البيت!

- من المصروف أم من الشرقية؟!

- أوه يا خالد.. تاني!!

كنتُ أعرف أن نقودًا تصل إلى كوثر من حينٍ لآخر! كـان شـقيقها إسماعيل يرسل لها النقود من حينٍ لآخـر تحـدثنا فـي الموضـوع وتجادلنا!! غضبتُ وطلبتُ منها أن تتوقف عن ذلك وبيّنتُ لها أن هذا الأمر يضايقني ويحرجني!! لكنها كانت دائمًا تدافع عن موقفهـا بـل تصرُّ عليه وها هي تكرره مرة أخرى:

- لا فرق بيننا فلوسي هي فلوسك.. نحن معًا على الحلوة والمُـرَّة. اتفقنا على هذا وانتهى الأمر.. هذه فلوسـي ميراثـي مـن أبـي.. إسماعيل أخي صحيح لكنه لا يرسل لي من جيبه الخاص..

- يعني حقَّك أنتِ.. فلوسك أنتِ..

- اسمع يا خالد.. ألسنا وإبراهيم وسميرة أخوة؟! يعني لازم نقف معهم، نسد مكانهم! ألم يقف إبراهيم معك في مراتٍ عديدة؟!.. وكذلك أهلُك مثل أهلي! حبيبي.. خذ الفلوس علشان خاطري.. أعطِها للشَّاب وتوكَّل على الله.. والآن اضحك.. اضحك.. تعرفني لا أحب هذه التكشيرة.. اضحك يالله يا أبو ثائر، تأخرنا على إبراهيم وسميرة..

ثم تعلَّقت في رقبتي، وقبلتني..

مضى شهران وذراع إبراهيم ملفوفة هامدة.. أُجريتْ خلالهما عمليتان لليد المعطوبة.. وبدأت أحوال إبراهيم في التدهور.. لم يعد يمليني ويطلب مني أن أتمهَّل في الكتابة.. عاد إلى التدخين! ولم يعد يتناول الطعام إلا بعد معارك طاحنة معنا!! لجأ الأطباء إلى حقن التغذية، أجبروه عليها.. وبجواره، تدهورت صحة سميرة.. كانت سميرة ذابلة العينين، متْعَبَة، فاقدة الحيلة مع هذا القروي العنيد!! نصحها الأطباء بالانتباه إلى صحتها والإهتمام بطفلتها، ثم أمروها بمغادرة المستشفى!! لكنها ظلَّت تغافل الأطباء والممرضين وتصل إلى "حبيبها" برْهوم..

بعد العملية الثانية، لاحظتُ شيئًا لافتًا! كلّما ذهبتُ لزيارة إبراهيم كنتُ أجده ممسكًا ببعض الأوراق يخطط عليها بالقلم، ويحاول الكتابة بيده اليسرى.. كان خطُّه متعرِّجًا مضحكًا.. وحاول إبراهيم مرة ثانية.. كان إبراهيم مُصرًا على تعلُّم الكتابة بيده اليسرى!! بعد شهر، اعتدل خطُّه وبانت حروفُه..

وجاء الطبيب! طلب من إبراهيم تحريك أصابعه.. حاول.. لكنها لم تستجب.. لم تتحرك الأصابع.. كانت جامدة متشنِّجة. نظر إبراهيم إليَّ.. أمسك القلم بثبات، وكتب بيده اليسرى صفحةً كاملة.. ثم كتب صفحة ثانية.. وثالثة.. وكانتْ جميعها مقروءة واضحة الحروف!!

عندها، فكَّ الطبيب الرباط الأبيض المقيت ثم دوَّن في بطاقة المريض الإذن بالخروج..

أتذكَّر الآن تلك اللحظات.. أتذكر أنني نظرتُ إلى أصابع إبراهيم المتشنجة ثم أدرتُ وجهي.. كان إبراهيم واقفًا بكامل هندامه، متأنقًا، ممسكًا بأوراقه وقلمه بيده اليسْرى.. وأذكر أنني ابتسمتُ له وعبّرتُ عن إعجابي بأناقته!! وعندما أكملتْ سميرة تنظيف حذائه، وضع قدميه في الحذاء ثم خرج من الغرفة.. مرَّ على غرفة الأطباء، شكرهم، حيّا الممرضين، مرَّ على عنابر المرضى، تمنّى لهم الشفاء، ثم هبط درجات السلّم، أمامنا، نشيطًا مبتسمًا!!

مَن منَّا البطل يا صديقي؟! كان إبراهيم يناديني في أحيان كثيرة، بكلمة "بطل"! لكنني أدركتُ يومها، أنَّه بطل كبير! وعندما عبَّرتُ له عن ذلك، ابتسم وقال:

- الأبطال هم الذين يعملون بصمت في القواعد!!

بعد شهر من خروجه سأل إبراهيم عن الشَّاب النحيف الطويل، قريب أُمِّه! أخبرته سميرة أنَّه سافر، وسيعود إلى لبنان في شهر يونيو.. ثم أخبرتُه أنا بوفاة والده.. بكى إبراهيم! بكى بحرقة واعتزلنا يومين كاملين.. وفي اليوم الثالث تكلَّم:

- لا شكّ أنهم في ضائقةٍ بعده كان من الضروري أن أُرسل نقودًا..

- النقود وصلتهم يا صديقي..

- أرسلتها أنتَ.. إذن فعلتها!

- ألسنا أخوة على الحلوة والمرَّة ولازم نسد مكانك؟!

- آه.. فهمت!! أين وجدتما بعضكما؟! هل أنتما من هـذا الكوكـب؟ تتفانيان من أجل الآخرين! كم أنتما رائعان!..

- أنت تعلم أينَ وجدنا بعضنا! في الجامعة التي تخرجت منها! وتعلم أننا من هذا الكوكب أيها القروي المخلص..

وفجأة، سأل إبراهيم عن أم سعيد.. دُهشَ عندما علم أنها لـم تقُـم بزيارة سميرة وكوثر أثناء وجوده في المستشفى.. حتى أنها لم تزرْه هو!! وقرر إبراهيم أن نذهب إلى بيت أم سعيد.. لكننـا لـم نجـدها هناك! ولم تكن نبيلة ابنتها هناك! وجدنا في المنزل خمسةً من شباب الجبهة الديمقراطية، استأجروا المنزل وحوّلوه إلى مقر للجبهة! كانت الصور والرسومات والشعارات والرّشاشات تملأ المنـزل.. عنـدما سألنا "الرفاق"، فهمنا أن صاحبة البيت قد أجَّرته وغـادرت لبنـان!! قالوا إنها التحقت بابنها في الخليج.. وقالوا إن ابنتها أخذت طفلهـا وذهبت إلى سوريا، حيث يقيم أعمام طارق وأهله..

وتساءل إبراهيم، ونحن في طريق العودة:

- هيك فجأة! لكنها لم تلمّح إلى نيتها في الالتحاق بابنها! ونبيلة! لم تتحدث يومًا عن رغبتها في الذهاب إلى سوريا! مـا الـذي حـدث فجأة؟! خالد، أشك أنهم قد وصلوا إليهما!!

- تعني أبو الشوارب وجماعة أبو الشريم!!

- أعني أن المرأتين لم تغادرا لبنان طوعًا، بل خوفًا..

كلّما نزلتُ إلى بيروت، كنتُ أُذكرُ إبراهيم بمسؤوليته الجديدة في إعالة أسرته وألح عليه في ضرورة تحمل هذه المسؤولية.. لكنني توقفتُ عن ذلك فجأة! خشيتُ أن يفهمني إبراهيم بطريقةٍ خاطئة تؤثر في صداقتنا الطويلة الحميمة! خشيتُ أن يفهم إبراهيم أنني أخاف على نقودي، ونقود كوثر! كان الموقف دقيقًا حساسًا! ذكَّرتُ إبراهيم بالرسالة التي وصلته من أحد أصدقائه في ليبيا.. شجّعه صديقه على القدوم للعمل في الصحافة هناك.. لكن إبراهيم ظلّ يردد عبارة واحدة "لن أهرب.. لن أهرب"..

كنتُ خائفًا على إبراهيم وكانت مسؤولية العائلة وظروفها ذريعة لإقناعه بمغادرة لبنان.. كنتُ أخشى على حياته، خاصةً بعد أن حُفِظ التحقيق في محاولة اغتياله وطُوِيتْ الملفات!! مَن يضمن أين ستستقر الرصاصات في المرة القادمة؟! إبراهيم عنيد لاذع في قصصه ومقالاته، و"الجماعة" لا يحسبون حسابًا لأحد، ولابد أنهم سيحاولون مرة أخرى!!..

في بداية يوليو عاد الشّاب النحيف الطويل.. قال إن الدوائر الأمنية الإسرائيلية كادت أن تمنعه من السفر.. أحضرَ رسالةً وصورًا من عائلتي وأحضر لإبراهيم رسالة وهدية، صُررًا حوَتْ بعض المواد الغذائية الجافة ألحَّت أم إبراهيم على الشّاب فحملها المسكين عبر البلاد والمطارات قبَّل إبراهيم صُرر أمّه ثم فتح الرسالة.. وعندما

قرأها تغيَّرت ملامحه وتجهّم وجهه.. خَطَفتُ الرسالة من يده، وعندما قرأتها عرفتُ أن زوج فاطمة شقيقة إبراهيم قد استشهد!!
نظر إبراهيم في وجوهنا ثم نهض واقفًا:
- يبدو أنني سأهرب.. سميرة جهّزي حقائب السفر..

(٨)

جميل حب الرّمان

هذه القرية تكرهني! تحتقرني! أعرف ذلك! وأعرف أنها تتمنـــي أن أختفي منها، أن أغور وأذهب إلى جهنم! حاولوا أن يرســلوني إلـــى جهنم! حاولوا قتلي، لكنهم فشلوا، قطة بسبعة أرواح!..

والآن ها أنا أتحرك أمام عيونهم، الآن كلهم يخشونني، يحسبون لي ألف حساب، وبعضهم يأتيني سرًا، ليطلب مساعدتي، المســألة فـــي حجرك يا أبو شادي، وأنت قدّها وقدود! إنهم يتوددون لي يتملقونني، أصبحت (أبو شادي)، لم أعد جميل حب الرمّان، الذي سخرت منـــه النساء، وتقاذفته بألسنتها وتهكمها، لم أعد ابن الجنكية، الذي أهانه الشباب واحتقروه، ولكزوه في مؤخرته ولم أعد جميلة الرقاصة..

كنت في العاشرة من عمري عندما سحبتني أمي وراءها وجاءت إلى هذه القرية.. اختفي والدي، زاهي الغندور، هرب مع امرأة أخـــرى، فهمنا – أنا وأمي- على وجوهنا في القرى والمخيمات، حتى وصلنا إلى هذه القرية، (وأطنبنا) على أهلها! عليَّ أن أعترف أنهم عطفـــوا علينا ومنحونا الأمان والمأوى، تفضّل أحد الأثرياء علينـــا بغرفـــة،

عشنا فيها في طرف البلدة، وبدأت أمي تلتقط رزقها فـي البيّـارات والكروم، ثم استغلت معرفتها بالرقص والغناء، بـدأت فـي إحيـاء المناسبات النسائية، حفلات الطهـور والحنـاء وأسـابيع الـولادة، وسارت أمورنا يسيرة هادئة حتى ظهر في حياتنا ذلـك الشـيطان، عدنان الهائج، ذلك السكيّر، الذي دمّرنا وحوّل حياتنا إلى جحيم!!

أذكر أن أمي طلبت مني أن أذهب إليه، في بيّـارة الأفنـدي، كـان ناطورًا في تلك البيارة، وكان ذلك بعد وصولنا إلى القرية بعام: تذهب إلى عمك عدنان وتقول له: أمي بتسلم عليك وبتقول لـك أعطينـي شوية ليمون وذهبت إليه دخلت في سياج البيّارة، وعنـدما وصـلته كانت عيناه محمرتين ذابلتين، نظر إليَّ، فارتعشت.. مسّد على رأسي وخدي، ثم سحبني إلى داخل البيّارة، وعند شجرات الكيرفوت الكبيرة قبض على رقبتي وأظهر خنجرًا مخيفًا، أمرنـي أن أمسـك بجـذع الشجرة.. مسّد شاربه الكثيف، فكّ سرواله ثـم رفـع جلبـابي و.. صرخت.. وضع يده على فمي هددني وأمرني بالصـمت.. وعنـدما فرغ من فعلته، ملأ الجراب بالليمون والرمّان ثم قال:

- سلّم على أمك وقل لها موعدنا يوم الجمعة.

لم اسأله عن الموعد.. كنت موجوعًا خائفًا مرتعشًا، أخذت الجـراب، وعندما تحرّكت شعرت بآثار فعلته الرهيبة.. لم أخبر أمي بما حدث، وفي يوم الجمعة طلبت أمي أن أذهب وأجمع بعـض الحطـب مـن البيّارات والكروم، لكنني كنت قد أضمرت أمرًا.. تظـاهرت بالـذهاب ودرت حول البيت، وجلست تحت شـجرة قريبـة، انتظـرت حتـى

العصر.. ثم جاء رأيته قادمًا، تلفّت يمينًا ويسارًا، ثم دخل الغرفة مثل اللصوص.. انتظرت قليلاً ثم صعدت على الحجرين اللذين جهزتهما منذ الصباح، نظرت من الشباك ورأيتهما، أمي وذلك الشيطان يمارسان الفاحشة! نزلت عن الحجرين وجريت، جريت حتى وصلت إلى الحدود! توقفت فجأة ثم بكيت، بكيت، ثم عدت أدراجي إلى القرية..

بعد أسبوع تحوّلت أمي إلى جنكية، أغواها الشيطان وحوّلها إلى راقصة أمام الرجال، في الأفراح وأصبحت أنا ابن الجنكية، وتحمّلتُ وزر أمي.. نزوتها اللعينة، ومجون ذلك السكير الفاسد، وتحملت المهانة والفضيحة، والبهدلة، التي حدثت لنا عندما اكتشفت القرية تلك العلاقة المشبوهة!!

رصد بعضهم خطوات عدنان الهائج، راقبوه ثم ضبطوه متلبسًا بالجرم المشهود، ضبطوهما معًا وقذفونا إلى خارج القرية.. ضربونا بالصرامي والشباشب، ألقوا على وجوهنا القاذورات، وطردونا! وتبرأت عائلة الهائج منه، طردته من حماها، وأمرته بمغادرة القرية وهددته بالقتل إذا عاد إليها..

في الغابة، غرب القرية، بنينا كوخًا بين الأشجار الحرجية، لكن المنبوذ لم يتركنا في حالنا، لحق بنا وأصبح عمي.. تزوج أمي وأخذها إلى الأفراح في القرى والمخيمات، والحارات الشعبية، وعمل لها طبالاً، كانت أمي ترقص وزوجها عدنان الهائج يطبل، يطبل

ويميل برأسه مع نقرات الطبل وينظر إلى خصرها وصدرها بعينيـــه المحمرتين!!

حاولت أن أفعل شيئًا فكرت في قتل عدنان الهائج، لكنني لم أســتطع لم أجرؤ! كان خنجره المخيف يردعني ويجمد الــدم فــي عروقــي، وهربت عدّة مرات.. غبت عن الكوخ يومين وثلاثة وأسبوعًا، لكنني كنت أعود، كنت أشتاق إلى أمي رغم الآلام والإهانات التي ســببتها لي، ولم أستطع إنقاذ أمي، أصبحتْ فريسة في يد ذلــك الشــيطان، عجينة في يديه، يشكلها كما يشاء، علّمها الشرب والحشيش وأعياها بالرقص دون رحمة، كانت أمي ترقص وهو يقــبض وينفــق علــى ملذاته ونزواته..

ومرضت أمي كان عمري يومها أربعة عشر عامًا، كنّا فــي إحــدى القرى على وشك بدء الفرح، كان عمي عدنان قــد اســتلم عربونًــا محترمًا، عربون ثلاث ليال متتالية.. وأسقط في يده، انتفض وبــرم شاربه، كيف تمرض أمي في هذا الوقت؟! كيف تمرض فــي بدايــة الليلة الأولى، إذن سيعيد العربون، ويفقد بقية الأجرة، ويفقد النقوط، ويمكن أن يضربنا أصحاب العرس، كيف نفسد عرسهم، هــذا نــذير شؤم وكان لابد من إنقاذ الموقف، وجاءت أمي، زحفت نحوي توسلّت إليَّ أن أنقذها.. طلبت مني أن ألبس بدلة الرقص وأضع الماكيــاج، والباروكة، والصدّارة وأن أرقص بدلاً منها! أعترف أنني لــم أجــد طلبها غريبًا، فأنا لم أعد أشعر بالإهانة فــي حــالات كثيــرة، ابــن الجنكية، معلش ابن الرقاصة، وإيش يعني!.. يتقصّع مثــل الجنــاكي

أضحك.. أضرب على مؤخرتي.. مش مهم، ماذا إذا لبست بدلة الرقص، ما الذي ينقصني جسم ناعم ميّاس، ووجه أبيض مدور، وعينان عسليتان، وسن ذهبية، ضحوك، ركّبتها لي أمي منذ شهر، صبيّة فاتنة! جميلة! جميل أو جميلة، لن يختلف الأمر كثيرًا.

ورقصت جميلة، طافت في المخيمات والقرى والحارات الشعبية.. عامان كاملان، وأنا أضع الماكياج والباروكة، والصدّارة وأضحك بالسن الذهبية وأرقص في كل مكان عدا هذه القرية!

وفجأة مات عدنان الهائج مات في حادثة غامضة، طعنة خنجر نافذة قضت عليه وأراحتنا منه إلى الأبد!!..

أذكر أن عوض الشّاهد أشفق علينا بعدها، توسّط لدى مخاتير القرية ووجهائها رقق قلوبهم بحديثه عن حالتنا وعن صحة أمي المتدهورة، فأشفقوا علينا، وأعادونا إلى القرية! وهمس يومها في أذني "بلاش الرقص يا جميل" عيب عليك، ارجع راجل واللي فات مات، وعدت إلى جميل حب الرمان، ولم أعد إلى جميل زاهي الغندور، ولم تنتظر أمي طويلاً، هدّها المرض وماتت! ماتت أمي وتركت لي رصيدًا كبيرًا من العذاب، من الكراهية، تركت وجعًا مكبوتًا، خزّنته في صدري وادخرته للأيام القادمة.

وها أنا اليوم أخرجه وأنفقه في مكانه.. أمارس انتقامي بتلذذ، أمارسه منتشيًا، أسترجع كل عذاباتي وأوجاعي وانتقم منهم! كل الذين آذوني وأهانوني، الذين تركوني وأمي فريسة لذلك الشيطان! هكذا أفهم أنا الأمور، تركونا فريسة لذلك العربيد، يفتك بنا ويقضي

علينا لا يهمني تفسير القرية للأمور، لا يعنيني قولهم، دافعنا عن قريتنا، عن تقاليدنا، عرضنا وشرفنا.

لا أريد اليوم أن أحلل الأمور! أن أزنها بالعقل، كل ما أريده أن أثأر لنفسي ولأمي، أن أستعيد كرامتي أن آخذ حقي من هذه القرية، مِنْ أهلها الذين أصروا على إهانتي واحتقاري! حتى عندما كبرت، عندما قررت أن أكمل نصف ديني، أن أتزوّج مثل بقية البشر، رفضوا! رفضوا أن يعتبروني واحدًا منهم، رفضوا أن يزوجوني من إحدى بناتهم، لم يقبل أحد من هذه القرية أن أكون زوجًا لابنته، حتى زينب الدودة، لم تقبل بي زوجًا لابنتها الدميمة قصيرة القامة، ابنتها التي تشبهها وتشبه الخنفساء! وكان عليَّ أن أبحث عن زوجة من خارج القرية، جلبت الزوجة الأولى من أحد المخيمات لكنها هربت بعد ثلاثة شهور! وجلبت الثانية من مصر، ولم تمكث سوى شهر واحد!! كانت سيرتي الحلوة دائمًا تلاحقني وتطرد زوجاتي.. أصابني اليأس، فلم أكرر المحاولة.. سبع سنوات أمضيتها بدون زواج قبل أن يأتي عوض الشّاهد ويعرض علي ما لم يصدّقه عقلي:

- إلك عندي عروس.. عروس من القرية، مثل القمر.

- بنت من القرية؟! ومن الذي سيقبل بي زوجًا لابنته؟!

- أنا! أنا الذي سيزوجك ويقبل بك.

- أنت تزوجني من؟ ابنتك فاطمة؟

- بل سأزوجك عزيزة الخيّال، بنت القبرصية، فقط أريدك أن تصبر وتنفذ كل ما أطلبه منك.

اعتبرت حديثه سخرية جديدة أو دعابة أراد أن يتسلّى بهـــا.. لكنـــه كرر عرضه فقررت أن أجاريه، لا شيء عندي أخســـره، فلمـــاذا لا أجرب؟! وخطط عوض الشّاهد ونفذت كل ما طلبه مني، اقتربت منه واشتغلت معه في قطف الخوخ والبرقوق، عملت في بيّارة الأفنـــدي، معه، وصدحت بالمواويل والأغاني.. لكن القبرصية كانت تكرهنـــي، وكانت عزيزة الخيّال تحتقرنـــي ولا تعتبرنـــي رجـــلاً، وأم إبـــراهيم وإبراهيم وفاطمة، كلهم كانوا يكرهـــونني، ولا يحتملـــون رؤيتـــي، واكتشفت أن إبراهيم الشّاهد -ابن عوض- هائم في عزيزة الخيّـــال، وأنها تحبه كذلك، اكتشفت ذلك، وتأكدت منه في تلك الليلة الملعونة، عند الجميزة عندما طعنتني عزيزة في ذراعي، ربطتني في الجميـــزة وطعنتني في ذراعي وبصقت في وجهي، ومثلها فعل إبراهيم! وتيقنت أنها مزحة مريرة، انزويت انقطعت عن عـــوض الشّـــاهد ونســـيت الموضوع! وفجأة ماتت القبرصية ماتت بلدغة ثعبان، وأحضر عوض الشّاهد أحد أقارب عزيزة الخيّال وجاءني، طلب مني أن أغرق الرجل بالمصاريف والطعام والثياب الجديدة، وفعلت ونجحت خطة عـــوض الشّاهد، وتزوجت عزيزة الخيّال!!

لم تكن مطيعة سهلة، كانت عزيزة الخيّال جامحـــة نـــافرة، لكننـــي صبرت عليها، كنت أريدها أن تبقي زوجتي، كنت أعرف أنها أرغمت على الزواج مني، وأعرف أن قلبها مع شخص غيري، لكنني تركتها للزمن، للأيام، تليّن قلبها وتكسر عنادها، إنها بنت القرية ولن تهرب

مثل الأخريات، إنها بنت القبرصية، بنت عابد الخيّال، ولا يمكن أن تفعل ذلك!

وصدق حدسي حدث ما توقعته وتغيّرت عزيزة الخيّال، لانت وأطاعت، لم تعد تتمنع، لم تعد تعذّبني بالصدود والجفاء، عاملتني برقة، واعتبرتني زوجها، قلت: عادت إلى رشدها، وعاد الزمن إلى مصالحتي، وها هي الأيام تنصفني وتبتسم لي!! لكنهم لم يكملوا فرحتي، اعتقلني الإسرائيليون ورموني في السجن بدون ذنب أو جريرة، أنا الذي يبتعد عن الشر ويغني له، أنا الذي يمشى بجوار الحائط أنا متهم بالعمل الفدائي، ومساندة المخربين، وحكموا عليَّ بعامين ونصف ظلمًا!!

في الشهور الأولى من سجني أخبرتني عزيزة الخيّال بحملها، فرحت! أخيرًا سأصبح أبًا! جميل حب الرمّان سيصبح أبًا، سألتني عن اسم المولود المنتظر قلت لها أي اسم عدا إبراهيم، فقالت ما رأيك في شادي، فوافقت وبعد خمسة شهور أصبحت أبًا، أصبحت أبا شادي وأنا في الخامسة والثلاثين..

قبل خروجي بيومين، استدعاني ضابط المخابرات "أبو يعقوب" طلب منّي التعاون معهم، أخبرته أنني رجل غريب في القرية ولست في حاجة إلى المتاعب، لكنه انتفض وقال:

- إلى متى ستبقي مغفلاً؟ لقد سجنت ظلمًا ونحن نعرف ذلك! لكنهم خدعوك! الذين تثق بهم خدعوك، أقرب الناس إليك خدعك..

ثم أخرج ملفًا وواجهني بالمعلومات التي هزّت كياني وزلزلت ثقتي بهما، زوجتي عزيزة الخيّال، وصديقي، عوض الشّاهد كلاهما كان يخدعني.

- عزيزة عابد الخيّال وعوض إبراهيم الشّاهد من التنظيم وهما يساعدان "المخربين" وينقلان الأسلحة والقنابل ويرصدان الطرق للمجموعات العاملة في القرية! إلى متى تظل مغفلاً يا جميل؟! حتى الأستاذ زاهر جودة، ذلك المدرس المفصول من وظيفته، والذي يزورانه ويزورهما من التنظيم.. أتفهم؟.

وأخرج رزمة من النقود، وضعها أمامي، ثم أضاف:

- هذه النقود لك، تبدأ بها حياة جديدة وتصبح صديقًا لنا..

هذه القرية تكرهني، تحتقرني وها هي تخدعني، أقرب الناس لي يخدعني، لم تكن عزيزة الخيّال صادقة في رقتها ودلالها، بل كانت مخادعة ماكرة، وعوض الشّاهد لم يكن هو الآخر مخلصًا، بل كان يضحك على ذقني، يستغفلني، ويوهمني بصداقته، وأنا مثل "السطل" أشرب من خداعه! لماذا إذن لا أبادلهما خداعًا بخداع وكرهًا بكره، لماذا لا أنتقم منهما؟ لماذا لا أنتقم من القرية كلها، وقبل أن أمد يدي إلى رزمة النقود قلت:

- أقبل بشرط واحد!! ألا تؤذوا عزيزة الخيّال، تظل زوجتي وأم ابني ولا أريدكم أن تسجنوها..

- لكنها تقدم المساعدة لهم، تنقل السلاح والقنابل و..

- سأراقبها، سأخبركم بكل شيء، لكن لا تدخلوها السجن، هذا شرطي الوحيد..

- اتفقنا لن ندخلها السجن..

وأخذت النقود، واشتريت عشر دونمات من أرض الأفندي، ولم أخبر عزيزة الخيّال بذلك، كنت أراقب كل حركة وأقابل "أبو يعقوب" أمُدُّهُ بالتقارير والمعلومات، كنت أقابله في غزة، في مكتبه، وفي مرات أخرى كنت أذهب لمقابلته في المجدل.. وكانت عزيزة الخيّال تقابل ذلك الشاب الأسمر الطويل، كان راعيًا، يطوف بأغنامه حول البيّارات والكروم وكانت تذهب إلى الأستاذ زاهر جودة، ذلك المدرس المفصول بسبب مواقفه "الوطنية" كانت توهمني أنها تزور إحدى قريباتها، وفي بعض الأحيان كان هو يأتي إلى العزيزة.. يجلسان معًا تحت شجرة التين الكبيرة، ويتهامسان، وعندما أقترب منهما، يحولان الموضوع، ويتحدثان في أمور عامة! كان ذلك الرجل يكرهني، بل كان هو الآخر يحتقرني! كنت أشعر بذلك من نظراته وعباراته.. ودرّبني أبو يعقوب على طرق المراقبة ووسائل الاتصال وعلّمني تفسير الإشارات والرموز.. وطلب مني عدم الاتصال به هاتفيًا إلا في حالات الضرورة فقط، راقبت عوض الشّاهد لمدة شهرين، لكنه مرض فجأة، أثقلت عليه جروح السجن وآثار التعذيب، رقد في الفراش شهرًا كاملاً ثم مات! مات وأراحني من مراقبته ومتابعة تحركاته! واستعنت بصديقي خليل بصبوص، كان خليل بصبوص غريبًا عن القرية، كان (طنيبًا) عليها مثلي، وكان يحتفظ في صدره

بحقد كبير على شبابها! لكنه كان يخفي ذلك، كنت الوحيد الذي يأتمنه على أسراره، لكنني احتفظت بأسراري هذه المرة، هكذا أوصاني أبو يعقوب! كنت فقط أطلب من خليل أن يخبرني بتحركات وأحاديث بعض الأشخاص، حامد كرّاز وسامي السمري، وعلي السّحار، ووليد أبو كرش، أولئك الذين يلتقون مع (الراعي المزيف)! يتهامسون معه ويتقابلون عند دكان خليل بصبوص، ثم يتفرقون، وعندما تسألني سماهر زوجة خليل عن سبب هذا الاهتمام كنت أجيبها بطرق ملتوية وعبارات غامضة.. لكنها كانت تغمز وتقول "والله وراك سر يا أبو شادي، وأنا خايفة عليك من تاليها" ويضحك زوجها ويقول يا شيخة الراجل بدّه يحرّص فقط.. بتعرفي هذه الشلة لم تكن راضية عن زواجه من عزيزة الخيّال.

قمت بتفسير العبارات وفك الرموز والإشارات ففهمت أن هناك عملية جديدة.. وفي يوم الجمعة، عند العصر، جاء الأستاذ زاهر إلى العزيزة، جلس مع عزيزة الخيّال ثم انصرف، فخمنّت أن موعد العملية قد اقترب، راقبت عزيزة، ورأيتها.. كانت تضع السلاح والقنابل على العربة ثم تغطيها بأكوام الحطب، رأيتها وهي تنهر البغل وتتجه إلى الشمال، حيث أرض كرّاز، بجوار مركز القيادة الإسرائيلية في "أم القرّيص".. وهناك أنزلت الأسلحة والقنابل، سلّمتها إلى حامد كرّاز، الذي قام بتنظيفها وتركيبها استعدادًا للعملية، وأبلغت "أبو يعقوب" طلبته بالهاتف وذهبت إليه في مكتبه بغزة، قدمت له كل المعلومات، فأتحفني بمبلغ محترم من النقود! لكنهم لم

يمهلوني للتمتع بها! أطلقوا عليَّ النار بعد ساعة.. أطلق "الفدائيون" النار وحاولوا قتلي والتخلص مني..

في المستشفي، استقرت حالتي بعد أسبوع، عندها علمت بالأخبـــار! علمت أن الراعي المزيف قد قتل، وعرفت أن اسمه الحقيقي شـــادي أبو العطا، أذن سمّت عزيزة الخيّال ابنها باسمه! لم يعد ذلك مهمًـــا، ها هو قد قتل، وقتل معه حامد كرّاز، وأولاد السمّري والسّحار وأبو كرش، وعلمت كذلك أن الإسرائيليين قبضوا على الأستاذ زاهر جودة وثلاثة آخرين من مدرسي القرية!!.. وخرجت من المستشفي برجـــل عرجاء وجرح غائر في جبهتي، لكنني حصلت على مكافـــأة كبيـــرة! كان أصدقائي كرماء معي فاشتريت عشرين دونمًا من أرض الأفندي، وقررت ترك القرية! لم يعد وجودي مضمونًا وسط هـــؤلاء النـــاس، بنيت بيتًا من طابقين، غرب القرية، مكان الكوخ القديم، وطلبت مـــن عزيزة الخيّال أن تنتقل معي إلى البيت الجديد لكنها رفضت، رفضـــت وطلبت منّي أن أترك لها ابنها "اترك لي شادي! لا توجد مدرسة في غرب القرية، اتركه واذهب حيثما تريد"..وتركتها بعـــد أن اشـــترطت عليها ألا تمنعه من زيارتي! هجرتها وتزوجت مـــن امـــرأة أخـــرى، وكانت هذه المرة من بنات القرية أيضًا، وها أنا أتحرّك أمام عيونهم، أتحرّك بسيارتي "المرسيدس" أمام الجميع، فأنـــا الآن أبـــو شـــادي الغندور، الذي يأتيه الناس، يتملّقونه ويطلبون مساعدته في قضـــاء مصالحهم وحوائجهم! حالات لم الشمل وتصاريح العمل وتـــراخيص محطات الوقود والورش.. أبو شادي، الذي يحتاجونـــه فـــي شـــراء

الدونمات من أراضي الأفندية ويحتاجونه في الوظـائف، حتـى فـي الحصول على السلاح عند حدوث المنازعات العائلية يحتاجونني! أنا الآن "أبو شادي" ولم أعد جميل حب الرمّان، ابن الجنكية، ولم أعـد جميلة الرقاصة..

(٩)

عزيزة الخيّال

كان بإمكان جميل أن يستعيد نفسه، أن يصبح إنسانًا جديدًا، لو فعل ذلك، لو تغير، لاحتَرَمَتهُ القرية أو لخففتْ من كراهيتها له! جاءته الفرصة عندما دخل السجن، تعاطف أهل القرية معه، ودخلت على بعضهم قصة أنّه أحد المشاركين في عملية العزيزة، كان بإمكان جميل أن يستغل هذه المشاعر ويتحوّل إلى إنسان جديد..

كان الناس مهيئين لأن يعترفوا به وأن يعتبروه واحدًا منهم، من أبنائهم الذين دافعوا عن القرية وضحوا من أجلها، وكان من الطبيعي أن يوجه جميل حقده إلى الذين اعتقلوه وأهانوه.. الإسرائيليين!! ماذا لو سعى إلى الفدائيين؟ حاول الاتصال بهم وعرض خدماته عليهم؟، كنت سأساعده لو أثبت حسن نيته وتأكدت من إخلاصه، كنت سأساعده في رد اعتباره لنفسه وسمعته وجعله واحدًا من هذه القرية الطيبة المتسامحة! لكنه لم يفعل ذلك، لم يقدم على هذه الخطوة التي تحتاج إلى إنسان جريء إنسان جديد! أصرّت نفسه الوضيعة، الحاقدة الدنيئة على الغدر والخيانة! واليوم، ها هو يصول ويجول

بسيارته!! بنى بيتًا غرب القرية، قرب المستوطنة، وتزوج بنت القرام وابتعد عن القرية، لم يعد يأمن الناس الذين تعاطفوا معه، وغفروا له ولأمه، رغم ما تسببا فيه من فضائح وإساءات.. اختار أن يكون عدوًا لأهل القرية وصديقًا لأعدائهم، وقتلة أبنائهم، أصبح صديقًا للذين اعتقلوا نصف القرية وهددوا النصف الآخر!!..

منذ أسبوع استدعاني ضابط المخابرات الإسرائيلي قال إنهم لم يسجنونني حتى الآن إكراما لصديقهم، الذي ضمنني عندهم! ثم أمرني بكتابة تعهد بعدم التعرض لجميل أو تهديده، وعندما سألته عن بقية أهل القرية قال إنهم يعرفون كل الذين يفكّرون في إيذاء أصدقائهم! إنهم يكذبون، يخدعون الناس، انتقوا بعض الأشخاص وأمروهم بكتابة التعهد من باب "التخويف"! يريدون إيهام الناس بأنهم يعرفون كل شيء ويراقبون كل شيء، وقد يهتّز أحدهم ويقع، ويقدم لهم المعلومات التي تفيدهم ويضع أيديهم على الخلايا الجديدة..

بعد استشهاد الشباب في أم القرّيص، تمكّن الإسرائيليون من اكتشاف معظم الخلايا العاملة في القرية، ضيّقوا الخناق على الناس، راقبوا التحرّكات والهمسات، ثم انقضوا على البيوت، والبيّارات والكروم، دخلوا كل شبر في القرية وأحوازها، اعتقلوا نصف القرية، وتركوا النصف الآخر مهددًا، ينتظر مداهمة بيوتهم، واختطافهم من وسط أولادهم وأسرهم في أي وقت، ولجأ البعض إلى جميل حب الرمّان! استنجدوا به وطلبوا مساعدته! هذا زمن صعب وجبان! زمن مقلوب!

جميل حب الرمّان الذي كان دائمًا يطلب الحماية والرحمة، ها هو يصبح الصدر الحنون والمنقذ الذي يستنجد به الناس، هذا زمنك يا حبّ الرمّان، والدنيا غدّارة!.. لكن لماذا استدعاني الضابط الإسرائيلي وأمرني بكتابة ذلك التعهد؟! هل حقًا يخشى أن أقدم على قتل جميل حب الرمّان؟! "زوجي" وأبو شادي؟! كيف أفعلها؟! كيف أواجه ابني بعد ذلك؟! أبوه مشبوه، وأمه قاتلة، كيف أشرح له الأمور عندما يكبر؟!..

منذ أسبوعين جاءني شادي، نزع حقيبته المدرسية ثم بكى، كانت دموعه تنهمر طوال الطريق من المدرسة إلى البيت:

- الأولاد بيعيروني.. ابن الجاسوس، ابن الجاسوس! بدّيش أروح على المدرسة، وبدّيش أروح لأبوي كمان..

هدهدته ومسحت دموعه قدّمت له الطعام فرفضه.. وضعت يدي على خدّي ولذت بالصمت والبكاء.. في المساء جاءت سماهر زوجة خليل بصبوص إلى بيتي.. تعرف هذه المرأة أنني لا أحبها، فلماذا تأتي إذن؟ وهل تنقصني الهموم:

- بعرف إنه فكرتك عني إني مرة مش كويسة ويمكن بتظني كمان إني بعمل حاجة بطالة.. اسمعي يا عزيزة أنا صحيح بضحك وبقف مع خليل في الدكان وببيع للشباب وفي بعض الأحيان بمزح معهم لكن والله وحياة أولادي وحياة عقصة أمك القبرصية الطاهرة، عمري ما عملت العيبة ولا الفاحشة.. صحيح أنا غريبة مش من هذه القرية، لكن أنا بحب القرية وأهلها وبحافظ على شرفها وسمعتها..

على العموم مش هذا الغرض من زيارتي، اسمعي يا عزيزة، جميـل حب الرمّان هوه اللي بلغ عن الشباب.. شافك وأنتي بتوصلي السلاح لعند أرض كرّاز في أم القرّيص، وشاف المرحوم حامد كرّاز وهـوّه بينزل السلاح معك.

- يعني كان بيراقبني؟!

- كان بيراقبك وبيراقب الشباب وبلّغ عنهم، جميل كان عارف إنك مع الفدائيين وعارف إنه المرحوم عوض الشّاهد كان معهم وكمـان الأستاذ زاهر جودة عارفه.. أنا زرت الأسـتاذ زاهـر فـي السـجن وعرّفته بكل حاجة، متستغربيش عرّفته بكل حاجـة وهـوّه بيبلغـك السلام ويقول لك السنة عيدي التوجيهي أدرسي يا عزيـزة علشـان تطلعي على الجامعة في مصر.

قبلّتها واحتضنتها بقوّة، ورغم المفاجأة استطعت أن أقول:

- سامحيني يا سماهر سامحيني يا أم مروان أنا ظلمتك.

الأستاذ زاهر، الذي منعوني من زيارته، يبعث برسـالة مـن نـوع غريب! لم أنم تلك الليلة، فكّرت في الدراسة وفي مصر.. كان الذهاب إلى مصر حلمًا يراودني دائمًا، كنت دائمًا أمني نفسي بدخول الجامعة في مصر! مصر التي درس فيها إبراهيم ودرستْ فيها زميلاتي فـي المدرسة الثانوية! لكن جميل حب الرمّان لم يمهلني، اجتـث حلمـي وأنا على بعد خطوات منه.. وها هو الأستاذ زاهر يبعث الحلـم مـن جديد، ها هو ينشلني من دوّامة الحيرة والعجز والخـوف ويضـعني أمام تحدٍ جديد! التعليم الذي حرمني منه الزواج والظلم! وفجأة فكرت

في علاقتي بجميل حب الرمّان، كيف أسافر وأنا مازلت على ذمة هذا الرجل، فأنا زوجته وإن كان ذلك على الورق فقط!!

إذن لابد من الطلاق، لابد من حصولي على حريتي وخلاصي من جميل، لكن لماذا أستبق الأمور، لماذا أفكر في الموضوع الآن، عليَّ الآن التفرغ للدراسة! وبعد النتيجة، بعد النجاح أذهب إلى جميل، أدخل معه في المواجهة المؤجلة وأطلب الطلاق! ووجدتني أتلّمس طريقي إلى صندوق أمي القديم، كنت أحتفظ بذلك الصندوق، تمسكت به رغم إلحاح جميل بأن أرميه أو أكسره وأستخدم أخشابه للتدفئة.. كان الصندوق جزءًا مني، من ذكرياتي.. يحمل رائحة أمي.. احتفظت بمفتاحه معي، في صدري، بجوار قلبي واحتفظت فيه بأوراقي وأشيائي الحميمة، لماذا أسعى اليوم إلى هذا الصندوق؟ هل أريد الصندوق؟ أم أنا أسعي إلى شيء ما بداخله؟ كوشان الأرض أم سلسة فضيّة، أم أنها تلك الرسالة؟! لماذا أتذكرها الآن، لماذا أتذكر الرسالة التي كتبتها لإبراهيم منذ اثنى عشر عامًا؟.

وأخرجت الرسالة من الصندوق، قرأتها من جديد ثم وضعتها في خزانة ملابسي، قريبة من يدي..

في اليوم التالي، ذهبت إلى بيت عمي عوض الشّاهد وجدت عمتي أم إبراهيم قد قرّصت العجين وفردته وعندما جلست بجوارها طلبت مني أن أشعل لها الفرن الحديدي الجديد:

- والله يا عزيزة أنا بخاف من هذه الأفران.. تعودنا على فرن الطابون والحطب أو الفرنّجي! لكن عامر "بطّل" يخبز والناس كلها

بتخبز على الأفران الجديدة اللي ما بتولع إلا والجرة هــذه وراهــا.. إيش بدنا نعمل زينا زي الناس..

جاءت فاطمة وأكملت مع أمها رص الأرغفة في الفرن ولــم تمــزح معي فور دخولها كعادتها.. أثقلهــا فقــدان زوجهــا.. ولاحظــتُ أن تجاعيد الأيام والحزن قد تسللت إلى وجهها وبــدت يــدها نحيلــة لا يكسوها اللحم.. وعندما شاكسها أحد أبنائها وسحب المنــديل عــن رأسها، لاحظت أنها لم تعد تهتم بشعرها.. كانــت فاطمــة مفتونــة بشعرها الطويل، تمشطه وتدهنه بالزيت فيبدو ناعمًا لامعًــا، وفــي الأفراح والمناسبات كانت تتفنن في تسريحه بطرق مختلفة لإغاظــة النساء وسحب التعليقات من ألسنتهن السليطة! لكنها اليــوم قصّــته وتركته مهملاً كأنها لم تضع المشط فيه شهرًا كاملاً!

- فاطمة بتعرفي وين كتب إبراهيم؟

- آه يا حبيبتي بعرف في الصندوق، في الغرفة الوسطانية، عمتك أم إبراهيم كل يومين أو ثلاثة بتنظفها وتحسّس عليها وترجّعها مثــل ما كانت! وكمان بتحط دوا للفيران.. خايفة على الفيران من العلــم! أمي بتعمل هيك وكأن إبراهيم راجع بكره..

- إن شاء الله يرجع بالسلامة، بعدين إنت مالك يا بنت؟ إبــراهيم وصّاني عليهن قبل سفره.

- عمتي، ممكن أشوف كتب إبراهيم؟ أصلي بدي أكمل دراستي..

- هه.. بعد ما شاب ودوه الكتّاب، بعد أحد عشر سنة بدّك ترجعي للتعليم.

-   خلّينا نعمل حاجة تنفعنا يا فاطمة.

لم أطلب مساعدة من أحد إلا وبادر بتلبيتها، سجّلت في نظام "المنازل" وأحضر الشباب الكتب اللازمة.. بل أصبح عندي نسختين وثلاث من كل كتاب.. تطوّع المدرسون لمساعدتي في اللغة العربية والإنجليزي والمنطق، كانوا يتنافسون في عرض خدماتهم! بزعل منّك يا عزيزة إذا احتجت شيئًا ولم تخبريني أو إذا لجأت إلى مدرس آخر..

بعد نجاحي في الثانوية العامة، ذهبت إلى جميل حب الرمّان في بيته الجديد، لاحظت أن هناك من يراقب القادمين! كنت أعرف أن أصدقاء جميل يحمونه ويراقبون كل من يأتي إلى بيته، وتهامس الذين زاروا هذا البيت، وقالوا إن جميل ينصب فوق السطح رشاشًا من عيار ٥٠٠!! استقبلتني بنت القرّام باحترام.. كانت حمدية القرّام في الثامنة والعشرين من عمرها عندما تزوّجها جميل، وفي عرف أهل القرية بنت فاتها قطار الزواج! توفي والدها منذ خمس سنوات فتكفّل بها عامر الفرنّجي، بعد أن تزوج أمها! بعد ظهور الأفران الحديدية، التي تعمل بالغاز، انقطع الزبائن عن فرن الفرنّجي أقفل عامر فرنه، حوّله إلى غرفتين وتزوج أم حمدية.

كانت أم حمدية (زوجة القرّام) امرأة قوية البنيان تحمل كتل العجين الثقيلة مثل زوجها وتضعها على البلاطة ثم تقرّص العجين وتدكّه بيدها أمام عامر، فتبهره بقوتها! وكان عامر في حاجة إلى امرأة

مثلها، بعد أن عاد إلى أرضه "المبوّرة" وغرسها بأشجار الحمضيات والفواكه ثم زرع بينها شتلات الفلفل والباذنجان والخيار والبندورة..

كانت معه إيدهن على إيده، دائمًا ثلاث نساء زوجته الأولى، وأم حمدية، وابنتها، وعندما طلب جميل حب الرّمان يد حمدية وافق عامر الفرنجي لكنه طلب مهرًا غريبًا.

- بعطيك حمدية جاهزة مجهزّة وبتجيب لي ابني من الغربة، بتعمل له لم شمل وهذا مهر حمدية..

أعدّت بنت القرام الشاي ثم أيقظت جميل من قيلولته وعندما سلّم سأل عن شادي..

- لماذا لم تحضريه معك؟
- عليه واجب في المدرسة بيعطوهم واجبات ثقيلة.
- يعني لو تعطّل ساعة بتخرب الدنيا.. سمعت أنّك نجحتي في التوجيهي، مبروك! وبعدين؟!
- بعدين الجامعة.
- أي جامعة؟
- في مصر.. بدّي أدرس في مصر وبدّي أحكي معك في موضوع..

سكتُ فجأة فعرف أنني لا أريد التحدث بحضور حمدية:

- حمدية أتركينا لوحدنا..

وأضفت بعد أن خرجت:

- جميل أنا لم أعد أصلح لك، أرجو أن تطلقني.. خليني أصير حرة ومسئولة عن نفسي..

- لماذا لا تحضري شادي وتعيشان معي هنا؟!

- هذا كلام فات أوانه.. أنت الآن رجل مهم ولك مشاغلك! بعدين أنا وشادي مسافرين.. بدّي آخذه معي على مصر..

- يعني إنت قررت لوحدك؟!

- لا.. أنا جايه عشان أقول لك وأطلب حل الأمور بهدوء.. بسافر وبتتريح مني أنت وأصحابك!!

- معنديش مانع.. بس على شرط!

- شرط أيش؟!

- الكرم! تسجّلي الكرم في الطابو باسمي!!

كنت أعرف أن الأمور لن تتم بسهولة.. كنت أتوقع أن يطلب جميل تعويضًا، مقابلاً لحريتي.. لكن، لم يخطر ببالي أن يكون الكرم هو الثمن! توقعت أن يطلب نقودًا، مصاغًا، "تحويشة عمري" ما ورثته عن أمي من أساور وكردان – مثلاً.. وكنت أنوي أن أقدمها له بعد أن يحررني.. لكن، الكرم!.. لن أسجله باسمه، لن أفرط فيه.. لن أتنازل عنه لجميل حتى لو فقدت فرصة عمري!!

وقذفت عرضًا طرأ لي فجأة:

- بسجل الكرم باسم شادي.. إنّه ابننا وسيرثك بعد عمر طويل!! بسجله في الطابو باسم شادي مقابل أن تطلقني وتسلمني تصريح الموافقة على السفر..

لم يكن أمام جميل سوى الموافقة!! أمره أصدقاؤه بالموافقة على الطلاق، والتخلص مني.. استدعاني ضابط المخابرات وأخبرني

بموافقة جميل، فذهبنا إلى المحكمة وأنهينا الإجراءات! وبعد يــومين حصلت على وثيقة حريتي وخلاصي.. كانوا يريدون التخلص مني.. أعدوا لي تصريح السفر وعندما سلّمني الضابط إياه قال:

- أرجو أن ترتاحي في مصر.. أنصحك أن تنتبهــي إلــى دراســتك ومستقبلك وتنسي الماضي.. ولا تنسي أن عيوننا في كل مكان..

ورغم لعبته الجديدة وتهديده المبطن، شعرت أني في حاجة لأن أقول شيئًا وأن أؤكد أمرًا هامًا:

- أما أنا، فأرجو ألا تمنعوني من العودة إلى وطني في كل عام.. أنا لا أستطيع الابتعاد عن وطني فترة طويلة.. سأكون متلهفــة للعــودة بعد انتهاء الامتحانات في كل صيف..

- هذا يتوقف على سلوكك وتصرفاتك..

في ليلة السفر، أكتظّ بيتي بالمودعين.. كان الجميع يوصي ويبعــث بالسلامات والتحيات ويضع الهدايا والصور.. وفاطمة تضعها بدورها في الحقيبة الكبيرة، وتضع الرسائل في حقيبة يــدي التــي انتفخــت وأوشكت على الاستغاثة وطلب النجدة.. قبل أن تنصرف، فــي آخــر الليل، غمزتني سماهر، ثم أخرجت حذاءً نسائيًا من كيس في يدها:

- هذه هديتي.. لا تضعيها في الحقيبة!! ارتــديها أثنــاء الســفر.. انظري إنها تليق بطالبات الجامعة.. كندرة محترمة..

- كندرة؟! الناس بتجيب الكنادر من مصر يا سماهر!! طيــب كــان جبتي شوية شاي من الدكان ولا قلن زيت زيتون، ولا شويّة تفــاح تنفعها في الطريق!!

- معلش يا عمتي أم إبراهيم.. هذه كندرة تفصيل، مش مثل كنـــادر مصر.. هذا الصنف بيتحمل.. (وخبطت على الحذاء بيـــدها) هـــه.. شوفي بترن رن.. سامعة؟!

ضحكنا.. وضحكت أم إبراهيم.. عندها، قالت فاطمة:

ــ صحيح يمّه.. هذه الكندرة للسفر مخصوص!!..

(١٠)

خالد الرّبيع

خبط أبو نزّال بيده اليسرى على الطاولة ورشف ما تبقى من الكأس ثم قال:

ــ أشقاؤنا "القوميون" يريدوننا ثورة للعرض فقط.. ثورة في زجاجة (مثل هذه) وغطاؤها يكون في يدهم.. يحبسوننا في الزجاجة وقتما يشاءون، ويفتحونها ويخرجوننا منها، يعرضوننا على جماهيرهم للفرجة ويمتصون بنا سخطهم ونقمتهم وقتما يشاءون!! وإذا رفضنا هذا الدور، غضبوا وتحرّكوا لتهشيم الزجاجة بما فيها.. عجيب!!

كان لسانه صحيحًا، ولم تكن يده اليسرى مرتعشة وخرجت ألفاظه قوية واضحة.. والغريب! أن صوته كان هادئًا ويتكلّم بالفصحى! لم يكن في حديثه وصوته ويده أثر الخمر، لكنه لم يستطع إخفاء حالة الإحباط التي لازمته منذ سنوات.. منذ أن أصيب أبو نزال في "تل الزعتر" وهو يعاني من صدمة.. لقد أصبح مبتور الذراع ولم يعد قادرًا على القيام بأشياء كثيرة! لم يعد باستطاعته أن "يمازح" الشباب ويمسك أقواهم، يلوي ذراعه ويعصرها، فيصرخ الشاب ويتلوى

مستغيثًا.. ولم يعد أبو نزال قادرًا على التحكم في "الآر. بي. جي" ولا العمل على الهاون بالكفاءة التي عُرف بها.. وما يعذبه أكثر، أنّه لم يعد يخيف أحدًا، بل لم يعد أحد يخافه!! حتى صوته الهادر المجلجل، أصبح هادئًا حزينًا! ها هو أبو نزال يتحوّل إلى رجل مستكين، مسالم، يدفن همومه في كؤوس الخمر والسجائر والتنهيدات!!..

وأضاف بعد أن طوّح بالكأس من النافذة:

ـ عارف يا رفيق خالد (صار يناديني بكلمة رفيق بعد اقتحام تل الزعتر) عيبك الوحيد أنك لا تشرب.. كنت أظن مثلك إن الشراب عيب، رذيلة.. لكني اكتشفت أنه حسنة! ألم يقولوا أن النسيان أعظم ما منحه الله للإنسان؟! عندما تتشابك الأمور ويصعب عليك فهمها، فمن الأفضل أن تحاول نسيانها! وأنا أريد أن أنسى.. والشرب يمنحني هذه الفرصة.. لكنني اليوم لم أشرب سوي ذلك الكأس، معك لا أريد أن أنسى شيئًا..

أستفز ذاكرتي بحديثه عن "ثورة الزجاجة والفرجة" فوجدت نفسي أعود إلى مصر في منتصف الستينات.. حككت لحيتي القصيرة وقلت:

ـ حديثك يا أبو نزّال ذكرني بظاهرة كانت منتشرة في مصر عندما ذهبنا للدراسة هناك.. ظاهرة "القرّادين المتجوّلين".. كان أولئك القرّادون يطوفون الأحياء الشعبية والساحات والميادين العامة ويلتقطون رزقهم بواسطة قرد يصطحبونه معهم.. كان اسم القرد دائمًا "ميمون".. يمسك القرّاد بالدف، ينقر عليه ويلاعب ميمونه، ويطلب منه أن يؤدي بعض الحركات والرقصات.. نوم العازب رقصة

المجنونة.. عجين الفلاحة.. سلام للملك.. نوم العروســة.. وتقليــد بعض الشخصيات.. موشي ديان.. الملك فاروق.. هتلر.. وكان القرّاد يختار أحيانًا بعض الأشخاص ويطلب من "ميمونه" أن يُسلم عليهم.. "سلّم على البيه يا ميمون".. فيعلق القرد في الرجل، الــذي يحــاول التخلص منه فيرمي في دف القراد ما تيسر من النقــود المعدنيــة.. واكتشفنا بعد ذلك، أن صاحب القرد يتفق معه على سرقة النقود من جيوب بعض المشاهدين المتحلقين المنبهرين.. هكذا هم أشقاؤنا يــا "أبو نزّال" يريدوننا ميمونًا! قردًا يلاعبونه ويُســخّرونه لأهــدافهم.. والفرق الوحيــد أن أخوتنــا يريــدوننا أن نســرق مــن الجمــاهير (المتفرّجة) مشاعرها وعواطفها بدلاً من النقود!!

ضحك أبو نزال ثم قهقه بصوت عال حتى نسي يده المبتورة، فضرب على الجزء المتبقي منها، ثم أشعل سيجارة ولم يصب خمرًا جديدًا..

في عام ١٩٧٧، كانت توقعات القيادة باجتياح إســرائيلي للجنــوب، صدرت الأوامر بتفكيك ورشة التسليح ونقلها إلى بيــروت.. وتمكنّــا من إنجاز المهمة قبل الاجتياح بشهرين.. ولم نتــرك فــي الجنــوب سوى عشرة صواريخ مطوّرة.. وعندما جاء الاجتياح، بعد عام مــن توقعات القيادة، استخدمناها.. أثبتت الصواريخ فاعليتهــا وكفاءتهــا فمنحني القائد العام للثورة وسامًا رفيعًا.. قبلت الوسام المذهب وقبلت كوثر وأهديته لها، فاحتفظت به بجوار صــورتنا المحببــة!! وظلــت تمسح إطاره وتعطره كل يوم.. كانت الورشة الجديدة مجاورة للموقع الذي يعمل فيه أبو نزّال وهكذا أصبح لقاؤنا يوميًا.. كان يقضي معظم

ساعات النهار معنا وكنت أذهب إليه في موقعه عندما يتأخر.. كنت أحاول التخفيف عنه وتشجيعه على عدم الاستسلام للإحباط والحزن.. وأحيانًا كنت أستمع إليه وهو يروي قصة "تل الزعتر" التي تؤرقه "وتطيّر" النوم من عينيه:

ــ ما يحيرني يا رفيق هو موقف الذين منعوا عنا الإمدادات والحركة، الذين حاصرونا وسمحوا للطائفيين الانعزاليين أن يفتكوا بنا.. الانعزاليون دمّروا المخيم وقتلوا المئات، وأشقاؤنا "القوميون" راقبوا كل هذا بهدوء..

ــ هناك قضية أعتقد أنها لم تخطر ببالك يا "أبو نزال".. ما أعتقده أن الأشقاء الذين تتحدث عنهم بدأوا يدركون أن دورنا في لبنان لا يقتصر على تحرير الأرض والقتال ضد إسرائيل.. أدركوا أن دورنا بدأ يفعل فعله نحو أنصاف الفئات والأحزاب المظلومة ويدفعها إلى المطالبة بتحقيق الديمقراطية والحقوق المتوازنة.. وما أعتقده أيضًا أنهم لا يريدون ذلك، رغم شعاراتهم العلنية وخطاباتهم الحافلة بهذه الديمقراطية ونصرة الفئات المظلومة!! كما أن هناك أمرًا آخر أعتقد لم يخطر ببالك، هناك عداء تاريخي، "صراع" بين بعض الطوائف في هذه المنطقة ولا يمكن محوه بالشعارات والقبلات والضحك على الذقون!!

ــ ها أنت تغرق في التحليل.. ها أنت تحاول التخفيف عني فتُجّر معي إلى دوامة الحيرة والتساؤلات والتحليلات.. اتركنا من هذه

القصة، حدثني عن أخبارك! ما هي أخبار الأستاذ إبـــراهيم الشّـــاهد، عمله، أسرته؟!

ــ بخير، رزق مولودًا ذكرًا وسمّاه "ناصر" أخيرًا أصبح إبراهيم "أبـــو ناصر" دائمًا يسأل عن أخبارك.. إنه يعمل في الصحافة هناك.. وهـــو يحاول السفر إلى مصر، اشتاق إلى مصر مثلي! لكن أين أنـــا مـــن مصر؟! كوثر ستسافر إلى مصر ومعها ستأخذ ثـــائرًا وهـــدى وأنـــا سأظل وحيدًا..

ــ بمناسبة الحديث عن مصر، هل تعرف من أصبح من "شلّة" أبـــو شريم؟!

ــ من؟

ــ صاحبك! الضابط الذي حضر من مصر..

ــ عصام؟

ــ نعم عصام، الذي قابلته، في بيتك، في العام الماضـــي.. عصـــام أصبح مقربًا من "أبو الشريم"؟!

صدمني أبو نزّال بهذه المعلومة، هزّني بقوة، فسألته بغضب:

ــ لعلك مخطئ! منذ متى هذه العلاقة؟ ومن أخبرك بها؟

ــ لست مخطئًا.. والعلاقة بدأت تظهر منـــذ عـــام.. أخبرنـــي أحـــد الأصدقاء أن ضابطًا اسمه عصام الفايز (أليس هذا اســـمه؟) أصـــبح مقرّبًا من "أبو الشريم" ويسير على خطاه في كـــل شـــيء! أخـــذني الصديق، ورأيته بنفسي يدخل إلى "فيلا" أبو الشريم، ثم يخرجان معًا وقد تشابكت أيديهما!!

جاء عصام الفايز مع القوات التي حضرت من مصر بعد سفر إبراهيم الشّاهد بثلاثة أشهر.. احتفيت به كصديق، وزارني عدة مــرّات فــي بيتي.. استقبلته كوثر بحفاوة، كانت تعرفه منذ أيام القاهرة، وكانــت تُشعره دائمًا كأنه في بيته فتشجّع وكرر الزيارة.. وظلّــت علاقتنــا محصورة في الوفاء للصداقة القديمة والمخيّم الذي نشأنا فيــه فــي ظروف متشابهة.. وفي الغربة، ننسى عيوب الذين يذكروننا بالأشياء الحميمة.. نغفر لهم وننسى أخطاءهم ونأنس معهم بما يعيدنا للأماكن والناس والذكريات.. لم أدخل مع عصام في حوارات وأحاديث تسبب الاختلاف، فأخسره.. لكنني أتذكر الآن شيئا هامًا.. قال أبو نــزال أن العلاقة بدأت منذ عام.. منذ عام! منذ تلك الليلة الوحيــدة التــي رآه فيها أبو نزال.. طلب مني عصام - بعد أن غادر أبو نزال - اطلاعه على مقالات وقصص ابراهيم الشّاهد.. "كل ما كتبه ابراهيم".. دُهشت لطلبه المفاجئ الغريب، فعصام لا يهتم بمثل هذه الأشياء ويعتبرهــا "ثرثرة وكلامًا منمقًا لا جدوى منه".. فلماذا يطلب هذه الثرثــرة الآن ويعلن أنه سيقرأها حرفًا حرفًا؟! لماذا يهتم عصام بما كتبه إبــراهيم الّشاهد؟!.. "لعله تغيّر وأصبحت لديــه رغبــة فــي تنميــة ثقافتــه وأفكاره"؟! أطلعته على المقالات والقصص، ثم أهديته نسخًا منها في مظروف كبير.. هل قرأ عصام ما حواه المغلّف؟! هــل فهــم دلالات ورموز الشّاهد؟! وهل أعجبه قلمه اللاذع، الــذي لا يختلــف عــن لسانه؟! إذا كان قد فهم ما بين السطور وأعجب بما كتبه "صــديقنا"

فلماذا يرتمي بين أحضان "أبو الشريم"؟! هل عاد عصام إلى عادته القديمة؟ هل عاد إلى "سقطاته" التي كان إبراهيم يغفرها له دائمًا؟!..
كان إبراهيم الشّاهد يقول:
ـ لا أعتقد أن عصام سيتغيّر إلى الأفضل.. المرجّح أن يتغيّر إلى الأسوأ عصام يحتفظ بمخزون كبير من الحقد والشعور بالنقص، وهما عاملان يقودانه إلى بحث دائم – وإن كان خفيًا – عن الفرصة المواتية..
هل جاءت الفرصة المواتية لعصام؟! هل تقرّب من "أبو الشريم" نكاية في إبراهيم البعيد عن لبنان؟ أم هي رغبة في انتهاز الفرصة المواتية؟ أم هما عصفوران بحجر واحد؟!
وأنقذني أبو نزّال من شرودي:
ـ هل تشتاق إلى مصر حقًا؟!
ـ طبعا!! خاصة أن إبراهيم سيكون هناك في الصيف القادم.. تسع سنوات منذ غادرناها معًا.. دبّر إبراهيم أمره ونظّف ملفّه، وسيحصل على تأشيرة دخول.. ساعده نسيبي إسماعيل العرابي – كان صديقًا لنا قبل الزواج من كوثر - لكنه فشل في موضوعي، ولم يتمكّن من تنظيف ملفي.. أنا حزين يا "أبو نزّال".. محروم من الوطن، ومحروم من مصر التي أحبّها مثل وطني!!
ـ متى تنوي الذهاب إلى مصر؟!
ـ قلت لك أنا ممنوع، لا أستطيع السفر إليها!!
ـ وأنا أعيد عليك السؤال، متى تريد السفر إلى مصر؟!

ــ ماذا تعني؟ هل تستطيع مساعدتي في الحصول على تأشيرة؟ هــل لك أصدقاء أقوياء في..

ــ لن تحتاج إلى تأشيرة، ولن تسافر بوثيقة اللاجئين المزعجة، بــل بجواز سفر محترم..

تفرّس في وجهي ونظر إلى لحيتي، ثم أضاف:

ــ لحيتك القصيرة مناسبة.. ملامحك السمراء مناسبة.. فقط عليك أن تحلق حلقة برازيلية.. مثل بيليه، هه.. إذن ستسافر بجــواز ســفر برازيلي.. نعم برازيلي أو أرجنتيني إذا لم يعجبك البرازيلي..

ــ جواز مزوّر؟! لا.. أخشــى أن "تطــب" فــي ورطــة عويصــة.. المصريون لا تنطلي عليهم هذه الأمور.. أنا أعرفهم..

ــ لن يكون الجواز مــزوّرًا.. وإذا تعرّضــوا لــك تطلــب الســفير البرازيلي.. أنت من مواطنيه، ومن واجبه التدخل والدفاع عنك.. هذه ليست المرة الأولى يا رفيق! ثلاثة من أصدقائنا فعلوا نفس الشــيء. اطمئن، الجواز سيصدر من البرازيل وستكون عليه تأشيرات لــثلاث أو أربع دول وعليه أختام وتواريخ الوصول إليها والخروج منهــا.. كل الأمور ستكون سليمة مائة في المائة، اطمئن..

في مطار القاهرة، تفحّص الضابط جواز سفري ثم سألني عن أخبــار الكورة البرازيلية فأجبته بالإنجليزية أنها في حالة جيدة.. هزّ رأسه، وعندما سلّمني الجواز تمنى أن يصبح فريق النــادي الأهلــي فــي مستوى الفريق البرازيلي.. عندها فتح ضابط آخر حقيبتي الصغيرة،

مرّر يده خلالها بسرعة فوجد فيها علبة قهوة كنت قد اشتريتها من الحانوت المجاور لشقتي في الفكهاني.. تنشّق العلبة ثم قال:

ــ الله.. ده بن برازيلي معتبر..

أهديتها له فورًا.. وقدّمت لزميله الأهلاوي ثلاث علب من السجائر المهرّبة، فشكرني بامتنان.. وبعد دقائق كنت خارج مبنى المطار، أجلس في سيارة الأجرة وأطلب من السائق التوجه إلى فندق وسط المدينة, وأنا لا أكاد أصدق أنني أصبحت حرًّا في "أم الدنيا"..

في اليوم الثالث، سددت فاتورة باهظة وتوجهت إلى الشرقية التي كانت كوثر قد سبقتني مع الأولاد إليها.. ومن نافذة الحافلة، ملأت عيني بالخضرة التي تناغمت مع المياه الوفيرة وشكّلت لوحة جميلة بألوانها الخضراء والبيضاء والداكنة.. تنشقت رائحة "الغيطان" والدخان.. وراقبت الفلاحين والجواميس المحدّبة المطيعة.. وأغلق المزلقان فتوقفت الحافلة لتفسح الطريق للقطار الذي جاء هادرًا زاعقًا، ثم مرّ قريبًا من النافذة بجواري.. انتفض قلبي، وتذكّرتُ أبياتًا لمعين بسيسو كان إبراهيم الشّاهد يرددها عندما نركب القطار أو نسمع صفيره:

أنا في المنفى أغني للقطار

وأغني للمحطة

أي هزّة

حينما تومض في عيني غزّة..

ثم سارت الحافلة وعادت اللوحة المتناغمة.. وقفز قلبي مرة أخرى عندما رأيت أغصان الصفصاف الحانية على المياه.. كان الصفصاف ينساب هابطًا حتى يلامس الماء – كما عرفته.. أخذني الصفصاف إلى كوثر التي مر أسبوعان ثقيلان دون رؤيتها.. أسبوعان من الشوق دفعاها إلى انتظاري في محطة الحافلات ساعة كاملة.. كانت متلهفة مشتاقة كعادتها، وكنت أكثر منها شوقًا وولهًا.. قبلتني وضمتني إلى صدرها فنسيت الدنيا ونسيت شقيقها إسماعيل العرابي، الذي أحضر سيارته وجاء لاستقبالي:

ـ يا مرحبا يا مرحبا بخالد.. أهلاً أهلاً شرفت الشرقية..

كان إسماعيل يرتدي عباءة، لكنها لم تخف جسمه الممتلئ وكرشه الذي نما بسرعة.. ولفتت نظري تلك "الزبيبة" التي ظهرت على جبهته.. "متى ظهرت هذه الزبيبة؟" أعرف إسماعيل قرويًا خجولاً محافظًا! لكنه لم يكن مواظبًا على السجود والصلاة في أوقاتها! كان يصلي يوم الجمعة فقط – مثل إبراهيم الشّاهد -! متى ظهرت هذه الزبيبة إذن؟! أذكر جدي الذي عاش قرنا كاملاً.. أذكره وقد ظهرت في جبهته علامة صغيرة من أثر السجود.. شهد عجائز أهل قريتنا كلهم أن جدي كان مصليًا منذ طفولته.. وأذكره ساجدًا مطيلاً، لكن جبهته العريضة لم "تتزين" بمثل هذه الزبيبة! متى رزق إسماعيل العرابي بهذه الزبيبة المحترمة؟!

ـ من حسن حظّك، بكره "زفة سيدي العرابي"

قال إسماعيل وهو يربت على ركبتي:

ـ سيدي العرابي؟!

ونظرت إلى كوثر.. ابتسمت وظلت ممسكة بيدي ثم قالت:

ـ زفّة سيدي العرابي وبعد أسبوع يحضر إبراهيم وسميرة وأولادهم، وبعدهم بيومين فرح أختي منى.. واحشني يـا خالـد واحشـني يـا حبيبي.. نورت الشرقية.. نورت مصر كلها..

في ساحة القرية، احتشد الأهالي، يتقدمهم حاملو الطبول والـدفوف والصاجات النحاسية.. امتطى إسماعيل العرابي فرسًا بيضاء وارتدى عباءة بيضاء.. وأحاط به عن يمينه وعن يساره رجـلان يرتـديان عباءتين ويلفّان على رأسيهما عمامتين.. وخلفهمـا سـار شـيوخ الطرق والدراويش والمجاذيب.. وفي آخر الصفوف سارت النسـوة، ومن حين لآخر كن يخطفن سهو الرجال ويمسحن وجـوه الأطفـال ويباركنهم برايات المتصوفين وشيوخ الطرق.. وتذكرت "زفّة الشيخ محمود" في قرية إبراهيم الشّاهد ومشوارها إلى "سيدي المنطـار".. هنا أيضًا، جلب شيوخ الطرق والمريدون، من كافة القرى والنجوع، العطايا والهدايا، حملوها. وأوصلوها إلى "مقام" سـيدي العرابـي.. وهنا أيضًا، كانت الزفّة مناسبة هامة في القرية، تهيأت واستعدت لها أكثر من أيام العيد!!

كان إسماعيل يمتطي فرسه ويوزّع "البركات" ويمسح علـى رؤوس النساء والأطفال.. وأنا أتساءل: هل هذا هو إسماعيل الذي عرفتـه؟! إسماعيل المثقّف العاقل يتحوّل إلى "شيخ طريقة"!! ومن هو سـيدي العرابي هذا؟! هل هو المكافح والثائر على الظلم والاسـتبداد أحمـد

عرابي باشا؟ أم أن هذا الضريح يضم رفــات مجــذوب أو درويــش آخر؟!..

انتشلتني كوثر من تساؤلاتي وحيرتي، جذبتني بعيدًا عن الزفة:

ــ تعال نقعد تحت شجرة الصفصاف زي أيام زمان.. تعال.

وسألتها عندما وصلنا إلى حافــة الترعــة وجلســنا تحــت ظــلال الصفصاف:

ــ ما رأيك في الزفة؟

ــ أعرف ما تعنيه! أنا نفسي مستغربة، لم يكن والدي يفعل هــذا.. هناك أشياء غريبة تحدث في هذا البلد.. لكن، ما علينا! خلينا نستمتع بالأشياء الجميلة.. الطبيعة والجو وبساطة النــاس.. حبيبــي إنــسَ الخزعبلات دي وكل واحد حر في حاله..

في المساء، حضر الأستاذ نجيب العرابي ولاحظت أنه يرتدي عبــاءة أيضًا.. هذا زمن العباءات!! لم يعد نجيب العرابي مهتمًا بشيء أكثر من الصفقات والدولارات.. أخبرتني كــوثر أن خالهــا أصــبح مــن البارزين في الحزب الحاكم، تخلى عن "ناصريته" فأصبح من أصحاب النفوذ.. والملايين:

ــ ده زمن الشطارة والفهلوة، كل واحد لازم يشوف نفسه ومصلحته. إحنا تعبنا كتير ولازم نشوف نفسنا، نبص لمستقبلنا.. كفاية بقــى.. لازم نستعمل عقلنا ونعيش.. كلهم كانوا عايشين ومبسوطين واحنــا دايخين في الحروب والأزمات.. خلاص خلينا نفوق بقى..

وسألته عن الأستاذ محسن:

ــ أهو متلقّح في السجن.. راجل غاوي مشاكل نازل كتابة وكــلام.. الناس دي مش عاجبها حاجة.. لا عبد الناصر عاجب ولا الســادات عاجب.. عايزينا نعيش في دوّامة على طول.. قالوا أحزاب، عملنــا لهم أحزاب وجرايد ومعارضة، وبرضه مش عاجبهم.. خلاص خليهم في السجون!!

قبل يومين من زفاف منى، شقيقة كوثر، توقفت في حوش العرابيــة سيّارة أجرة.. ضرب من فيها على البوق فزمجرت السيارة زاعقة.. أطلّت كوثر من الشرفة ثم صاحت بفرح طفولي:

ــ وصلوا.. وصلوا يا خالد.. إبراهيم وسميرة وصلوا..

وهبطت درجات السلم الخمس بســرعة.. ارتميــت علــى إبــراهيم واحتضنته بقوّة.. سلّمت على سميرة وقبلت الطفلين، لكنني تسمّرت فجأة!! لقد هبطت في تلك اللحظة من السيارة!! كانت عزيزة الخيّــال بشحمها ولحمها! لكنها بدت رشيقة ممشوقة القوام.. وكانت ترتــدي الجينز وقد جدّلت شعرها وتركته ضفيرة طويلة على ظهرهــا.. يــا إلهي! عزيزة الخيّال مع إبراهيم وسميرة!! كيف حدث هذا؟ أذكــر أن إبراهيم أخبرني في واحدة من رسائله أن عزيزة الخيّال حضرت إلى مصر للدراسة.. لكن، أن يحضرها معه إلى هنا إلى الشــرقية، مــع سميرة، كأنهم عائلة واحدة! لم يخطر هذا ببالي، ولاحظت أنــه لــم يخطر ببال كوثر أيضًا:

ــ كوثر أريد أن أعرّفك على.. على عزيزة الخيّــال، وهــذا إبنهــا شادي!

ــ مين؟! عزيزة الخيّال.؟! هي نفسها؟!
ــ نعم، هي عزيزة الخيّال.. لا تستغربي.. هــذه صــديقتي عزيــزة الخيّال التي..
ونظرت سميرة إلى شادي فإذا هو منصت لما يجري، يراقب الموقف ويسجّل انفعالات اللقاء الغريب.. غيّرت كوثر الموضوع وطلبت مــن بعض الفلاحين حمل الحقائب:
ــ تفضلوا.. تفضلوا.. واحشاني يا سميرة.. الله مــين ده.. ناصــر؟ وريني.. دمّه زي العسل.. طالع لمين؟ طالع لمين؟ حبيبي (وقبلتــه) فيه شبه من إبراهيم.. والعيون واخدها منك يا سميرة..
صعدت الدرجات متأبطًا ذراع إبراهيم وتبعتنا سميرة وعزيزة ومعهما كوثر التي أصرّت على حمل ناصر حتى نهاية الدرج..
انفردت بإبراهيم في اليوم التالي.. حدثتــه عــن لبنــان وظروفهــا المتقلّبة.. وحدّثني عن بذخ الشعارات والولــه بالنظريــات وتضــخم الذات؟! ثم حدّثني عن همومه في العمل والكتابة.. وسألني فجأة:
ــ ما هي أخبار صديقنا عصام الفايز؟!
وعندما ترددت أضاف:
ــ هل صحيح أنه أصبح صديقًا للزعيم "أبو الشريم"؟
ــ من أخبرك بهذا؟ لم أتوقع أن تصلك هذه الأخبار!
ــ نسيت يا صديقي أن الوفود تأتينا من كل مكــان.. نحــن "قبلــة المناضلين" من جميع ألوان الطيف.. وتعــرف الصــحفي وعشــقه للأخبار وروائح الصفقات!! وعندنا تفوح الروائح الكريهة بســرعة!!

أنت لم تخبرني عن عصام في خطاباتك، لكنني عرفت عنه الكثيـــر.. هل تعلم أنه هرّب نقودًا إلى خارج لبنان؟!

ـ من أين جاءته النقود؟

ـ ومن أين جاءت للمناضل "أبو الشريم"؟!

ـ لكن علاقتهما ليست طويلة، إنها فترة قصيرة..

ـ ومئة ألف دولار ليست مبلغًا كبيرًا.. إنها خميرة فقط!

وقلت، بعد أن لاحظت أنّه يحرك يده اليســرى ويســتخدم أصــابعه أحيانًا:

ـ ألاحظ تحسنًا في يدك!

ـ أداوم على تدليك طبيعي وهناك موعد مع جرّاح متخصــص فـــي القاهرة في بداية سبتمبر.. إنّه شقيق أحد أصدقائي..

كان زفاف منى، شقيقة كوثر، قبل أسبوع من سفر عزيزة الخيّال إلى غزة.. في الساحة المجاورة لحوش العرابية أعدّت حفلة الزفـــاف.. جلس العروسان على أريكة وخلفهما وضعت الورود وعُلقت الأوراق الملونة والفوانيس.. جلست وبجواري إبــراهيم الشّــاهد وســميرة وعزيزة الخيّال.. كان الجميع سعداء بنا ودأبت "حماتي" أم كوثر على تحيتنا في روحاتها وغدواتها:

ـ منّورين.. والله منوّرين

غابت كوثر عن ناظري فخمّنت أنها تقوم بمهــام الأخــت الوحيــدة للعروس..

رقص الفلاحون وتبادلوا الضرب "بالنبابيت" ثم رقصت الخيول على المزمار البلدي.. تغنى المطرب الشعبي بمواويله وأغانيه العذبة، وأمامه رقصت اثنتان من بنات القرية.. كان إبراهيم يهز رأسه ويتمايل طربًا مع الأنغام والمواويل، كان يغني أحيانًا ويردد بعض المقاطع باستمتاع..

وظهرت كوثر من جديد، كانت ترتدي الثوب الفلسطيني المطرز!! لماذا ترتدين هذا الثوب الآن!! أحبّك يا كوثر.. أحبك في ثيابك العصرية الأنيقة وأحبك في ثيابك الشرقاوية الفضفاضة الرائعة وأحبك في هذا الثوب الآتي من أعماق الوطن، الثوب الذي يحمل رائحة الأرض والحنّاء والريحان!! فجأة! ظهر رجل يرتدي جلبابًا وسترة ويضع على رأسه كوفية بيضاء وعقالاً.. كان الرجل يحمل في يده نايًا حديديًا.. قالت كوثر في نبرة استعراضية:

- والآن أيها السادة يسعدنا أن نقدم لكم وصلة شامية، وصلة الدبكة الفلسطينية.. وندعو باسمكم أعضاء الفرقة لتقدم وصلتها..

نظرنا إلى بعضنا! كانت مفاجأة للجميع، لم تمنحنا كوثر فرصة للتردد.. تقدمت نحونا، وسحبتنا من أيدينا واحدًا واحدًا.. وعندما وصلنا قريبًا من العروسين شبكت يدها في يدي فشبك الآخرون أيديهم مستجيبين.. كان إبراهيم يصطف في أول الحلقة: "لويّح".. وبجانبه اصطفت سميرة شابكة يدها في يد عزيزة الخيّال ثم أنا وكوثر.. وغنى إبراهيم الشّاهد مع الشبابة الشجيّة.

كنّا خمسة.. أربعة فلسطينيين نرتدي الملابس العصرية، ومصرية واحدة ترتدي الثوب الفلسطيني المطرّز.. ودبكنا.. أخرج البدوي من سترته مزمارًا قصيرًا بقصبتين.. دار حول نفسه مثل النحلة ثم انتفخت أوداجه.. استعاد إبراهيم رشاقته وقفز خفيفًا كالغزال وخرجت معه سميرة ورقصا معًا.. وخرجت عزيزة الخيّال ورقصت معه.. وخرجت معي كوثر ودبكنا متقابلين.. دبكنا حتى فاضت مشاعر الناس وانهمرت دموعنا.. وعندما انتهت الدبكة سألت كوثر:

- من أين أحضرت هذا البدوي الذي عزف على الشبابة والأرغول؟!

غمزت بعينها وردّت بدلال:

- هذا سر لن أخبرك به إلا في لبنان..

ثم طبعت قبله على خدي، واندست وسط النسوة تمارس واجبات الأخت الوحيدة للعروس..

(١١)

إبراهيم الشّاهد

انتشي الطاووس بدقات صديقه الطبل ففرد ريشه الملــون الجميــل وتبختر أمام الطيور.. تفنن الطبل وأصدر إيقاعات متنوعــة أبهــرت المشاهدين المعجبين.. كان الجو صحوًا مشمسًا. استعرض الطاووس جيئة وذهابًا وهزّ رأسه فبدا عظيمًا ضخمًا وظن لبرهــة أنــه ســيد المكان.. حاولت بعض الطيور تقليده، لكن ريشها لم يســعفها، كمــا أنها كانت تنتفض وتعود إلى مكانها كلما اقترب الطبل وهدرت دقاته المخيفة.. هكذا سيطر الطبل والطاووس على المشهد، وظلّت الطيور مبهورة مأخوذة بالاستعراض المهيب!!

فكر بعض الطيور في التخلص من هــذه "الســيادة" الظالمــة، لكــن الأصوات الضعيفة الخائفة كانت تحبطها وتثنيها عن أي فعل يوقــف الطاووس عن غيّه ويضع حدًا لزهوه المصطنع.. سادت حالــة مــن الإحباط، لكن طيورًا ثلاثة صغيرة ظلّت تبتسم فــي صــمت!! كانــت الطيور الصغيرة تبتسم وتنظر إلى السماء!!

وعند العصر تجمّعت بعض السحب في السماء.. ورويدًا رويدًا حجبت الغيوم الداكنة الشمس وصار النهار أقل بهجة.. لم يكـــن الطـــاووس مستعدًا لملاحظة هذا التغيير، ولم يكن مهيئًـــا مـــع صـــديقه الطبـــل للانشغال به بعد أن نسيا كل الأصوات والأشياء حولهما.. فجأة! هطل المطر، نزل على الطاووس فارتعد وضمّ ريشه الجميل ثم فـــرّ لائـــذًا بالأشجار وما وجده في طريقه من السواتر.. وهمدت دقات الطبـــل، تبلل بالمطر وفترت إيقاعاته فلجأ بدوره إلى أقرب مكمن ينقذه مـــن فساد أو تلف..

وضحكت الطيور.. تقافزت مبتلة مهتزة مع عذوبة المطر ثم تحرّكت ببطء إلى أعشاشها وسواتر الأشجار.. وحدها ثلاثـــة مـــن الطيـــور الصغيرة بقيت في المكان.. ظلّت تنفش ريشها تتمتع بعذوبة المطر.. قفزت مزقزقة مبتهجة ولم تهرب، إلى السواتر والأشجار.."

كانت تلك قصة قصيرة جدًا كتبتها ونشرتها إحدى المجلات الأدبيـــة المعروفة.. تساءل المغربي، محمد الباهي، وهو يمسك بالمجلة:

- أهذه قصة للأطفال؟!

فردّ عليه المصري عبد الفتاح الجمل:

- بل هي قصة للكبار جدًا..

قال سي أحمد العباسي التونسي:

- تحاول تفهم تدوخ، قصة للأطفال وقصة للكبار.. كيفاش؟؟

وعلّق السوداني محجوب الفيل بجملة واحدة – كعادته:

- هذه قصة رمزية..

فعاد عبد الفتاح الجمل إلى تأكيد موقفه:

- هذه القصة التي جاءت في صفحة واحدة، تُحلّلُ في ثلاث صفحات على الأقل..

وراح يشرح ما تضمنته القصة من رموز ودلالات.. وتساءلت: هل كانت تلك الرموز والتأويلات حاضرة في مخيلتي عندما كتبت تلك القصة؟! أم أنها تحليلات النقّاد وتأويلاتهم التي يكتشفونها في القصص والأشعار واللوحات الفنيّة؟! لا أذكر أن تلك الدلالات طرأت على بالي عندما كتبت تلك القصة، بعد عودتي من ذلك الاحتفال الحاشد.. كل ما أذكره أن الاحتفال المشبع بالتشنّجات والهتافات كان دافعي إلى كتابة تلك القصة ولم يكن في مخيلتي، آنذاك، سوى شيء واحد" الزهو الكاذب وهدير الحناجر المتشنجة المخدوعة"..

كان ذلك منذ عام، تخلّصنا من رائحة الورق والكربون والرصاص وصخب الماكينات وخرجنا إلى فناء المطبعة.. اشفق علينا الحاج "البوني" فأمر أحد الشباب ليجلب لنا ألواح الخشب، التي افترشناها وجلسنا عليها.. ثم ذهب ليعد لنا بنفسه برّادًا من "الشاهي" الثقيل.. كنت تعرفت على أولئك الأربعة حديثًا.. كنّا نعمل في مجلة واحدة، ولم أكن قد عرفت بعد ما وراء كل منهم.. لكنني اليوم أتذكر ذلك الحديث المقتضب فأجده مفتاحًا لشخصياتهم..

المغربي محمد الباهي، ذلك الشاب الخجول المرتبك دائمًا.. يخفي وراء ابتسامته الغامضة قصة غريبة.. كان محمد حذرًا، يلتفت دائمًا حوله ويخشي من شيء ما.. كنت أساله عن سبب خوفه الدائم،

وكان يجيبني بكلمات مبهمة، فألوذ بصمتي واحترم أسراره وخصوصياته..

أذكر أننا كنّا نسير معًا في شارع الجماهيرية في طريقنا إلى مبنى الصحافة.. فجأة، انقضّ علينا شاب راكبًا درّاجة، مال على محمد الباهي، بصق في وجهه وصفعه على رقبته بقوة ثم انطلق بدرّاجته هادئًا.. هممت للحاق به، لكن الباهي جذبني من يدي وتوسّل إلى أن أتركه.. بكي ثم قال:

- يا سي إبراهيم هذه ليست المرّة الأولي.. إنهم يبصقون في وجهي ويصفعونني في كل مكان يجدونني فيه.. هؤلاء مغاربة مثلي، ولهم الحق، كل الحق في ذلك.. أنا سبب تعاستهم ومصائبهم.. أنا الذي أحضرتهم إلى هنا.. أنا الذي تسبب في حالتهم المهينة المزرية.. وعدتهم بالحياة الشريفة والكفاح والاستعداد من جديد، لكنني لم أفعل.. أنا الآن لا أستطيع مساعدة نفسي.. بعد فشل الانقلاب، انقلاب أو فقير، كنّا جميعًا مؤيدين بل مشاركين في الانقلاب، وبعد أن انحنى ذلك الضابط المعتوه وقبّل يد الملك ثم أعاده إلى القصر، هربنا.. تمكنّا من الهرب بأعجوبة.. هربنا بواسطة واحدة من "المومسات" عن طريق تونس حتى وصلنا إلى هنا.. جئنا لالتقاط الأنفاس والاستعداد للنضال من جديد.. ولكن!.. مسح دموعه، ثم أضاف:

- لكننا اكتشفنا اللعبة الخادعة.. يريدوننا مناضلين على مقاسهم، بطريقتهم.. فصلّوا لنا ثوبنا النضالي، وعندما رفضنا لفظونا وحوّلونا إلى كلاب! كلنا نعيش مثل الحيوانات.. لا نملك هوية ولا جنسية..

سحبوا منا جوازات السفر، طبعًا هذه الجوازات انتهت منذ سـنوات والنظام في بلادنا لا يعترف بنا، بل نحن محكوم علينا بالإعدام! لـم يمنحونا، هنا، جوازات بديلة ولا نستطيع التحرّك إلـى أي مكـان.. بعضنا يتسوّل في الشوارع وآخرون يعيشون على صناديق القمامة.. ألا تريدهم بعد ذلك أن يبصقوا في وجهي ويصفعونني؟! لهم الحق أن يفعلوا ذلك وأكثر..

لم يعُد محمد الباهي مؤمنًا بشيء بعد تجربته المريرة. كـان يعتبـر الكتابة عبثًا ويعتبر النضال عبثًا.. كان مصححًا في المجلة، لكنه كان يحتقر كل ما يصححه ويسخر من كل ما يقرأه.. وكان ينفلـت مـن شرنقته السوداوية أحيانًا وينصحنى بشيء واحد:

- لا تسلّموا أنفسكم لأحد.. لا ترهنوا نضالكم وقضـيتكم فـي يـد أحد!!

أما عبد الفتاح الجمل، ذلك اليساري الأبتر، فلم يصبه الإحباط بعـد.. ما زال يراهن على الجماهير.. وما زال مؤمنًا بها و"بفعلها الثـورى الآتي"! شارك عبد الفتاح في حرب ١٩٦٧ وخرج منها فاقدًا ذراعـه اليمني.. وعاد إلي الحياة المدنية، يكتب القصص والمقالات ويرسـم بيد واحدة.. أذكر أنني سالته عن محسن الشرقاوي، ابـن العُرابيـة العنيد.. عرفه، وأخبرني أنه عاش معه في معتقل واحد ثلاث سنوات بعد وفاة عبد الناصر.. كان عبد الفتاح يشير إلى عبد الناصر بكلمـة "زعيمك".. وكان يذكر له بعض الحسنات، لكنه كـان دائمًـا يقـول "حاشيته الحقيرة كانت تدفعه إلى ارتكاب الأخطاء" رفض عبد الفتاح

الوظيفة "الوضيعة" التي وضعوه فيها بعد خروجه من الجيش وجـاء إلى ليبيا، باحثًا عن واحة "الحرية والديموقراطية والأدب الملتـزم".. قال لي بعد عودتي من مصر:

- ها أنت يا إبراهيم تتمكن من إصلاح يدك.. عدت إلى الكتابة بيدك اليمني.. تحركت أصابعك المتشنجة وأصبحت قادرة علـى الكتابـة، لكن! أنا لم يستطيعوا إعادة يدي لي..

قلت:

- لماذا لا تعوضها بيد اصطناعية؟!

- لا!! لن أخفي ذراعي المبتورة! حتى لو اخفيتها، تظل في داخلي! أنا مبتور من الداخل يا إبراهيم.. أريدها أن تظـل رمـزًا للهزيمـة، تذكرهم بها، الهزيمة الباقية حتى بعد "توبة السلام" المزعوم..

كان دائمًا يتحدث عن الرمز، يُحلل الأشياء ويعطيها الدلالات البعيدة.. وظلّ متمسكًا بالأمل و"فعل الجماهير القادم"..

وسي أحمد العباسي! الكهل الذي أنهكته الغربة والشعارات والدوران في أروقة المكاتب "القومية".. عروبي قديم، باحث عن إجابات لأسئلة فات أوانها.. معجب بالشيخين محمد عبده وجمال الدين الأفغاني، وما زال متمسكًا بمقولات تجاوزتها كتـب التـاريخ نفسـها.. "هـؤلاء ماسونيون" عملاء لفرنسا منذ كذا وكذا".. "هذه صورهم مـع فـلان" "هذه وثائق تثبت تورطهم في كذا".. سي أحمد العباسي من "طـراز" المكافحين المخلصين لأفكارهم والـذين لا يقبلـون تطـور الأشـياء والظروف ولا يعترفون به.. سرقه الزمن و"وهـم" الإطاحـة بنظـام

بورقيبة فنسي نفسه وظلّ وحيدًا.. لـم يكـن باسـتطاعته مجـاراة "الموجة" الجديدة من المناضلين.. ولا يستطيع العودة إلـى تـونس، رغم صدور العفو عنه!! كيف يعود بعـد هـذا العمـر وفـي هـذه الوضعية؟ كان قائدًا معروفًا بشجاعته وإقدامه ومقارعته لتسلط الفرد الحاكم.. واليوم يعود خالي الوفاض من كل شيء!! الزوجة والأولاد والمكانة اللائقة؟ أبعد الستين تصلح الأشياء؟ لا!! يفضل أن يمـوت هنا على أن يعود محنى الرأس خاسرًا لكـل شـيء.. رفـض كـل التوسلات من أقاربه وذويه وظلّ متشبثًا بصورته التي خرج بها من تونس منذ عقدين من الزمن.. هذا حصان خذله الفارس والمضمار، فلا عجب أن "يدوخ" ويظل دائمًا يسأل: كيفاش.. مفهمتكش؟!! تلـك الكلمات التي سمعتها منه في أول لقاء بيننا ما زال يكررها.. كـان -يومها- ممسكًا بذلك المغلّف الأصفر الذي يحوي صوره ووثائقـه.. وأذكر أن محجوب الفيل كان يجلس على المكتـب المجـاور، ذلـك السوداني الأسمر الطويل النحيف واسع العينين، كان يدخن بشـراهة عجيبة.. جاء محجوب الفيل من ضواحي أم درمان، اصطحب معـه أسرته المكوّنة من تسعة أشخاص، بينهم والده ووالدته المسـنان.. جاء حاملاً الأقلام وأدوات الرسم وصورًا جاهزة للنـاس والأشـياء، وعمل مخرجًا في المجلة.. كانت مشكلة محجوب الفيل فـي أغلفتـه ورسوماته.. ظل يرسم بطريقة واحدة.. سألته ذات مرة:

- لماذا لا تغيّر هذه الطريقة؟ الناس والأشياء تتغير من حين لآخر؟

- لا أستطيع أن أتخيّل الإنسان بدون جلباب وعمامة وسمرة ونحافة وعيون واسعة.. والبيوت! لا أستطيع أن أتخيّلها "قصورًا" أو عمارات.. مخيلتي لا تحفظ إلا البيوت المتواضعة والأخصاص.. ماذا أفعل؟!

كانت رسومات محجوب الفيل تضعنا في حيرة.. كل الأغلفة والرسومات الداخلية عبارة عن مستطيلات ومربعات ومثلثات ودوائر.. الإنسان عبارة عن مستطيل طويل – مثل القلم- في رأسه عينان واسعتان وفوقها مثلث أبيض اللون (عمامة).. والبيت! مربّع فيه عينان صغيرتان (نافذتان) بينهما مستطيل صغير هو الباب.. وفوق هذا المربّع مثلث من القش.. حاولنا معه، لكنه لم يتبدّل، فتركناه أسيرًا لمستطيلاته ومربعاته ومثلثاته ودوائره.. وسجائره ذات الدخان الكثيف.. استوقفتني ذات مرة امرأة سودانية ممتلئة الجسم ترتدي ملاءة ملونة وسألتني:

- ألنت الأستاذ إبراهيم الشّاهد؟!

- نعم.. تفضلي..

- أنت تعرف محجوب الفيل، إذن!

- طبعًا! إنّه زميلي وصديقي تقريبًا..

- إذن! أتوسل إليك أن تقنعه بتخفيف التدخين.. إن مريض بالقلب ونصحه الأطباء بالتوقف عن التدخين.. أرجوك! أقنعه أن يخفف التدخين فقط..

كان محجوب الفيل شاحب الوجه، كثير التأمل.. طلبت منه بتـــودد أن يخفف التدخين رأفة بنا، نحن زملاؤه وأصدقاؤه ولنا حق عليه:

- بعدين عمك سي أحمد العباسي لا يحب رائحة الـــدخان والرجــل كهل، صحته تتأثر بالتدخين..

- يا زول كيف أبطل الدخان.. خلاص، اطلبوا من رئيس التحريـــر يحطني في مكتب بروحي..

وسألني مغيرًا الموضوع:

- كيف كان المؤتمر؟!

كان يعني مؤتمر الغزو الثقافي، كنت عائدًا لتوي من تـــونس التـــي استضافت المؤتمر - مكانًا - وأنفقت عليه دولة أخرى.. كان ذلك في ربيع ١٩٨١، انتدبتني المجلة لتغطية المؤتمر الهام، الذي حُشد لـــه عدد كبير من المفكرين، والمثقفين و"المناضلين المعارضـــين".. لـــم أُحَدِثُ محجوب الفيل عن وقائع المؤتمر والأبحاث التي قُدمت فيه ولا عن بيانه الختامي ووثائقه "التاريخية".. فهناك ملف كبير في مكتبـــة المجلة يستطيع العودة إليه!! لكنني حدثته عن تلك المفارقة "اللطيفة" التي حدثت معي:

- بعد الجلسة الثانية، عدنا إلى الفندق الفـــاخر.. توجهـــت إلـــى الاستقبال لأخذ مفتاح الغرفة فسألتني الموظفة بأدب:

- أأنت السيّد الشّاهد؟!

- نعم هو أنا..

- تفضّل! هذه هديتك..

تناولت الحقيبة، وخمّنت أن مثلها قُدّم لغيري من المشاركين.. صعدت إلى الغرفة وعندما فتحت الحقيبة كانت دهشتي الكبيرة.. وثائق المؤتمر ووسطها رزمة كبيرة من النقود.. رزمة كبيرة من الدولارات الخضراء الجديدة.. ما هذا الكرم؟ أنا موظف عندهم فلماذا يغدقون بهذه الطريقة؟! وقبل أن أقلّب الأمر طويلاً رن جرس الهاتف.. وجاء صوت موظفة الاستعلامات خجولاً مرتبكًا.. ثم طلبت مني الهبوط إلى الاستقبال ومعي تلك الحقيبة..

- سيّد شاهد، نعتذر لك، هذه الحقيبة للسيد محمد الشّاهد، قدمناها لك عن طريق الخطأ..

تقدّم المُفكر الكبير، وتناول الحقيبة، فتحها وتحسّس رزمة النقود ثم أغلقها.. نظر إليَّ بامتعاض ثم أنصرف مؤرجحًا حقيبته الدسمة.. وناولتني الموظفة حافظة صغيرة، ثم رددت اعتذارها مرة ثانية..

قال محجوب الفيل:

- كلّهم يقبضون.. كان عليك أن تعرف ذلك!..

ثم طلب منى أن اختار صورتين فقط لإرفاقهما بالتقرير.. ووجدته يزيح من أمامي صورة لإحدى جلسات المؤتمر، وقد برز فيها "المفكر المعارض" صاحب الهدية السخية، مترأسًا الجلسة..

* * *

إنّه وقت الغروب.. أتذكّره.. والبحر ملاءة زرقاء كبيرة، والشمس برتقالة تلامسه ثم تغطس فيه راسمة لوحة بلون الجمر.. يتسرّب

الشفق مرتعشًا إلى داخلي، يبعث شوقًا قديمًا إلى البرتقال فأتساءل: ما علاقة البرتقال بالدم؟.. يقذفني عطا الجوراني ببرتقالة "دمّي" ويقول:

- خذ هذه لتندمج مع المشهد.. ماذا يُسمي هذا النوع من البرتقال عندنا؟!

- دم الزغلول..

كان خالد الربيع أول من لفت نظري إلى علاقة البرتقال بالدم، عندما قدمّت له واحدة من "دم الزغلول" في بيّارة الأفندي:

- أنظر! لون البرتقالة من الداخل يشبه لون الدم..

وذكرت له يومها، أن الفلاحين في قريتنا يقولون عندما يعبرون عن مكابدتهم في العناية بالبرتقال "راعيته بدم قلبي".. كانوا يشيرون إلى الجهد والعرق الذي بذلوه حتى ترعرعت تلك الأشجار وكبرت، ثم جادت بثمارها الذهبية.. مثل الأولاد تمامًا، يتحدّث القرويون عن البرتقال والزيتون!! لماذا تذكرني هذه اللوحة الفاصلة بين الضوء والعتمة، بالبرتقال والدم وخالد الربيع؟! لماذا أتذكرها اليوم، وأنا الذي دأب على انتظارها ومشاهدتها طوال السنوات الماضية؟! في الرسالة التي كتبها خالد الربيع، بعد عودته إلى لبنان، ذكرّني بأيام الصبا: المخيّم و"دم الزغلول" الذي اقتسمناه في بيّارة الأفندي.. ثم تحدّث عن تلك الليالي الساحرة التي قضيناها في "حوش العرابية" وحديقة "الميرلاند" بالقاهرة.. وأوصاني على الصورة التذكارية التي التقطها لنا مصور جوّال.. قال في رسالته "احتفظ بالصورة يا

إبراهيم.. كوثر تحتفظ بها مع صورنا العائلية.. أنا وكوثر وأنت وسميرة وعزيزة الخيّال.. صورة لن تتكرر مرة أخري".. كنّا في حديقة "الميرلاند" والأولاد ينطون ويتقافزون على الحشيش الأخضر.. وأذكر أنني قلت لخالد معبّرًا عن حالة التماهي والتداخل:

- أيهما سميرة صالح وأيهّما عزيزة الخيّال؟ أنظر! سميرة ترتدي الفستان الطويل وتضع على رأسها المنديل.. وعزيزة ترتدي الجينز وتنثر شعرها على كتفيها.. أنت تذكر سميرة كانت ترتدي هذا الجينز، وتعرف عزيزة بمنديلها وثوبها الطويل.. من التي تغيّرت في رأيك؟ عزيزة أم سميرة؟!

- أعتقد أن كل واحدة منهما تغيّرت بطريقتها ولأسبابها..

ثم طلب من المصوّر أن يلتقط لنا صورتين..

وفي اليوم التالي كنّا جميعًا في وداع عزيزة وشادي في محطة الحافلات.. كانا مسافرين إلى غزة.. سلّمت عزيزة على كوثر وسميرة، قبلتهما وقبّلت الصغار، ثم تقدّمت نحو باب الحافلة ملوّحة بيدها.. فقالت سميرة فجأة:

- عزيزة! نسيت أن تقبلي إبراهيم! أليس هو مثل أخيك؟! دفعت شادي إلى داخل الحافلة ثم عادت.. قبّلتني على خدي مرتين ثم أسرعت إلى الحافلة، فأصابتني الرجفة للحظات..

قال عطا الجوراني فيما يشبه الصراخ:

- جاء وقت الصيد، ها قد هدأ الشاطئ وانسحب المصطافون.. صفيّة جهزي شبكة الصيد..

كان عطا الجوراني مدرسًا للكيمياء.. تعرّفت عليه في طرابلس الغرب، بعد شهر من وصولي.. ذكّرني بعبد الله الشريف، كان زميله في كلية العلوم، وتذكّرت أنني التقيته في الإسكندرية بعد هزيمة ١٩٦٧.. عطا شاب متعدد المواهب، صيّاد ماهر وخبير في أنواع السمك، ولا يشبع منه أبدًا.. وبالإضافة إلى كونه مدرسًا ناجحًا فإن له خبرة في أشياء كثيرة.. الكهرباء المنزلية والسباكة والنجارة، يُصلح كل ما هو موجود في المنزل.. حتى البلاط! يستطيع أن "يُبلّط" لك الشقة.. والأغنام والمواشي، إذا أردت أن تشتري خروفًا أو جديًا؟ خذ عطا معك واترك الباقي عليه.. والخياطة! معلم يستطيع أن يُفَصِل لك بنطلونًا محترمًا.. سألته ذات مرة:

- كيف تعلّمت كل هذه الأشياء؟!

- أما الصيد، فأنا من الجورة، صيّاد ابن صيّاد.. كان والدي صيادًا في قريتنا الجورة، وبعد أن استقر بنا المقام في مخيم الشاطئ، علّمني الصيد وعرّفني أسرار البحر والسمك.. وبقية الحرف، تعلمتها في صباي واشتغلت في جميع المهن.. كهربجي، سبّاك، نجّار، خيّاط، بليط، راعي أغنام، كلها..

الشي الوحيد الذي لا يتقنه عطا الجوراني الحديث في السياسة.. يعشق فلسطين، لكنه لا يحب التنظيمات والأحزاب.. ورغم ذلك يصر على حضور الاحتفالات في كل المناسبات.. ويحب بوجه خاص حفلات فرقة العاشقين التي كانت تقام في ليبيا.. أذكره، باكيًا مثل الطفل عندما ذهبنا إلى "مسرح الكشّاف" حيث أقيمت حفلة الفرقة..

كانت الفرقة قد بدأت وصلتها بملحمة الشهداء الثلاثة، محمد جمجوم وفؤاد حجازي وعطا الزير.. لا أدري لماذا يتخيّل الجوراني نفسه عطا الزير؟! عندما ناح صوت مطرب الفرقة:

محمد جمجوم مع عطا الزير   فؤاد حجازي عزّ الذخيرة

أنظر المقدّر والتقادير   محكمة تطالب تا يعدمونا

ويقول محمد أنا أولكم   خوفي يا عطا أشرب حسرتكم

ويقول حجازي أنا أولكم   ما نخاف الردى ولا المنونا

شهق عطا من شدّة البكاء، كان قلبي ينتفض كلما سمعت تلك الأهزوجة – الملحمة، لكن عطا الجوراني كان حالة خاصة، فريدة.. أذكر أن امرأة فلسطينية سألت جارتها وقد رأته مجهشًا بالبكاء:

- هذا قريب عطا الزير ولا محمد جمجوم؟!

فردّت عليها المرأة الباكية:

- ولك هذا قريب فؤاد حجازي! طلي في وجهه وأنتِ تعرفي!..

- يالله يا برهوم شدّ حيلك مع عطا خلينا ناكل سمك الليلة

انتشلني صوت سميرة من شرودي، وأذكر أنني تحرّكت وساعدته في "تسليك" الشبكة ودخلت معه في البحر بضعة أمتار.. تقدّم بالشبكة في الماء، ثم سبح بها حتى وصل إلى "الجرف" الذي اعتاد أن يلقي شبكته عنده..

وجاء حصار بيروت.. أهدر دمنا مرة أخري وصمتت كل العواصم والجيوش.. وفي طرابلس الغرب، شُكّلت لجان التعبئة والدعم!! كنت عضوًا في واحدة من تلك اللجان.. كنا نسهر حتى الفجر مشدودين

مأزومين.. في الساعة الثانية صباحًا كان علينا أن نرتب مع "الأشقاء" طريقة لتوصيل كمية من الدم ونشحنها بالطائرة خلال ساعات.. كان ذلك بعد شهر من الحصار.. ذهبنا إلى "فيّلا" المسؤول الفلسطيني الأول، وطلبنا منه الاتصال والتدخل السريع.. انزعج وقال:

- لماذا تزعجونني في هذا الوقت؟ لم لا تنتظروا حتى الصباح؟!

كان باب "الفيّلا" مواربًا، نظر أحد الشباب إلى الداخل ثم همس:

- إنه مشغول برقصة لسهير زكي.. هيا بنا

وفي الساعة الرابعة صباحًا كنا في المطار ومعنا الصناديق التي تحوي قناني "الدم العربي"! كانت الطائرة جاهزة للإقلاع وعندما تقدمنا بالصناديق، اكتشفنا خمسة من الفلسطينيين وثلاثة من الليبيين يتأهبون للصعود إلى الطائرة.. كان عطا الجوراني واحدًا منهم.. سألته في ضيق:

- ماذا تفعل هنا؟!

- مسافر..

- إلى أين؟

- إلي لبنان! إلى القتال معهم.. الثورة محاصرة ونحن نصطاد السمك ونقشر البصل عيب..

مسحت جبهتي المعروقة ونظرت إلي زميلي، طلبت منه أن يخبر أسرتي بسفري إلى لبنان ثم مشيت خلف عطا الجوراني صاعدًا سلّم الطائرة..

أتذكر الأن كل شيء! وأتذكر أننا سلّمنا قناني الدم في مطار دمشق إلى المندوب، ثم توجّهنا مباشرة إلى الحدود.. مكثنا ليلتين على الحدود ولم نتمكن من الدخول إلى لبنان.. لم يسمحو لنا، ولم نستطع إقناعهم بمسؤوليتنا عن تصرفاتنا وحياتنا، فعدنا إلى دمشق.. وفي الطريق سأل أحد الشباب مستغربًا:

- إذن: كيف دخل أبو صراخ؟

التفت الشاب الملتحي الذي عاد معنا بعد محاولته الرابعة للدخول:

- ومن أخبرك أن "أبو صراخ" قد دخل إلى لبنان؟!
- ماذا تقول؟ ألم يدخل إلى لبنان؟
- بل هو "يرتع" في نعيم دمشق!! أتريد أن تراه؟!

عطا الجوراني وثلاثة من الشباب وأنا بذقوننا النابتة وملابسنا المتسخة المهلهلة، نجرّ أقدامنا الملتهبة ونقف أمام باب فيّلا في دمشق.. أتذكّر الآن.. عندما فتحت الصانعة "السيرلانكية" ودخلنا.. وعندما جلسنا في البهو الكبير جاء أبو صراخ مرتديًا روب "دي شامبر" أحمر بلون الشفق.. وثمة على الطاولة وضعت أربعة أصناف من الفاكهة وبعض المقبلات وقنينة "مبعوجة".. نظر عطا الجوراني إلى القنينة ثم قال:

- هلكتنا بالخطابات والحديث عن شلالات الدم... والله ما ودّانا في داهية غير أشكالك.

ولم يترك لي ما أقوله، أنا المعروف بلساني الطويل وقلمي اللاذع، ألجمني عطا الجوراني، ثم جذبني من يدي لننطلق إلى المطار،

عائدين إلى بحر طرابلس الغرب ولوحة الشفق التي تأخذ لون الجمر..

إنه وقت الغروب..

أتذكره الآن.. والبحر ملاءة زرقاء كبيرة، والشمس برتقالة تلامسه ثم تغطس فيه مُشكلة لوحة بلون الجمر ويتسرّب الشفق مرتعشًا إلى داخلي، يبعث شوقًا قديمًا إلى البرتقال فأتساءل: ما علاقة البرتقال بالدم: وأتذكّر أن خالد الربيع كان أول من لفت نظري إلى علاقة البرتقال بالدم عندما قسمنا "دم الزغلول" بيننا.. وأتذكّر أنه "راعى" بيروت ودافع عنها بدم قلبه.. استشهد خالد الربيع حاملاً صاروخه المطوّر بعد أن أشعل به دبابات شارون وصدور الحكام الصامتين..

وها هي الشمس، برتقالة كبيرة ملّونة بدماء خالد وأخوته ورفاقه، هذه اللوحة الفاصلة بين الضوء والعتمة هي أشواق خالد إلى البرتقال وأشواقي إليه.. هييه يا خالد.. هييه يا دمي المسكوب.. تعال نقتسم البرتقالة مرة أخرى.. و"أنظر! لون البرتقالة من الداخل، إنه يشبه لون الدم".

§ الجـزء الثالث

الـدُخـان

(١)

عصام الفايـز

البحرُ ملاذ الهاربين.. والزَبدُ الأبيض طوق النجاة! والإسكندرية تجلب الطمأنينة وتعيدني إلى التوازن والهدوء.. أرشفُ من فنجان القهــوة وأنظرُ إلى البحر.. أتابعُ الجدائل الفضــيّة وهــي تتــوالى وتقتــرب لتضرب أسفل الكازينو..

كانت تبحرُ نحو قبرص كانت جسر الخلاص والأمل.. والزَبدُ الأبيض المتراجع خلفها كان طوق النجاة.. والناجون العابسون كــانوا دلــيلاً آخر على أنني انتصرت وأن مستقبلاً جديدًا ينتظرني.. ثلاثة أشــهر من الدمار والخوف والموت ظلَّت ورائي! كنتُ خائفًا حتى المــرض، حتى الهذيان! اختلف الأمر هذه المرة، كان المــوت يتــربص بكــل إنسان، حتى المرضى والمقعدين الغافلين! بكل شيء بكل حيــوان.. كانت الكلاب والقطط! تهر وتتلوى، تحاول النجاة، لكن الموت كــان يصطادها ويفتك بها وينثر أطرافها!.. كانت تتهادى بحمولتهــا مــن البشر والهموم عندما اكتشفتُ أنني نجوت، وأنني أختلف عن أولئــك التائهين الحائرين.. همومي لم تكن همومهم ومشاعري كانت تختلف

عن مشاعرهم! أولئك المسكونون بالوجع لستُ مثلهم! لم أكن أشبههم إلا في شيء واحد، أنني كنتُ موجودًا معهم على ظهر ذلك المكان المتحرك – السفينة! وأنني نجوت! من العقاب والسجن؛ ولم يعد في مقدور الذين هددوني أن يظفروا بي، لم يعد بمقدورهم أن يحرموني من فرصة عمري، مستقبلي الذي خططت له وبنيته طوال خمس سنوات!! كانت تتهادى وتنشر الطمأنينة وتبث اليقين ليستقر في داخلي ويثبتني! وخلفها كان الزَبدُ الأبيض يعود.. يتراجع ويؤكد أنها تتحرك، تبحر وتترك لبنان وراءها! وبعد ساعات، بدأت حشرجات النحيب وآهات الحرقة في الخفوت.. وبدأ الناجون التائهون في تبادل السجائر والنظرات الغامضة.. والتساؤلات!.. وانتبه أصدقاء خالد الربيع – الذي تركناه في بيروت تحت التراب – إلى كوثر العرابي.. بدأوا يتحلّقون حولها وحول طفليها! ويتبادلون معهم حديثًا ودًّيا مشجعًا.. وعندما تحرّكتُ نحوهم كانوا يمرحون مع الطفلين! كنتُ أريدُ أن أعبر لكَوثر عن تعاطفي معها، عن حزني على خالد، أن أداعب الطفلين – مثل الآخرين:

- كيف حال الأولاد الآن؟ أنتم ستذهبون إلى مصر طبعًا

صدّتني، ورشقتني بنظرات قاسية موجعة.. وشعرتُ للحظة أنها لن تتوانَ عن البصق في وجهي! ارتبكتُ، ولم أجد غير الانسحاب، ألوذ به من الإهانة والصدود!..

قبل شهر من الاجتياح، جاءني خالد الربيع بعد قطيعة طويلة:

- عصام أنصحك أن تبادر إلى إنقاذ نفسك.. أخشى عليك من

السجن والفضيحة!

- ماذا تعني؟

- أنت متورّط في قضايا عديدة، تزييف وابتزاز وتجارة سلاح و..

- وماذا أيضًا؟

- سطو مسلح! محل المجوهرات والصرافة!!

- هذه شائعات، تلفيقات كاذبة.. مجموعة من الحاقدين!

- هرب أبو الشريم، والأمور تغيّرت.. أنقذ نفسك يا عصام، سلمهم كل شيء.. بعدها سأدافع عنك..

- لا دخل لي في "أبو الشّريم" تركته منذ سنتين..

- لا يهمني "أبو الشّريم".. ليهرب أو ليذهب إلى الجحيم، أنت من يهمني، نحن أبناء مخيم واحد، وكانت بيننا صداقة وعِشْرة.. سُمعتك تهمني، مستقبلك.. لا تكابر يا عصام..

- سُمعتي تهمّك؟! تكرر الشائعات والتهم نفسها، وتقول إن سمعتي تهمّك، كيف بالله عليك؟!..

- لأنها ليست شائعات وتلفيقات، هناك أدلة وإثباتات..

- تمَّ التحقيق في هذه "التلفيقات"

- لا فائدة إذن!

- أنا لم أغتصب شيئًا من أحد، ولا اعتديتُ على مال أحد!

- في الحقيقة أنا مصدوم! تغيّرت يا عصام! تغيرت كثيرًا.. بتذكّر؟! كُنت..

- آه..! ضعيف ومهزوز وأعاني من شعور بالحرمـــان.. مركّــب نقص!! هه.. أليس هذا رأيكم؟ أنت وإبراهيم الشّــاهد؟ حتـــى ذلــك الدرويش عبد الله الشريف، كان يردد نفس الكلام! أما أنتم! ملائكة! أصحاب مبادئ ونزاهة ووطنية!! وكل الفضائل والمزايا الموجودة في الدنيا! طيّب! أين هم أصحابك، أصحاب المبادئ والشعارات و"الثورة النقّية"؟! واحد في ليبيا، يغرف من الدولارات النفطية ويكتب المقالات "النّارية" عن "الحكّام المتخاذلين"، ثمَّ يتغنى بأمين القومية، مُخَلــص البشرية الجديد!! والثاني، في الخليج، أطلق لحيته وحلــق شـــاربه ولبس (الدشداشة) – مثلهم.. ويغرف من الدولارات النفطيـــة أيضًـــا ويتغنى ويسبح بحمد الشيخ فلان والشيخ عِلاَّن! إصحَ يا خالد وانظر حولك! أنظر إلى حالنا – أنا وأنت - إلى مستقبلنا! أنا وأنت في النار والحرمان وغيرنا في النعيم! لماذا تلاحقوني وتبحثون عني فقــط؟! مقْدرْتوش عالحمار قلتوا النط عالبرْدعة أسْهل.. هه.. يا أخي ابحثوا عن اللي هبَروا الملايين وخرّبوا الدنيا باسم الثورة وتحت خيمتهـــا! امسكوهم وحاسبوهم! أصحاب الكانتونات وميلشيات الأنظمة وأزلامها هه.. و.. وبدي أفرطها وأقول.. خوازيق الأنظمة.. جايين تتشاطروا علينا بس؟!

- أنا بعرف إنّه في ناس بتخرّب وصـــارت شـــوكة فـــي ظهرنـــا! وبعرف ارتباطاتهم الخطيرة! لكن هذا كله حســـابه جـــاي! ظـــروف الثورة ما بتسمح بفتح هذه الملفات هلْقيت..

- ظروف وفتح ملفات إلنا عشر سنوات وإحنا بنسْمع هالحكي!!

- يعني هذا مبرر علشان تصير مثلهم؟! بتحكي عليهم وفي الآخر بتصفّي مثلهم.. ليش؟!

- اسمع يا خالد! آخر كلام عندي كل واحد حر في حاله.. وكل واحد يخطط لمستقبله بطريقته..

لكنني خشيتُ من الحساب الذي تحدّث عنه خالد الربيع.. أخذتُ كلامه على محمل الجد وبدأت أفكرُ في طريقة لمغادرة لبنان والاختفاء عن العيون.. فكرتُ في اللحاق بأبي الشريم، لكن من يضمن ذلك الرجل؟ قد يتخلص مني إذا وجدني عبئًا عليه! لقد فعلها مع آخرين.. ومن أنا حتى يحافظ عليَّ؟ ماذا لو صدق خالد الربيع وأتى يوم الحساب؟! لن تنفعني تلك النقود التي هرّبتها إلى خارج لبنان! لن تجديني الأموال التي جازفتُ بحياتي وسمعتي ومستقبلي من أجلها.. ياه..

- مرحبًا عصام، أين أنت يا رجل؟ ليش قاعد شارد الذهن؟ لا تقلق يا "باشا"!! مصر أحسن من غيرها..

- القلق أمر طبيعي يا أيمن كلنا قلقانين على المستقبل ونشعر بالخوف من المجهول..

كان أيمن جابر ضاحكًا ساخرًا كعادته.. تزّوج قبل عام، وفي أثناء الاجتياح والحصار والموت، وضعتْ زوجته طفلهما الأول.. رأيتُ زوجته الشّابة تتعلق في رقبته باكية عند المغادرة. خطف منها قبلة ثم تناول طفله وقبلَّه أكثر من قبلة ثم أعاده إليها شاهقًا بالبكاء.. قبل أسبوع من الرحيل كنّا نجلس متكئين على جدار مهدّم وأمامنا ترتفع أكوام القمامة وفوقها جثث الكلاب والقطط.. كنتُ

قـد شفيتُ لتّوي من الحمى والخـوف. كانت الرائحة النتنة تفـوح في المكان وتطغى على النسمات الرقيقة التي جلبهـا ذلـك المسـاء الحـزين.. كان يمسك في يده زجاجة.. رشف منها ثم قال مهمومًـا ساخرًا:

- بتعرف يا عصام – يا عصام باشا – هه.. هه، أنـا عمـري مـا سكرت، بتصدق! هذه أول مرة أشرب في حياتي! هذه القنينة وجدتها ملفوفة عند مدخل إحدى البنايات، وجـدتها بجـوار رجـل ميـت.. صاحبها ما شربها، ملحقش يشربها! اتصور النصيب! قنينة خمـرة لواحد ما بيسكر، نصيب! آه.. الدنيا غدَّارة! ملحقتش أتهنا وأتمتـع بحياتي! أتهنا بزوجتي وطفلي! تزّوجتُ وأنا فـي سـن الأربعـين.. تزوجت متأخرًا لكن يا خسارة.. ملحقتش.. آه.. طلعنا مـن الـدنيا بلّوشي! طلعنا من المولد بلا حمص يا عصام! لا وطن ولا مـال ولا عيال ولا.. ثورة!! وقف إطلاق النار وبعدين المغادرة! منافي جديدة وغربة جديدة!! بتعرف في ناس حسبتها صح! حضّروا لمثـل هـذا اليوم.. أنا سمعت إنك واحد منهم.. والله لو هذا الكلام صحيح بتكون شاطر وحسبتها صح..

ورشف من الزجاجة ثم سألني فجأة:

- أأنتَ متزوج يا عصام.. يعني عندك أولاد؟

- تزّوجتُ مرتين وطلّقت! عندي بنت واحدة مع أمها في مصـر.. زوجتي اللي طلّقتها في لبنان ما أنجبت..

- أرْيح.. والله العظيم أرْيح..

كان أيمن يرشف من الزجاجة ويضحك ويتكلّم، يسأل ويثرثر دون توقف.. وعندما يتذكر زوجته وطفله يتحوّل إلى الشتائم والسخرية ويصبح شخصًا مسكينًا مثيرًا للشفقة:

- أيمن، عندما تستقر في أي بلد لابدَّ أن تكتب لي! هذا عنواني في مصر.. هه لابد أن تكتب وتُعرفني بمكانك..

- يا عم إنت إيش بدّك فينا، بكره بتنسانا يا باشا! إسمع خذ رشفة. بالله عليك تأخذ رشفة.. علشان أتذكّرك.. خُذ..

- ولَكْ أنا غلبان مثلك.. بطّل الأوهام اللي في راسك.. وهذه رشفة.. هه علشان خاطرك.

أرشف من فنجان القهوة وأنظر إلى البحر وأتابع جدائل الموج الفضيّة وهي تتوالى وتقترب لتضرب أسفل الكازينو.. هذا البحر يجلب الطمأنينة، والإسكندرية تعيدني إلى التوازن والهدوء..؟! أين ذلك الهدوء؟ ها أنا بعد عام من تلك الرحلة البحرية العجيبة ما زلتُ حائرًا! ما زلت لم أصل إلى قرار! كيف أستثمر تلك الأموال التي جمعتها؟ الأموال التي جازفتُ من أجلها؟ كيف أتمتّع بها دون أن أُعرض نفسي للشبهات؟ كيف أكشف هذه الأموال وأتمتّع بها دون خوف من أحد؟.. شريك ثري، كما فعل أحدهم لكنني لا أثق في أحد! قد يستغل هذا الشريك تستري وخوفي ويبلع كل شيء! أقاربي أصدقائي لا أضمن أحدًا منهم! ولا أثق حتى في أخي ابن أمي وأبي! لم أتعب كل هذا التعب وأجازف هذه المجازفة لأسلم رقبتي لأحد! هذه نقودي، أموالي ولن يتمتع بها أحد غيري! لابد من وجود طريقة!!

لابد!

بعد شهر، ذهبتُ إلى القاهرة! كنتُ مدعوًا لحضور حفل زفاف ابن أحد الأثرياء الفلسطينيين.. كان الحفلُ مهيبًا عامرًا بمظاهر الترف والبذخ.. امتلأت صالة الفندق الفخم، وعجّتْ بالمتأنقين والمتزيّنات وروائح العطر.. والنعيم!

- هكذا يتمتع الناس بأموالهم!

همسَ صديقي، الذي بهره الإعلان الصارخ عن الثراء..

- كان من الأفضل التقليل من هذا البذخ..

- كيف تريدهم أن يتمتعوا بأموالهم إذن؟!

- على كل حال مظاهر البذخ لا تقتصر على العائلات الثرية المعروفة فقط.. رأيت في بيروت أكثر من هذا، هناك آخرون يمارسون البذخ والإنفاق المجنون! ولماذا بيروت؟ أتذكر ذلك العرس الذي ذهبنا إليه صدفة في الإسكندرية قبل سفري إلى لبنان؟ ألم يكن طافحًا بالبذخ؟ وكنا – يومها – خارجين لتونا من محنة الأردن! لا أعرف كيف ينفق الناس بهذه السهولة؟ كيف تهون عليهم الأموال؟..

أصدر صفيرًا خافتًا، ثم لكزني في ذراعي وقال:

- دعنا من بخلك وأنظر هناك! أنظر إلى تلك المرأة الثريّة الجميلة أنظر كيف يلاحقها ذلك التّاجر الكهل.. يحاول التقرب منها!..

كانت ترتدي فستانًا كحلْيًا فاخرًا، لكن زينتها ظلّت هادئة وقورة وظلَّ شعرها طبيعيًا مسدلاً على ظهرها، متناغمًا مع بياض جسمها وملامحها الفخمة الباهرة!.. معقول؟! أتكون هي؟! بل هي لم تتغيّر

كثيرًا.. ياه! بعد هذه السنين الطويلة! كم عمرها الآن؟ "أكبر منك بخمس سنوات".. أذكر أن إبراهيم الشّاهد قال ذلك! كنتُ في السادسة عشرة من عمري! إذًا هي الآن في الأربعين أو الحادية والأربعين!.. معقول!

- إنها سوزان الأفندي!
- سوزان قاسم الأفندي؟.
- أتعرفها؟
- رأيتها منذ عشرين عامًا!
- وكيف عرفتها بعد هذه السنوات الطويلة؟ بعينيك أم بقلبك؟
- بل من ملامحها الفخمة الطافحة بالعز والجمال والهيبة! لم تتغير كثيرًا لم تغيّرها السنوات الطويلة، بعض السمنة فقط.. ظلّت كما هي أفندية! أفندية بنت أفندية!!
- لكنها أفندية مسكينة!
- مسكينة؟ ماذا تعني؟
- مات زوجها منذ سنة بعد مرض عُضال.. تسبب مرضه الطويل ثم موته في إرباك حياتها وتدهورها.. قلَب حياتها كلها وورثّها الديون الطائلة.. أعتقد أن التاجر الكهل يحاول بلع ما تبقى لديها.. لكن كهولته قد لا تساعده على تحقيق مآربه!
- ماذا تعني؟ التجارة ليس فيها شباب وكهول!
- ومن قال إنه يسعى إلى الأموال والشركات فقط؟ هذا رجلٌ مزْواج! تزوج سبع مرات.. معروف في الوسط الفلسطيني باسم "أبو

سبعة".. إمرأة جميلة مع شركة سياحة ومصنع ملابس.

- و.. وبعدين بيسموه "أبو ثمانية"..

- شركة سياحة ومصنع ملابس..

- ونصف فندق في العتبة.. هـذا غير بيّـارة غـزّة، مئتا دونم من الحمضيات المثمرة الفاخـرة.. يا بختك يا "أبو ثمانية"!!

- خَلَص! سمّيته "أبو ثمانية" زوّجتها له.. ألم تقل أن كهولته قـد لا تساعده على تحقيق هدفه؟!

- لكن أين الشباب الأثرياء يا صاحبي.. أين؟

وفكّرت: "الشباب موجود يا صاحبي! لكن كيف الوصول إلى الهدف؟ امرأة ثريّة – هذا ما يعرفه الناس على الأقـل – الجمـال والهيبـة والاسم.. سوزان الأفندي! هل جاءت صـفقة العمـر يـا عصـام؟ معقول؟".. وسألتُ صاحبي:

- هل يعرف الجميع أنّها مثقلة بالديون؟!

- لا.. لا طبعًا.. هذه أسرار! أنـا عرفـت بالصـدفة مـن أحـد المحاسبين.. الموضوع محصور جدًا..

نظر في وجهي.. غمز بعينه ثم ابتسم.. وعندما ضحكنا معًا، أعلنت الموسيقى دخول الراقصة إلى الحفل المَهيب..

(٢)

عزيزة الخيّال

انطلق صوتُ المؤذن مدويًا في العرابيّــة، فتوقفــتْ الســيارة أمــام الحوش الكبير! كنتُ أعرفُ أن كوثر العرابي فــي انتظــاري قويّــة متماسكة، رغم أنّها تركت نصفها مدفونًا في بيروت!.. وكنتُ أعرف أنّها ما زالت تحتفظ بجمالها وبهائها! لكن ما لم أكن أعرفــه، ولــم أتوقعه، أنّها ستستقبلني بذلك الثوب الفلسطيني البديع! كأنها تســتعدُ لوصلة من الدبكة، أو لرقصة في عرس شقيقتها، أو لحفل يحضــره خالد الربيع! ما أروعكِ يا كوثر!.. عندما تحدّثتُ معها في الهــاتف، بُحَّ صوتها للحظات، لكنها عادتْ وتماسكتْ ومازحتني، وتحدّثتْ كأنّها لم تُصب في خالد، لم تفقده!.. كانت تتحدثُ وكأنّه بجوارها، يداعبها ويمسّد شعرها، ينظر في عينيها ويتغزّل فيها:

- كوثر أنت امرأة عظيمة!

قلتُ بعد أن جلسنا في غرفة الاستقبال:

- العظماء هم الشهداء يا عزيزة! الذّين ضحّوا بحياتهم مــن أجلنــا ومن أجل أطفالنا ومستقبلنا!

- طبعًا.. طبعًا! وكذلك الّذين يحافظون على عهودهم ويسيرون على خطاهم عظماء!

- صحيح.. صحيح! تعالي.. تعالي يا عزيزة أورّيكي حاجة..

جذبتني من يدي فنهضتُ معها.. أخذتني إلى غرفتها، وعندما دخلتْ وقفتْ في منتصف الغرفة ثم أشارت إلى جوار التسريحة، فرأيتُ الصورة!.. صورة مكبّرة لنا نحن الخمسة! خالد الربيع وإبراهيم الشّاهد وسميرة صالح وكوثر وأنا! الصورة نفسها، التي التقطها لنا ذلك المصوّر الجّوال في ذلك اليوم البهيج منذ ثلاث سنوات! صورة الميرلاند التي لن تتكرر..! ثوب فلسطيني.. وصورة فلسطينية! وعندما عاد ثائر وهدى من المدرسة كانت تزيّن صدريهما شارتان بألوان العلم الفلسطيني..! ما هذا الوفاء والعشق، أيّتها الشرقاوية العظيمة، بل أيّتها الفلسطينية؟!..سحبتْ عينيها من الصورة، تنهدتْ ثم قالت فيما يشبه الهمس:

- عزيزة أريد منك خدمة..

- خدمة؟ على عيني، تفضلي!

- أريد منك أن تبحثي عن أحد الفلسطينيين المسافرين إلى ليبيا وتحضريه إلى هنا.. أريدُ شخصًا تثقين به تثقين به جدًا..

- ليبيا! ولماذا ليبيا؟!

- أريد أن أرسل معه أمانة..

- أمانة؟.. يعني هدّية، هل لك أقارب في ليبيا؟!

- بل أمانة أريده أن يوصلها إلى إبراهيم الشّاهد، يسلّمها له

بنفسه! لكن سامحيني يا عزيزة لا أستطيع أن أفصح لكِ عنها، ولا أريد الشاب أن يفتحها.. أرجوكِ يا عزيزة ساعديني واحترمي رغبتي، هذه وصيّة خالد!

- حاضر.. حاضر يا كوثر، لا تقلقي.. خلال أسبوع، قبل سفري إلى غزّة إن شاء الله سأحضر لكِ الشخص المناسب.. لا تقلقي، وسيكون ثقة بإذن الله..

خرجنا من الغرفة فوجدنا أم كوثر المقعدة تداعب أحفادها وتمزح معهم! وعندما دخل فوج جديد من الأطفال، أمسكت كوثر يديّ بحنان وقالت:

- تعالي يا عزيزة نبعد عن الدوشة، تعالي نشم شوية هوا برّه!

هبطنا إلى الفناء، ثم سرنا باتجاه الترعة، وعند شجرات الصفصاف الحانية على الماء، وقفت كوثر!.. لامستْ أوراق الصفصاف، داعبتها ثم شردتْ بنظرها إلى البعيد!.. بدت كأنها تنظرُ إلى شخص بعينه، بل هي تنظر الآن إلى خالد الربيع تناجيه وتحادثه!.. احترمت تأملها، لكنني خشيتُ تغلب الحزن عليها، فقطعتُ شرودها:

- يبدو أن الأولاد قد انتظموا في الدراسة بسرعة..

- هه.. آه.. الحمد لله! ثائر وهدى مجتهدان ولا خوف عليهما.. يستطيعان تعويض ما فاتهما من دروس الحمد لله..

ذهبتْ عيناها إلى البعيد مرة أخرى لكنها التفتتْ إليَّ فجأة:

- عزيزة، هل تعرفين عصام الفايز؟

- طبعًا أعرفه.. أعرفه جيدًا! كان صديقًا لإبراهيم الشّاهد ولخالد

أيضًا! رأيته منذ أسبوع في مكتب المنظمة بالقاهرة.. لكنني.. تجاهلته!

- ولماذا تتجاهلينه؟

- لا شيء! لا أريد متاعب! أنا مسافرة إلى غزّة، ولا أريد منغصّاتٍ عندما أعود! تعرفين، عصام كان في بيروت.. لكن لماذا تسألين عنه؟ أين تعرّفتِ عليه؟

- عاد معنا على نفس الباخرة.. تذكّرته فقط!

تمتمت وعندما اكتشفتْ أنني أنظرُ إليها صمتت!..

ها هي كوثر تخفي شيئًا متعلقًا بعصام الفايز، كما أخفيتُ أنا سبب تجاهلي له! عيونك الجميلة تفضحك يا كوثر! يا إلهي، هل يكون عصام قد تقرب من هذه الفاتنة النجلاء ولفَّ شباكه حولها؟ هل يمكن أن يصبح... لا.. لا.. كوثر لا يعجبها هذا النوع من الرجال! ثم أنَّ خالدًا ما زال يسلبُ لبّها ويسيطرُ على كيانها.. ما زال مغروسًا في قلبها ودمها!.. لابدَّ أن أمرًا آخر وراء سؤالها!.. وطردتُ الفكرة الملعونة من رأسي، وندمت عليها! تبًا لهذه الوساوس النسائية الشيطانية.. اعذريني يا كوثر، اعذريني واغفري لي.. ما زلتُ أراكَ عظيمة.. ما زلت!..

بعد أسبوع عدتُ إلى حوش العرابية مرة أخرى، وكان معي هذه المرّة شاب فلسطيني يُزمع السفر إلى ليبيا!.. تركتنا كوثر في غرفة الاستقبال لبرهة، ثم عادت وفي يدها لفّة محكمة التغليف! لفّة تزن كيلوجرامًا أو اثنين! ولاحظتُ أن كوثر قد كتبت عليها عنوان إبراهيم

الشّاهد بالتفصيل!..

بعد الغذاء، استأذنا للمغادرة، فأمسكتْ كوثر يدي، وعندما تقدّم الشاب خطواتٍ نحو الباب الخارجي قالت هامسة:

- إوْعي يا عزيزة تكوني مش متأكدة من الشاب! يعني زي ما اتفقنا، ميفتحش اللّفة! هه.. وصيّه يا عزيزة: لازم يسلمها لإبراهيم باليد، حتى لو بقي سنة يدّور عليه.. وصيّه!

- حاضر.. حاضر يا كوثر متخفيش! أنا فهّمته، اطمئني، الشاب ثقة وأنا بعرفه وبعرف أهله من زمان! بلاش نقول له يفتح اللّفة أو ما يفتحهاش! بلاش يشك، ها!

- كِده.. طيّب.. خلاص اللي تشوفيه يا عزيزة.. ربنا يستر!

وعندما عدنا إلى القاهرة، خمّنت أن اللفة تحوي نوعًا من الملابس.. سروال، قميص، بلوفر، جاكيت، يعني! لعلها بعض الملابس تذكار من حاجيّات خالد الربيع، رائحته، طلبها إبراهيم ليتذكر بها صديق العمر ويشم أنفاسه!!..

بعد شهرين، عدتُ إلى غزّة! واكتشفت أنني غريبة، والعزيزة غريبة، والقرية كلها غريبة!.. تعجّبتُ! سنوات قليلة تفعل كل هذا! لا أصدق أن هذه هي قريتي التي نشأتُ وترعرعتُ فيها!.. أفراح صاخبة وسهرات وحفلات، وعلى مقربة منها، بجوارها، في نفس الشارع، مآتم ودور عزاء!.. زغاريد وفتيات صغيرات يفرحن بالزواج والحلي والذهب إلى درجة الجنون! وفي الجوار شجار عائلي شرس تستخدم فيه السكاكين والنبابيت!! صِبية وفتيان وأطفال يتسابقون في التسرّب

من المدارس، وآباء يتشمّسون يلعبون السيجة ويتباهون بـأولادهم الذين يعملون في إسرائيل، في المزارع والبنايات.. والمستوطنات!! كأن هذه القرية مخدّرة أو فقدت صوابها! من ضرب هذه القرية على رأسها وأفقدها وعيها؟ مَنْ؟ كأنها لا تخضع للاحتلال، كأن الإسرائيليين لا يجوبونها طولاً وعرضًا ويتجولون في شوارعها راجلين آمنين، ويتبضّعون من حوانيتها مطمئنين!! والمعتقلون آه أولئك المنسيون القابعون في السجون، لا أحد يتذكرهم! نسيتهم القرية! حتى الزيارات صارت شحيحة، تحوّلت إلى عبء على هؤلاء المتخمين بالأولاد والأعراس والخلافات.. لا, لا هذه ليست قريتي التي أعرفها..

- الناس تعبت يا عزيزة، لا تظلميهم!

قال الأستاذ زاهر جودة، وكأنه يقرأ ما يدور في رأسي!.. هل تغيّر الأستاذ زاهر هو الآخر؟.. لماذا يحاول إيجاد التبريرات والمعاذير! منذ أن عدتُ، وهو يحاول "عقلنة" الأمور "وترشيدها"!.. هل غيّرته سنوات السجن والاعتقال؟ ها هو يبدو ضعيفًا محنيًا يضع نظارة سميكة على عينيه، وها هي الصلْعة تكبر وتتوسط رأسه وتفيض على حافتيها ضفتان من الشعر الأبيض القصير! لم تعد بنيته قوية صلبة، كما عرفتها! وعباراته، لم تعد حاسمة!.. لماذا يذكرني هذا الرجل بغاندي، يبدو نحيلاً هَرِمًا، ويكاد يدعو إلى "النضال السلمي" – مثله! عجيب! هذا الرجل الذي خطط لجميع عمليات القرية، وعلى يديه تتلمذت كوادر القرية كلها، هذا "القائد" يتحوّل إلى "حمامة للتعقل

والترشيد"!.. وقلتُ في نبرة مسايرة:

- يعني خلص.. استكان الناس وأعجبتهم الحال؟

- وضع الثورة بعد مغادرة لبنان، سهولة كسب المال وفتح مجالات العمل في إسرائيل، شجّع النّاس على الالتفات لمعيشتهم وطلب الراحة!.. تغيّرت اهتمامات الناس.. وهناك حالة من الإحباط أيضًا!

- هناك أشياء لا علاقة لها بوضع الثورة ولا الكسب السريع ولا الإحباط! النعرات العائلية المتنامية! تسرّب الصبية والتلاميذ من التعليم، وتشجيع الآباء لهذه المصيبة!.. إهدار الأموال والأعراس والحفلات الصاخبة! المنطق يقول إن هذه الظواهر يجب أن تتقلص لا أن تزداد خاصة في مثل ظروفنا.. كان يجب أن يتشبثّ الناس بالتعليم، أن يُصروا على تعليم أطفالهم.. أن يزداد الناس في التآلف الاجتماعي.. أن يتناسوا الأحقاد والنعرات العائلية! في ظل الاحتلال وإهدار الكرامة وانعدام "البطولة" بمَ يتباهى هؤلاء؟

- الغريب أنك تتحدثين وكأنك لم تدرسي في الجامعة وتحصلي على ليسانس في علم الاجتماع! هذه الظواهر، والتي أسميها "مظاهر مؤقتة" تعبر عن سيكولوجية الإنسان المقهور! هؤلاء الناس مستلبون مقهورون في أعماقهم! لا تأخذي الأمور بظاهرها.. والإنسان المستلب المقهور يحاول أن يُظهر عكس حقيقته، يحاول أن ينفي استلابه وقهره بمثل هذه الأشياء التي تتحدثين عنها! يظهر قوته ويتباهى على المحيطين به، جيرانه، أقاربه، الذين يعملون معه! يتفاخر بالعائلة، وتعدد الزوجات، بكثرة الأولاد والجاه والمال

والعمارات، بالبذخ في الأعراس.. وهكذا! لكن، راقبيهم ودققي في حالهم، وشاهدي كيف تذوب هذه "العظمة المزيفة" في حضرة مجندة إسرائيلية حبشية!!..

- أستاذ زاهر، أنت تعرف أنه كان يُضرب بنا المثل في الحرص على التعليم! هذه القرية كانت تفاخر بالعدد الكبير من أبنائها المتعلمين.. مصيبة! ما يحدث مصيبة!

- كيف يصمد المتعلمون أمام هذه الإغراءات؟ أي شخص يحسبها بالعقل سيجدها خاسرة! ما دامت الدول العربية "الشقيقة" لم تفتح لهم باب الرزق، والنجاة من براثن السيطرة الإسرائيلية وسياسة التجهيل المدروسة! لم تفتح لهم منافذ العيش الكريم والصمود! خير الدول العربية ومجالات العمل مفتوحة للهنود والسيرلانكيات والتايلنديين وكل أجناس الأرض، عدا أهل الأرض المحتلة.. هل هو خوف علينا أم خوف منا؟ لا أدري!

- من يسمعك، يظن أنّكِ ستذهب غدًا للعمل في إسرائيل – مثلهم! وعندما تزوج ابنك ستقيم حفلاً باذخًا صاخبًا، وتحضر النوريّات وزجاجات الخمر.. ومش بعيد تعزم بعض اليهود – مثلهم!!.

- لَهْ.. لَهْ يا عزيزة.. خرّبتيها! مش لهذه الدرجة!

- راحت البلد يا أستاذ زاهر.. راحت وانتهى الأمر!

- البلد لا راحت ولا حاجة، كل هذه الأشياء بتروح وبتنتهي.. بكرة بتروح السَكرة وبترجع الفِكرة.. اسمعي، سأحكي لك مثالاً واحدًا من تاريخ هذه القرية.. في الثلاثينات كان معظم أهل البلد يعملون في

مستعمرة الغصين على طرف البلد! وكانوا مبسوطين والأمور ماشية تمام.. وعندما قامت الثورة وأصبحت القضية إما نحن وإما هم، أهل البلد الذين يعملون في المستوطنة ورزقهم عليها هم الذين دخلوها واستولوا عليها وطردوا اليهود منها وسلموها للقوات العربية نظيفة!

- أيش يعني؟

- يعني لابد أن يأتي يوم وتستيقظ الناس وترجع إلى عقلها.. لا تخافي يا عزيزة ليس هذا ما أخشاه وأخاف منه.. اللي بخوِّف إشي ثاني!

- ما هو؟

- بعدين.. بعدين خليني ألحق الصلاة.. وعندي أمانة لازم أسلمها لأصحابها!..

- نحن نعرف أنكِ سلّمتِ الأمانة في القاهرة.

فاجأني الضابط الإسرائيلي المسئول عندما دخلت لمقابلته.

- أمانة؟ أيّة أمانة؟

- الرسالة التي تمّ تهريبها في الحذاء.. أنتِ لم تلتزمي بالتعّهد الذي كتبتيه على نفسك.. لقد تعهدتِ بأن تتفرغي للدراسة فقط، وأن لا تتدخلي في الأمور الأخرى..

- بل التزمتُ بذلك..

- لا.. لا يا عزيزة، أنتِ عملتِ أشياء غير الدراسة والتعليم.. بلاش الرسالة، أنظري (وعرض صورة) أليست هذه صورتك؟ وهذا،

أليس هو ابنك شادي، ابن صديقنا جميل؟.. شو لابــس؟.. كوفيــة، وحامل علم فلسطين! وأنتِ، شو لابسة؟ ثــوب فلســطيني وحاطّــة كوفية، وبتدبكي معاهم! هذه حفلة للجبهة الشعبية في الإســكندرية، صح، يعني فتح والشعبية مع بعض! أنتِ أيش ودّاكي مــن القــاهرة على الإسكندرية يا عزيزة؟!.طيّب وهذه؟ (وعرض صــورة أخــرى) أليست هذه صورتك؟ حاملة علم فلســطين وتهتفــين ضــدنا وضــد أصدقائنا الأمريكان، هذه الصــورة أمــام الســفارة الأمريكيــة فــي القاهرة.. صح؟

- هذه نشاطات طلاّبية، ولم أكن فيها بمفردي.. بعدين أنتم تقولون أنكم دولة ديمقراطية وهذا تعبير ديمقراطي!..

- آه طبعًا نحن بلد ديمقراطي، ونحب الديمقراطية، لكن ليس فــي مصر يا عزيزة، هناك اتفاقية سلام معهم وهذا تحريض ضدنا وضــد الاتفاقية!.. بلاش الصور والأعلام والمظاهرات.. هذه..

قلّب في الملف الذي وضعه أمامه، ثم أخرج ورقة، وأردف:

- هذه القائمة أنظري! هذه قائمة بأسماء الطلبــة الــذين ســجّلوا للذهاب إلى بيروت سنة ١٩٨٢ مصريون وســودانيون وعراقيــون وجزائريون ويمنيون وليبيون ومغاربة وطبعًا فلسطينيون.. تاريخها، آه في ١٩٨٢/٦/٢٥. اسمك موجود فيها رقم ٨ عزيزة عابد الخيّال، يعني أنتِ كنتِ ذاهبة إلى لبنان لتحاربي معهم! كنتِ ذاهبة لتنضــمي إلى الإرهابيين الذين ذهب جيشنا ليخلّص الشعب اللبناني منهم!..

وأطاحت عبارته الأخيرة برأسي، فشعرتُ بالدوار. أوشكتُ أن أقــذفَ

في وجهه كل غضبي.. أن أعبّر عن احتقاري له ولحكومته ولوظيفته وجيشه! كنت أريدُ أن أقول لــه أنهــم قتلــة ومجرمــون وأنّ مــن حاصروهم في بيروت مناضلون، يدافعون عن حقوق مقدســة وأننــا سنسير على دربهم! لكنني تذكرتُ "غاندي العظيم" بعباراته الرشــيدة المهدئة.. "الظروف لا تسمح بالمواجهة المباشرة، لابد من الانحنــاء للعاصفة، من الأفضل التحمل قليلاً وتغيير أساليب العمــل، حتــى لا نخسر كل شيء".. فتماسكت:

- أنا لم أسجل للذهاب إلى لبنان أو سوريا! كيــف أســافر وأتــرك ابني؟! تعلمون أن ابني كان معي! هذه القائمة مزوّرة!

- سنرى، إذا مــا كانت القائمة مزّورة أم لا! علــى كـــل حـــال سنرسل في طلبك إذا تأكدنا أنها مزورة..

لكنهم لم يرسلوا في طلبي! سنة كاملة، لم يطلبوني! فتأكدت أنني لن احصل على أية وظيفة في الحكومة!..

وخرج غاندي من جديد، جاء الأستاذ زاهر جودة، محنيًا باسمًا هــذه المرة:

- هذه أوراق ومذكرات عن القرية قد تفيدك وتعيد لك الثقة.. سمعت أن الوظيفة قرّبت!

- أخبرتَك أنّهم لن يرسلوا في طلبي وأنني فقدتُ الأمل..

- لم أقصد الحكومة!

- آه.. تعني عرض جميل حب الرمّان، موظفة في شركته، سكرتيرة يعني!

- عرض معقول! لماذا لا تقبلينه؟

- آه.. يعني نفسيتك اليوم رايقة وجاي..!

- اسمعي، عندي أخبار طيبة!.. أخبرني أحد الأصدقاء، صديق قديم من أيام الدراسة، أن وكالة الغوث ستعلن عن حاجتها إلى باحثات اجتماعيات لتعيينهن في مدارس البنات التابعة لها!.. وعندما عرضتُ عليه شهادتك وملفك، أعجبته تقديراتك العالية! أعتقد أنّه سيكون في لجنة المقابلات، ولا شك أنّه سيعمل ما في وسعه.. في قريتنا مدرسة إعدادية للبنات، ولا توجد فيها مشرفة اجتماعية! ما رأيك؟..

- رأيي؟! ماذا سيكون رأيي.. يا ريت!!..

ومرَّ من أمامنا شاب طويل نحيف، يرتدي ملابس أفغانية غريبة أطلق لحيته وتركها متشعبة مبعثرة!.. لاحظ الأستاذ زاهر أن الشاب لم يلق علينا التحية، فمسح نظارته وسألني:

- من ذلك الرجل يا عزيزة؟

- أعتقد أنَّه ابن السمّري، لا أعرف اسمه..

- اسمه حمزة.. هؤلاء الشباب لا يلقون السلام على أمثالنا.. إنّه طالب في الجامعة الإسلامية..

- غريب ما حدث في الجامعة الإسلامية. سمعتُ عن أشياء مرعبة مخيفة جنازير وسيوف وماء نار وشج رؤوس ودماء! ما هذه القسوة؟! أنا لا أصدق أن ذلك كله كان بسبب انتخابات!

- تقصدين أحداث ذلك السبت الدامي!.. الموضوع أكبر من نقابة العاملين وهذا ما يخيفني أكثر من "المظاهر المؤقتة" التي تحدّثتِ

عنها والتي تقلقكِ في القرية! ابن أخي واحد من هؤلاء، زميل هـذا الشاب الذي لم يلقِ علينا تحية الإسلام! تصوّري أنّه قال لي منذ أيّام: إذا حدثتْ مواجهة حاسمة بيننا وبينكم – هكذا – فلن أتردد في قتلك! دفاعًا عن عقيدتي وديني!.. كنا قد فرغنا من تناول الطعام معًا!..

- معقول! إلى هذه الدرجة أوصلوا الشباب وسيطروا على عقولهم؟! الابن يقتل أباه وعمه وأمه وشقيقه! لم نعهد مثل هذه القسـوة فـي مجتمعنا!

- منذ شهرين أو ثلاثة هجـم أحـدهم علـى دار الحسـني، كسَّـر التلفزيون والمسجل والأشرطة والراديو وأتلف أغراضًا أخرى.. كان يكسر ويصرخ: كفّار، فاسدون، فاسقون!.. تصـوّري دار الحسـني طلعوا كفارًا من قريش ونحن لا ندري! كان هائجًا يضرب كـل مـن يحاول التصدي له!! شجّ رأس ابن الحسني وجـرح أمـه وأختـه.. وبتعرفي دار الحسني لا عيلة ولا ظهر، بلعوها وسـكتوا!.. بعـدها، تجرأوا أكثر! ذهب ومعه مجموعة من أمثاله وحاولوا الاعتداء علـى عرس دار كرّاز.. حاولوا تخريب العرس.. نوّريات وخمْـرة، يعنـي مسْخرة واضحة! لكن هذه عائلة كبيرة مش لعبة! هجم شبابها علـى المشايخ وكسّروهم، رنّوهم علقة سخْنة، بعدها اختفوا من القرية!

- أيش هذه البلد؟! يا إمّا خمْرة ونوريّات ورقص ومسخرة، يا إمّـا سيوف وتكسير وفقع وتكفير؟! أيش مفيش حل ثالث؟!

- اسمعي يا عزيزة. أنتِ تعرفين أنني صريح، نحن أيضًـا ارتكبنـا أخطاء!

- أخطاء! من؟

- جماعتنا.. التنظيمات الوطنية، تنظيمات المنظمة أخطأت.. اغتيال حمدان الرقيب كان خطأ.. كان الرجل متدينًا، لكنه لم يكن عميلاً! محسوب على المشايخ صحيح، لكنه لم يكن جاسوسًا! لماذا يقتلوه؟

- لماذا وافقتم على تصفيته إذن؟!

- أنا لم أوافق لكنني لم أستطع منعهم! كذلك ما نشرته تلك المجلة العاثرة كان خطأ! التقرير الذي نشرته استفزّهم..

- أي تقرير؟

- حددتْ فيه أسماء ثلاثة من المشايخ، اتهمتهم بالعمالة و"قررتْ" – هكذا – الحكم عليهم بالإعدام! شعر المشايخ، طبعًا، بالخطر، وأنهم لابد أن يستعدوا للدفاع عن أنفسهم.. آه.. دخلنا في صراع لا تحمد عقباه وإسرائيل مرتاحة وحاطّة في بطنها بطيخة صيفي! اعرفتي أيش اللي مخوفني يا عزيزة؟!..

مسح النظارة مرة أخرى ثم تفحصني، وأردف:

- اسمعي يا عزيزة، أنتِ مثل بنتي بلاش هذا اللّبس، بلاش الجينز والبنطلونات المحزقة والشعر العريان! حطي منديل على راسك والبسي مثل بنات البلد.. قربي منهم علشان يحبوكي ويقتنعوا بكلامك يا عزيزة! لابد أن تكوني مثلهم! لابد أن يشعروا أنك واحدة منهم، ها!

- حاضر.. حاضر يا أستاذ زاهر، حاضر يا غاندي العظيم..

(٣)

إبراهيم الشّاهد

وهطلَ المطــر.. وانسابتْ الغدران في الطرقــات.. ومثلمــا فعلتهــا طفلاً، سرتُ تحت المطر.. "هييه.. أُمطــري يا ميطرة على عــروق الشيجرة.. أُمطري وزيدي.. بيتنا حديدي.. سيدي في البيّارة.. مــا بيخاف الغارة.. هييه.." سرتُ تحت المطر وضربتُ الإسفلت بحــذائي و..

"..أنظر لم تبقَ قطرة واحدة على الإسفلت.. انزلقتْ الميــاه ونظّفــتْ الشوارع، وها هو الإسفلت يبدو جميلاً لامعًا.."

كنّا نسير تحت الرذاذ.. كان خالد الربيع يشير إلى المنحدرات اللامعة تحت الأضواء، كنا نتمتع بشتاء بيروت وعذوبة المطــر.. آه.. مــا أوجع غيابك يا خالد! تركتني وحيدًا فريسة للمطر.. والذكريات:

"تثاءبَ المساءُ والغيــومُ ما تزالْ
تسحُّ ما تسحُّ من دمــوعها الثِقالْ
كأن طفلاً باتَ يهْذي قبَل أن ينامْ
بأن أمَّه – التي أفاقَ منــذُ عــامْ

فلم يجدها، ثم حينَ لجَّ في السؤالْ

قالوا له بعد غدٍ تعودْ

وإن تهامسَ الرفــاقُ أنَّها هنــاك

في جــانب التل تنامُ فــوق اللُّحودْ

تسفُّ مــن ترابها وتشربُ المطــرْ

هل كنتُ طفلاً يبحث عن أمَّه أم يبحث عنكَ؟ أم مجرد شخص ضــائع لا يدري ما يفعل فلجأ إلى المطر؟

أتعلمينَ أيّ حزنٍ يبعــث المطــرْ؟

وكيفَ تنشجُ المزاريبُ إذا انهمــرْ؟

وكيفَ يشعرُ الوحــيدُ فيه بالضياعْ؟

بلا انتهاء – كالدم المُراقِ كالجياعْ

كالحب، كالأطفال، كالموتى – هو المطرْ

ومقلتاكِ بي تطيفان مع المطــرْ.."

أتذّكرُكَ! بعد ثلاثة أعوام من غيابك، أتذكرُّ كل شيء..

كنتَ تحفظ قصيدة السيّاب عن ظهر قلب.. كنتُ أُسمعكَ مقتطفاتٍ من شعر نزار ودرويش وصلاح جاهين والأبنــودي ونجــم، فتُســمعني قصيدة السياب عن المطر والجياع:

ثم اعتللنا – خوفَ أن نُلام – بالمطرْ..

وكم ذرفنا ليلة الرحيل مــن دمــوعْ..

أفقتُ يا خالد في منتصف الليل– مثلما فعلنــا فــي بيــروت-لأتعلــل بالمطر.. وبعد ساعة، لم أعد أُفرق بين دمــوعي وقطــرات المطــر

المناسبة على خدي، المنزلقة من ذقني.. سرتُ وحيدًا مبللاً بـالمطر والذكريات وهذيتُ بالسؤال عنك، كنتُ أحدّث نفسي..

- تعال نختم هذه الجولة المطرّية بالفطائر الشهيّة..

- هذه المرَّة على حسابي.

- إذنً، تفحّص محفظتك، لأننا سنلتهم كمية كبيرة منها، وسنأخذ بعضها لكوثر وسميرة والأولاد..

- موافق، سأعوضها في المرة القادمة..

وأثناء التهامنا للشطائر الشهيّة الساخنة تُسمعني ترجمة لقطعة شعرية قصيرة للوركا.. أذكر أنها كانت بعنوان "حقًّا":

أوّاه ما أقسى أن

أحبُّكِ كلَّ هذا الحب

في حُبّكِ يؤلمني الهواء

وقلبي

وقبّعتي

من يشتري حزامي

وحزنَ هذا الخيط الأبيض

لينسجَ منه المناديل

أوَّاه ما أقسى أن

أحبُّكِ كلَّ هذا الحب

وأشاكسك وأنا أنفخ من سخونة الشطيرة:

- من تكون هذه؟ الأرض أم المرأة أم الفكرة؟

فتجيبني وأنت تنفخ أيضًا:

- أو هذه الشطائر الناريّة اللذيذة!

فنغرق في الضحك.. والمطر..

مطر.. مطر.. مطر.. كان سائقو السيّارات يتمهلون بمحاذاتي ويشيرون لي بالصعود اتّقاءً للمطر والمرض.. لكنني كنتُ أبتسم لهم.. أشكرهم وأرفض الصعود.. نعم كنتُ أبتسمُ وأسيرُ غارقا في المطر والحزن ومقلتيكَ اللّتين طافتا على المطر..

في اليوم التالي لم أذهب إلى العمل، ونمتُ نومًا فائضًا بالمطر والوجوه.. وعندما استيقظتُ وجدت سميرة قد رصَّت بجواري أدوية النزلات الصدرية.. شربتُ حساءً ساخنًا وليمونًا ساخنًا وبلعتُ ثلاثَ حبات وغرقت مرة أخرى في المطر.. في المساء أيقظتني سميرة مرة أخرى، جفَفَتْ عرقي ثم أخبرتني أن عطا الجوراني ينتظرني في غرفة الاستقبال ومعه شاب آخر..

- الأخ سعيد سالم، وصل لتوّه من مصر، معه هدّية لك.. ذهب ليسأل عنك في مكان عملك، فأخبروه أنّك في إجازة مرضية..

لم تكن هدية كوثر العرابي غريبة! أتذّكر الآن أنني طلبت من كوثر في الهاتف أن ترسل لي بعض حاجيّات خالد، شيئًا من ملابسه، أتشممها، لأتذكرّه وأتعلل بها من الهموم!! هذه صدرية، وهذا سروال، وهذا؟ شريط في جيب الصدرية.. استنشقت رائحة خالد العزيز، ثم استمعتُ إلى الشريط.. كان صوت خالد حزينًا، ومشحونًا بالوجع.. والحيرة.. لم أتوقع أن يكون خالد على هذه الدرجة من

التشاؤم.. والإحباط.. لم يكن ما ذكره عن عصام الفايز مفاجئًا لـــي! كنت أتوقعه.. بل وأعرف كثيرًا منه، أعرف الكثير عن عصام الفايز وأخباره تصلني أولاً بأول.. ها هو يبحث الآن عن طريقـــة لإشـــهار ثروته التي جمعها وهرّبها، ليستثمرها!.. وها هو ينصب شباكه حول سوزان الأفندي، ولعله الآن قد تزوّجها.. "أخيرًا وصل عصام الفـــايز إلى المرأة الفخمة الطافحة بالعز والجمال يا خالد".. لم تكن معلومات خالد الربيع عن عصام جديدة، بل حيرته وتبريراته التي تناثرت فـــي الشريط هي الجديدة!.."تصوّر يا إبراهيم أنني لا ألوم عصـــام الفـــايز أحيانًا.. اكتشفت أنّه ملاك بالنسبة لغيره!.. في الحقيقة هنـــاك مـــن قاموا بأفعال فظيعة أكثر مما فعله عصام بمئات المرات.. هناك مـــن نهبوا وقتلوا واغتصبوا ولم يحاسبهم أحـــد.. كثيـــرون ظلـــوا فـــي مواقعهم رغم الجرائم التي ارتكبوها ثم زادوا في بطشهم ووقاحتهم.. يبدو أننا نغالي في قسوتنا على عصام الفايز.. لماذا نقسو عليه إلى هذه الدرجة؟ ألأنه من طينتنا ومثلنا من المسحوقين والفقراء؟.. في الحقيقة أشعر أن عصام محقٌ عنـــدما يطالبنـــا بمحاســـبة الجميـــع وتعريتهم قبل محاسبته هو..".

كان خالد يلومني عندما أبدي بعض المرارة وأشير إلى تحول الثورة إلى "شركة استثمارية"!

- لن ينتصر هؤلاء يا إبراهيم! سيذهبون وتستمر المسيرة، ســـيبقى الشرفاء والمناضلون الحقيقيون! سينتصرون يا إبراهيم هذا منطـــق الأشياء والحقيقة لا تموت أبدًا!!

"كيف تبرر جرائم عصام الفايز بجرائم غيره إذن؟! كم أنا في حاجة لأن أتحدّث معك، أحاورك، لأفهم ما كان يدور في رأسك ويمور في صدرك!؟"..

بعد أسبوع من تلك الليلة الماطرة، عدتُ إلى العمل.. وكان أول شيء فعلته، تقديم استقالتي.. فوجئ الكثيرون! اتهمني بعضُهم بالجنون! ومنهم بلال تحسين:

- من يكون في وضعك ويستقيل؟ أين ستذهب؟

- سأبقى هنا!

- يعني لم تحصل على عمل في إحدى دول الخليج؟

- لا..

عندها شدَّ شعره وصرخ:

- إذن أنتَ مجنون فعلاً كما يقولون! لا يُقْدم على ما فعلته أيُ عاقل! لماذا هذا التصرّف؟ أنصحك بأن تسرع إلى سحب استقالتك.. أستطيع مساعدتك في هذا الأمر!!

الشخص الوحيد الذي فهمني وقدّر أسباب استقالتي ورغبتي في الابتعاد هو محجوب الفيل.. يومها، شعرتُ أنّه كان يضم جوانحه على جروح غائرة ويأس عصي على الشفاء!.. اشتبك مع بلال تحسين، انفجر فجأة، وراح ينفثُ همومه المحتقنة ويعّري شخصية بلال تحسين الانتهازية "الحربائية"!

- على فكرة يا أخ بلال، إنت راجل انتهازي!

- انتهازي، أنا؟ إنتَ بتقول الكلام دَه ليَّ أنا؟!

- أيْوه.. انتهازي وجبان وحربابة كمان..

- علشان بنصح الراجل يسحب استقالته ويشوف مصلحته صرت انتهازي وجبان وحرباية يا أخ محجوب!؟

- لا! مش علشان كدة.. علشان إنتَ مش حاسس بحاجة ومش عارف إيه اللي حصل! كل الدنيا عندك فلوس وبس.. مرة هنا، ومرة هناك.. شوية مع دول وشوية مع دول.. المهم تقبض فلوس وبس! إن شاء الله من الشيطان!! يا أخ بلال إنتَ وأنا وكلنا صرنا دُمىً عارف يعني إيه دمية؟ لعبة! أنتَ مثلاً، خلال سنة واحدة: دراسة عن جذور الوحدة بين ليبيا وتشاد! وهجوم على النظام السعودي في دراسة ثانية.. بعدين دراسة تغمز فيها من قناة النظام العراقي! ودراسة رابعة تهاجم النظام المغربي! وأخرى عن إشراقات النظرية الخضراء على العالم.. ودراسة عن التجربة الشعبية (العالميّة) وغيرها.. يا راجل حرام عليك كل دَه ومش عاوزهم يعملونا لِعب!! ما دام ملاقيين اللي يكتب لهم اللي عاوزينه.. والله والله لو عبد الناصر اللي بتتمسح في اسمه طلع من قبره لقطع لسانك وإيدك وعلّقك على أبواب القاهرة!.. يا شيخ حرام عليك، إسرائيل بتحاصر عاصمة عربية ثلاثة أشهر بتدمرها وبتضرب الثورة الفلسطينية، الأمل الوحيد الباقي.. وأنتَ لسّه بتكتب عن الإشراقات والشمس الثورية الساطعة! ولا حرف واحد عن اللي حصل في بيروت ولا حرف عن النكبة الجديدة، ولسّه صاحبك كان عاوز الناس تنتحر وتموت علشان يظل هو الثوري الوحيد في المنطقة!!.. خربتو بيوتنا

الله يخرب بيوتكو..

- الله.. الله.. إيه الهجوم الكاسح دَه يا أخ محجوب؟ أيه اللي جــرى لعقلك أنت في وعيك؟ إنت قد الكلام اللي بتخَرف بيه دَه؟ متــودّيش نفسك في داهية.. بلاش الكلام الكبير دَه!!

- أيوه.. أيوه.. خوفني، هددني.. نظام مخابرات وعسكرتارية هــا.. يا أخي روح إعمل اللي إنت عاوزه.. أنا زهقــت وقرفــت مــن دور "القرد ميمون" بتاعك.. قرفت من العبودية والحمورية والــذل!.. يــا أستاذ إبراهيم، بالله عليك تشوف لي معك وظيفة في التعليم.. مدرس رسم ولا حتى مدرس قرف.. خلينا نبعد عن الأشكال دي..

لكنه مات!! مات محجوب الفيل بعد عشرة أيام من هذه الهبَّة.. سكتَ قلبه وسكنتْ جوارحه مرة واحدة.. كأنّــه كــان يودعنــا بعاصــفته الأخيرة.. سجّل علينا ذلك الموقف ومات!.. سجّل رفضــه للأقنعــة والتزييف ومات وهو في أفضل حالات الوعي.. والقوميــة!! مــات الرجل الوحيد الذي فهمني وعرف أنني رفضت بلباقة أن أكتب مثــل تلك الدراسات "البلالية" – كما كان يسمّيها.. أتــذّكره وهــو يبتســم ساخرًا شاحبًا، عندما كنتُ أسأله عن أبواب المجلة والدراسات التــي ستحتويها:

- حافلة بالدراسات البلالية إيّاها.. النافذة المضــيئة الوحيــدة هــي نافذتك الأدبية.. لماذا لا تطلب من رئيس التحرير أن يزيدها؟

- طلبت لكنه اعتذر!

- أعتقد أن الأمر ليس بيده..

- أعتقد ذلك..

مات محجوب الفيل تاركًا وراءه عاصفة من الــرفض.. والهــروب!! تسرَّب الكُتّاب والصحفيون واحدًا تلو الآخر.. ابتعدوا وهربــوا إلــى أماكن مختلفة! منهم من هاجر إلى أمريكا أو أوروبا.. ومــنهم مــن انزوى وعمل في التجارة.. ومنهم من عاد إلى وطنه رغم المتاعــب التي تنتظره.. فجّر موت محجوب الفيل مــا بــداخل النفــوس وأزال الأقنعة والمساحيق، بحث الناس عن أنفسهم وأدوارهم وأجابوا على الأسئلة التي كانوا يطرحونها همسًا، وخرجــت الإجابــات الحقيقيــة المكبوتة.. وحدهم ثلاثة بقوا يكتبون "للشمس المشرقة على العالم": بلال تحسين وأحمد الرّاضي وسعيد عيّــاش.. بقــوا فــي دورهــم "الممسوخ" وتلذذوا به!!..

سألني عطا الجوراني عندما طلبتُ مساعدته في الحصول على وظيفة في مجال التدريس:

- ماذا لو لم نجد فرصة في المدن؟

- بل أنا لا أريد العمل في المدن! أريد أن أبتعد عن المدن وأعــيش في قرية بعيدة، نائية.. أريد أن أحصل على إجازة..

- إجازة؟ إجازة بدون راتب؟

- بل إجازة بدون نفاق وتزويق وخداع! لم يعد هناك طعم لأي شيء يا عطا! أريد فترة نقاهة، إجازة سمّها ما شئت..

- فهمت.. هكذا ستكون الأمور ميسرة أكثر، القرى تعاني من نقص في المدرسين.. وتخصصك مطلوب، لكن العمل سيكون في بداية العام

الدراسي.. ها..

توقفت السيارة أمام مبنى أبيض مخطط باللون الأخضر، فنظر السائق إلى الغرب ثم قال:

- هذا هو معهد المعلمين، والمحلة اسمها "بير العزيزة".

ثم أشار بيده وأردف بلهجة حاسمة:

- هناك إلى اليمين سكن المدرسين، المسافة مهيّاش بعيدة والشنطة متاعك صغيرة..

ثم أدار سيارته وعاد مثيرًا وراءه غبار الطريق.. فتناولت الحقيبة وهمست:

- سبحان الله! حتى هنا! بئر للعزيزة! ترى هل كانت عزيزتهم جميلة مثل عزيزتنا؟!

في منتصف الطريق إلى سكن المدرسين لحق بي أحد المزارعين المصريين، همَّ بحمل الحقيبة عني، ورفضتُ..وأخبرني أنّه يعمل في محطة التحلية، وأنه جاء لزيارة أحد أقاربه الذي يسكن في محلة "أولاد عجيبة" القريبة، إلى اليسار.. سألته عن "بير العزيزة" فقال:

- لا دِي مكنتش بير يعني بير.. بيقولوا كانت "جابية" يعني بركة كبيرة، كانوا بيجمّعوا فيها المّيه في الشتا علشان يستعملوها في الصيف.. وكانوا بيشربوا منها ويسقوا البهايم كمان.. يعني!.. دَه كان طبعًا قبل ما تخش المّيه والحنفيات والمواسير وينتشر نظام الري بالتنقيط اللي أنتَ شايفه

ولم يخبرني شيئًا عن العزيزة نفسها..

أذكر أنَّه كان يوم جمعة، وأنني وصلتُ إلى سـكن المدرسـين قبـل غروب الشمس بقليل، وأن ثمانية من المدرسين العرب اسـتقبلوني بحفاوة وأعدَّوا طعامًا شهيًا على شرفي.. كانوا أربعة من المصريين وثلاثة من السودانيين وعراقيًا واحدًا.. ولم يكن بينهم فلسطينيون.. لكن الفلسطينيين تداعوا من أماكن سكناهم في اليوم التالي، رحبّـوا بي وأصّروا على استضافتي في بيوتهم على الغذاء بالتناوب لأسبوع كامل.. كان منهم الأطباء والمهندسون والحرفيـون والمزارعـون.. والمدرسون.. ولاحظتُ أنهم مترابطون ويتعاملون مع بعضهم بموّدة ويعرفون عن بعضهم التفاصيل الكثيرة.. لم تمضِ فترة طويلة حتـى اكتشفت أن ثمة صعوبة في التجمد في دور المدرس.. دور "البـوق" الذي يفرغ بعض المعلومات العقيمة من الكتب والمقررات الباهتـة.. كنا في بيت الفلسطيني فؤاد رمضان، مدرسين ومهندسـين وأطبـاء وحرفيين ومزارعين، وفجأة سأل السوداني أمين تاج السر:

- مَنْ تآمر على مَنْ في رأيك يا أستاذ صلاح، الشيخ محمد عبده أم الخديوي عبّاس؟

فأجابه المصري صلاح السيّد:

- بل الخديوي عبّاس

- كيف وقد استعان الشيخ محمد عبده بالإنجليز على الخديوي؟

- لا.. لا.. ليست هذه الحقيقة.. عندما عـارض الخـديوي عبّـاس الثاني خطوات الشيخ محمد عبده الإصلاحية، اضطر الشـيخ محمـد عبده إلى الاستعانة باللورد كرومر مستغلاً دعـاوي بريطانيـا إلـى

الإصلاح والديمقراطية. فما كان من الخديوي عبّــاس الثــاني إلا أن اتهم الشيخ محمد عبده بالعمالة لبريطانيا، وهو الذي لم يتنفس ولــم يعش يومًا واحدًا إلا تحت أحذيتهم وحمايتهم!! والمصيبة أن الخديوي قد سخّر في هذه الحملة بعض المشايخ والفقهاء المتحجرين.. ألّبهم على الشيخ الإصلاحي المتنّور.. هذه هي الحقيقة يا أستاذ أمين.. لو اتبعنا نهج الشيخ محمد عبده وسرنا على دربه لما حــدث لنــا مــا حدث..

وتدخّل العراقي كاظم عبد الجبّار:

- زين.. زين يا أستاذ صلاح الشيخ محمد عبده رجل متنّور ومحترم والكواكبي متنّور ومحترم والكــاظمي متنّــور ومحتــرم.. والملــوك والسلاطين منذ الخديوي عبّاس حتى الآن قادوا الأمة إلــى التخلّــف والجهل ونهبوا ثروات البلاد وارتموا في أحضان الاستعمار وأوقفــوا السلطة والحكم على عائلاتهم وأسرهم.. و.. وماكو خــلاف.. لكــن الثورجية والقومجية واليسارية، ماذا فعلوا بنا؟ ماذا فعلــوا بالأمـــة؟ رفعتم شعارات تحرير الأمة من الاستغلال وناديتم بالوحــدة والبنـــاء والتنمية والعدل الاجتماعي وتوزيع الثروات والحرية وحرق المراحل و.. و.. وقبل هذا كله تحرير فلسطين.. وماذا كانت النتيجة؟! حــرق الأمة وسحق الشعوب والعبودية والفقر والدخول في دوامة الخــوف والعجز والطائفية والعشائرية.. كفــر النـــاس بالوحــدة والعروبــة والتنمية وشعارات الصمود والتصــدّي، لمـــاذا؟ بســبب شــعاراتكم وتجاربكم الفوضوية والفرديــة التســلطية ونزعــاتكم ومغــامراتكم

الفاشلة، والتي كنتم تغلفونها دائمًا بشعارات الوحدة والقومية والصمود في وجه العدو الخارجي!!.. هذه النزعات التي افتقرت إلى التخطيط والإعداد الجيد.. إذن قل لي بالله عليك يا أستاذ صلاح، ما الفرق بينكم وبين هؤلاء الجهلة المتخلفين و"أعوان الاستعمار".. كما تقولون؟

- لا.. لا.. يا أستاذ كاظم.. أنت تظلمنا! أنت تحسبنا على الأنظمة القمعية! أولئك الحكّام المغامرون أصحاب النزوات والعقد "الثورية" لا علاقة لنا بهم، نحن لا نتحدّث عن أصحاب هذه الهرْطقات والشطحات، هؤلاء مرضى لا يمثلون الفكر القومي التقدمي الحقيقي! ولا الانتماء "العروبي" الحقيقي!..

- ها.. ها. تهربون!! كلما واجهناكم بحقيقتكم وحقيقة ممثليكم في الحكم تهربون.. تتبرأون منهم وتهربون!! زين، أحزابكم، تنظيماتكم، وجماعاتكم شلون تسميها، ماذا فعلتم؟ ماذا قدمتم لهذه الأمة؟ اسمع! ترى أنا بالنيابة عن أخواني الفلسطينيين، عفوًا أستاذ ابراهيم، أستاذ فؤاد، مهندس حامد، أنا أقول لك بالنيابة عن إخواني همّه يقولوا لكم يعطيكو العافية، لا تشغلوا أنفسكم بتحرير فلسطين، همّه ما يطالبوكم بتحرير فلسطين.. يبوسون على أيديكم ورجليكم إذا حررتم أنفسكم، إذا واجهتم هذه الأنظمة وخلصتونا منها..

- نحن نناضل بنفس طويل، بنشر الوعي،، بالفكر بالتنظيمات والجمعيات، القضية ليست بهذه البساطة يا أستاذ كاظم، نريد أن نخلق حالة من الوعي الجماهيري لمواجهة هذا السقوط!

- زين والله! عيوني النقابات والمؤتمرات ما عملوا شَيْ.. أصحاب النقابات والوعي كلهم شايفين مصالحهم ويغازلون الأنظمة من تحت الطاولة، عيوني ترى من وين يصرفوا ويتقشمروا ويشربوا الفودكا ويوكلوا الكافيار؟ حبيبي.. ده يزينون الحكومات، يعني ديمقراطية!!.. ها.. خوش، أريد أسألك كم حكومة أسقطتم؟ كم وزارة؟ صار إلنا أكثر من ثلاثين سنة ماكو شي!!.. أقول لك بلاش اللي مضى! الآن! هسَّه! يا الله ازحفوا قدّامنا، حاصروا قصور الحكام والملوك، تجمّعوا في الساحات والميادين، وتشوفون أيش تسوي بعد! بس تكونون قدامنا، مش تَظلَون تحجون وتنظرون وأنتم تشوفون الناس تموت وتنْهان وينسلخ لحمها عن جلدها وتأكل من حاويات القمامة مثل الكلاب، وتظلون تصيحون.. وتحجون.. يكفي عاد..

عدَّل السوداني أمين تاج السر عمامته البيضاء الطويلة وانتصب واقفًا، ثم هتف راقصًا بطريقته السودانية:

- الله أكبر.. الله أكبر.. يسلم لسانك يا أستاذ كاظم.. والله قلت اللي نفسي أقوله من زمان.. يسلم لسانك يا زول!

وهمسَ الفلسطيني المضيف فؤاد رمضان في أذني:

- عنده حق، كلامه كله صحيح.. هلكونا بالحكي والخطابات.. بس أنا بدّيش أدخَّل وزعّل حدا منّي! أنتَ عارف، الجماعة ضيوفي! يا راجل خدّرونا بالشعارات وسكّتونا بدعوات النفس الطويل وشد الأحزمة والعدو الخارجي حتى قطعوا نفسنا وهدّوا حيلنا!.. الناس تعْبانة.. عنده حق..

عندها أدركت أنني وقعت في "مصيدة عربية" خطيرة!! ما هذا الوعي الموجع الحاد؟ كانت الأحاديث والإشارات والتحليلات دليلاً مبكرًا على فشلي! انتهت فترة نقاهتي المرجوة، وعدتُ إلى قدري.. وهمومي!! لن أتمكن من الابتعاد.. والهرب.. هؤلاء الناس ملامحهم واضحة حاسمة، لا يرتدون أقنعة ولا يستترون بالمساحيق والكنايات! ولا ترعبهم حسابات الطرد وإنهاء عقود العمل التي يتفنن بها "الثوريون" في الغضْبات القومية السنوية!!.. كان "العرب" المتواجدون في بيت الفلسطيني فؤاد رمضان ببئر العزيزة، ناضجين وحاسمين ومتحابين إلى درجة الإعجاب.. والخوف!! كانوا مختلفين عن تلك العشيرة المتفيقهة التي عشتُ بينها وهذيتُ معها عشر سنوات كاملة، كان أفراد تلك العشيرة يحملون شهاداتهم وألقابهم ومؤلفاتهم على صدورهم وكروشهم ويبرخون بها في الفنادق الفاخرة والمؤتمرات العامرة.. كانوا يتساقطون تحت وطأة حقائب "البوكيت موني"! و"العطايا الثورية"!!.. هل اكتشفتُ نفسي وعشيرتي الجديدة؟! هل يقبلني هؤلاء "العرب" بينهم؟ هؤلاء المتفقون- المختلفون، الناضجون- الفائرون، المتباينون- المتآلفون، هل يقبلوني في عشيرتهم؟ لا أدري! كل ما أعرفه أنهم أفشلوا هروبي وأعادوني إلى ذاتي و..

نظرتُ.. فرأيتُ العصافير تزقزق بالقرب من النافذة.. كانت تمسحُ ريشها بقطرات المطر العالقة من ليلة البارحة..

ابتسمتُ وهمستْ: أوّاه ما أقسى أن أُحبُّكِ كلَّ هذا الحب..

(٤)

جميل حب الرمّان

ها هو أبو صبري يهز شباكي وينغص عليَّ حياتي ويفسد كل شيء!!
جاء بلحيته وعينيه الماكرتين وألقى قنبلته في حجري:

- لابدَّ أن تتقرّب منهم، وتصبح واحدًا منهم..
- أنا؟
- نعم أنت ولا أحد غيرك..

كيف؟ هذا الضابط لا يدرك عمق الفجوة القائمة بيني وبين هذه القرية، يبدو أنَّ المصالح والابتسامات قد خدعته! خدعه خوف الناس وتملقهم وحرصهم على تحقيق مصالحهم، فظنَّ أن القرية غفرت لي، واعتبرتني واحدًا منها ومن أبنائها! هل يدرك هذا الضابط أن هذه القرية تحفظ سيرة حياتي عن ظهر قلب، تحفظ مشواري الصعب معها ولا تنساه؟! أصغر طفل في هذه القرية يعرف أنني كنتُ سببًا في تعاسة عدد من أسر هذه القرية وكنتُ سببًا في مقتل بعضهم؟ كيف يقبلونني بينهم، كيف يغفرون لي وأصبحُ واحدًا منهم، كيف؟! ولماذا أنا أيّها الشيطان؟ لماذا أنا بالذات؟.. الله يلعنك!!.. بعد أن

ابتسمت لي الدنيا، وظننتُ أن الأيام المهينة قد ولّت، أيــام الاحتقــار والتهديد، والخوف.. ظننتها قد ولّت إلى غير رجعة، بعد أن استقرّت أحوالي وغمرتني النعمة!! خمسون دونمًا من أرض الأفندية صــارت ملكًا لي.. شركة استيراد وتصدير، خمس سيّارات أجرة تعمل في نقل العمال إلى إسرائيل، وتدر أموالاً وافرة، منزل جديد مؤثث في غزّة!! كل هذه النعمة، هذا الرغد الذي دام ست سنوات، مهــدد بــالزوال! بفضل هذا الشيطان – الصديق – الذي لا تهمّه سوى مصالح دولته! مالي أنا وهذه الحرب الجديدة..؟! وقع المشايخ مع رجال المنظمــة واشتعلتْ الحربُ بينهم، وقع المســلمون مــع الشــيوعيين الكفــار، وخرجتْ السيوف والجنازير والحراب والسكاكين! ما دخلي أنا في ما يحدث؟! فخّار يكسّر بعضه! من الأفضل أن أظلَّ بعيدًا، متفرجًا، لماذا يصر أبو صبري اللعين على إقحامي معهم، لماذا يصر على إفســاد حياتي؟

- الطريق إلى المشايخ أيسر! نحن نــدرك أن جماعــة المنظمــة لا يثقون بك، ولن يثقوا بك مهما فعلت.. المشايخ في حاجة إلى أنصار وتائبين! ويجب أن تعود إلى الله!

- أعود إلى الله، كيف؟

- تعلن توبتك بين أيديهم وتواظب على الصلاة وحضور الــدروس.. تتبرع ببعض المال.. تساعدهم في بناء المساجد.. هكذا..

أنظروا من يتحدّث عن العودة إلى الله والصلاة وبناء المساجد؟ على بعضنا يا "أبو صبري" على بعضنا أيها الكافر البعيد عــن الســموات

والأرض! ألم تقل لي ذات مرة "الله في جيبي، أخرجه وقتما أشـــاء.. أنا أتحكم فيه وليس هو!". ما الذي تغيّر إذنً؟ ما الذي جـــرى أيهـــا الشيطان؟ هل أسلمت من وراء ظهري؟ كم هو مضحك هـــذا الـــذي تقوله!.. وهمست:

- هذا أمر صعب، أنت تعرف..

- هذه أوامر!! تذكّر أننا أغدقنا عليك كثيرًا.. هذه البحبوحة التي أنت فيها نحن مصدرها.. لا تستطيع أن تنكر ذلك!.. لابدَّ أن تردَّ الجميـــل يا جميل.. وإذا أردت الانبساط والتمتع بحياتك، فمارس ذلك بعيدًا عن هذه القرية، هناك اسهر وانبسط وعش كما تريد! بـــلاش النورّيـــات والخمْرة في القرية..!..

أنتم تخططون لشيء خطير! وتريدونني أداة للتنفيذ!! مـــرة أخـــرى أداة! لماذا أغضب من مروان بصْبوص إذنً؟

عندما طلب منّي خليل بصْبوص المساعدة والتوسط لإخـــراج ابنـــه مروان من السجن، لم أتأخر! كان مروان خليـــل بصْـــبوص، أحـــد المعتقلين في أحداث الجامعة الإسلامية؛ كان من المحســـوبين علـــى جماعة منظمة التحرير.. ذهبتُ إلى "أبو صبري" وأنجزتُ الموضـــوع وخرج مروان بصْبوص بكفالتي! كان خليل سعيدًا بخروج ابنه لكـــن مروان لم يكن سعيدًا بهذه "الصفقة"! ولم تكن سماهر أمُّه راضية عن خروج ابنها بهذه الطريقة المُهينة!! لكن دموع خليل أجبرتهما علـــى الرضوخ وقبول الأمر على مضض:

- يا ناس أنا راجل وحداني، ليس لي حمولة ولا ظهر! هـــؤلاء أولاد

عائلات وحمايل ويستطيعون تدبير أمورهم وإخراج أولادهـم!.. يـا ناس هذا ابني الوحيد، ارحموني، خلّوني أشـوف صـاحبي وأدبّـر حالي!

- خلص.. خلص يا خليل اعمل ما تريد.. خلص.

أذكر أن صديقي "أبو صبري" قال يومها:

- كنت أتمنى أن تتوسط لواحد من المشايخ وليس لواحد من جماعة المنظمة..

ولم أفهم يومها مغزى كلامه، لكنني أفهمه الآن وأسـتوعبه جيـدًا! أدركه وأنا أتذكّر مروان بصْبوص بوجهه الدّامي ورأسه المهشـمة، وآثار الجنزير على خده:

- ماذا سيقول عني رفاقي؟ تخلّيتُ عنهم، وخرجتُ بكفالة..

- عيب يا مروان! عيب الواجب نشكر الراجل..

رفع مروان رأسه، ثم صوّب عينيه نحوي في تحدٍ واضح:

- البومة ما بتحدَّف صيْصان يابا! المصائب كلها من تحت رأس "أبو صبري"!.

- يا جماعة حرام عليكم، ما دخل "أبو صبري" فيما حـدث؟! لمـاذا تصرّون على إلصاق كل شيء بهم؟! هـذه مشـاكل بيـنكم وبـين المشايخ، ليس لليهود أي دخل فيها!! الله يرضى عليك يابا.

- أبو شادي، هل تعلم أن صديقك "أبو صبري" كـان يعيـد الـذين يحاولون الخروج من سور الجامعة.. يريـدوننا أن نـذبح بعضـنا، يريدوننا أن نقتل بعضنا ويصبح الدم حتى الركب!

- ولماذا يفعلون ذلك؟ ما هي مصلحتهم في الفوضى؟ بالعكس مصلحتهم في الهدوء والاستقرار.. والأمن!

- آه.. مصلحتهم يا سيدي في بروز قوى جديدة منافسة، مصلحتهم في التناحر والخلافات والصراعات، هذه هي مصلحتهم! هل تستطيع أن تخبرني أين كان اليهود في أحداث عام ١٩٧٩، عندما قام المشايخ بحرق الهلال الأحمر ودور السينما و..

- أنتَ زعلان على السينمات يابا؟.. خلّيهم يحرقوها إن شاء الله ما ردّت!.. هه..

- لا مش زعلان يابا على السينمات، لكن، أنت مصدّق أن اليهود هدفهم القضاء على الفساد والعودة إلى الدين الحنيف والأخلاق الحميدة؟ ولاّ غرضهم الفتنة والخلافات؟.. لكن ما يفرحوا كثير قل لهم يا أبو شادي، إن شاء الله سينقلب السحر على الساحر! وإن شاء الله العقلاء والوطنيون سينتصرون على الأمور ويحلّون هذه الخلافات والتشنجات!!

كان مروان يتحدّث بثقة كبيرة رغم جروحه، وكانت ثقته في نفسه لا تقل عن ثقة "أبو صبري" في خططه!!

الله يلعنك يا "أبو صبري" دوختني ووضعتني في الدّوامة من جديد.. آه.. كيف أتخلص منكَ؟ آه لو أستطيع الفرار والإفلات!.. صلاة، ودروس ولحية وجلابية! يا سلام ما أحلاني في الجلابية؟ جميل حب الرّمان، صار الشيخ جميل الزّاهي!! والله منظري مثل المشايخ عن صحيح!..

- عدو عدوي صديقي.. تذكّر هذا المدخل! إظهار حقدك الشديد على جماعة منظمة التحرير، وسنتابع معك خطوة بخطوة..

وبعد هذه الأوامر الصارمة وضرورة التنفيذ لم يبق لي سوى أمل واحد! الفشل! كنتُ أتمّنى أن أفشل في مهمتي، أن يرفضني المشايخ ويطردوني بل كنتُ أتمّنى أن يضربوني بالصرامي لأرتاح! أرتاح من هذه المشّقة والتكلف، وأعود إلى حياتي، وهدوئي! لكنهم لم يحققوا لي هذه الأمنية.. المصيبة أنهم لم يسمحوا لي بإعلان فشلي:

- مرحبًا بك يا أخ جميل بيننا! كلنا خطاؤون وخيرالخطاءين التّوابون.. لتكن هجرتك إلى الله ورسوله صادقة.. إن شاء الله ستكون توبتك مقبولة!

وبكيتُ.. فأردف الشيخ:

- لا تقسو على نفسك يا أخ جميل، منذ اليوم، اعتبر نفسك واحدًا منّا! توكّل على الله – إنّه يغفرُ الذنوب لمن يشاء!

كنتُ أبكي غيظًا وحسرة، أبكي لأنهم شربوها، بلعوا الطعم ودخلتْ عليهم توبتي المزيفة! كان الشيخ الطيب يربتُ على كتفي معتقدًا أن دموعي كانت دموع الندم والتوبة، ولم يكن يعلم أن بكائي كان بسبب دخولي في هذه اللعبة الجديدة الخطرة! كانت دموعي حسرة على حياتي التي سأفقدها وأهجرها مكرهًا!! لكن الشيخ ظلَّ يربتْ على كتفي ويهدهدني، ويهنئني على هذه الدموع الصادقة:

- هوّن عليكَ يا أخي، هوّن عليك.. هذه الدموع الصادقة تعني أنَّ توبتك صادقة وستكون مقبولة إن شاء الله.. هوّن عليك..

وأحضروا لي من شرابهم، فاقتربتُ من المحراب!!
لم تصدّق حمدية القرّام التّحول الذي حدث! لكنها أظهرتْ بعد فترة فرحًا واضحًا.. نشرتْ أعواد البخور في أنحاء المنزل، أشعلتها ثم غسلتْ الجلابيب والكوفيات البيضاء، ثم كوتها، وعطّرتها ورصتها بعناية.. وفي المساء شرعت في الصلاة والدعاء، وأمرتْ الأطفال بفعل ذلك، فبادروا إلى قراءة القرآن بصوت مسموع!
لكن عزيزة الخيّال لم تقتنع! سخرتْ مما حدث وأعلنتْ أنها حيلة جديدة!! وعندما أخبرني شادي أنّها تقول أنّ وراء هذا التغيير مصيبة كبيرة، ذهبتُ إليها:
- لماذا لا تصدقين أنني تُبتُ ورجعتُ إلى الله؟
- من يتوب ويرجع إلى الله لا يقابل "أبو صبري" سرًا ولا يسهر في أماكن مشبوهة، ولا يذهب إلى تل أبيب خلسة!!
- لا أستطيع التخلص من "أبو صبري" ومن عاداتي بسهولة. امنحوني الفرصة والوقت!
- ماذا تريد أن تفعل بالبلد أكثر مما فعلت يا جميل؟.
- المشايخ قبلوني بينهم ويعاملونني كواحد منهم، وأنتم تصرّون على غلق الأبواب في وجهي!
- أنتَ من أغلق الأبواب عندما قبلت أن تكون..
- جاسوسًا لليهود! أليس كذلك؟ أنتم السبب، أنتِ وعوض الشّاهد والأستاذ زاهر جودة والبلد كلها.. احتقرتموني، ضحكتم على ذقني.. خدعتموني.. لماذا لا تلوموا أنفسكم؟!

- نحن لم نخدعك، البلد لم تخدعك.. أمك هي السبب، هي التي جلبت لك العار والمصائب، وأوصلتك إلى هذه النفسية المريضة الحاقدة الموتورة! على كل حال، هذا الكلام فات أوانه..

- وإذا قلت لكِ أنني أريد أن أتوب توبة حقيقية هذه المرة! وأنني تعبتُ من وضعي وحالتي.. ومنهم؟!

- أصدقكَ في حالة واحدة!

- ما هي؟

- تطهّر نفسك وتقتل "أبو صبري"!!

تلفتُ حولي، ووضعتُ يدي على فمها، كان شرطها صاعقًا ومخيفًا!! أنا أقتل "أبو صبري"؟ من يستطيع قتل هذا الدّاهية؟ من هم أقوى مني، ولديهم السلاح والتنظيم والأموال وأجهزة الرصد فشلوا في ذلك! وأنا! الذي يشك فيه الجميع ويراقبه الجميع يفعل ذلك! كيف؟ وهمستُ:

- هذا جنون! ألا تخشين أن أبلغه بهذا الطلب الغريب؟!

- لا..

- لماذا؟

- لأنك تتمنى ذلك في أعماقك، أنتَ تكرهه أكثر منا! وتريد التخلص منه لكنك لا تجرؤ..

يا إلهي! لم تتغيّر هذه المرأة! ها هي تعود بكامل قوتها وذكائها وحيويتها، وعنادها! ها هي تجازفُ بقذف هذا الاقتراح الخطير وتهزني من جديد، إنها تلعب على أوتاري الداخلية المهترئة!! هل

تريد أن تهزني فقط؟ أم تريدني أن أقتل "أبو صبري" فعلاً؟.. أم أنها تريد التخلص مني ومنه في ضربة واحدة؟ لا شك أنني أكره ذلك الضابط الملعون، وزاد حقدي عليه في الفترة الأخيرة، لكن، أن أقوم بقتله، فهذا لم يخطر ببالي! ولماذا أفعل ذلك؟ وإذا قُتل أبو صبري وذهب إلى الجحيم هل تنتهي معاناتي؟ هناك العشرات من أمثاله! سيواصلون استغلالي والضغط عليَّ وتهديدي!

الشخص الثالث الذي يقلقني ويخيفني هو الشيخ فلاح!

ذلك الشاب العائد من مصر، أشعر أنّه يشكُ في توبتي ولا يصدق عودتي إلى الله! إنه شاب يعمل بهدوء ومثابرة، وتعقّل! سلّمه شيوخ القرية قيادتهم خلال عام واحد! يحترمونه ويقدمونه في أمورهم ويقبلون أحكامه وآراءه ولا يخالفون نصائحه.. وأوامره.. الشيخ فلاح لا يرتاح لوجودي! ولا يطيلُ في الحديث معي! عندما أدخل فجأة يفضل التوقف عن الحديث، وعلمتُ بالصدفة – عن طريق الثرثرة – أنه يقابل فتحاويًا من المخيم، وتدور بينهما أحاديثُ طويلة.. وعلمتُ فيما بعد أنهما نجحا في فض عدد من المشاكل والاحتكاكات بين المشايخ ورجال المنظمة.. هذا الشاب يعمل بطريقة مختلفة وهو يفسد مخططات ذلك الملعون، أبو صبري:

- أنت نايم يا جميل.. الشيخ فلاح يخرب ما ننجزه ويصعب علينا الأمور! وأنت نايم في العسل! الشيخ فلاح يبني جسورًا ويحل المشاكل مع جماعة المنظمة، ويهدئ التوترات وأنت نايم، لا تحرك ساكنًا!!

- إنه حذر مني! يتجنب الحديث في حضوري! لا يتحدث إلا في الأمور الدينية العادية.. حاولت التقرب منه، لكنه مختلف عنهم، مختلف جدًا!!

- لابد أن تصل إلى قلبه، لابدَّ أن تصبح محل ثقته يا جميل! إنه رجل مهم وخطير.. لا تيأس.. حاول..

لكن محاولاتي جميعها باءت بالفشل.. إنه شاب يقظ وحذر ويعرف ما يريد، ويجيد إخفاء مشاعره، وأسراره.. لكنني استطعتُ الحصول على شيء من أسراره الثمينة! هكذا ظننتُ في البداية، علمتُ، عن طريق الثرثرة، عن إبرام صفقة الأسلحة! كان الشيخ فلاح قد تمكن من شراء أسلحة وقنابل وتخزينها في أماكن متفرقة! وطرتُ إلى "أبو صبري" بهذا الانجاز العظيم! أخيرًا استطعتُ الحصول على معلومات مهمة وخطيرة لكن "أبو صبري" سخر مني عندما وضعت هذه الأخبار بين يديه:

- معلوماتك قديمة يا جميل! أخبارك بايتة – مثلك-! نحن نعرف عدد قطع السلاح وعدد القنابل والذخيرة, والأماكن التي خُزنت فيها! لا تقلق عليها، والأفضل أن تتابع وتبحث عن معلومات أخرى!

آه.. هكذا إذن معلوماتك بايتة مثلك!! وضعك أصبح حرجًا يا جميل! الأمور تعقدت وأصبحت متشابكة وغامضة!.. المشايخ حذرون منك ولا يثقون بك، و"أبو صبري" الذي ورّطك في هذه المهمة يخفي عنك الكثير، ويطلب منك المزيد.. بل ويعمل بعيدًا عنك، ويعتمد على أعوان آخرين! وجماعة المنظمة لا يصدقون توبتك، ويشكون في

صلاتك وتقواك، ويعتقدون أنك تقوم بخدعة كبيرة! ماذا ستفعل في حالك الآن؟ كيف ستتدبر أمرك؟!

وقبل أن أتدبرَّ أمري وأنقذ نفسي حدثتْ المصيبة!..

فجأة! انقض الإسرائيليون على المشايخ وقبضوا على عدد كبير منهم، وفي مقدمتهم الشيخ فلاح! ضبطوا الأسلحة والقنابل والذخيرة، كلها! حملوا المشايخ إلى السجون والمعتقلات! حتى أنا، قبضوا عليَّ! أخذوني معهم إلى سجن عسقلان!..

وعندما علمتُ أن حمدية القرّام، أطلقت زغرودة التباهي.. لعنتُ "أبو صبري" الدّاهية، وغصتُ في دوّامته من جديد..

(٥)

عصام الفايز

الآن أستطيع القول بأنني انتصرت! هييه يا خالد الربيع انهض لتتأكد بأنني كنتُ على حق! هييه أيها الشّاهد التعس، تعالَ لترَ من هو عصام الفايز! لن تتمكنوا من هزيمتي بعد اليوم! لم يعد بمقدوركم أن تحتقروني أو تقذفوني بألسنتكم! أنا الآن عصام الفايز، عصام بك الفايز! صاحب شركة السياحة وصاحب الفندق ومالك لخمسين دونمًا من أشجار الحمضيات الفاخرة! خمسين دونمًا في بيّارة الأفندي! تعرفها يا إبراهيم، تلك البيّارة التي أخذتني لأعمل فيها حمّالاً شقيًا للصناديق الثقيلة الجارحة والتي هذيتَ لي ذات مرة أنها كانت أرضكم! الآن لم أعد في حاجة لأن تتوسط لي يا إبراهيم! لم أعد في حاجة لأن تدافعوا عني وتحموني! لم أعد في حاجة لأن تجروني إلى شارع الكورنيش خشية أن يضربني الإسكندرانية، ولم يعد بمقدوركم أن توبخوني وتنعتوني بأبشع الصفات!..

"كل ما حققته ووصلت إليه لن يجعلك عظيمًا ومحترمًا يا عصام! كل ما أنجزته وادخرته بالاختلاس والسطو والاغتصاب لن يرفعك إلى

مستوى الاحترام الحقيقي! أنتَ رجل مريض، بالنسبة لي ما زلتَ مريضًا، وأعتقد أنك وصلت إلى درجة المرض العضال! فقدتُ الأمل في شفائك! ما زلتَ تخدع نفسك وتوهمها بأن الثراء والألقاب يمنحانك الاحترام! ما زلتَ صغيرًا، صغيرًا وتافهًا يا عصام..".

أنا من يحدد الآن الصِّغارَ والمرضى أيها المعتوه المتكبر! بعد أن انتصرتُ عليك وامتلكتُ كل شيء، أنا الذي يحدد الصالح والطالح والفاشل والمنتصر.. ومن هو البطل! بعد أن أصبحت "الفخامة" كلها في حضني، أنا الذي يحدد يا إبراهيم! الفخامة كلها، بشركتها وفندقها وعزها ولقبها، أصبحت ببهائها وترفها ملكًا لي! هل تسمعني؟ هل تراني؟ ها هي ترقد – مثل القطة – بين قدميّ،! نعم، سوزان الأفندي، التي لم تكن تجرؤ على الاقتراب منها أصبحت في قبضتي، عجينة أشكلها كيفما أشاء! سوزان التي أفقدتني عقلي عندما رأيتها في بيّارة الأفندي لأول مرة، أصبحت الآن ملكي، تحت تصرفي، دميتي التي ألهو بها! استطعتُ أن أدجنها وأنتفَ عزها ولقبها.. وأمتلكها!!..

- هتف قلبي باسمك منذ اللحظة الأولى أحبك.. سيدتي، وأمنيتي أن تشرفينني بالانتساب إليكِ، بانتسابنا إلى بعضنا.

- ماذا أقول؟ لقد فاجأتني، أنتَ تذهلني!

- لا تردي الآن! يكفي أن أشعر أنك لا ترفضين!

- لا تستطيع امرأة مثلي أن ترفضك، أنت تغمرني بهذه المشاعر، إنك جذاب وجرئ لكن الأمر يحتاج إلى التفكير..

- ثقي أنني في حاجة إليكِ أكثر من حاجتكِ لـــي!.. أنـــتِ إمــرأة لا يستطيع مقاومتها أي رجل! هذا البهاء، وهذه العذوبة من يســتطيع مقاومتهما؟!

- كفى.. كفى.. أنتَ تربكني..

- لا أستطيع السيطرة على مشاعري سيدتي!

- لكن الظروف والناس.. موت زوجي، العائلة، السمعة..

- سأكون لك االزوج والعائلة والسمعة، سأعوضكِ عن كل ما فاتك، كل ما حُرمتِ منه، كل الحنان والعشق الذي افتقدتيه!

- من أين خرجتَ لي من أين جئتني؟ أنتَ تدوخني بهــذه العبـــارات والأحاسيس التي حُرمت منها.. وأكاد أقول نسيتها..

- حبيبتي أنا أريد أن أبعثَ فيك الحياة، أريد أن أجدد معــك العمــر! وأعيدك وردة يانعة..

- هل أنت ملاك أم شيطان؟ من أين تُخرج هذه الأنغام؟

- آه لو تعلمين كم أحتفظ لك بمثل هذه الأنغام والأحاســيس! قلبـــي قارورة مليئة بالشوق والحب.. معي ستكونين مشرقة متجــددة.. لا تكوني قاسية وتطيلي انتظاري..

- أعطِ نفسكَ فرصة لمراجعة مشاعرك.. لا تكن عجولاً!

- تدللي كما تشائين.. ولكن عديني ألاّ تغيبي عن ناظري طويلاً، لــم أعد أحتمل العيش بدونك!

- احتفظ ببعض الكلام إلى ما بعد الزواج!

- إذنً، حصلتُ على الوعد!..

- ما أعدكَ به الآن هو أن انتظارك لن يطول..

- وأنا سأنتظر على أحر من الجمر..

كانت سوزان الأفندي أضعف مما تصورت، كانت مهيأة لأن تدخل القفص مثل دجاجة وديعة منهكة.. كانت في حاجة إلى رجل لم يفقد الشباب والشاعرية والخيال.. بعد أن فقدت الهيبة والحماية.. والعطف! كانت تبحث في أعماقها عن منقذ، عن معوض، عن جني يخرج من قمقمه ويحقق لها ما ترغب فيه من شباب وحب وعذوبة! دوّخها أولئك الطامعون، الذين نهبوها ونهبوا زوجها، لاحقها العجائز والمخمورون وحاصروها.. خرجتُ لها من القمقم وقلت شبيكِ لبيّكِ، عبدك وبين إيديكِ.. فارتمت بين أحضاني! لم تكن تعلم أنني نصبتُ شباكي حولها، وأنني كنتُ في حاجة إلى اسمها ولقبها وسمعتها لتحميني، لتنقذني وتدفن أموالي وثروتي في اسمها وسمعتها! يا سلام! كم هي غريبة هذه الدنيا! الفريسة تأتي وتدخل المصيدة بنفسها! بعد أن تكون قد أجهدتَ نفسكَ في البحث والتخطيط للاصطياد، تأتيكَ الفريسة – كما رأيتها في المرة الأولى – أنيقة، مشرقة، مفعمة بالعز والجمال، وتلقي نفسها في أحضانك، بل بين أنيابك! هنيئًا لك يا عصام.. التهم الفريسة كما تشاء وأين تشاء وأينما تشاء! هنيئًا لك يا عصام والحسرة لك يا إبراهيم الشّاهد!.. لم تعد لي حاجة للأرامل والنساء المحرومات والممرضات والعوانس! لا أم كاترين ولا الست عزيزة ولا تلك اللبنانية التي تدثرت بها عامين كاملين! لم تعد تغريني حتى تلك الشرقاوية المغرورة..

- ماذا تريد أن تقول يا أستاذ عصام؟

- أريد أن أقول أنّه قد مضت أربعة أعــوام علـــى مـــوت.. أقصـــد استشهاد خالد.. وأنتِ..

- أنا ماذا؟

- أنتِ في حاجة إلى رجل..

- من أخبركَ أنني أُفكِّر في الرجال بعد خالد الربيع؟!..

- لكنكِ ما زلتِ.. شابة، ما زلتِ فاتنة و..

- أستاذ عصام، أنا لا أفكر في الزواج!

- أنا الآن عصام جديد، غير الذي تعرفينه..

- تقصد الثروة.. والشركة؟

- نعم، والفندق والدونمات.. أنا مرتاح، ويمكنني أن..

- أعرف أنّك مرتاح وأعرف كيف حصلت على هذه الثروة؟

- ماذا تقصدين؟

- ما أقصده أن وجهة نظري فيك لن تتغير بسبب ثروتك ولن تمـــلأ عيني مهما تغيرت.. والله دِي آخرتها، نبدل الغزلان بالقرود!

- قرود!! كنتُ أريد أن أُسعدك وأربي الطفلين معك وأعوّضهم عـــن فقدان والدهم..

- لا!! بل تريد أن تنتصر على خالد الربيع بعد استشهاده، تريـــد أن تسير بجانبي وتشير للناس، وتقول لهم هذه كوثر العرابـــي زوجـــة الشهيد البطل خالد الربيع.. أنظروا ها أنا أفوز بها! بس دَه بُعدْك يـــا عصام، لن تنال من خالد أبدًا..

- لا والله أنا أحترم الشهيد خالد و..
- لو كنت بتحْترم ذكرى خالد وبتقدّر تضحيته ورجولته لمــا فتحــت الموضوع دَه أصلاً..
- مش أحسن ما حد غيري يسْبقني!!
- يسْبقك؟ ايه شايفني بضاعة في الســوق الشّــاطر اللّــي يسْــبق ويخطفها؟!.. على فكرة أنت إنسان ما بتحسّش! والله لولا أنك فــي بيتنا لخليت الرجالة يرموك في الترعة! ياالله.. ياالله تفضل ومتورّنيش وشّك تاني.. ياالله.. آخر زمن!..
ستعرفين من هو القرد ومن تطردين يا كوثر! هذا الذي طردتيه مــن بيتك فاز بسوزان الأفندي! أيتها المغرورة المخْدوعة، المدفونة فــي ذكريات رجل ميّت!! لم أعد في حاجة إليكِ ولم أعد في حاجــة إلــى بطولات خالد الربيع! تكفيني هذه الشجرة الوارفة ذات المقام العالي! نعم تكفيني هذه السّوزان، التي ضحّت بكل شيء من أجلي.. غيّــرت اسمها ولقبها وأعطتني كل شيء.. لم تبخل عليَّ بلقبهــا، لــم يكــن باستطاعتي أن أتحول إلى عصام الأفندي، فصــارت هــي ســوزان الفايز! يا إلهي سوزان الأفندي، بنت العائلة العريقة المعروفة تتحوّل في خبطة قدر مجنونة إلى سوزان الفايز.. شحْدة الفــايز، اللاجــئ الفقير الذي مات بالذبحة الصدرية.. والفقر، تنسب إليه هذه المــرأة الطافحة بالعز، المرأة التي لم تعرف الفقر واللجوء لحظة واحدة!! لم أتوقع أن تستسلم سوزان بهذه السهولة.. شعرتُ أنها تعــاني مــن رغبة مكبوتة للهروب!! من ماضيها، وعزها.. ومن نفسها.. لم تعد

تعتز بانتسابها إلى أولئك المهووسين بالألقاب والأنساب، والنفـاق! أولئك الذين تركوها تشرب الحرمان والعـذاب والتعاسـة بمفردهـا! تركوها لزوج عجوز مريض ولأخ مستهتر مقامر سكير، ولم يبادروا إلى إنقاذها! لم يحفلوا بها وبمشاعرها وأنوثتها! لم يرحموهـا، بـل زادوا في حصارها وتجرأوا عليها!! لكنها كانت مصرة على قرارها..

- "ماذا تريدون مني الآن؟ ألا يكفيكم ما فعلتموه؟ ألا يكفيكم ما نلته من المخمورين والمرضى منكم؟!"

- لا زلتِ واحدة منا، ونحن ندافع عن هيبتنا وسمعتنا!

- هيبتكم وسمعتكم؟ دفنتموني في رجل مريض مقامر، ولـم يبـادر واحد منكم إلى إنقاذي وتقولون هيبتكم! ماذا لو أقدمت على خيانـة ذلك العجوز؟ أين مصير هيبتكم وسمعتكم عندها؟!

- عودي إلى رشدك يا سوزان لا تنسي نفسـك، أنـتِ لا تـدركين جسامة الخطأ الذي تُقْدمين على ارتكابه..

- أخطاء.. أنتم تتحدثون عن الأخطاء.. كم هي الأخطـاء والخطايـا التي ارتكبتموها بحقي؟.. ألقابكم وأنسابكم العقيمة أعمت عيونكم، حجبت إنسانيتكم ومشاعركم!

- تتهميننا بتبلد الأحاسيس والعواطف؟

- وتبلد العقول أيضًا!

- إذا كنتِ تظنين أننا طامعون في ثروتك فأنت مخطئة!

- إذن!

- نريدك أن تحافظي على هيبتك ومستواكِ ومقامـك، بـلاش هـذا

المقطوع، المتسلق!

- إذنً، أنتم لا تريدون لي الحياة، تريدون الإجهاز على ما تبقى من عمري، تكرّرون الخطايا نفسها.. لا تجدون فيَّ سوى امرأة ذات لقب وهيبة، بحاجة إلى رجل ذي لقب وهيبة ومقام.. حتى إذا كانت هـذه الهيبة والمقام عجوزًا متهالكًا!! لم تفكروا في آدميتـي، حقـي فـي الاختيار والحياة.. تأتيني فرصـة الحيـاة فجـأة وتريـدون منعهـا والإجهاز عليها! لماذا؟.. لماذا تريدون أن تمنعوا عني المطر؟!

- مطر! أي مطر؟!..

- عصام هو المطر.. هذا "المقطوع" هو المطر الذي انتظرته طويلاً.. أنا أرض انتظرتْ المطر طويلاً.. طويلاً..

- ما هذا الهذيان؟ مطر وشتاء ورياح؟

- لن أحرم نفسي من المطر والحرث أيها المتبلدون المرضى!

- إذن تصرين على ذلك المقطوع المتسلق، الذي لا نعرف له أصلاً! ولا حسبًا! ذلك النكرة!!

- وسأمنحه كل شيء! نفسي وشبابي ولقبي وكل ما أملك! سـأهبه كل شيء!

- ستندمين يا سوزان.

- أطردوني من جنتكم، من فردوسكم العظيم!..

كانت تضحي بكل شيء من أجلي.. كنتُ قد سيطرتُ عليها وسـلبتُ لبّها! كانت مواجهتها معهم أكبر دليل على تمكنـي منهـا! شـعرتُ بقوتي وانتصاري! ولم أعد أشك لحظـة واحـدة أن سـوزان علـى

استعداد للتضحية بأي شيء من أجلي! على استعداد لتلبية أي شيء أطلبه منها، حتى لو كان ذلك الشيء هو عقلها نفسه، وليس مجوهراتها فقط..

- خذ يا حبيبي.. هذه هي المجوهرات، وهذا هو التوكيل العام، لكن لم تقل لي ماذا ستفعل بها؟ ولا أفهم فائدة التوكيل وأنت تدير كل شيء!

- سأشتري قطعة أرض جديدة، إنها فرصة لا تعوّض، أما بالنسبة للتوكيل فأريد أن أضمن ألا ينط أحدهم فجأة.. شقيقك سعدي مثلاً..

- سعدي! أين هو الآن؟ هرب المسكين ولا أدري هل كان هروبه بسببي أم بسبب أولئك المرضى المجانين، أم بسبب الدنيا كلها.. مسكين!!

- لا عليكِ حبيبتي.. إنسِ كل شيء الآن، ما دمتِ معي فلا تفكري في شيء..

- أنا أريدكَ أنتَ فقط.. أريد أن أستريح من كل شيء، وأتفرغ لك فقط حبيبي.. مللت من هموم المال والشركات والعقارات! مللتُ من نفاق الحفلات وبهرجتها الصاخبة المتكررة.. أريد أن أحيا حياة هادئة، معك، بعيدة عن التكلف والألقاب.. عصام، أنا ألقيت كل شيء في حجرك، فلا..

- لا تكملي سوزان.. لن أتردد لحظة واحدة في العمل من أجل إسعادك! ولكن شركتنا وتجارتنا، مصالحنا وأعمالنا، لا أستطيع تركها للموظفين والطامعين!

- لا.. أنا لا أرضى بذلك.. فقط أخشى عليك من هوس الثراء وسيطرته على العقول والأحاسيس! أخشى أن ..

- لا.. لا حبيبتي! كيف أنسى ذلك؟!

- على فكرة، لقد تعرفت على ابنتك وفاء.. إنها فتاة ذكية وجميلـــة! لماذا لا تحضرها إلى هنا؟ إنها فتاة ترفع الرأس..

- وفاء ابنتي! أين رأيتها؟ وتحدثتِ معها أيضًا؟

- نعم، رأيتها في..

لم أسمع ما قالته سوزان بعد ذلك، غرقتُ في المفاجـــأة.. المـــرات القليلة التي رأيتُ فيها ابنتي لم تسعفني على التقرب منها وكسبها.. وهذه سوزان تكتشفها وتقترب منها! هل أعجُبتـــا ببعضـــهما؟ أيـــن وجدتها؟ وكيف تمّ اللقاء دون علمي؟ هل خططت ســـامية، زوجتـــي السابقة لهذا اللقاء؟ غمرتني الأسئلة وعلامات الاستفهام فقـــررتُ أن أسأل ابنتي نفسها:

- كيفَ تمَّ التعارف بينك وبين سوزان؟

- مجرد صدفة! هل كنتَ تعتقد أننا لن نتقابل أبدًا؟

- ليس هذا بالضبط، ولكن ألا ترينَ أنه كان من الأفضل أن يتمَّ اللقاء الأول بينكما بمعرفتي وحضوري؟!

- لم يكن اللقاءُ مخططًا! قابلتها لدقائق في حفل مدرســـي.. كانـــت مدرستنا تعرض مسرحية، وكانت سوزان هانم هناك..

- كيف عرفتكِ كيف عرفتْ أنك ابنتي؟ ومنذ متـــى تهـــتم ســـوزان بالمسرحيات؟ ولماذا لم تدعوني أنا إلى هذه الحفلة؟!

- دعوتك في السابق، ولم تلبي الدعوة! قلت أنك لا تحب مثل هــذه المسرحيات!.. أما سوزان هانم، فاسألها بنفسك..

- وكيفَ عرفتكِ؟ لم تخبريني!

- أبي، القضية ليست صعبة عندما أعلنوا أســماء فريــق التمثيــل وحيينا الجمهور واحدًا تلو الآخر.. وبعد انتهاء المســرحية وجــدتها في انتظاري.. هذا كل شيء!!

- وفاء، اسمعي يا ابنتي، أنتِ الآن في الخامسة عشرة من عمــرك، يعني كبرتِ وأصبحتِ في حاجة إلى الرعاية والحماية.. لماذا لا تأتينَ للعيش معي، نحن في حاجة إليكِ..

- وأمي في حاجة لي! أمي تَعبت وضحت من أجلــي، لــم تتــزوج ونذرت نفسها لتربيتي!

- تستطيعين رؤيتها وقتما تشاءين..

- ولماذا أفعل ذلك، لماذا أترك أمي؟

- لأنك ابنتي، لأنني أبوكِ! الحياة عندي أفضل.. مريحة، ســتذهبين إلى المدرسة في سيارة.. وأسجلك في النادي و..

- أنا مرتاحة مع أمي

- وأنا.. أليس من حقي أن تعيشي في كنفي وتحت عيني ورعايتي؟ أنا أحق من أمك، أنتِ تنتسبين لي وليس لها..

- ماذا تعني بالانتساب؟ الاسم! أمي لم تتركني أنسى يومًا أنني ابنتك وأنتسب إليك! كانت تلح على ذلك إلى درجة الحفــظ! كانــت دائمًــا تذكّرني بأنني فلسطينية، ابنتك من صلبك، رغم أنك ابتعدتَ ونســيتَ

ولم تكترثْ بنا لسنوات عديدة.. حتى المصاريف لم تطالبك أمي بها يومًا، لم تطالبك بالإنفاق عليَّ.. كانت توفر لي كل ما أحتاجه من راتبها بصمت.. حتى بعد أن عُدت غنيًا ذائع الصيت، لم تفكر في ذلك! كنا سعداء، وما زلنا، كانت امرأة عظيمة وما زالت! نعم، أمي امرأة عظيمة يا أبي!!

- لكنني أبوكِ! ستكونين في كنفي قريبًا..

- أبي، تعلمتُ من أمي الوفاء.. أنا فلسطينية وفية.. لن أتخلى عن الذين كانوا أوفياء وضحوا من أجلي.. لن أتخلى عن أمي!.. على فكرة، أمي أيضًا تعرّفت على سوزان هانم.. وتبيّن أنهما تعرفان بعضهما! أمي صديقة لإحدى قريبات سوزان هانم وتبادلتا حديثًا قصيرًا عنها.. ثم أخرجت من حقيبتها صورة..

- انظر هذه الصورة إنها صورة الجوالين الأربعة..

- وتعرفين الجوالين الأربعة؟

- طبعًا.. هذا عمو خالد الربيع الله يرحمه وهذا عمو إبراهيم الشّاهد وهذا عمو عبد الله الشريف وطبعًا هذا أنتَ.. أخبرتني أمي أنكم كنتم أصدقاء، كنتم تحبون بعضكم جدًا.. حدّثني يا أبي عنهم، ما هي أخبارهم؟ هل أصبح لهم أولاد وبنات في سني؟!..

كدتُ أن أخطف الصورة وأمزقها! لكن فرحة وفاء بالصورة ألجمت غضبي ويدي! أعدت الصورة إليها، وعندما أعادتها إلى حقيبتها مرة ثانية، تنهدتُ وقلت:

- الوفاء يا ابنتي يحتاج إلى أشخاص أقوياء، أشخاص يستطيعون

مواجهة الظروف والعقبات!

- طبعًا يا أبي! سأكون قوية ووفية مثلك! ألـــم تتغلـــب أنـــت علـــى الصعاب ووصلت إلى ما حلمتَ به؟!

وشعرتُ أنها تسخر مني وكدتُ أن أصفعها! لكنني تذكرتُ أنها ابنتي، ولا يمكن أن تقصد إهانتي والسخرية مني!.. من أين لها أن تعــرف عن حياتي ومصدر أموالي؟!.. تأملتها.. ثم قلت:

- في المرة القادمة أخبريني عندما تقيم المدرسة حفلة!

- يعني ستحضر.. ستلبي الدعوة!

لم أجب! لكنني طلبت الصورة لأتمعن في وجوه الجوالين الأربعة من جديد..

(٦)

عزيزة الخيّال

لم أكن أتوقع أن يُذكّرني أحد بوصّية "أبو الكاس" والقنطرة، بعد هذه السنين! لم أكن أتوقع أن أجد شادي أبو العطا أمامي حيًّا مرة أخرى!

- تعالي يا عزيزة، أريد أن أعرفك بمسؤولك الجديد، الأخ مفيد السمّاك، منذ الآن ستصلك جميع التعليمات عن طريقه، هذه أوامر القيادة..

تفحصته وتمعنت في وجهه، فإذا هو شادي أبو العطا بكل ملامحه.. وتذكرته في ذلك اليوم وهو يقترب مني خِلسة:

- ها أنتِ تنفذين الوصية!
- أية وصية؟!
- وصية أبو الكاس!
- وهل تعرفه؟!
- نحن تلاميذه وأبناؤه، ونحن ننفذ وصيته مثلكِ..

وتذكرتُ طلّته في اليوم السابق للعملية، وقد تخفى في هيئة بائع جوال.. تناول النقود وهمس:

- الليلة! يجب أن تصل القنابل الليلة!

- ولكن، الليل والدوريات وجميل..

- الوطن يستحق التضحية يا عزيزة..

- ربنا يستر..

- لا تبالغ يا أستاذ زاهر! تعليمات ومسئول! الأخت أم شادي هي قيادتنا، نحن نتعلم منها ونعمل تحت إمرتها..

عجيب! التواضع نفسه! العيون الثاقبة الحادة، السمرة والنحافة والأسنان البيضاء نفسها! حتى الشارب الأسود الدقيق هو نفسه، شادي أبو العطا، تفاصيل وجهه، وطوله، هو.. هو!!

- هل تعلمين أنني أعرفك منذ عشرين عامًا؟..

- أنتَ؟

- نعم أنا! كنتُ أحضر مع خالي في بعض الأحيان، كنتُ أرعى معه حول البيّارات والكروم وأجمع له بعض المعلومات! أنا أتذكرك جيدًا، وأتذكر تلك القنطرة والعملية الأولى في القرية! ودورك فيها! أتذكر ذلك الخندق الطويل والأغصان التي غطّته والصفير وشجرة التين و..

- ما هذا؟ هل حدثك خالك بكل هذه التفاصيل؟

- بل رأيتُ ذلك بنفسي! كنتُ أراقبكِ من خارج السياج بهدوء.. كان خالي يطلب مني أن أتابع خطواتك لأطمئن عليك وأخبرك في حال وجود أي خطر!!

- وكم كان عمرك؟

- عشر سنوات..

- يعني أنتَ الآن في الثلاثين من عمرك!

- بالضبط!

- سمعتُ عنك من هذا العجوز، لكن..

- لم تتوقعي أن أكون ابن أخت شادي أبو العطا!

- الأسماء لا تحمل أية إشارة للقرابة، لكنك تشبهه تمامًا، بل أكاد أقول أنني أراه فيك!

- كيف حال شادي؟

- شادي! ابني؟..

وقف بجوار شجرة التين، قبّل يدي ثم طبع قبلة على جبيني، كنا في الكرم وكان يستعد للسفر إلى مصر بعد نجاحه في الثانوية العامة، ناولني حبَّة من الخوخ المعطر ثم قال في جدية:

- بماذا توصيني يا أمي؟!

- أوصيكَ أن تضع وطنك في قلبك دائمًا، تحبه وتفخر به، وأوصيكَ أن تجتهد في دروسك، وتعود إلى غزة في كل عطلة، فور انتهاء الامتحانات..

- حاضر.. سأفعل إن شاء الله، سأكون مثلك يا أمي!

وأخذته بين أحضاني وضممته إلى صدري.. "سأكون مثلك يا أمي" ما أعذب هذه العبارة وما أوجعها! كبر شادي، وها هو يقول كلامًا كبيرًا! لأول مرة أكتشف مذاقًا مختلفًا لكلمة أمي! أكتشف معنى جديدًا لها! معنى يفيض بالاعتزاز.. والانتماء!! أخيرًا أعلن شادي، حبيبي

ومهجتي، أنه ينتمي لي، لي أنا..

- على فكرة هناك نقود لكِ، من التنظيم!

- نقود لي أنا؟! تعرف أنني أصبحتُ موظفة ولا أحتاج إلى نقود التنظيم!

- النقود ليست لكِ، هي لشادي، لتعليمه، وإن شاء الله سيحصل على هذه المساعدة حتى تخرجه!

وقال الأستاذ زاهر بصوته الضعيف:

- لو سمعتِ كلامي ووافقتِ على سفره في منحة كاملة إلى الجزائر! كان سيوفر عليكِ كل هذا التعب وهذه المصاريف! تصرين على تعليمه في مصر! بس إن شاء الله بعد كل هذا التعب ما يتخصص مثلك، في علم الاجتماع!

- لا في الأدب العربي مثلك!

- مثلي أنا، ولا مثل صاحبنا.. ها؟!

- ياه.. إنت لسه فاكر يا أستاذ زاهر؟ لسه فاكر إبراهيم الشّاهد؟! أيش اللي جابه على بالك؟!

وتدخل مفيد السمّاك:

- الأستاذ إبراهيم الشّاهد شخصية لا تنسى يا أخت أم شادي! وأنتَ أيضًا! شخصية لا تنسى! استفدنا كثيرًا! هذا هو في بلاد ونحن في بلاد، وما الفائدة؟!..

وانطلقت الزغاريد من غرب القرية، فهمس الأستاذ زاهر:

- هذه زغاريد حمدية القرّام.. جميل خرج من السجن..

- علمتُ بذلك في الصباح.. لعلعتْ هــذه الزغاريــد ووصــلتْ إلــى المدرسة وعندها اقتربت مني إحدى الطالبات وأخبرتني أن جميلاً قد خرج من السجن وذبح عجلاً كبيرًا..

وصل جميل إلى الكرم فجأة، وكانت معه حمدية القرّام.. كانت ترتدي جلبابًا غامقًا وتلف رأسها ورقبتها وكتفيها بمنديل غــامق طويــل.. وتضع يديها في قفازات سوداء.. أخرج جميل مــن جيــب جلبابــه الأبيض رزمة من النقود ومدها إلى شادي:

- خذ هذه النقود..

- شكرًا، لدي ما يكفيني.. أمي وفرت لي كلَّ شيء..

- بأقول لك خذ، بلاش عنطزة عالفاضي.. أنا عارف البير وغطــاه.. خذ، ولا تنسَ أنني أبــوك، مصــر مصــاريفها كثيــرة والجامعــات مصاريفها أكثر..

لم أكن أريده أن يأخذ قرشًا واحدًا من جميل.. أعرف أن النقود التي ادخرتها من راتبي طوال سنتين لن تكفيه لمدة طويلة، لكنني سأتدبر أمري! نعم سأتدبر أمري، أحصل على قرض أو سلفة على الراتــب، أستدين، أفعل أي شيء! فقط لم أكن أريده أن يأخذ قرشًا واحدًا مــن جميل:

- معه ما يكفيه، لا داعي لأن تتعب نفسك أمورنا جيدة!

- عزيزة، إذا لم يأخذ النقود بيصير حكي ثاني هــه.. بقلــب علــى الوجه الثاني.. خلينا في الوجه الأول أحسن، وجه التقوى ومخافــة الله.. ولا أيش رأيك؟!..

وفكرتُ: يمكن أن يُقدم جميل في لحظة غضب وعناد على منع شادي من السفر وحرمانه من التعليم! يفعلها وينتقم! ونظرتُ إلى شادي وأومأت له برأسي، فتناول النقود.. وعندما عدنا إلى القرية، طلبتُ من شادي ألا يدنس نفسه وشهادته بهذه النقود القذرة، وأوصيته أن يضعها في البنك، وعندما يعود، بعد انتهاء الدراسة، يعيدها إلى جميل كاملة..

- يبدو أن خروج جميل يقلقكِ! إن لم يخرج اليوم كان سيخرج في يوم آخر.. أمر طبيعي!

- لقد وعدني هذا العجوز بتفسير بعض الألغاز.. سجن جميل والتهمة التي وُجهت له.. لكنه لم يخبرني بشيء!

نظر الأستاذ زاهر جودة بعينيه المتعبتين من تحت النظارة إلى مفيد السمّاك، سعل ببطء ثم اتكأ عليه وعندما أصبح واقفًا قال:

- لابد أن تخبرها يا مفيد، أخبرها بكل شيء!

ثم دبّ بعصاه، وعندما وصل إلى آخر الشارع قال مفيد بتوتر واضح:

- إنه موضوع حساس، ولا أريد أن أسيء إلى أحد..

- مفيد هل هناك أسرار؟ هل أخفيتما عني شيئًا؟ ألستُ واحدة منكم؟

- ليست أسرارًا يا أم شادي، لكننا لم نشأ.. أقصد القيادة لم ترد تحميل المسئولية لأحد، الرجل أمضى حياته في خدمة التنظيم!

- لماذا لا تتكلم بوضوح يا مفيد؟

- تذكرين صفقة الأسلحة التي سُجن بسببها المشايخ.. الشيخ فلاح وزملاؤه ومعهم جميل حب الرّمان؟

- طبعًا أذكرها! وهي بالنسبة لي غامضة حتى الآن.. جميل حب الرّمان يشتري الأسلحة ويخزنها ليقاتل بها الإسرائيليين! غريب!!

- جميل لم يقم بشراء الأسلحة ولم يشارك في تخزينها أو إخفائها! وأعتقد أنه لم يكن يعلم بأمرها أصلاً!

- لماذا قبضوا عليه إذن.. لم يجدوه في طريقهم بالصدفة مثل المرة السابقة! كانوا يعرفونه جيدًا، وذهبوا إليه في وضح النهار، وأخرجوه من بيته أمام جميع الناس!

- طبعًا.. طبعًا لابدَّ أن يقبضوا عليه في وضح النهار وأمام جميع الناس.. يجب أن يعرف ويسمع العالم كله أنهم قبضوا عليه! هذا هو سر هذه المسرحية هدفها الحقيقي!

- لم أفهم..

- قبل أن أوضح لكِ أكثر، هل لاحظتِ موقف حمدية القرام، زوجة جميل وكيف تصرّفت!!

- كانت مزهوة، فرحة، وأطلقت زغاريد المباهاة عندما سجن، وزغاريد البطولة عند خروجه.. "قال أيش بيقولوا عليه صاحب اليهود، يروحوا يدوْروا على حالهم.. هذه حصوة في عيونهم، الشيخ جميل الزّاهي أشرف منهم كلهم!!.." هذا ما كانت تردده وتهذي به في البيوت والحارات!!..

- وهذا هو المطلوب! أن يضع كل واحد حصْوة في عينه ويتوقف عن الشك في الشيخ جميل! بعد أن اصطدمت مهمة جميل حب الرّمان بعقبات كثيرة وكاد أمره أن يفتضح أقدم أبو صبري الدّاهية على حبك

هذه المسرحية! استغل موضوع الأسلحة، وأخـــرج هـــذه الصــــورة الجديدة لجميل، "الشيخ جميل الزّاهي" البطل الذي سجنه اليهود بسبب مشاركته في شراء الأسلحة وتخزينها لمقاومتهم!!

- هل كان جميل يدرك هذه اللعبة؟ ويعرف دوره الحقيقي؟

- لا أدري إن كان فهم اللعبة في البداية أم لا؟ لكنني متأكد أنه يدرك الآن دوره الجديد!

- حتى الآن لا علاقة لتنظيمنا بالقضية، خُدع المشايخ بتلك الصــــفقة وسُجنوا بسببها! أين هي مسئوليتنا نحـــن؟ لمـــاذا يتحمـــل أحـــدنا المسئولية في هذه القضية؟

- في الحقيقة أنا لا ألوم المشايخ! إذا كنا نحن كدنا أن نتورط فـــي تلك الصفقة، فما بالكِ وهم خبرتهم في هذا المجال قصيرة؟!

- نحن! كدنا أن نتورط؟!

- للأسف!.. كاد الأستاذ زاهر أن يورطنا في تلك الصفقة المشبوهة! لولا ستر الله، لحدث لنا ما حدث للمشايخ!

- كيف؟

- عرض علينا ذلك التاجر الصــــفقة قـــبلهم، الرشاشـــات والقنابـــل والذخيرة، كلها! ولولا ستر الله لتمت الصفقة وكُشف عدد كبير مـــن كوادرنا! شككتُ في هيئة الرجل، في سحنته، لا أدعي أنهـــا فِراســـة لكنه حسن الحظ، التوفيق من الله.. همستُ يومهـــا للأســـتاذ زاهـــر وعبّرت عن شكي في التاجر. كانت عيون الرجل عيـــون لصـــوص وملامحه لم تكن فيها ذرة من الوطنية، طلبتُ مـــن الأســـتاذ زاهـــر

التروي، لكنه – للأسف – لم يأخذ برأيي وكاد أن يتمَّ الصفقة، لولا أنني تدخلتُ وطردتُ التاجر، نعم طردته وأوعزتُ إلى بعض الشباب بتهديده!.. فذهبَ إلى المشايخ وباعهم تلك الأسلحة! والمصيبة أنه عَرف مكان تخزينها وإخفائها بالقطعة.. وبالنسبة لجميل، المشكلة أن بعض المشايخ، وجزءًا من أهل القرية، مقتنعون بأنه اعتقل بسبب السلاح المضبوط! والشخص الوحيد الذي يعرف الحقيقة في السجن!

- الشيخ فلاح! لكنهم يتصلون به، لابد أنه سيخبرهم..

- لا!.. لا أعتقد أنه سيخبرهم الآن! الشيخ فلاح أذكى من أن يثير البلبلة في صفوف جماعته وهو في سجنه! أعتقد أنه ينتظر الخروج ليحسم الأمور ببراعته وتأثيره المعروف!

- لكن قل لي يا مفيد، كيف عرفتَ أنتَ كل هذه الأشياء، كل هذه التفاصيل؟! موضوع التاجر والصفقة ومكان الأسلحة، وأن التاجر عرفها وأنه كان عميلاً، كيف عرفتَ كل هذه الأشياء، بالفِراسة؟ ها؟..

- ها.. ها..

ولم يتكلم لبرهة، صمت، فشعرتُ أن سؤالي كان ساذجًا ولا ينمُ عن فطنة!!.. نظر في وجهي وحدّق بعينيه الثاقبتين، ثم قال:

- لماذا تنسين أنني ابن أخت شادي أبو العطا؟

وفجأة، قفز في رأسي سؤال عجيب، فقذفته في وجه مفيد السمّاك:

- كيف تجزم أن جميل حب الرّمان لم يكن على علم بصفقة الأسلحة! ألا يوجد أي احتمال على علمه بالصفقة، وبأن التاجر كان عميلاً

للإسرائيليين!!

- لماذا تخطر في بالكِ هذه الفرضية؟

- يعني! همس، ثرثرة! لا تنسى أنه كان يجالسهم وأن بعضهم كان يثق فيه ويأتمنه.. كانت ترضيهم أحاديث جميل التهكميّة عن كوادرنا وترديده الوقح للفتاوى الحاقدة عن شهدائنا! كما أن هذه المجموعة تعتقد أن الأسلحة كانت تُشترى وتحضر لمقاومة منظمة التحرير وكوادرها وليس لمقاومة الإسرائيليين!.. لعَل أحدهم أفشى لجميل سر الصفقة! كما أن علاقته بالملعون "أبو صبري" معروفة! يعني!..

- فرضية ممكنة، لا أستبعدها!!

- ولم أذكر لمفيد شيئًا عما دار بيني وبين جميل، حديثه عن الرغبة في فتح الأبواب المغلقة، وطلبي "الغريب" بقتل "أبو صبري"!.. كنتُ أنوي أن أخبره بهذه التفاصيل في لقاء آخر، لكن الأحداث تجاوزتْ هذه الأشياء البسيطة! وانفجرتْ الدنيا مرة واحدة!.. دهس الإسرائيليون سيارة وقضوا على من فيها من العمال الفلسطينيين عند معبر إيرز، فاشتعلت غزّة بكاملها! تحولت إلى بركان قذف ما في جوفه من صخور ونيران وحجارة.. هجرتْ غزّة هدوءهاوكشفت عن غلّها المكبوت! استيقظ الناس ولفظوا اللقيمات المغموسة بالذل والمهانة، لعنوها وصرخوا في وجه المحتلين القتلة.. وبدأت الانتفاضة!.. وفي الشوارع والحارات والسّاحات، في المخيمات والقرى والمدن كان التلاميذ والطلاب والنسوة، الشعب كله، يواجه المحتلين! كانوا يواجهون الجيبات العسكرية والرصاص! كانت

النسوة تزغرد وتزود الفتيان بمئونة جديدة من الحجارة، والتحـــدي! وكان الرصاص يُسيلُ مزيدًا من الدماء، فتشتعل الشوارع والساحات والحارات من جديد.. وتصلُ مؤونة جديدة من الحجـــارة، فيتواصـــل التحدي!.. كانت الأحداث مفاجئة، لكنها كانـــت مهيبـــة ومبهـــرة.. وفاصلة!! هذه انتفاضة الشعب!!.. هـــذه مفاجـــأة الشـــعب لقيادتـــه وللعالم!!

بعد شهر ذهبتُ إلى الكرم، إلى الأخدود القديم، في العزيزة، أخرجـــتُ قطعة من السلاح، وعندما ناولتها إلى مفيد السمّاك قال:

- هذا الشعب أكبر من الجميع! انظري ماذا فعل؟ لم ينتظر أحدًا، لـــم ينتظرنا! انتفضَ وقرر أن يغير واقعه بنفسه وعلينا أن نسير وراءه! نعم، منذ الآن علينا أن نسير وراء الشعب الذي أنقذنا مـــن حيرتنـــا وترددنا! لن يتبعنا بعد اليوم! حتى لو أردنا ذلك، فلن نســـتطيع بعـــد الذي حدث، لن نستطيع!

كانت كلمات مفيد السمّاك حقيقية وصادقة! لقد فاجأتنـــا الانتفاضـــة وقلبت كل المعايير، فاقت توقعات الجميع، فاقت حتى أحلامهم!

وهمس مفيد مسرًّا لي:

- لقد هرب الشيخ فلاح من السجن مع اثنين من كوادرنا.. إنه الآن في القرية، سيبدأون المقاومة المسلحة ضد الاحتلال!

- وطبعًا أنتَ عرفتَ ذلك بالفِراسة! حسنًا! عليَّ أن أخبرك بدوري أن جميل حب الرّمان هرب من القرية، أعتقد أنه هرب إلى إسرائيل هذه المرة..

- لقد هرب من قدره!! أخت أم شادي، كنتِ على حق، ذيــل الكلــب عمره ما بنْعدل!

شعرتُ بالراحة، ابتسمت وناولته صندوق الذخيرة، ثم فكــرت فـــي كومة الحجارة التي جهزتها مع الطالبات لمواجهات الغد..

(٧)

إبراهيم الشّاهد

زغاريد وغناء.. وفرح! ما هذا؟ فتحتُ عيني وتأكدت! نحن في بئر العزيزة، وليس في مكان آخر! إذن، من أين يأتي الفرح؟ من أين تأتي هذه الزغاريد؟ نفضتُ الشرْشف وخرجتُ إلى الصالة وعندما أدركت حقيقة ما يجري تسللتُ على أطراف أصابعي واسترقتُ النظر!.. كانت سميرة في حالة من التجلي والنشوة!.. انتهزتْ فرصة غياب الأولاد عن البيت فأدارت المسجل، ونسيْت نفسها مع ذلك الشريط الشجي البهيج "زفة شقيقي الأصغر"!.. لاحظتُ دموعها فمكثتُ في مكاني!.. وجاء صوت الأرغول فانتفضتْ سميرة، التفتتْ حولها ثم راحتْ تدقّ قدميها على الأرض بخفة، وتغني! ولم أتمالك نفسي، اقتحمتُ عليها تجليها وشبكتُ يدي في يدها، ثم طرتُ بها دابكًا!..

دبكْنا وغنينا، ونسينا الدنيا، وتذكرنا الأيام الخوالي:

- يا سلام! والله زمان يا إبراهيم! فاكر حفلات الجامعة وعرس الشام، هييه أيام الشباب؟!

- طبعًا فاكر! لكن ماذا تعنين بأيام الشباب، يعني قصدك عجزنا، خلص؟!

- اسمع يا إبراهيم، ما رأيك أن نعمل عرسًا فلسطينيًا يوم زفة ابن فؤاد رمضان؟! نوفر الصالة والتكاليف! نفسنا في عرس فلسطيني يا أبو ناصر!

- أيْوه! حتى نصير مضغة في ألسنة الناس!.. شوفوا الفلسطينيين يغنون ويرقصون وأهلهم يموتون ويدخلون السجون. إحنا مش خالصين من غير فرح ورقص يا سميرة! ألم تر ما فعلوا مع المهندس حامد أبو جابر يوم عرس أخيه؟ بهْدلوه، جرّسوه!.. كله بسبب أن النسوان زغردن، وواحدة منهن انهبْلت ورقصتْ!.. والله يا سميرة حامد بكى بالدموع مثل الأطفال..

ورن جرس الباب، ثم بدأ صوت الخبط، وعندما فتحتُ الباب هدر فؤاد رمضان:

- أيش نايمين؟ كسرنا الباب يا رجل!

أدخلتهما، ثم دلفنا إلى الحاكورة.. فبدأ فؤاد شارحًا مثل التجار:

- هذه حديقة الشّاهد! انظر يا أستاذ كاظم كم هي رائعة! أنظر ماذا فعل الكاتب المرهف صاحب الأيادي الطرية الناعمة!! أنظر التقسيم والتنسيق: هنا قسم الفواكه، ثلاث شجرات من الزيتون وثلاث شجرات من التين وثلاث شجرات من العنب، ومثلها من المشمش ومثلها من الخوخ المعطّر!..

- خوش حديقة! رائعة!

- وهنا، انظر، هنا قسم الحمضيات، ثلاث شجرات من "أبو صـــرّة"، ومثلها من اليوسفي، وثلاث شجرات مـــن "دم الزغلـــول".. تعـــالَ.. تعالَ.. هنا قسم الخضراوات: الفلفل والباذنجان والبنـــدورة والخيـــار والفول!! آه نسيت.. وهنا حوض الورد!.. ورد من كـــل الأصـــناف، أنظر!.. تعالَ تعالَ، هنا قسم الدواجن، الدجاج (بلدي) والبط والحمام والأرانب.. كلها!

- عيني، هذا مو شغل مثقفين ومدرّسين! ما أصدق!

- لا تبالغ يا فؤاد، لقد استعنتُ بالمهندسين الزراعيين والمـــزارعين والعمال.. جميعهم لهم الفضل في تعمير هذه الحاكورة.. هذه حاكورة وليست حديقة يا أبو رمضان!

- حاكورة ولا كرم ولا بيّارة، المهم أنها إنجاز رائع!! اسمع بمناسبة ظهور تباشير الثمار، فلابد أن تعد لنا وليمة، هنا.. يعني من الحســـد والعين! نعم لابد أن تذبح لنا خروفًا.. لن نقبـــل أن تضـــحك علينـــا ببعض الخضروات! سندعو جميع الأصدقاء هنا للغداء يوم الجمعة!.. أنظر يا أستاذ كاظم، تعالَ، انظر هذه النافورة الجميلة، يا سلام قعْدة ملوكي! هنا تكون الجلسة رائعة.. هنا يجلس إبراهيم الشّاهد كأنه في قريته! ماذا ينقصه؟.. لا شيء! هنا البرتقال والفواكه والدجاج البلدي والحمام!! ماذا ينقصه؟!..

"ماذا ينقصه؟!.. هل تعني ما قلته يا فؤاد؟! لم يعد ينقصني شـــيء! تعني أن هذه الحاكورة بديل عن الوطن والقرية!.. تعني أنني رضيتُ بالصورة بديلاً للأصل! لا يا فؤاد.. ينقصني الكثير، الكثير.. وكل مـــا

فعلته هو هروب! هروب من الهموم، انغمست في الزراعة والــري، كنتُ أريد أن أعود إلى قرويتي التي أفسدتها المدينة والغربة، أتنفس رائحة النباتات والتربة الممزوجة بالمياه، أستنشقها وأنــتعش بهــا! لكنها لم تكن نفس الرائحة! ولم تكن نفس التربة، ولم ألتصق بهــا! جذوري مغروسة في أرض أخرى! ينقصني الكثير يا فؤاد، لأن مــا تراه وما يبهرك مجرد صورة! وهم، معَزٍ، لا أكثر! هذه الحــاكورة، ليست لي! أدرك ذلك بكل نبضة في جسمي، بكل قطرة في شراييني، ليست أرضي، ولن تنبت جذوري هنا! فلمــاذا القســوة يــا فــؤاد.. لماذا؟.."

- ها!! اتفقنا؟! يوم الخميس نذهب لشراء الخروف! لا تنسَ أنا مَــن أقنع صاحب البيت بتأجير الأرض لك!

- لم أنس ذلك.. يوم الخمــيس نــذهب لشــراء الخــروف ونــدعو الأصدقاء! وأنت تتكفل بترتيب الذبح والشــواء... الشــواء خــارج الحاكورة هه..!

ورافقنا كاظم عبد الجبّار، ذهبنا إلى مزرعة الحاج مفتاح الشــيباني، واتجهتْ الشاحنة الصغيرة إلى اليمين، فــدخلنا فــي طريــق يحفــه سياجان ظهرتْ بداخلهما "سواني" الحمضــيات والنخيــل! وليصــبح المشهد مماهيًا لما جال في رأسي، تقافزتْ العصافير ثم نطّت أمامنــا لتطير مرة أخرى كلما اقتربتْ الشاحنة منها، فصرخت:

- إنها العزيزة!

فقال فؤاد رمضان وهو يتمايل مع قفزات الشاحنة:

- نعم هذه هي العزيزة، قبل أن يهجرها أهلها ويسكنون تلك القرية! وهناك بقايا البئر القديمة، بئر العزيزة، هناك! اسمع الحاج مفتاح الشيباني لديه كل ما يشبع نهمك حول بئر العزيزة وأولاد عجيبة! الأسماء والحكايات، و"الخراريف".. كل شيء! هذا الرجل موسوعة في هذه الأشياء! يستطيع أن يحدثك ساعاتٍ طويلة دون كلل أو ملل! لكننا لم نأتِ اليوم لسماع القصص والحكايات، جئنا لشراء خروف وبس.. لا تضيّع وقتنا في "الخراريف" الفاضية! ولاّ أيش رأيك يا أستاذ كاظم؟!

- عدل! عدل بو رمضان!

لكنهما لم يستطيعا منعي من سماع "الخراريف"!.. ظل الحاج مفتاح يسرد ويقص ويمثل بمتعة، وبقيتُ أستمتع بحكاياته وخراريفه حتى الظهر:

- كتّفوها وربطوها على ظهر الجمل ثم أخذوها إلى صحراء بعيدة! وهناك أنزلوها وتركوها لقدرها، تفتك بها الوحوش الضارية أو تلدغها الأفاعي والعقارب السّامة! لم يقتلوها، تركوها وعادوا!.. أما العاشق الغريب فقد هرب، تركوه ولم يطاردوه! لم يقتلوه.. العزيزة عادت إلى البئر! عادتْ وعاشتْ عند البئر! كانت تشرب من مياه البئر، وفي الليل كانت تصيح وتنادي على حبيبها، وتطلب منه أن ينقذها! كان أهل النجع يسمعون صراخها وبكاءها! وبعضهم رآها وهي تمزق ثيابها وتخمْش وجهها! وخشي الناس أن تقتحم عليهم بيوتهم، فهجروا البئر والنجع!.. حرّموا مياه البئر على أنفسهم ولم

يشربوا منها بعد ذلك اليوم!.. وإذا تصادف وأخطأ غريب أو جاهل وشرب من مياه البئر كان يُصاب بالجنون ويدور حول البئر – مثل العزيزة – ويقيمُ عندها، ومن يومها سُميت البئر والمنطقة باسمها!

- وأولاد عجيبة؟

- لا.. عجيبة لم يكن امرأة! عجيبة كان اسمًا لرجل! أنا أتذكره، كان عمري ست سنوات، كان قادمًا من مصر، وسمعتُ أن بلاده اسمها الصعيد! كان هاربًا من ثأر.. قتل أحد أبناء بلدته وهرب.. وكان ذلك الرجل الأسمر القصير قوي الجسم! أنا رأيته مرات عديدة.. كان يضع فوق رأسه طبقًا مدورًا مصنوعًا من سعف النخيل.. كانت المنطقة مزروعة بالنخيل، وفي الشتاء يزرع الناس الشعير! كان يضع فوق الطبق ثوبًا ثم يربطه من عند وسطه فتصبح هيئته غريبة ومضحكة، كائن بلا رأس، عجيبة! كان يدور ويرقص ويؤدي حركاتٍ غريبة ويصدر أصواتًا غريبة! أصوات حيوانات وطيور.. وأحيانًا كان يبكي! نعم أنا رأيته يبكي والناس من حوله تضحك وتسخر منه! وفي آخر الليل كانوا يعطفون عليه ويقدمون له ما تيسر من التمر والزيت وخبز الشعير! كنا نغني حوله، ندور حوله ونردد: يا عجيبة بلا راس، حوز ودوّر على الناس.. غريب تعيشو يا مسكين؟ وين دماغك يا ترّاس؟!.. كنا نعرف أنه رجل وليس امرأة، لكننا لم نعرف له اسمًا غير عجيبة! بعضنا كان يحاول أن يجذب ثوبه ويكشف عما بداخله.. كان للثوب عينان، ثقبان ينظر منهما إلى الناس وكان في بعض الأحيان يتشقلب ويمشي على يديه! كان عجيبة يثير دهشتنا

وفضولنا، وكانت هيئته وحركاته المضحكة تسلي الناس وتدخل بعض البهجة إلى قلوبهم.. لا! لم يكن يسكن في النجع! كان يعيش وحيدًا منعزلاً في كوخ بعيد عن النجع!.. بعد سنوات عطف عليه أحد سكان النجع، كان غريبًا مثله، كان من أصل تركي! زوّج عجيبة إحدى بناته واستخدمه في زراعة الأرض! أنجب عجيبة من زوجته ستة أولاد وأربع بنات، كل أولاد عجيبة الذين تراهم من نسله! حتى بناته سبحان الله – جاء أولادهن لأخوالهم وجدهم، ولم يأخذوا من العرق التركي شيئًا!! الملامح والأجسام نفسها! تعرفهم من سمرتهم وقامتهم القصيرة الممتلئة المدكوكة! والغريب أنهم يتمتعون بالروح المرحة وخفة الظل، كلهم! يعرفون بهذه الصفة دون أهل المنطقة كلها – سبحان الله – أولاد عجيبة!!..

وقلت لكاظم عبد الجبّار أثناء عودتنا بالخروف:

- أعرف أن لديك خبرة في الإخراج المسرحي..

- هييه! الأستاذ كاظم فنان يا أبو ناصر، فنان كبير.. مسرح ورسم وديكور وتأليف أغاني يعجبك! وصوته، لازم تسمعه يا أبو ناصر.. رهيب!!..

- أنت تكتب مسرحيات بو ناصر؟ يعني أكو محاولات سابقة؟

- آه.. يعني محاولتان، من فصل واحد!! واليوم طرأت لي فكرة مسرحية! قل لي ما هي ملاحظاتك على حكايات الحاج مفتاح؟

- حكاية العزيزة؟ أعتقد أنها موجودة في الريف والبادية العربية، تعرف هذه أساطير شعبية: الهامة والغولة والمارد والجان الذين

يتحولون إلى حيوانات وكائنات غريبة، وخيالات الناس، يعني كل بيئة تفرز أسطورتها!

- لكن عجيبة قصة حقيقية، ليس للخيال أي دور فيها!

- بتعرفوا يا جماعة أنا بذكر شخص في بلدنا مثل هذا، معلش أنا أكبر منكم شوية.. كنا بنسميه عجوبة، مش عجيبة، كان يرقص وينط ويضحك الناس، بس كان من البلد نفسها، يعني في عندنا عجوبة كمان!

- هذا نموذج لإنسان تحايل على ظروفه المريرة الصعبة، تخفى وتكسب بحرفة مهينة ليتغلب على محنته.. وأعتقد أنه كان يعاني من صراع نفسي مرير وهو يمارس هذه المهنة المهينة!

- ألم تستوقفك تلك الكلمات التي كان يرددها الأطفال حوله "غريب تعيش يا مسكين، وين دماغك يا ترّاس"؟!.. لاحظ أن الأطفال ربطوا الحياة – الحياة الحقيقية – بوجود العقل والتفكير – يعني الإرادة!

وقهقه فؤاد رمضان:

- يا سلام! عليك شطحات غريبة يا أبو ناصر! يعني الأطفال من حوالي مية سنة، في هذه الخرابات والصحاري كانوا يعرفون التفكير والإرادة والحياة الحقيقية؟ مش ناقص إلا تقول أنهم كانوا يفكرون في الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية.. ها.. ها.. ها..

- مش مهم قصدهم يا أبو رمضان، المهم ما نأخذه نحن ونلتقطه من أفواههم، الإشارات والإيحاءات..

- أتفق معك يا أستاذ إبراهيم، لكن لم تخبرنا، ماذا أوحت لك تلك

الكلمات؟

- مسرحية نقدمها في مسابقة المسرح المدرسي: الحياة بدون عقل لا قيمة لها.. الإنسان بلا عقل حيوان.. الإنسان بدون إرادة لا قيمة له في الحياة! ومن يحرم الإنسان عقله وإرادته هو عدوه الحقيقي..

- ياه..! شلون جبتها أستاذ إبراهيم؟

وضرب فؤاد رمضان على مقْود الشاحنة بقوة ثم داس فجأة على كابح السرعة فارتطمنا بالزجاج، وخلفنا ارتطم الخروف بكابينة الشاحنة بقوة وثارت خلفنا زوبعة من الغبار.. نظر فؤاد في وجوهنا، ثم زمْجر:

- شلون جبتها! يا حبيبي.. يعني الحكاية جد.. ها؟! حسبت الموضوع مجرد حكي، حديث مثل أحاديثنا كلها! نشتم الحكام والأنظمة، نهاجم الذين أضاعوا الأمة العربية، ندعو إلى الديمقراطية والعدالة الاجتماعية وتوزيع الثروات، نصرخ – مثلهم – بإدانة واتهام الجميع.. آه.. ونقول نكت وطرائف، ها! بيننا! لكن التحريض الموّثق وكل الناس تتفرج عليه، مسرحية يشاهدها الجميع، هذا جنون! تحريض ودعوة للتمرد! ألم تشاهدا التلفزيون؟! في شهر رمضان يشنقون الناس! ألم تسمعا بما حدث في بني غازي! شنقوهم، المدرسين الستة، كانوا عربًا مثلنا.. ها؟! العملية كلها ثلاث ساريات من الخشب تُدق بسرعة ثم تعلقان فيها وتشنقان! والجماهير الحاشدة تهتف حولكما بالموت للخونة وأعداء الثورة والأمة! الإنسان بدون عقل وإرادة لا يستحق الحياة يا سلام! يعني قوموا

ارفضوا تمرّدوا!.. مالنا نحن وهذه الأمــور؟! يســتعملوا عقــولهم وإرادتهم ولاّ يأكلوا بطيخ أصفر! ما دخلنا نحن؟! بعدين، أنتَ، أنت يا أستاذ كاظم هارب من صدّام وحكم إعدام حتى تتعلــق هــان علــى المشنقةّ؟! يا راجل حرام عليك، أولادك كبروا وبدهم إيّاك تــربيهم.. وأنت يا أستاذ إبراهيم، هذه ليست معركتنا وبلاش بطولة كاذبة! مــا تفعله هو انتحار! إلغاء العقل يحول الإنسان إلى حيوان أو كائن بــلا إرادة نعم! والانتحار المجاني، الهبل، هو إلغاء للعقل أيضًا!.. وطبعًا أنتما تعرفان الفرق بين الانتحــار والاستشــهاد البطــولي!! كيــف تحرضان وتحثان على استخدام العقل، وفي الوقــت نفســه تلغيــان عقليكما؟! مجانين صحيح! هل صدقتما أن هناك حرية وديمقراطية؟!

وأعادتني كلمات فؤاد رمضان الهادرة إلى عقلي!! نظرتُ في وجــه كاظم عبد الجبار فوجدته ممتقعًا معروقًا!.. ارتفعت يد كاظم إلى عنقه تحسسه وبلع ريقه، ثم قال بصوت مبحوح:

- صار لي عشر سنين هارب وخايف! رجعتني للخوف من جديد يــا أستاذ فؤاد! خوف جديد وهروب جديد.. ورعب جديد!!

وهمستُ بمرارة:

- الأستاذ فؤاد عنده حق! إذا لم يكن خوفنا على أنفسنا، فمن أجــل الآخرين وأولادهم! عنده حق، النقمة ستكون على الجميع والــبطش سيكون شديدًا.. الشعارات شيء والحقيقة شيء آخر يا أستاذ كاظم!!

وعندما ربط فؤاد رمضان الخروف في الحــاكورة تمتمــت "لكننــي سأكتب المسرحية.. لنفسي على الأقل".. فقال كاظم عبد الجبّار:

- بو رمضان، الكلام عن المسرحية يظل بينا.. يعني، تعرف!!

- هو هذا كلام ينقال لحدا يا أستاذ كاظم؟! اطمئن!..

بعد الغذاء، لاحظتْ سميرة والأولاد أنني مهموم، فراحوا يطمئنونني:

- لا تحمل همًّا حبيبي، كل شيء سيكون على ما يرام.. الأمور ستكون جيدة إن شاء الله! ما رأيك أن أستعين ببعض الصديقات، يعني، الضيوف كثيرون هذه المرة..

وأضافت لُمى:

- لا تقلق بابا! أنا سأساعد ماما.. أنت خايف نقصر مع الضيوف بابا ولاّ خايف على الحاكورة؟!

ودخل ناصر عائدًا من الحاكورة.. وضع سطْل الماء، ثم قال:

- بابا هذا الخروف غريب! مش راضي ياكل ولا يشرب.. صايم!! معقول الخروف حاسس أنه بده ينذّبح؟! معقول؟!

- مش عارف بابا.. انت مش عرضت عليه الميّه والبرسيم.. خلص طلع من خطيتنا!!.. على كل حال لا تتعبوا أنفسكم.. الجماعة سيتكفلون بإعداد كل شيء.. هذا شرطهم – الشواء والسلطات.. كل شيء!!

- طيب ليش قلقان بابا؟!

- لا شيء حبيبتي! لا شيء لُمى!

- لا شيء حبيبتي! طيب خذ هذه المفاجأة الحلوة حتى تعرف بنتك أيش قد تحبك – على رأي صاحبك العراقي – هذه رسالة من عمتو فاطمة، من الأرض المحتلة!

وقال خالد الذي التصق بأمه، فجأة:

- بابا.. أنا ركبت على الخروف، بس..

- حرام بابا، الخروف ما بيركبوا عليه.. بعدين انت ما اسمعت أخوك ناصر وهو بيقول أنه الخروف صايم! حرام بابا..

كانت رسالة فاطمة حافلة بالأشواق ورائحة الأهل.. والانتفاضة:

"..على فكرة يا أبو ناصر الأحوال ليست مثل الأول!.. لم يعد الناس يخافون من أي شيء! لم يعد يهمهم الحبس والضرب والتعذيب والبهدلة!.. يعرف الناس هنا أن الإسرائيليين يخافون أكثر منا! ويعرفون أن الأمور لن تعود إلى الوراء مرة أخرى.. مثل ما تقول الناس كانت مسدودة على قشّة! انطلقوا إلى الشوارع والحارات مرة واحدة! عجائز وشباب وأطفال، نساء ورجال وبنات.. كلهم يا أبو ناصر في هَبّة واحدة بدون أن يوجههم أحد!! إذا كان بيقولوا عندكم أن أحدًا وجه هؤلاء الناس لا تصدقوه!.. الله أكبر لو شفت مرة كرّاز وهي تمسك الضابط الإسرائيلي من قبته وتضربه بالكف! الله أكبر لو شفت النسوان وهن يهجمن على الجنود والدبابات والجيبات بدون خوف! آه لو رأيت مرة السمّري وهي تحط الحجار في حجرها وتجري وتنادي: عليهم يا شباب، عليهم! تقذف الحجارة، وتناول الشباب من حجرها وتقذف على الجنود الإسرائيليين! وبنات المدارس يا أبو ناصر، ألله أكبر لو شفت بنات المدارس وهن يواجهن الجنود الذين يحملون الرشاشات! ومش هاممهن الرصاص.. يا سلام لو شفت أم شادي قدّامهن! عزيزة الخيّال قدّام البنات وتقذف الحجارة

وتهتف معهن!.. بتعرف يا أبو ناصر اليهود صاروا يتحركوا في الشوارع مرعوبين! والشباب هم الذين يحكمون البلاد في الليل!.. أخي أبو ناصر، أريد أن أطلب منك طلب ولكنني أشعر بالخجل، لكن أمي أصرت على أن أكتب لك عن الموضوع!.. ابني وائل حصل على الثانوية العامة وبتعرف الجامعات عندنا تعطلت تقريبًا، وأمي قالت أن أكتب لك وأستشيرك إذا كنت بتقدر تدخله عندك في الجامعة! وقالت إذا وافق إبراهيم بسافر أنا (يعني أمي) مع وائل وبشوف إبراهيم وأولاده وبطمئن عليهم وبقعد عندهم شهر أو شهرين! وهذه أوراق وشهادات وائل مرفقة مع الرسالة..

أنعشتني رسالة فاطمة، أذابت الإحباط الذي سببته كلمات فؤاد رمضان! فأنجزتُ المسرحية! وسلّمت نسخة منها إلى كاظم عبد الجبّار! لكنني عدتُ إلى حزني وخوفي بعد شهرين فقط! أغتيل أبو جهاد في تونس فحزنتُ وانعزلتُ عن الأصدقاء.. هجرتُ سهراتهم وجلساتهم، فجاءني كاظم؛ واساني وترحمّ على الشهداء.. ثم قال:

- مصباح الحامدي يود رؤيتك..

- مصباح الحامدي! من مصباح الحامدي؟

- الأستاذ الجامعي الذي قابلناه في ندوة "الأدب الثوري"..

- أستاذ الأدب الإنجليزي العائد من بريطانيا، وماذا يريد مني؟! أرجو ألاّ تكون قد أطلعته..

- بل أعطيته نسخة منها، نسخة بدون أسماء.. وهو معجب بالمسرحية!

- هل جننتَ يا كاظم؟

- اسمع يا إبراهيم مصباح الحامدي يريد أن يتبنى المسرحية، تأليفًا وإخراجا! هذا هو الحل الوحيد: أن نختفي وراء اسمه! المهم أن تصل الرسالة.. على فكرة الحوامدة قبيلة كبيرة، تتوزع في نجوع ومدن كثيرة، والنظام يحسب حسابها! يعني مصباح يستطيع أن يجازف.. المهم أن تصل الفكرة يا أبو ناصر!

وجاء مصباح الحامدي.. لكنه بدأ حديثه بسؤال مثير:

- أستاذ إبراهيم، لماذا غيرت أسلوبك؟ كانت قصصك رائعة ورشيقة، بأسلوبها ورموزها الجميلة! أذكر قصتك "الطبل والطاووس" قرأتها قبل سفري إلى بريطانيا، كانت حافلة بالدلالات والرموز، لكنك هنا، في هذه المسرحية، تلجأ إلى الواقعية الفجّة، صحيح أنك تحاول أن تزين المسرحية ببعض اللقطات الفانتازية، لكن المباشرة تظل هي الطاغية! أشعر أنك تخشى من عدم وصول الفكرة!..

- ألا ترى أن الواقع أصبح أكبر من الرموز والدلالات؟ لماذا نخفي أفكارنا؟!..

- عمق الأفكار وتكثيفها ورمزيتها، سمة الإبداع الأساسية.. واسمح لي أن أعرض عليك بعض الملاحظات حول فكرة المسرحية وشخصياتها!

- فكرة المسرحية وشخصياتها! يَعني تريد أن تغير النص..

- اسمع ملاحظاتي، ولك الخيار في قبولها أو رفضها.. أليس هدفنا هو أن تصل الفكرة، الرسالة؟!.. مثلاً، لماذا لا نحصر الشخصيات في

اثنتين فقط "الدعْبول" والراوي! ولمـــاذا نُظهـــر ملامـــح "الـــدعبول" ووجهه؟! يفضّل أن يبقى مجهول الملامح , كائن بلا رأس! وأقتـــرح أن يموت في نهاية المسرحية.. وتنتهي المسرحية بأن يطرح الراوي السؤال حول أسباب موته!

- هذه الأفكار مقتبسة من مسرحية أجنبية! الإنسان الدُمية الذي لـــم يستطع التخلص من صفته وحالته التي لازمته لسنوات طويلـــة، لـــم يستطع العودة إلى ممارسة دوره في الحياة! انتصرت عليـــه حالـــة المسخ التي لازمته وأبقته "دُمية" بلا إرادة!

- ثم احترقت "الدُمية"! هناك تشابه.. نحن نريد الاستفادة من رمزية الشخصية ودلالتها.. المهم أن تصل فكرتنا ورسالتنا!..

وقبلتُ العرض..

وبعد شهرين عُرضت مسرحية "الدعْبول" من تأليف وإخراج مصباح الحامدي على مسرح الجامعة! وفازت بالترتيب الأول! والغريـــب أن أحدًا لم يسأل عن معنى كلمة "الدعْبول" أو مـــدلولها.. وخشـــيتُ أن نكون قد فشلنا في توصيل الرسالة!

وفي صباح اليوم التالي وقفتُ في الفصل أمام طلبة الصف الثالث - أ- ووجهت السؤال التالي: "من الذي قتل الدعْبول؟".. وطلبتُ الإجابة بدون ذكر الأسماء.. وجاءت النتائج مدهشة!! ثمانون بالمئـــة مـــن الطّلاب فهموا المسرحية ورسالتها!!

"ليس مهمًا من قتل "الدعبول" وكيف قُتل!! المهم أنه مـــات بســـبب تخليه عن نفسه، عن عقله وإرادته! مـــات بســـبب قبولـــه بحالتـــه

الممسوخة المشوهة!..

وعرضتُ النتيجة على كاظم عبد الجبّار فقال ببرود:

- مبروك!

- مبروك لمصْباح الحامدي!

- أبارك لك على قبول ابن أختك بالجامعة! أخبرني مصباح الحامدي بالأمس.. وقال إن عليه الحضور بسرعة للالتحاق بالجامعة!

أومأت لكاظم فوضع يده في يدي ثم خرجنا مبتعدين عن المدْرسة! عندها جاءنا صوت أمين تاج السّر مناديًا! وعندما وصلنا قال لاهثًا:

- هل سمعتما الخبر؟!

- أي خبر؟!

- مصْباح الحامدي دهسته سيارة، ونقلوه إلى المستشفى!

نظرنا إلى بعضنا ثم صرخنا في صوت واحد:

- حتى ابن الحوامدة!!..

(٨)

عصام الفايز

وجاءك المطر يا سوزان! نزل عليك غزيرًا مدْرارًا، وتمّ الحرثُ بسنان قوية حادة.. حتى صهلتِ! صهلتِ!! ولكنك لم تنتجي زرعًا ولا ثمرًا!!.. المرأة الفخمة لم تنجب الولد الذكر الذي كنتُ أتمناه!.. كيف لي أن أعيش بدون أولاد ذكور من صلبي؟!.. أولاد يكبرون في كنفي ويحملون عني همي.. وثروتي!! كلهم أنجبوا، خالد الربيع أنجب وترك أولادًا، ذكورًا!.. وإبراهيم الشّاهد أنجب أولادًا! آه، ما أقسى الحرمان من البنين! "المال والبنون زينة الحياة الدنيا" حصلتَ على المال يا عصام، لكنك حُرمت من البنين! خذلتك سوزان الأفندي، خذلتك المرأة الفخمة الطافحة بالعِز والهيبة! وعدتَ نفسك بالنصر، منّيتها بفوزك بالضربة القاضية! لكن سوزان خذلتك ولم تمنحك أطفالاً يسعدونك ويملأون عليك الدنيا، كما ملأتها الثروة! ها هي حياتك، بعد أربع سنوات، من الصبر والتماسك تنهار ويحاصرك الحزن!.. والحرمان!..

- تحرّكي، افعلي شيئًا، حاولي، لماذا لا تحاولي؟!

صرخت في وجه سوزان غاضبًا حزينًا.. فدارت على الأطباء، أكبر الأطباء، وأجرتْ الفحوصات.. كل شيء سليم، لا يوجد أي مشاكل، تستطيعين الإنجاب!.. لا يوجد عندها مشاكل، وأنا لا توجد عندي مشاكل! لماذا يصر الزمن على العبوس في وجهي إذن؟! ما هذا النحس الذي يلاحقني؟!..

وهربتُ من حزني، حاولتُ الانغماس في السهرات والحفلات، لكنني صدمتُ! كانت مكْلفة! لا! أنا لا أستطيع أن أنفق هذه الأموال الكثيرة عبثًا! لا أستطيع أن أنفق قرشًا واحدًا بدون فائدة.. هدف!.. لم أتعب في هذه الأموال لأنفقها على هؤلاء السكارى المحتالين! لا!.. وتزوجتُ.. تزوجت سرًا، كانت امرأة مجربة ولودًا!.. لكنها لم تنجب أيضًا!! فتحطَمت حياتنا

- أنتَ رجل مضطرب حائر، تشقى بثروتك ولا تتمتع بها!

قالت ذلك بلسانها السليط اللاّذع ثم قبضت الثمن واختفتْ من حياتي بسرعة، كما دخلتها.. هل كانت شيطانة أم عرّافة لا أدري! آه.. لمن تترك هذه الثروة التي كبّرتها وأصبحت ضخمة؟!.. "لوفاء ابنتك الوحيدة" ابنتي، التي لم تشعر بي وبأحزاني وعذابي! التي لم تعوضني عن الولد الذكر، ولم تحاول التخفيف عني وإسعادي! وفاء التي تصر على جفائها ووفائها الأحمق!

جاءتني منذ أسبوع وسألتني بحدة:

- لماذا لا تتبرع للانتفاضة؟

- وما دخلكِ أنتِ في هذه الأمور؟

- أنا في لجنة الدعم والمساندة بالجامعة، نقوم بحملة لجمع التبرعات من الأشقاء العرب وأثرياء الوطنية..

- ماذا تقصدين بأثرياء الوطنية؟ لماذا لا تتوقفي عن هذه النبرة الحادة والتلميحات السخيفة لا تنس أنك تتحدثين مع والدِكِ!

- حسنًا يا والدي! ماذا فعلتَ من أجل أبناء شعبك؟ ماذا قدّمت للانتفاضة ولأطفال الحجارة؟

- وماذا يفعل الآخرون؟

- يفعلون الكثير! يتبرعون بالمال، بكميّات من الدم، يتبنون بعض الطلاب الذين انقطعت بهم السبل، ينفقون عليهم! يرسلون بطرق مختلفة أموالاً تعزز صمود أهلنا و..

- تبّرعتُ بمبلغ من المال!

- مبلغ من المال؟! ألف جنيه مصري!!. ها! مليونير مثلك يتبرع بألف جنيه، يا للسخاء!! أنت تنفقه في سهرة واحدة!!

وصفعتها بقوة ثم صرخت:

- ماذا تريدينَ مني؟ ماذا تريدون مني، أنتِ وأمك وسوزان؟ أنتم تكرهونني ولا تحسون بمعاناتي..

وأجهشتُ بالبكاء.. وبكتْ وفاء أيضًا! لكنها كفكفت دموعها بعد لحظات ثم قالت بصوت متقطع:

- نريدك أن تشعر بالناس أن تكون فلسطينيًا حقيقيًا!..

ومن يشعر بي أنا؟! كلّهم يريدونني أن أشعر بالناس، أن أبعثر أموالي هنا وهناك حتى يرضى عني الناس!.. أموالي التي جمعتها

بالشقاء والمجازفة والخوف.. والتهديد! هكذا أبددها بسهولة! ما هذا الجنون؟! أين كان هؤلاء المجانين عندما ارتديتُ السراويل المرقعة ونمتُ في العراء والبرد؟ أين كانوا عندما عملت في المهن الوضيعة وتسولت اللقيمات من الدور والأزقة والحوانيت؟! "افتح يدك وبحبح على الناس واشعر بهم حتى يشعروا بك" هذا ما قالته سوزان أيضًا! سوزان الأفندي، الإقطاعية المترفة التي لم تعرف عن "الناس" وعن عذاباتهم شيئًا، تطلب مني، فجأة، أن "أفتح يدي وأشعر بالناس" أليس هذا غريبًا؟! أصيبت سوزان "بلوثة إنسانية" هي الأخرى!.. فجأة، تحولت إلى "ناشطة في المجال الاجتماعي"!! يا سلام! تحضر الحفلات والمهرجانات، تتبرع هنا، وتبذر هناك، تجمع الملابس والحاجيات لأسر الشهداء والمعتقلين! تجري لاهثة متعبة على المؤسسات والسفارات ومراكز الشئون الاجتماعية! كلهم أصبحوا وطنيين فجأة!..

قلت لسوزان بعد عودتها من إحدى جولاتها الاجتماعية:

- كفى عن اللهاث وراء أمور لا تهمنا! توقفي عن هذا التبذير! لماذا لا تهتمي بحياتنا قليلاً؟!

- كيف تريدني أن أهتم بحياتنا؟!

- انظري إلى وجهك في المرآة! لونك شاحب، ولم تعودي نضرة مشرقة! أين سوزان التي أعرفها؟!

- سوزان أعيتها الأدوية والجلسات الطبية وعمليات التنظيف التي أجرتها من أجل أن يكون لك ابن! لماذا لا تحاول أنت مع الأطباء؟ قد

يكون الأمر متعلقًا بك!

- لا، أنا سليم! صحتي سليمة والتحاليل تثبت ذلك!

- لماذا لم تنجب المرأة التي تزوجتها إذن؟ كانت أصغر مني!

- آه.. تتابعين أخباري وتتجسسين عليَّ؟!

- مشكلتك يا عصام أنك تعتقد أن لا أحد يعرف ما تفعله! بالنقود يا حبيبي تستطيع أن تعرف كل شيء!

- من حقي أن أحاول! أم تريدنني أن أحل المشكلة مثلك.. باللهاث وراء الحفلات الوطنية والجمعيات ومراكز الشئون الاجتماعية؟! غريب أن تشغلي نفسك بهذه الأمور!!

- غريب فعلاً! فالمنطق يقول أنني أنا التي يجب أن تقول ذلك! أن تأنف وتخجل من هذه الأشياء!

- تعيرينني يا سوزان! تذكرينني بأصولي الفقيرة؟!

- بل أذكرك بأمر يبدو أنك نسيته، أو تناسيته!

- وما هو؟

- أنني ضحيت بكل شيء من أجلك! نسبتُ نفسي واسمي إليك! اخترتكُ، وتخلّيتُ عن كل شيء.. عن اسمي وطبقتي وفخامتي، هه، من أجلك!!..

- هل أنتِ نادمة؟

- بل حزينة! لأنك لم تعد ذلك الرجل الذي ضحيت من أجله!..

أحسستُ بالخوف، رغم أنها لم تأتِ على ذكر ذلك التوكيل! أحسستُ بالرعب لأن سوزان لم تعد تلك المرأة الوديعة الهادئة، والعاشقة

المطيعة!! سوزان أصبحت خطرة! وقد تُقْدم على أية خطوة مفاجـأة في أية لحظة! يا إلهي! قد تقوم سوزان بإلغاء التوكيل وتـدمر كـل شيء!..وطرتُ إلى المحامي.. وتأكدتُ أنها لم تُقْدم بعد علـى تلـك الخطوة المجنونة، فأعددتُ الأمر بسرعة وسرية تامة.. أتممتُ البيع لنفسي بموجـب التوكيـل وصـدّقت العقـود والأوراق واعتمـدتُ الإيصالات! ووضعتُ الملف العزيز في خزنتـي العزيـزة!! "بـالنقود تستطيع أن تعرف كل شيء".. "نعم، بالنقود تستطيع أن تفعـل كـل شيء يا سوزان! هكذا أصبحت آمنًا من جنونك يا حبيبتي!"..

وجاءت سوزان بجنونها، أيام قليلة وجاءت متعبـة لاهثـة، حطـت جسمها أمامي وقالت:

- عصام أريد أن أخبرك أنني ألغيتُ التوكيل!

- ألغيتِ التوكيل؟!

- نعم، اليوم وأريد أن أعرف كل شـيء عـن الشـركة والفنـدق والأعمال التجارية الأخرى!

ابتسمتُ، ومسّدتُ شعرها وطبعتُ قبلة على جبينها وهمست:

- كما تشائين حبيبتي، كما تشائين! ستكون الأوراق جاهزة، سأطلعك على كل ما تريدينه عندما تأمرين بذلك!

وفي اليوم التالي عرفتْ كل شيء! عرفتْ أنني بعتُ لنفسي، بموجب التوكيل، كل ما تملكه من عقارات وأسهم واستثمارات! عرفتْ أنها لم تعد تملك شيئًا في الشركة والفندق والأسهم!.. وعندما عرض عليها المحامي "المتعاون" الأوراق والعقود انهارتْ! ضـربتْ رأسـها فـي

الحائط، ثم راحت في غيبوبة، فنقلتها إلى المستشفى "الفخمة"! وأمرتُ لها بجناح يليق بها!

في الحقيقة لم أكن أتوقع أن تتدهور حالتها الصحية بهذه السرعة! ولم أكن أتوقع أن تكون مريضة بذلك المرض العُضال!.. هل كانت سوزان تعلم أنها مريضة بالسرطان فحاولت تطهير نفسها من أدران ماضيها وعزوفها عن الفقراء والمحتاجين؟! لا أشك الآن أنها كانت تعلم حقيقة مرضها!..

وجدتها منذ ثلاثة أشهر في حالة من الإعياء الشديد! أذكر أنها، حاولت إخفاء بعض الأدوية بيدها المرتعشة عندما اقتربتُ منها! خمّنتُ أنها تتناول بعض الأدوية والعقارات من أجل الإنجاب لكنها تحاول إخفاء ذلك عني مكابرة!.. لكن حالة الإعياء تكررت وشغلني زواجي السري وأمور أخرى عن التفكير في سوزان!!.. آه.. أذكر الآن أن وفاء، ابنتي، قالت في إحدى لقاءاتنا:

- أبي، أرجو أن تهتم بالسيدة سوزان! إنها امرأة طيبة و..

لاحظت يومها التأثر في وجه وفاء، فسألتها:

- هل تخفين عني شيئًا؟

- لا.. لا بابا، فقط أرجوكَ أن تهتم بها! إنها لا تستحق منك هذا الإهمال.. لقد أعطتكَ الكثير..

أثناء عودتي من المستشفى فكرت: ماذا لو لم أفعل ما فعلته؟ ماذا لو لم أبع لنفسي ما تملكه سوزان؟ وبقيتْ هي مالكة للعقارات والاستثمارات؟ ماذا كانت ستفعل بهذه الثروة؟ معقول! هل كانت

ستنفقها في.. أنا لا أستطيع أن أصدق ولا أتصور ما كان سيحدث!
هل كانت سوزان ستقدم على خطوة كبيرة مجنونة من تطهير الذات؟
تنفق أموالنا على الفقراء والمحتاجين،وترسلها إلى الأرض المحتلة؟!
لا أستطيع أن أتصور ذلك الجنون، ولا أن أتخيل ما كنتُ سأقدم على فعله لو حدث ذلك!.. وتنهدتُ: "الحمد لله أن سوزان لم تفعل ذلك، ولم تعد قادرة على فعله! بل، لم تعد قادرة على فعل أي شيء"!..

أخبرني الطبيب أن حالتها متأخرة! وأن السرطان تمكّن من كبدها! وأن أيامها أصبحت معدودة!.. فحزنت! لماذا لا أحزن؟! وقد أعطتني سوزان كل شيء، عدا الأولاد!!.. وبدأت نوبات الغياب عن الوعي، ثم الغيبوبة الكاملة.. ثم ماتت سوزان قاسم الأفندي! بل سوزان قاسم الفايز، وبقيتْ ممتلكاتها وثروتها تحت يدي.. لكن روحها أو لعنتها ظلت تلاحقني!..

وصل سعدي الأفندي من أمريكا، فجأة!.. أقام دعوى ضدي، طعن في الأوراق والعقود، أقام ثلاثة أسابيع وحاول أن يحصل على حصته من ميراث شقيقته! لكن المحامي البارع دحض كل دعاويه وحججه! وأبرز العقود والإيصالات والأوراق الداعمة في مرافعة تستحق أتعابه السخية:

"السيد رئيس المحكمة، السادة الأعضاء الموقرون...

لقد باعت السيدة الفاضلة المرحومة سوزان قاسم الأفندي، العقارات والأسهم والسندات المبينة أمامكم، في حياتها وهي بكامل وعيها، إلى زوجها الفاضل، موكلي، السيد عصام شحْدة الفايز، بموجب العقود

والإيصالات المصدقة، وقبضت الثمن بالجنيه المصري نقدًا!.. وقــد أكدت الجهات المختصة، حسب ما هو مبين لــديكم صــحة العقــود والأوراق والإيصالات! وعلى هذا فإن الطعن الذي قدّمه السيد سعدي قاسم الأفندي لا يعتمد على أي سند قانوني، وتُعد دعواه باطلة وغير قانونية، وهو ما يُلزمه بدفع تكاليف إقامة الــدعوى!.. أمــا ســؤال الزميل وكيل النيابة عن المصير الذي آلت إليه تلك الأموال خلال هذه الفترة الزمنية القصيرة، فهذا ما يثير الاستغراب والدهشة! فمنذ متى يُسأل الناس كيف ينفقون أموالهم وأين؟ إنها أموال السيدة الفاضــلة المرحومة سوزان قاسم الأفندي وهي الوحيدة التي تعلم كيف أنفقــتْ أموالها وأين وضعتها؟ وكما تعلمون أيها السادة فإن زميلــي وكيــل النيابة بإثارته ذلك السؤال يريد أن يشكك في مصداقية البيع والدفع! وهذا أمر مردود عليه بالوثائق والعقود كما أوضحت، وكذلك بالحالة المالية لموكلي والمودع بيانها طرفكم!

سيدي رئيس المحكمة السادة الأعضاء الموقرين..

لم يكن موكلي في حاجة إلى هذه الأموال، وقد قام برعاية زوجته في مرضها وأدخلها أرقى المستشفيات وخصّص لها جناحًا كاملاً وطاقمًا راقيًا من المختصين ويثبت ذلك كشف الحساب والفــواتير المرفقــة، المودعة طرفكم، والتي بلغت قيمتها خمسة آلاف جنيه، خلال أسبوع واحد فقط!

من ناحية ثانية، وكما بيّن الشهود، فإن المرحومة السيدة الفاضــلة سوزان قاسم الأفندي، كانت معروفة بسعيها للبر والخير، ومعروفــة بجهودها في مساعدة الفقراء والمحتاجين، من أبناء شــعبها وأســر

الشهداء على وجه الخصوص! فلماذا لا تكون المرحومة قد أنفقت تلك الأموال على أهلها وأبناء شعبها في الأرض المحتلة بطريقة أو بأخرى؟!..

السيد رئيس المحكمة، السادة الأعضاء الموقرون...

أود في ختام مرافعتي هذه، أن أعبر لكم عن تأثر موكلي، وحزنه الشديد جراء إثارة مثل هذه الأمور العائلية الحساسة، خاصة وأنه يُكِنُ لزوجته ورفيقة عمره، المرحومة سوزان قاسم الأفندي تقديرًا كبيرًا وحبًّا لا يعادله بكنوز الدنيا!!..

وخسر سعدي الأفندي القضية، فأرسل يستجديني لتحمل نفقاتها! وكذلك توسل كي أدفع عنه نفقات إقامته في الفندق الفخم الذي أقام فيه! فتحملت نفقات القضية وسددت فاتورة الفندق، وحملته ببعض الهدايا لصديقاته في أمريكا ثم ودعته عند سُلّم الطائرة!

ثم أقامت زوجتي الأولى سامية دعوى نفقة ضدي! كثر المتآمرون عليَّ! أقرب الناس يتآمر عليَّ وينغص عليَّ حياتي! زوجتي، أم ابنتي الوحيدة، تطالب بنفقة! لم تفعل ذلك وأنا في غربتي.. وفقري! لكنها تقدم على ذلك الآن!.. تلك المرأة الوديعة المكافحة تتحول، فجأة، إلى امرأة عنيدة شرسة!! هل حركها الانتقام؟ أم حركها التعاطف النسوي مع الأموات؟! "من يتسبب في موت زوجته ويستولي على أملاكها وثروتها لا يستحق الرحمة!".. لماذا أصبحوا جميعًا معادين! حتى ابنتي وفاء، ابنة الجامعة الناضجة، التي صدّعت رأسي بمقولات الوفاء والانتماء، أصرت هي الأخرى على أن تحصل على حقوقها

كاملة! التزامات بالإنفاق وأوراق وتعهدات مكتوبة وشيكات! لم تعـد عازفة عن أموالي ونقودي! "هذه أموال المسـكينة التـي خُـدعت، وضحّت بكل شيء من أجله.. أبي لم يعد مضمونًا".. هكـذا أعلنـوا الحرب مرة واحدة!!.. رفضت ابنتي أن تنضم إلى حضانتي، ربحـتْ القضية بمثابرة أمها! وحصلتْ زوجتي على نفقة محترمـة وابنتـي تمكنت من تنفيذ شروطها وحصلت على مصروف شـهري "يناسـب وضع والدها"!!.. كان موت سوزان بداية للمنغصات، في العمل، وفي الحياة! أصبحتُ مادة للمتآمرين والمتهكمين: "هـذا هـو المليـونير القاتل!" ستكون الثروة من حظ ابنته! سيسقط يومًـا ميتًـا وتـذهب أمواله هباءً منثورا".. "دبروا له زوجة تخلص عليه وتقشّ كـلَّ مـا لديه!.." فزعتُ من ألسنتهم وتعليقاتهم.. ووحشيتهم، فهربـتُ إلـى الريف! اشتريتُ منزلاً من طابقين، وصرتُ أقضي معظم أوقاتي فيه.. هجرتُ المدينة وقصرتُ وجودي فيها على العمل فقط! كنت أنطلـق فور انتهاء العمل في الفندق والشركة إلى ذلك المنزل الجميل الهادئ وأتمتع بذلك السحر الذي افتقدته! بعد شهرين، اكتشفتُ أنني اشتريتُ منزلاً مشابهًا لحوش العرابية! بيت واسع وحوله حديقـة وأشـجار مثمرة وقريب من الترعة التي تدنو على مياهها جدائل الصفصـاف! تمامًا مثل قلعة كوثر العرابي المنيعة!!.. لم يبق إلا أن أبحـث عـن كوثر هذا المنزل! وكلفت الخدم بالبحث عن "العـروس المناسـبة"، فوجدوها خلال أسبوع فقط! يا للروعة! كانت الفتاة مذهلة، وتشـبه كوثر العرابي! بل هي كوثر في سن التاسعة عشرة، عنـدما رأيتهـا لأول مرة في الجامعة.. معقول! صبية ذات عيون حـوراء سـاحرة،

ابتسامة خجولة مُسْكرة، ووجه بتقاطيع مرسومة! ما هذه الحورية؟ من أين أحضروها؟ أمن هذه القرية الريفية البسيطة، أم من الجنة؟ معقول! هل خرجت هذه الجوهرة من هنا؟ ما أسعدك يا عصام!.. وأقمتُ عرسًا بهيجًا! عرسًا يليق بالحورية "سلوى" العمر والزمان!.. وأصبحت زوجتي، وصار بإمكاني أن ألتمس السعادة والهناء!..

وانتعشتُ، فقررتُ تسوية ما تبقى من منغصات مع زوجتي الأولى، وذهبت إلى ابنتي:

- وفاء، أنا تعبت من المشاكل يا ابنتي! وأريد أن أعيش مرتاحًا! أرجو أن تتركوني في حالي! صدقيني أنا لم أتسبب في موت سوزان الأفندي، كانت مريضة وهذا قدرها، وأنا لم أستولِ على ثروتها تلك كانت أموالي أنا و..

- أعلم أنها كانت مريضة! وبالنسبة لثروتها.. على كل حال سنتركك في حالكِ، سنتركك لحياتك الجديدة! ولزوجتك الجديدة، عسى أن يرزقك الله مولودًا ذكرًا! نعرف أن هذه أمنيتك، أنا كذلك هذه أمنيتي أتوق لأن يكون لي أخ.. صدقني!

- أصدقك! أصدقك يا ابنتي!

قبلتها على جبينها فقبلتني على خدي وانصرفت دامعة! عندها أدركت أن أملاً كان يراود ابنتي في أن أعود إلى أمها بعد هذه السنين! ودُهشتُ: كيف لم يخطر ببالي مثل هذا الأمر؟!

أعطتني سلوى كل ما أشتهي! ما حلمتُ به وما لم أحلم به! كانت فتاة رائعة إلى حد الخوف! أغرقتني في السعادة والنعيم، فجفلت!..

هكذا بدأت حياتي مع سوزان الأفندي! ناعمة وديعة مفعمة بالحب

والهدوء والنعيم، ثم تحولت إلى توتر، ثم عذاب وجحيم! حتى حياتي القصيرة مع زوجتي "المجرَبة السرية" بدأت بالمتعة والسعادة والحب، ثم فجأة تحطمت!

لكن سلوى تختلف عنهن جميعًا! هذه فتاة من عجينة أخرى، ليست لديها أية تجربة، من عائلة فقيرة طيبة! وهي ليست طامعة سوى في الستر والحياة الكريمة! فلماذا أتوجس وأخاف!؟.. "معك وبين أحضانك امرأة غضة في عنفوان الأنوثة والقابلية ولم يفت الوقتُ بعد!! ما زال في العمر بقية يا عصام!.. إحرث الأرض البكر، واطرد كل الوساوس والأوهام!!"

وحملتْ الأرض، جاء الغيثُ بنعمته! حملتْ سلوى فسمعتُ زغاريد الدنيا وتراقصتْ أمام عيني كل حوريات الجمال والفتنة! سمعتُ الموسيقى الملائكية العذبة! سمعتُ نشيد الحياة من جديد! إذن هناك أمل!.. ولم أصدق الممرضة التي جاءت بالنبأ:

- بتقولي حامل؟!

- والله العظيم، والكعبة الشريفة الست سلوى حامل.. إنتَ مش مصدّقني ولاّ أيه يا سعادة البيه؟.. بقول لحضرتك الست حامل، عاوزين الحلاوة بقى!..

واكتملت زغرودة الزمن، أكملت الدنيا عزفها ونشيدها الملائكي العذب! وعرفتُ أن الجنين ذكر! ولد من صلبي!..

- نعم ذكر، والجنين سليم مئة بالمئة.. مبروك!

ووضعتُ سلوى تحت رعاية طبية مكثفة، رعاية تليق بابن عصام

الفايز: "منتصر"! نعم سأسميه منتصرًا! منتصر عصام الفايز، هذه هي الضربة القاضية يا إبراهيم الشّاهد.. يا أبا ناصر!!

كانت التقارير طبيعية، والتحاليل طبيعية، والصور تؤكد أن وضع الجنين "الذكر" طبيعي!!.. لكن حظي لم يكن طبيعيًا، والقدر لم يكن طبيعيًا!.. كان كل شيء يخدعني ويتآمر عليَّ خِلسة! كان الشؤم يتربّص بي متنكرًا في ثياب السعادة والفرح.. والوهم!..ما أتعسني وأشقاني؟!.. وضعتْ سلوى مولودًا ذكرًا جميلاً! لكنه كان معاقًا! هيئة طفل فقط!" عصام أيها المخدوع الكبير، هذا هو الولد الذكر الذي انتظرته العمر كله!! ستحمل همه حتى الممات"!!..وخرجتُ من الحوش، وعندما هممتُ بصعود السيّارة اقترب مني طفل كبير معاق! كان يحبو ويلتقط الأوراق والأوساخ من الأرض يلتهمها، ثم يحبو ويصْدر أصواتًا مبْهمة!.. أسرع الغفير إليه، التقطه من الأرض وركض به بعيدًا عن البيت.. سألته عندما عاد:

- مين هذا المسكين يا عم مغاوري، ابن مين؟

تلعثم الحارس، وتشاغل بإقفال البوابة، فنهرته:

- بأقول لك ابن مين هذا المعاق، ألم تسمعني يا مغاوري؟!

- أصله.. أصله ده.. ده أخو الست سلوى.. أخوها يا سعادة البيه.. ربنا يلطف بيه ويخفف عنه!.. كل ما نبعده عن الدار يرجع تاني.. مش عارفين نعمل معه أيه!!..

أخوها "أنت مغفل كبير يا عصام"!!!

وبكيتُ.. بكيتُ وحيدًا.. تائهًا.. مخدوعًا!!..

(٩)

عزيزة الخيّال

وفي الليلة العاشرة، سكبت السماء ماءها غزيرًا مدويًا! فقالت إحدى العجائز:

- هذا مطر لم ينزل على القرية منذ أربعين عامًا!

امتلأ الجرن القديم بالمياه، وحاصرت الساقية القديمة بحيرة كبيرة!.. الشوارع والأزقة والحواكير والبيّارات، تحولت كلها إلى برك من المياه!..

- يا حامي البيت احمِ البيت يا رب ألطف بنا وخفف عنا!

في العام الماضي ابتهل الناس وكبّروا إلى الله، دعوه وتوسلوا إليه أن ينزل عليهم المطر، وأن ينقذهم من الجفاف! وها هم، في هذا العام، يبتهلون إلى الله ويدعونه لوقف المطر، وإنقاذ القرية من الغرق!!

هرول المؤذنون إلى المساجد، صعدوا إلى المآذن ونادوا:

- يا أهل البلد يا سامعين الصوت، كل واحد سكّر واد أو مجرى قديم يفتحه.. كل واحد حوّل قناة أو مجرى سيل يفتحه.. يا ناس البلد

مهددة بالغرق.. افتحوا للميه علشان الله يفتح عليكم ويفرّج كربكم.. يا أهل البلد الصلاة والدعوات بأن ينقذ الله البلد!!

ارتعد الناس، أسرعوا يبحثون ويفتشون عن السدود والموانع التـــي بنوها! كسّروها ووسعوا للمياه.. فتحوا كــل المجــاري والمســارب والقنوات القديمة، ووصلوا حتى الجرن والساقية! فتسرّبت الميــاه، متبخترة، إلى الحواكير والبيّارات والمــزارع! عاثــت فيهــا آمنــة، اخترقتها، ثم تدفقتْ نحو الغرب! وعند الحدود، إلى الشــرق، كانــت البحيرة الكبيرة تهدد القرية وتحاصــر البيّــارات والكــروم! تلّــوت مسارب وغدران المياه مثل الأفاعي باحثة عن منافذ لها! ثم ارتفعت وارتفعت! وفجأة، جاء الطوفان! انهارت الســدود والخزّانــات التــي أقامتها إسرائيل وحجبتْ بها المياه عن قطاع غزة! تحطّمت الســدود فتدفقت أنهار المياه هادرة، جارفة كل شيء يعترضــها! الســياجات والأشجار والأسلاك والجدران والحواجز! حتى أكوام الأتربة والطمي والحجارة جرفتها! وفاضتْ البحيرة، وبحثتْ ثعابينهــا المائيــة عــن مجراها القديم "وادي العزيزة" حتى وجدت بقايا ضفتيه فتدفقتْ إليه، وحفرتْ فيه باحثة عن ملامحه الأخرى، وعندما اطمأنتْ إلى حضــنه اتجهتْ إلى الغرب مكتسحة بهديرها وزمجرتها كــل شــيء وضــعه الناس في مجرى الوادي المعطاء الحنون!.. وسُمع هــديرُ الــوادي أسبوعًا كاملاً!!.. بعد انحسار المياه، انشغلت القرية بنفسها! انهمك أهلها في ترميم بيــوتهم وحــواكيرهم ومــزارعهم وحمــدوا الله أن الطوفان لم يجرفهم ويخطف أولادهم! "الحمد لله.. جاءت الخسائر في

المواشي والمزارع، المال معوّض!".. ولم يفطنوا إلى شيء هام حدث أثناء الطوفان.. وفاة زاهر جودة! مات غاندي فقيرًا منسيًا! أربعة فقط هم الذين فطنوا واهتموا بذلك العجوز المهمل! اثنان من الملثمين، وإمام المسجد وابنه! صلوا عليه، ثم حفروا في الوحول التي غمرت مقبرة القرية، وواروه التراب والطمي على عجل!..
وعندما عاد مفيد السمّاك من المقبرة، أزاح اللثام ثم قال:
- كان الشيخ فلاح أكثرنا تأثرًا! قال: هذا رجل لا يعوّض! إذا شاء الله وأنجبتْ زوجتي ولدًا، سأسميه – بإذن الله – زاهرًا!..

بعد الانتهاء من الترميم، عاد أهل القرية إلى تأويل ما حدث وتفسيره!! الإسلاميون والمشايخ اعتبروه نذيرًا من الله وواحدة من علاماته وعِبره، حتى يتعظ الناس ويعودوا إلى طريق الإسلام! والوطنيون انطلقوا منه للتحذير والدعوة إلى الوحدة الوطنية والابتعاد عن التناحر! والعلمانيون قالوا عنه غضبة الشهداء على التجاوزات في صفوف المناضلين، ودعوا إلى تشكيل لجنة للتحقيق في تلك التجاوزات، وخاصة حوادث الخطف والتعذيب والقتل بدون بينة!!..
وسألت مفيد السمّاك:
- ما رأيك في ما حدث؟
- وفاة الأستاذ زاهر؟
- بل الفيضان!
- رأيي مثل رأيك!

- وهل تعرف رأيي؟

- نعم! ليس المهم التأويلات والتفسيرات! المهم أن يستمر التكاتف والإخلاص الذي جسدناه أثناء الفيضان.. أن نستمر في وحدتنا ونحافظ على جماهيرية مقاومتنا، مثلما كنا..

- أيام اغتيال "أبو صبري" مثلاً!

- التنظيمات والناس والجميع كانوا يعملون بصدق ووطنية خالصة! عندما خططنا للعملية لم نفكر لحظة واحدة في التنظيم الذي سيتبنّاها..

"كانوا أربعة مقاتلين، كل منهم ينتمي إلى تنظيم: مفيد السمّاك والشيخ فلاح ومروان بصبوص وأسعد السمّري!.. تعاونوا في وضع الخطة وجمع المعلومات ورصد تحركات "أبو صبري" وتحديد الوقت،.. كل شيء! لم تكن قياداتهم وتنظيماتهم تعرف التفاصيل، فقط أعطتهم الضوء الأخضر بالتنسيق والتعاون!!.. أذكر أنني نفذتُ ما طُلب مني لإنجاز بعض ظروف تلك العملية.. سعيتُ إلى بعض نساء القرية، النساء اللواتي أثق فيهن، وطلبتُ منهنِ إشعال الطوابين والأغصان الجافة في أنحاء متعددة من القرية! وبعدها، يطلقن الزغاريد! يتصاعد الدخان وتنطلق الزغاريد ليلاً فجأة، فيشك أبو صبري في الأمر ويتجه إلى حيث يستقبله الشباب ويفجرونه ويقضون عليه وعلى من معه!.. ونُفذت العملية بكل دقة وسرية.. وإخلاص! ولم تستطع المخابرات الإسرائيلية تحديد التنظيم أو الأفراد الذين نفذوا تلك العملية النوْعية!.. "ولم تتبارى التنظيمات إلى تبنيها!

صدر بيان واحد من القيادة الموحدة فقط".. قامت مجموعة من مناضلينا باغتيال ضابط المخابرات الصهيوني الكولونيل داني يعقوب عزرا، المعروف باسم "أبو صبري" كما تم قتل أربعة من ضباط المخابرات المرافقين له، إضافة إلى تاجر عميل كان يرافقهم!.. ونهدي هذه العملية إلى أرواح شهدائنا!..

- أليس هذا هو رأيك يا عزيزة؟!

ولاحظتُ أنه يناديني باسمي لأول مرة، وقبل أن أتمعن في مدلولات ذلك أضاف:

- عزيزة أنتِ امرأة عظيمة.. في الحقيقة هناك موضوع أود أن أناقشه معك، بموضوعية وهدوء.. لكنني لا أدري إذا كان الظرف مناسبًا!.

قبل شهر جلست بجوار الأستاذ زاهر جودة وجففت عرقه المتصبب في شهر كانون (يناير)، سألني عن الأوضاع، ثم اعتدل قليلاً وقال لاهثًا:

- عزيزة، هناك موضوع حسّاس أود أن أتحدث فيه معك..

وتذكرتُ عوض الشّاهد، قبل وفاته، كان في هذه الصورة الملائكية الصفراء.. "يحزنني يا غاندي أن تكون في هذه الحالة".. وقلت:

- لا تجهد نفسك! استرح ولا تجهد نفسك بأمورنا!

- مفيد السمّاك رجل مخلص! وأنتِ تعرفين رجولته ومكانته!

- ويحبني، أليس كذلك؟

- نعم، ويرغبُ في الزواج منك!

- وهل ترى ذلك مناسبًا؟!

- لا أتمنى لك زوجًا أفضل منه!

- لكنني لا أفكر في الزواج!

- نذرتِ نفسك للعمل الوطني؟

- بل لابني! نذرتُ نفسي لتربيته وتعويضه عن تلك السيرة القذرة التي تركها له والده! أريد أن أظل معه وأحميه! أريده أن يكون مخلصًا في وطنيته ومحبًّا للناس! وأقف إلى جانبه عندما يتعرض لأي خطر أو مكروه!!

ابتسم رغم إعيائه الشديد.. ثم سعل! ناولته كوب الماء، أخذ رشفة منه ثم قال:

- ضحكتُ لأنك تضعين أعذارًا واهية! أين التعارض في الموضوعين؟ الزواج لن يمنعك من الوقوف بجوار ابنك وحمايته، على العكس، زواجك من مفيد السمّاك يمنحك القوة والقدرة على الوقوف في وجه الحمقى والحاقدين! من يسمعك يعتقد أنك تتحدثين عن طفل! نسيتِ أن شادي، ابنك، في العشرين من عمره! بعد عام سيتخرج من الجامعة وتبحثين له عن زوجة..

- بالضبط! سأزوج "شادي" وأسخر نفسي لأولاده!

- صدقيني يا عزيزة ستحتاجين إلى رجل! إذا كنتِ لا تشعرين بذلك الآن فستشعرين به بعد سنوات!

- قضيتُ عمري بدون رجالٍ! تعودت على الوحدة!

- بل تعودتِ على التحدي! تعيشين في تحدٍ دائم! تحدي مع جميل

حب الرّمان وتحدي مع "أبو صبري".. وتحدي مع إبراهيم الشّــاهد.. وتحدي مع الظروف! وها أنتِ تعيشين التحدي مع مفيد السمّاك.. أنا لا ألومك على أيام زمان، بل أنا فخور بك، بصمودك وإصرارك على النهوض والاستمرار! ولكن الآن، من حقكِ أن ترتاحي وتلتفتي إلــى نفسك! سيأتي اليوم الذي تكتشفين فيه أنكِ قصرتِ في حق نفســك! أنك أعطيتِ الآخرين ونسيتِ نفسك!..

هل كان العراف العجوز يتحدث عني أم عن نفسه؟ هل يشعر الرجــل الذي اهتم بالجميع بالإهمال؟ الرجل الذي حــافظ علــيهم وأحــاطهم بالرعاية، هل يشعر أنه قصر مع نفسه وعائلته؟.. لم يــدخر لأولاده ما يؤمنهم من نوائب الدهر! حتى هذا البيت القديم، رفض تجديــده، حتى لا تلوك الألسن سيرته! ياه.. كم قسوْنا عليك يا غاندي!..

ونظرت إلى مفيد، ثم سألته:

- هل تعرف كم عمري الآن؟

- أعرف!

- أنتَ تكبرُ ابني بعشر سنوات فقط!

- وأنتِ تكبرينني بعشر سنوات فقط! رغم أنك لا تبدين كذلك! مــن يراكِ يعتقد أنكِ في الثلاثين فقط! أنتِ تبدين أصغر مني! ثم، إن العمر ليس بالســنوات أيتهــا الأخصــائية الاجتماعيــة المثقفــة! العمــر بالأحاسيس والمشاعر والقدرة على العطــاء.. والحــب! وأنــا أراكِ هكذا، مليئة بالأحاسيس والمشاعر والقدرة على العطــاء.. والحــب! أنتِ لا تعطينَ نفسك حقها وقيمتها.. هل رأيتِ نفسك وأنتِ تقــودين

الطالبات في تلك المظاهرة، يوم الجرن العظيم، تتقدمين وتصرخين وتقذفين الحجارة وتهتفين! على فكرة هل رأيتِ صورتك في المجلة؟!

- أية مجلة؟

- نُشرت صورتك "الرائعة" في إحدى المجلات الأجنبية! التقطها أحد الصحفيين الأجانب المجازفين في تلك المظاهرة- المعركة!

- آه.. يوم حرب كعوب البنادق وقنابل الغاز والدُخان.. ثم بعد ذلك الرصاص الحي، بلا صحافة بلا غيره! كيف أنسى ذلك اليوم، وكتفي مخلوعة من يومها!!.. لكنني لم أرَ تلك الصورة..

عندما ذهبتُ إلى العزيزة لم أتوقع أن يكون الفيضان قد فعل كل ما رأيته.. وادي العزيزة ينبثق من جديد.. ها هي الدرجات العلوية الخمس للعزيزة تظهر، والقنطرة القديمة تبدو الآن بكامل بنائها الصخري القديم! لكن العين لم تظهر: "لن تعود الجمال المحملة بالقمح والشعير، ولن يعود الصبية للجري وراءها إذن.. وعاد المزارعون وأصحاب الأراضي إلى الوادي.. عادت الجرّارات والمحاريث الآلية وبدأت تعيد ما جرفه الطوفان! وتضم حوض الوادي وحماه! أعادوا الحواجز والسياجات والأسلاك وضموا الوادي إلى أحْوازهم من جديد!.. لكن الجيش الإسرائيلي فاجأهم بجرّاراته وبلْدوزراته الضخمة الشرسة! أزاح ما وضعوه! وشرعت الجرّافات في تنظيف الوادي وتهيئته وتعبيده وأمرت المزارعين بالعودة إلى حدودهم!

قال الحاكم العسكري لأعيان القرية وأصحاب الأراضي:

- عليكم المحافظة على القانون! هذه ليست أراضيكم، لماذا تعتــدون عليها و"تغتصبونها"!!
- لكننا حرثناها وزرعناها أكثر من عشرين عامًا!
- هذه أراضي الدولة "أراضي وقف" ومن يعتــدي عليهــا ســيعاقب سنشق طريقًا في الوادي يستفيد منه الجميع..
وتحوّل الوادي إلى طريق عسكري.. وعند العزيــزة أقــاموا نقطــة مراقبة كبيرة، فانتقل المطارَدون الملثمون إلى غرب القرية!!
في الصيف عاد شادي من مصر.. وفي المساء فك ثلاث بطانات من سراويله ثم وضع النقود التــي كانــت بــداخلها أمــامي.. فســألته باستغراب:
- ما هذه النقود؟
- هذه من أم ثائر!
- من؟ كوثر العرابي؟
- نعم من السيدة العظيمة كوثر العرابي.. وهــذه رســالة قصــيرة منها.. على فكرة هناك أضعاف النقود مع زملائي، سأحضرها بعــد أيام.. المبلغ يشمل النقود التي أخذتها من ذلك الهارب الجبان..
- ومن أين تعلمت إخفاء النقود بهذه الطريقة؟
- منكِ!
- مني أنا؟ متى رأيتني أخفي النقود بهذه الطريقة؟!
- بل أخفيتِ ما هو أخطر من النقود.. الرسائل التنظيمية السرية! هل تذكرين؟ الرسالة التي سألوكِ عنها؟!

وقرأت رسالة كوثر، كانت كوثر العرابي عظيمة فعلاً – كما عرفتها – امرأة مفعمة بالحب والانتماء.. والأمل:

"..نتابع أخباركم بكل جوارحنا ومشاعرنا وقلوبنا! نهتف وندعو لكم ونفخر بكم ونعتز بالانتساب إليكم.. الأولاد كبروا يا عزيزة، يا أم شادي، ويشتاقون إلى رؤيتكم، ويتمنون أن يكون اللقاء بكم قريبًا، في فلسطين، لا خارجها!.. على فكرة يا عزيزة، ابنك شادي شاب ممتاز.. مثلك!.. قضينا معه وقتًا ممتعًا، والأولاد تعلّقوا به وأحبوه وينتظرون عودته بشوق!.. بالنسبة للهدية أرجو أن توزعيها بمعرفتك، فأنا أثق بك، وسأنتهز كل فرصة لأرسل لكم مزيدًا من الهدايا..

وتقبّلي تحياتي وأشواقي.. وقبلاتي!

"أختك أم ثائر الربيع"

سلّمتُ النقود إلى مفيد السمّاك، وأعطيته فكرة عن كوثر العرابي وعن زوجها الشهيد خالد الربيع! وجهزنا كشفًا بأسماء الأسر التي سنوزع النقود عليهم!.. وسألني مفيد فجأة:

- هل صحيح أنك سُميتِ على اسم عين العزيزة؟

- ياه.. هذه حكاية قديمة.. ما الذي يذكركَ بها اليوم؟

- كيف تتذكرين تلك العين؟

- أتذكرها؟! أنا أعيشها! أول مكان فتحتُ عيني عليه ووجدته في حياتي هو تلك العين الساحرة المجنونة! الصبية والكروم والرعاة والعصافير الملوّنة والجديان المتقافزة وشجرات التوت، والقبرصية

القوية الصلبة وعوض الشّاهد.. وابراهيم والبركة.. إنهـا حيـاتي، طفولتي وصباي!! لكن لماذا تسأل بعد هذه السنين؟ لستَ من القرية لتتعلق بها وتهتم بحكاياتها!

- أشعر أنني أعرف تلك العين منذ زمن! عندما أعاد الناس سيرتها بعد الفيضان، تعلّقت بها وأصبحتُ شغوفًا بها!! هل تصدقين إذا قلتُ إنني أراكِ تنبثقين منها.. حورية و..

- ها!!

- تنادينني.. ثم تقبلين عليَّ وتأخذينني من يدي إلى مكان بعيد!

- مكان بعيد! ما هذه التخيلات أيها الفدائي المطارد؟! هل تجد الوقت للنوم حتى ترى مثل هذه الهلوسات والأحلام؟!

- هذه ليست هلوسات يا عزيزة، أنا أحبك، نعم أحبك!..

وعندما عدتُ إلى البيت جاءني إبراهيم الشّاهد:

- "لماذا سموك العزيزة؟

- كان أبي من عشاق العزيزة!

- العين أم العاشقة؟

- كليهما! كان متيّمًا بالعين التي أطفأت ظمأ الحصّادين والحرّاثين.. دغْدغ جسمي وعصرني.. فجثمتُ على ركبتي وسقطتْ السـلة مـن يدي وتبعثرتْ حبّات الخوخ.. فلهثتُ متوسلة:

- برْهــوم كفى.. كفى .. اتركني.. اتركني يا برْهــوم..

ونظرتُ إلى الشرق، تجاه البركة، وأطلقتُ الصفير وانتظرت.. لكـن أحدًا لم يجبني.. فعدتُ إلى النوم.

(١٠)

إبراهيم الشّاهد

عندما جلسنا تحت شجرة التوت الكبيرة في حديقــة المعهــد التفــت حمدي، مدرس الكيمياء المصري حوله، ثم قال:

- اسمعوا هذه النكتة التي وصلتني حديثًا.. هذه النكتة على..

التفت حوله مرة أخرى، ومدَّ رقبته نحو الإدارة، ثم أردف:

- النكتة على صاحبنا.. ها؟ صاحبنا ونائبه: طلب النائب من الحــاكم أن يمكنه من حكم البلاد لمدة سنة! فسأله الحاكم: وهل تستطيع حكم هؤلاء الناس والسيطرة عليهم؟!.. يعني هل أنتَ متأكد من قدراتك؟! فأجابه النائب بثقة نعم! فقال الحاكم، إذن أختبرك أولاً، وإذا نجحــتَ في الاختبار، أسلملك الحكم ثلاث سنوات وليست واحدة! وفي اليــوم التالي أمر الحاكم باحضار سيارة حديثة، سلّمها لنائبه، وسلّمه معها كيسًا يحوي بداخله عشرة فئران! وطلب منه أن يوصلها سليمة إلى حاضرة البلاد الثانية! ففرح النائب بهذا الاختبار السهل، تناول الكيس وربطه باحكام ثم وضعه في صندوق السيّارة، أغلق الصندوق ثم طار ناهبًا الأرض نحو الشرق! في حين أقلع الحاكم بالطائرة ليكون فــي

انتظار الفئران السليمة! ووصل النائب في زمن قياسي! وبسرعة فتح صندوق السيارة ليسلم الحاكم الفئران، حسب الاتفاق، لكن، ويا للمفاجأة، لم يجدها! هربتْ الفئران، قرضتْ الكيس وهربت جميعها!! فغرَ النائب فاه مندهشًا مما حدث، لكن الحاكم ابتسم، وقال لنائبه: تعالَ، اصعد إلى جواري، لتتعلم كيف توصل الفئران ولا تدعها تهرب! ثم انطلقا عائدين بالفئران الجديدة إلى العاصمة!!.. وبعد بضعة كيلومترات توقف الحاكم، فتح صندوق السيّارة ورجَّ كيس الفئران ثم واصل انطلاقه! وكرر فعلته هذه عدَّة مرات، حتى وصلا إلى العاصمة! وهناك فتح الحاكم صندوق السيارة وأخرج الفئران العشرة، ثم عدَّها في حجر نائبه دائخة!!.. نظر النائب إلى زعيمه بإعجاب، ثم قال: الآن فقط، تعلّمتُ كيف يُحكم الناس وكيف تتم السيطرة عليهم! إنها نظرية رائعة "نظرية الفئران الدائخة"!!..

وعلّق أحد المدرسين الجدد:

- هذه ليست نكتة، هذه مصيبة! كلهم يرجون شعوبهم، كلهم يدوخونها!

وقال مدرس آخر:

- طبعًا كلهم! البعض يدوخ شعبه بالحروب والدخول في متاهات العدو الخارجي والدفاع عن حِياض العروبة! ثم اعتبار الدول الشقيقة حليلاتٍ له!

- والبعض يدوخ شعبه بإغراقه في أوهام العظمة والتفرد والنظريات العبثية و"الأغاني الثورية" التي تبحث عن الملايين!

- والبعض يدوخ شعبه بأبخرة الدين وشرف الحسب والنسب وقدسية ولي الأمر وتحويل البلاد إلى مزارع خاصة.. كلهم!
- والبعض يدوخ شعبه بالضائقة الاقتصادية والدوران زي الساقية في دوّامة البحث عن لقمة العيش وحل أزمة السكن وأزمة المواصلات وأزمة العيش والزواج
- والبعض يدوخ شعبه بإغراقه في الترف والفساد وتجارة الرقيق الأبيض وإشباع الغرائز!..
وهمستُ لنفسي "لم يبقَ لنا سوى النِكات والطرائف! ليتها تجدي! منذ عشرين عامًا، وأكثر، وأنا أسمع مثل هذه النِكات والطرائف التافهة!! ولم تتغير هذه الأمة! لا، بل تغيرت إلى الأسوأ..".
تغيرت أحوالنا بعد حادثة دهس مصباح الحامدي! نزلتْ علينا المُسْكتة فأخرستنا وحوّلتنا إلى أجسام هامدة صامتة!.. تحوّل كاظم عبد الجبّار إلى هامس مبحوح! وأمين تاجر السر توقف عن أسئلته المثيرة، ولم يعد يشارك في الحوارات.. والطرائف! وأنا، تحوّلت إلى مراقب، شاهد، لا يحرك سوى رأسه ويديه!!.. أما هؤلاء الشباب، المدرسون الجدد فما زالوا يتحركون ويضحكون ويصرخون بالنكات والتعليقات والأحلام.. مساكين! لم يتعرفوا بعد على مواقع أقدامهم وحدود ألسنتهم! ما زالوا – كما كنا – يُفجرون غضبهم ومكنونات صدورهم عن "أنظمة القمع والتسلط"!!.. لم يكتشفوا بعد الحقيقة! لم يفهموا، أنهم في بلد لا يختلف عن بلدانهم إلاّ في الجغرافيا واللباس، وأنَّ أنظمة القمع والتسلط واحدة، وإن تغيّرت أسماؤها وأدواتها!!..

وهمس فؤاد رمضان:

- لا تنسَ موعدنا الليلة.. الجماعة موافقون على الاقتراح ويريدون مناقشة بعض الترتيبات!..

كانت فكرة "جمعية دعم الأسرة الفلسطينية" قد نبتت في رأسي بعد مواجهة مشكلة أحد الطلاب الفلسطينيين بالجامعة.. كان فقيرًا معدمًا، وانقطعت به السبل بعد استشهاد شقيقه!.. وشعرتُ أن "الجالية" في حاجة إلى جمعية، خاصة أنني علمت أن هناك عددًا آخر من الطلاب الفقراء، وأسرًا مات عائلها الوحيد وتعاني في معيشتها ويتصدّق عليها البعض من حين لآخر! لماذا لا نحفظ كرامة هذه الأسر ونأخذ بيد هؤلاء الطلاب ونكون عونًا وحافظًا لهم من الانحراف.. والإنهيار؟! جمعية تقوم بدور اجتماعي إنساني فقط!..

وسألتُ الأستاذ عبد الجليل بعد أن شرح أهداف الجمعية ووضّح شروط نجاحها:

- كم عدد الفلسطينيين الذين يحصلون على دخل في هذه البلدية.. المدينة والنجوع والقرى؟ المدرسون والموظفون والعمال والمزارعين!.. كم؟ هل هناك إحصائية؟!

- طبعًا! حوالي خمسمائة من جميع الفئات! لكن عليك أن تلاحظ أن دخولهم متفاوتة، ومنهم من دخله غير منتظم!.

- ما رأيكم لو جعلنا الاشتراك عشرة دنانير؟

- لا! عشرة كثير على الحرفيين والعمال.

- يعني خمسة؟!

- نجعله اختياريًا على العمال والحرفيين، وعشرة على الموظفين ثابتي الدخل!

حددنا الأسر المحتاجة فوجدناها سبعة أسر، وعندما أردنا تحديد الطلبة المحتاجين قال عبد الجليل:

- اسمعوا الطلاب المحتاجين فعلاً أربعة.. اتركونا من أولئك المستهترين، "الدشّر" تبعين البنات والسجاير! عندما يعقلون ويعتدلون ننظر في أمرهم! بعدين، المبلغ المرصود للطالب يجب أن يكون نصف المبلغ المرصود للأسرة.. الطلاب يقيمون في السكن الداخلي ويتوفر لهم الأكل والشراب.. وهناك ملاحظة أخرى، توقعوا أن يمتنع البعض عن المشاركة والدفع..

- هه.. والله بنقاطعهم ونعتبرهم مش منا!

- لا.. لا ليس لهذه الدرجة يا جماعة.. قد يتردد بعض الناس، ويظن أن الموضوع لعبة، يعني! لكنني متأكد أنهم سيعودون ويشاركوننا بعد فترة!

واتفقنا على أن يكون المبلغ المقدم للأسرة مئة وخمسون دينارًا والمبلغ المقدم للطالب هو سبعون دينارًا!.. وتمّت تزكية لجنة لإدارة الجمعية، وأصروا على اختياري أمينًا لها.. عندها قلت:

- بصفتي الآن أمينًا للجنة الإدارة، فأول اقتراح هو أن يتبرّع كل عضو من أعضاء اللجنة الموقرة بمئة دينار لصندوق الجمعية لتكون أول رصيد لدينا.. وهذه مئة دينار مني، خذ يا أمين الصندوق..

وتناول فؤاد رمضان المبلغ وهو يعض شفتيه.. وعندما خرجنا من

بيته استوقفني عند الباب، ثم قال مرتجفًا:

- لو بعرف أنك ستقترح التبرع بمئة دينار لما قبلت المشاركة في عضوية اللجنة! ضحكت علينا يا أبو ناصر!

- ضحكت عليكم! عضوية اللجنة مش للوجاهة يا أبو رمضان! نحن أول ناس يجب أن ندفع ونضحي ونحس بالناس! بعدين طلّع شوية من المصاري وبلاش بخل! كل الناس بتعرف أحوالك الممتازة والدولارات اللّي بتحولها! بتعرف إنك تتاجر في الخضار والفواكه مش بتدرّس وبس وبتضمن مزارع ها! أحكي كمان ولاّ خلص؟!..

- خلص.. خلص! بس مية دينار كثير.. حرام!

جاءت "جمعية دعم الأسرة الفلسطينية" لتضعني في تجربة جديدة! تجربة عملية ومفيدة! تجربة تُلمس آثارها ونتائجُها في عيون الناس ونفْسياتهم وأحوالهم!! شعرتُ بثمار تلك التجربة عندما عاد الاعتبار لتلك الأسر التي أوشكت على الانهيار! وشعرتُ بجدوى ما فعلناه عندما ارتفعت معنويات الطلاب بعد أن كانوا يقتربون من التحول إلى متسولين! اجتهدوا، وثابروا وحصلوا على الدرجات العالية وتفوقوا في دراستهم! شعرتُ بقيمة ما فعلناه عندما جثم الطلاب المستهترون أمامنا، بكوا وندموا على تصرفاتهم واستهتارهم، أقسموا على المصحف ووضعوه على جباههم، وأقسموا بأرواح الشهداء أنهم لن يعودوا إلى تصرفاتهم السابقة مرة أخرى!!..

أنقذتني الجمعية من تلك النقاشات والتشنجات العقيمة فهدأت نفسي واطمأنت! وشعرتُ بدفء البيت والأسرة والعلاقة الإنسانية! لكن

أمين تاج السر وكاظم عبد الجبّار حسداني على هذه النعمة وجاءا ليزعزعا هدوئي واستقراري مرة أخرى:

- جئنا نطرح عليك موضوعًا..

- خير؟

- معروض علينا – نحن الثلاثة – السفر إلى بريطانيا!

- بريطانيا؟ ومن الذي يعرض علينا رئيس الوزراء البريطاني؟!

- بل مصباح الحامدي؟

- ماذا؟ ألم يسافر إلى هناك من أجل العلاج؟

- تعافى، وقرر الإقامة هناك.. أنشأ دار نشر ومجلة وطلبنا معه.. وأنتَ بالذّات "ذلك الأديب، صاحب القلم الرشيق اللاذع"!

- بريطانيا! ومجلة أكتب فيها على راحتي؟! عرض سخي! سخي جدًا! فرصة العمر!!

- بالنسبة لي لن أتردد! لا أمل في العودة إلى العراق، يبدو أن صدّام باقٍ على قلوبنا لفترة طويلة، بعد غزوه للكويت، ضمنوه لسنوات طويلة حطّموه وكسروا عموده الفقري ولا أعتقد أنهم يفضلون اختفاءه الآن! سأذهب إلى بريطانيا لن أفوت الفرصة!

- وأنا كذلك، هذه فرصتي لأكمل دراستي في مجال الكمبيوتر.. هناك جالية سودانية كبيرة، سيكون وضعي هناك أفضل، والوضع هنا أصبح لا يطاق لم أعد احتمل..

"الوضع هنا لا يطاق يا أمين" هذا صحيح! ولكن، أنا الفلسطيني الطريد، متى كنتُ في وضع يُطاق ومتى كان لي خيار أن أحتمل أو لا

أحتمل؟!.. أنتَ ستكمل دراستك وتحتمي بجاليتك السودانية، وبالتأكيد ستلتحق بحزبك الذي تتواجد قيادته هناك! وعندما تَتَهيأ الظروف تعود إلى السودان، منتصرًا! وكاظم سيحتمي هو الآخر بالجالية والمعارضة العراقية المتزايدة هناك! ويربط مصيره بمصيرهم! ومصباح الحامدي ستحميه بريطانيا ونفوذ المعارضة الليبية التي أنشأت له دار النشر والمجلة! وأنا؟ سأنتقل إلى منفى جديد وأعلّم أولادي أبجدية جديدة، ولن يحميني أحد ولن يرضى عني أحد، ولن أستطيع ربط مصيري ومستقبلي بأحد!!..

وهمست:

- كاظم، نريد سهرة عراقية..

- فدوة لعيونك بوناصر.. أحلى سهرة وخوش وداع..

والتقينا.. تجمّع أكثر من عشرين شخصًا في بيت الطبيب العراقي ورّاد، بعيدًا عن العيون! حيث كان البيت في مساكن محطة التحلية القريبة من أولاد عجيبة!.. بدأت السهرة ببعض الأغاني السودانية الخفيفة والمواويل المصرية، ثم انطلق مهندس فلسطيني من نابلس بموّال بغدادي شجي:

أووف.. أووف.. أووف..

لي خلةٍ يا ناس في ساعة الشدّات باعوني

من بعد ما كنت عندهم معزوز باعوني

وأيش ذنبي اللّي جرى حتى هم اليوم باعوني

وانتفض كاظم عبد الجبّار، التفت إلى صاحبيه.. حنَّ الكمان العراقي،

ونقر صاحب الطبلة الصغيرة العجيبة بأصابع كالملاقط.. ورد كـــاظم على موّال الفلسطيني:

آه.. آه.. آه.. يا يابه..

اللي مظيّع ذهب بسوق الذّهب يلْقاه

واللّي مظيّع محب سنة واثنين ينْساه

بس المظيّع وطن وين الوطـــن يلْقاه

وهتفنا: وين.. وين.. وين.. ورشفنا من كؤوسنا ودموعنا.. وهـــبّ بعضنا يؤدي رقصة المذبوح:

يا هويدا لك يا به يا هويدا ليّه

والعشق من الله من الله وأنا أيش بايّديه

ثم ناح كاظم مرة أخرى ليجّهز على من بقي منّا متماسكًا:

آه.. آه.. آه يا بو ناصر

وإنَّ الّذي بيني وبين بني أبـــي

وبين بني عمي لمختـــلف جـــدّا

فإن أكلوا لحْمي وفرتُ لحومهـــم

وإن هدموا مجدي بنيتُ لهم مجْدا

وصرختُ: كفى.. كفى أيها المقنع الكنْدي! بنينا أوطـــانهم فضـــيّقوا علينا وأذلونا.. فضّلوا علينا جالبات الإيدز والبغايا والقوّادين.. كفى.. كفى!!.. وامتدت السهرة مشتعلة بالآهات والتنهيدات حتى منتصـــف الليل..

وسألني فؤاد رمضان عندما غادرنا منزل الطبيب العراقي:

- ما الفرق بين من ضيّع وطنه ومن ضيّعه الوطن؟

- هو الفرق بيننا وبينهم، لكننا اجتمعنا جميعًا على الضـياع وفـي الضياع.. كلنا ضائعون مضيعون يا فؤاد.. كلنا!!

لابدَّ أن أعترف الآن أن فرصة بريطانيا العظمى، كانت معلّقة بفرصة أخرى للعمر! أمل، ظل معلقًا متأرجحًا ثلاث سنوات في خيط واهـن، لكنه ظل يتأرجح مثل فانوس علاء الـدين السـحري أمـام عينـي! وعيون أولادي!!.

عندما حضرت أمي مع وائل، ابن أختي، أقامتْ معنا شـهرًا كـاملاً! كان شهرًا مفعمًا بالدفء والمودّة ورائحة القرية والطابون وذكريات الكروم والأيام الزاهية الحلوة، التي لن تعود!!.. أسعدتنا أم إبـراهيم وأعادتْ إلينا الروح شهرًا كاملاً! أعادتْ إلينا الروح وزرعـتْ فينـا الأمل! قالت، وهي تعدُ "فطائر اللحم بالسبانخ" التي طلبها أصـدقائي مرة ثانية، بعد أن تذوقوها:

- في ناس يا إبراهيم عملوا لم شمل لأولادهم، وروّحـوا! أولادهـم كانوا غايبين أكثر منك يمّه! ابن عطايا مش غاب أكثر منك؟ وابـن سلمان، مش غاب أكثر منك؟

- آه يمّه، حمدان عطايا كرّاز وشاكر سلمان أبـو كـرش متغـربين قبلي.. قبلي بحوالي ثلاث سنوات!

- طيب، يعني إذا عملنا لك لم شمل بتروّح يا إبراهيم؟!

- أيش؟ بروّح طبعًا، بروّح يمّه! بس ميكونش لم الشمل عن طريق العملا..

- لا يمّه! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إحنا مالنا ومال العملا، الله يكفينا شرهم.. إحنا بنقدم حالات إنسانية! يعني الوالد متوفي والولد المطلوب لازم يكون عزّابي، براسه!.. اسمع يا إبراهيم حضّر أوراقك وصورك وبنقدم لك! إحنا مش خسرانين حاجة يمّه! بنقول إنك عزّابي، يعني همّه أيش بعرفهم.. معلش يا بنتي يا سميرة الضرورة إلها أحكام!

- هه.. أنا زْعلانة يا عمتي؟ يا ريت إبراهيم يروح وبعدين بفرجها الله! يا ريت!!..

فجأة، بعد سبع سنوات من القطيعة، وصلتني رسالة من عبد الله الشريف وكانت من بريطانيا أيضًا!.. كان عبد الله قد تحوّل إلى داعية جهادي كبير.. تبادلنا الرسائل والأفكار، لكنه أصرَّ على معتقداته الجديدة، ودعاني إلى التوبة والعودة إلى الطريق المستقيم!.. وردد بعض العبارات عن "عبد الناصر الشيوعي الذي ذبح المسلمين وعلقهم في أعواد المشانق" وعن "القومية العربية التي أسسها الاستعمار وعملاؤه من الماسونيين والنصارى الحاقدين على الإسلام والمسلمين!".. و"إن عدونا الأول هم الروس والشيوعيون الملحدون والهندوس الكفار.. ومن الواجب الديني الجهاد ضدهم، لنطهر بلاد المسلمين منهم!".. لكنه لم يذكر شيئًا من ذلك في رسالته الجديدة! تحدّث برقة وشاعرية عن الصداقة وأيام الجامعة، ثم تحولت رسالته إلى دراما مرعبة "ما أقسى أن يكتشف الإنسان بعد سنوات طويلة أنه كان ضحية لكذبة كبيرة، خدعة

محبوكة متعددة الخيوط؟! وأنَّ من استخدموه واستغلوه لــم يكونــوا ملائكة – كما تصورهم! لم يكونوا أصحاب مبــادئ، ولــم يكونــوا يدافعون عن الإسلام، بل كانوا يستثمرون الإسلام ويتــاجرون بــه! سنوات مريرة من الخداع والزيف يا إبراهيم.. لم أكــن أتصــوّر أن أصحاب اللحى والابتهالات والشعارات هم فئة من التجار! نعم الــذين أرسلوني إلى أفغانستان فئة من التجار تحت غطاء الدين والعقيــدة، والذين استقبلوني كانوا تجارًا للأفيــون والســلاح والأرواح! كلهــم منتفعون ومشعوذون!.. في الحقيقة هناك عدد كبيــر مــن الشــباب الطاهر النقي النظيف.. كثيرون.. من الأفغان والعرب والباكســتانيين وغيرهم! كثيرون يحملون نفوسًا طاهرة وقلوبًــا عــامرة بالإيمــان، لكنهم أصبحوا أسرى للجغرافيا والحرب! يخضعون لســطوة أولئــك الأمراء المتاجرين! أنا أكره الروس الملحدين، وسعيد باندحارهم من أفغانستان، لكنني أتساءل الآن، هل كان الروس أعداءنا الوحيــدين؟! وأتساءل: لماذا أبعدونا عن فلسطين؟! لماذا أبعــدونا عــن محاربــة إسرائيل؟! هل تصدق إذا قلتَ لكَ أنني كنت مخدّرًا؟! نعم! وإلا كيــفَ اقتنعتُ للحظة أن الجهاد في أفغانستان أهم من الجهاد في فلســطين؟ كيف جمعتُ الأموالَ وجازفتُ وقاتلتُ من أجل أفغانستان وليس مــن أجل فلسطين؟!.. والمصيبة أنني اكتشفت ذلك بعد فوات الأوان.. بعد أن أصبحت قعيدًا مشلولاً!.. بعد أن فقدتُ ســاقيَّ ولازمــتُ كرســيًا متحركًا!.. وها أنا أُعزي نفسي بالدراسات العليا! هنــا فــي مدينــة الضباب والمعارضات.. والمضاربات! أنهيتُ رسالة الماجستير وأعدَّ

لرسالة الدكتوراه!.. صديقك المقعد المشلول سيكون "دكتـــور" فـــي الفيزياء!.. إبراهيم، يغمرني شوق إليك، وأعتذر لكَ عن قسوتي فـــي خطاباتي السابقة.."..

فَتَحتْ رسالة عبد الله الشريف عليَّ أبواب الحزن.. والذكريات! رابع الجوالين أصبح مقعدًا! كان تائهًا بجسمه السليم، والآن صار مقعـــدًا بصحوته الجديدة! يا لسخرية الأقدار!.. نسي الدرويش نفسه، أسلْمها لطوفان الأبخرة والتعاويذ والمسابح والخداع، فجرفه الطوفـــان ثـــم ألقاه كسيرًا وحيدًا! لم يتزوج الدرويش ولم ينجب أطفالاً، ولم يحقـــق نصرًا.. ماذا يفعل بالنقود التي ادخرها والشـــهادة التـــي سيحصـــل عليها؟!.. كان عبد الله الشريف أطهرنا نفسًا وبدنًا.. وتمتمت:

-عبد الله الشريف لا يستحق هذه النهاية... هييه أيّهـــا الجوّالـــوان، هذا مصيركم: شهيد وفاسد وقعيد وشاهد!!

وعندما طويت الرسالة انتبهت إلى ابنتي لُمى وهي تقترب مني:

-بابا.. بدّي أطلب منكَ طلب إذا كنت تحبني وتحبنا

- يا سلام! أحبكم؟ وهل تشكّون في ذلك؟

- لا تسافر إلى بريطانيا بابا! بدْناش نروح على بريطانيا! بدنا نرجع بلدنا، نرجع لغزّة.. خلينا نصبر شوية!

وسافر كاظم عبد الجبّار وأمين تاج السر إلى لندن، وتركاني في بئر العزيزة! وفي الصيف، عاد وائل ابن أختي من الأرض المحتلة، عاد من غزة، لكنه لم يحمل في جعبته أخبارًا مفرحة، بل عاد وفي جعبته طرفة مريرة موجعة!

- لن تصدقوا ما حدث! بعد مراجعات كثيرة، طلبوا جدتي أم إبراهيم لمقابلة الضابط الإسرائيلي المختص وسألها:

- هل ابنك إبراهيم متزوج يا حاجة؟

- لا! ابني عازب، مش متزوج يا خواجة!

- انتي متأكدة يا حاجة أنه ابنك مش متزوج ولا عنده أولاد!؟

- آه متأكدة، معنْدوش أولاد يا خواجة!

- طيب يا حاجة إحنا بدنا نجيب لك ابنك بدنا نوافق على طلبك بس بدنا منك تعملي حاجة بسيطة! تعالي قرّبي يا حاجة قرّبي، إحلفي على القرآن، هون على هذا المصحف.. احلفي أنه ابنك إبراهيم عوض الشّاهد أعزب وغير متزوج وليس لديه أولاد! يالله.. احلفي!

- مصحف وقرآن! لأ! أحلف على المصحف لأ!

- خلص! بدْكيش تحلفي، طلبك مرفوض!

وضحكنا، حتى دمعت عيوننا وغُصّت قلوبنا.. وقُطع الحبلُ الواهن الذي علقنا به ثلاث سنوات، وضاعت فرصة أخرى!

وفي المساء، جلسنا نشاهد أخبار الانتفاضة! كان هناك تقرير مصوّر، وفجأة صرخت سميرة:

- انظروا، إنها عزيزة الخيّال، نعم هي عزيزة! أنظر يا إبراهيم كيف تقاومهم وتدفعهم في صدورهم! أليست هذه قريتكم يا إبراهيم؟!. إنهم يضربونها مسكينة! يغمرها الدخان..

بعد التقرير ردد التلفزيون ما تسرّب عن أخبار"المفاوضات السرّية بين منظمة التحرير وإسرائيل"! علّقت سميرة وسألت لمى وتحدّث

ناصر، لكنني بقيتُ صامتًا!. ثم همست: أوهام جديدة!!..

وعند منتصف الليل (كانت الليلة الخامسة عشرة من شهر آب - أغسطس) نام الجميع وسهرتُ في الحاكورة وحيدًا!..واستدار القمر وطلَّ جميلاً باهرًا! ونظرتُ نحو الشرق، نحو العزيزة، فجاءتْ..

جاءت ممشوقة تدبُ في أخاديد الأرض، وقد ضفّرت شعرها في جديلة طويلة! وقفتْ قبالتي وقالت بنبرة متحفزة:

- لماذا تأخرتَ يا إبراهيم.. أيْن كنت؟

- كنتُ أبحثُ عنكِ..

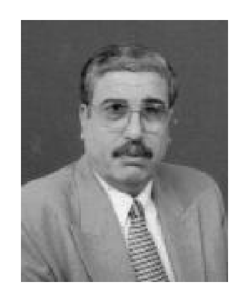
- تبحث عني أم عن العاشقة المجنونة؟ رأيتُكَ عند العين.. كنتَ تنتظرها يا إبراهيم!

ومددتُ يدي أتلمسها وأسترضيها، لكنها جفلتْ وابتعدتْ! همستُ:

- عزيزة تعالي.. هيا نعود إلى القرية قبل أن يكتشفوا غيابنا، قبل أن تصحو القبرصية ويصحو عوض الشّاهد.. هيَّا!

أومأت برأسها رافضة ثم ابتعدتْ..ابتعدتْ وصعدتْ.. ثمّ اختفتْ.. ولم تترك وراءها سوى جديلة من دُخان..





د. علي عـودة

§ من مواليد بلدة بيت حانون– شمال غزة – فلسطين، في عام ١٩٤٦.

§ أستاذ الأدب والنقد بجامعة القدس المفتوحة – غزة– فلسطين.

§ حاصل على شهادة الدكتوراه في الأدب والنقد.

§ شارك في عدد من المؤتمرات الأدبية والعلمية العربية.

§ كتب ثلاث مجموعات قصصية وثلاث مسرحيات وثلاث روايات، إضافة إلى عشرة مؤلفات في الأدب والنقد.

§ نُشر له عدد وافر من البحوث والدراسات في المجلات العلمية المحكمة كما نشر له عدد من القصص القصيرة والفصول المسرحية في المجلات الأدبية والثقافية المختلفة.

§ البريد الإلكتروني : **a.ouda@live.com**

§ الإصدارا ت :

- إيقاعات على الغربة : قصص قصيرة . ١٩٨١
- الهبوط عند تقاطع الجروح : قصص قصيرة . ١٩٨٣
- أضواء على الثقافة المقاوِمة : دراسة . ١٩٨٤
- الفن الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا : دراسة . ط١: ١٩٨٤ ط٢: ٢٠٠٣
- الحكماء والسكران : مسرحية . ط١: ١٩٨٥ – ط٢: ٢٠٠٣
- الزمان والمكان في الرواية الفلسطينية : دراسة . ط١: ١٩٩٠ ط٢: ١٩٩٧
- مقاطع من سيرة زهْراوي : قصص قصيرة . ١٩٩٨
- بكاء العزيزة : رواية – الجزء الأول. ٢٠٠١
- بكاء العزيزة : رواية – الجزء الثاني. ٢٠٠٢
- بكاء العزيزة : رواية – الجزء الثالث. ٢٠٠٤
- الشّاطـر ناطـر : مسرحية . ٢٠٠٤
- ثلاثية بكاء العزيزة : رواية . شمس للنشر والإعلام، ٢٠٠٩



(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net